وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

جائزة حنّا مينه للرواية
العام 2023

فِهرست الأحمر

طقوسٌ غابيّة للونٍ بدائيٍّ

رواية

وجدان أبو محمود

فِهرست الأَحمر

«طقوسٌ غابيّة للونٍ بدائيٍّ»

جائزة حنّا مينــه للروايــة
العــام 2023

فِهرست الأَحمر

طقوسٌ غابيّة للونٍ بدائيٍّ

رواية

وجدان أبو محمود

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٤م

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر (بالضرورةِ) عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

فهرست الأحمر: طقوسٌ غابيّة للونٍ بدائيٍ: رواية/ وجدان أبو محمود.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٤م.- ٣٣٦ ص؛ ٢٥سم.-
(جائزة حنّا مينه للرواية العام ٢٠٢٣).

١- ٨١٣,٠٣ م ح م ف
٢- ٨١٣,٠٠٩٥٦١ م ح م ف
٣- العنوان
٤ - أبو محمود

مكتبة الأسد

توطئة

فينا الأغمق والأفتح، وما بينهما من تدرّجاتٍ...

الطّهر

الخطيئة

الدّنس

البراءة

القاتل

الضّحيّة

الصّالحُ

الماكر

الغالب

المغلوب

لكنّنا لا نكون إلّا... ما يشعُّه القلب.

الدّرجة الأولى

ريتا فابينا

«لو كان ثمّة صمتٌ أكثر، لتعلّمنا شيئاً ما»

فيدريكو فيلليني

هنديٌّ أحمر

قتلته بيدي، لم يمنعني الحبّ، ولا علومُ النّفس والأعصاب، لم تمنعني التّوراة، ولا خيمياء الخمور والسّجائر والأحلام؛ التي غالباً ما تنجحُ في إخماد العقل، وتلهّب الرّوح.

زهّرت الشّمس، وجعلت ترهجُ لتفضَّ ذهول النّافذة؛ بيد أنَّ اللّيل لم ينحسر، من الحجرة، بعد؛ فمحمود لم يعد موجوداً، جسده الفارغُ مكوّمٌ بين ذراعيّ، عيني تسيل من محجرها، تتحدّر نحو شعره الجعديّ، تخضّل دكنته، وأذني التي تفطّرت فوق قلبه، ما يزال يقطر، من شحمتها، اللّون الأحمر.

طوال اللّيل؛ وأنا أزحف، لكن لا جسدي تزحزح، ولا صوتي خرج، ولا يعاسيبُ أصابعي النّاغلات وصلن الهاتف، تقطّعت الأحبال ما بين روحي ولحمي؛ فلا حسٌّ ولا تفكيرٌ، طوال اللّيل؛ والرّيح تعول، تروّي صحوتي بخبطِ أجنحةٍ واصطفاقِ أغصانٍ، تنوس السّتارة المخرّمة بنقوشٍ دافئةٍ ورديّة؛ فينهشُ ظلها الوحشيُّ ظلّي، وتنخرني الأنسامُ الرّطبةُ كالدّود. ورقُ العنب الصّالونيّ اللّامع يتدلّى من الأصيص، أعلى المكتبة، يسيل - بمشقّةٍ - نحوي، الأرضُ في قشعريرةٍ، تميدُ عساها تقرّبني من جوّالي، لم يبق منّي سوى الحشرجة، لقد نزفت نفسِي، كلّها، دمعاً، وما انفكَّ نثيثُ الجدار يذكّرني بأنّه قد رأى كلَّ شيءٍ، تتدفّقُ الحياةُ من الشّباك نصف المفتوح، واضحةً، وقطعيّةً، بيد أنَّ صرير الباب، المحتضر، يتهدّجُ مجدّداً، كحسيس النّار:

«لماذا مجدّداً يا ريّتا؟!، لماذا؟!»

كان ضرباً من تعالق الطوالع ذاك الذي جمعني يوماً بمحمود، أستاذ التاريخ الدّولي، في جامعة هامبورغ الألمانيّة، والباحثِ الفهيم في الحضارات الإنسانيّة

المندثرة، بعينيه الشهلاوين، وبدهشته، إذ رآني، تفور من بحّته العميقة، حدث ذلك في نهارٍ ربيعيٍّ دافئٍ، يوم قصد صديقتي السّوريّة، بغية إرسال أمانةٍ معها إلى البلاد، كان شلّالاً موسوعيّاً من الإجابات، وكنّا طبيبتين من أسئلةٍ، صبيّتين من قارّتين مختلفتين، تتشاركان اختلافاتهما الجوهريّة، في قارّةٍ ثالثةٍ؛ فالعالم كلّه، إنّما يشتغل، في انسجامٍ، لغزل القصص الصغيرة، المتناثرة، بدقّةٍ متناهية، كأنّما بالإبرة والخيط، تصنّم إذ التقاني، بهت لونه، تندّت جبهته الرّحيبة، تملّاني طويلاً، انقبض ساعدي، وكأن بصعقةٍ كهربائيّةٍ، طفق لوح كتفي يموج، برجّةٍ خفيتةٍ، وكدت أبلغ نوبة التشنّج غير الإراديّ، المخجلة، التي تباغتني كلّما التقيت غريباً، أوّل مرّةٍ، وتكاد تفسدُ كلّ شيءٍ، بيد أنّ شيئاً عجيباً قد حدث، سحرٌ ما، تدفّق في أوردتي، ترقرق كمثل سلامٍ مقطّرٍ؛ فهدأت، وتهدّلت السّكينة على جسمي، بدت لي إشارةً نورانيّةً، ملغّزةً، إذ لم يسبق أن حدث ذلك من قبل، ولم يكد يعرف اسمي، حتّى قوّس حاجبيه، غصّ بريقه، ثمَّ كرّره ورائي، ببطءٍ بادٍ: **«ريتّا؟!»**، التقت أعيننا، على نحوٍ مربكٍ، ماجت نظرته، بالتماعٍ بهيٍّ، بدا مضطرباً، ذاهلاً، وكأنّه يعرفني؛ تلك النّظرة الكاشفة؛ التي تلألأت في عمقِ عتمتي، أشعرتني بأنّي عاريةٌ، في مرماها، من السّواتر، والأغلفة، والحجب الرّقيقة، تخطّفته الحيرة، بين بهوتٍ، وتوهّجٍ، سحرته لكنتي العربيّة، أكثر ممّا فعل الاسم، جعل يطوفُ حول هويّتي، مع أنّي، ككلِّ النّاس في هذا العالم الملتبس، أفتّشُ عنها، تركتهما يتقمّصان غوستاف لوبون، ويتحدّثان عن مسار الحضارة الدّائريّ، حيث لا عرق بربريّ أو متفوّق، إلى الأبد، خرجت من نقاشاتهما، الثّقيلة، إلى صمتي، إلى الصّور؛ التي احتلّت عينيّ، كما الفجاءة، ودفعتني عبر بوّابة الزّمن، تحرّكت ملكتي الخفيّة، في سحريّةٍ موازيةٍ، غشّت الضّبابةُ عينيّ، تلاحمت المشاهد في غبشتها، كمثل مرئيّةٍ، وفي رقرقةٍ أشبهَ بالحلم... رأيت**!.**

رأيته في مكانٍ آخر، هائجاً، مخطوفاً، تحت الثّريّا الكريستاليّة البارقة، تبدّى لي؛ أصغر بكثير، كان راكعاً قدّامها، على ركبةٍ واحدةٍ، امرأة تشبهني، حدّ الانطباق، بشعرها الأحمر، وبالنّمش الخفيف، يعربش كالنّثارة على خدّيها، كانت تصرخ بانفعالٍ؛ فيما تطوّح بالحجاب على رأسها، كيفما اتّفق، ولم تكد تنزع

حقيبتها الخمريّة من بين يديه، وتنفرُ، حتّى اخترق طفلُ المشهديّة، أغمض عينيه، وصمَّ بيديه أذنيه، وصاح بأعلى ما استطاع، حدجته المرأةُ بغضبٍ؛ ثمّ مدّت ذراعاً نحوه، لكنّه أخفى يديه المنمنمتين، خلف ظهره، ظلَّ على وقفته الذّئبيّة، متجاسراً، في منتصف المسافة بينهما، وحينما خيّرَته بينهما، هاجمها، مثل عصفورٍ، نقرها على بطنها، مطالباً بالعودة إليه، وراح ينشجُ بكلماتٍ مؤثّرةٍ، كأنّه يحثّها على ابتلاعه مجدّداً، لأنّها من أنجبته، لم تصغِ، لم تتريّث، لم تضحك، رمقته بعينين مشتعلتين، صفعته على ظهر كفّه، ومضت.

تهالك «محمود الفتيّ»، تهاوى أرضاً، في جغرافية المشهد، خبطَ برأسه الجدار خلفه، وكأنّه يدقُّ حجراً بحجرٍ، لم يفلح في الوقوف، ولا بالكلام، ولا بمنع ابنه من اللّحاق بها، هرولت المرأةُ الثّائرةُ، نزولاً، على الدّرج، لحقت بها النّداءات الباكيات، أصوات الخطوات الرّاكضات، جعلت تدبُّ في صدره، كما الطبول، غاب الطّفل، غاب الصّوت، وبعد دقيقتين، أو ربّما ثلاث، دوّى في الخارج، صوت الفرامل المزلزل، تناهض الأب المنهار؛ فاستوحش الحائطُ، من ورائه، وقد تنقّع بدمه، خلف الشّباك الفاغر، جأر كالمذبوح، لحظة شاهد الشّاحنة التي...

بعد القهوة، ساهماً جعل يرنو إلى وجهي، بنظراتٍ صوامتٍ، ويجرُّ قلم الحبر الأحمر، فوق بطاقةٍ كرتونيّة، شطباً، ورسماً، كان من الواضح أنَّ ملامحي؛ قد عطّلت حواسّه، سكتت ماويّة؛ فانتبه لتيهه، ابتدرها بالسّؤال:

«أترجعين، ولا أحد ينتظرك؟!»

ردّت بخفوتٍ، كثّره الحزن:

«صدّق أو لا، قلبي هناك... ينتظرني»

هزّ رأسه، مغمغماً:

«وكيف يقرّ المنتظِر!، أفهمك والله، كل فلسطيني يفهم»

انقبضت، أغمضت عينيَّ على الكلمة، فتحتهما على نظرته الثّاقبة ذاتها، سألت:

- فلسطيني؟!

- هندي أحمر

- ماذا؟!

- هندي... أحمررررر

- تمزح؟!

- لا والله، ألا ترين معي؛ أنّ هنالك عصبة مسيّطرة من البشر، ترمي إلى تحويل الآخرين، كلّ الآخرين، إلى هنودٍ حمرٍ؟!

- تبالغ!

-أنت هنديّة حمراء أيضاً، ألست من أصولٍ فلسطينيّةٍ؟!، أو ربّما سوريّة؟!، كما فهمت، انتظري أن يتمّ رميكُ في بحرٍ ما، يوماً ما...

استأت من لهجته، وخشيت، وهلةً، أن يدركَ يهوديّتي؛ فيستطيل النّقاشُ إلى اتّهاماتٍ عنصريّةٍ، بحجّةٍ تافهةٍ انسحبت، في الطّريق طفقت أتفكّرُ في ضحاياي، ممّن تلاعبت بعواطفهم، إلى حدّ التشفّي، كنت أتسلّى بالانتقام لبؤسي، وفي ردّ أذى النّاس، كمثل أفعى ناعمة، تلتفُّ على أفئدتهم، وتهصرها، لا أعلم أكانت ملامحي البريئةُ، حقيقيّةً بالفعل، ماويّة تصدّقها، أنا أيضاً، غير أنّ هنالك طبقةً، مركّبةً، من الكذبات، والمراوغات، والاحتيالات؛ التي تدثّرني، أسفلها تقبع ذاتي؛ تلك النقيّة؛ التي لم أمسسها من قبل، أمام محمود، شعّ ذلك الصّدق المخيف؛ فانزاح حجرٌ عن صدري، وانسلخ قناعي عن جوهرةٍ، لا أعرفها، ربّما كان ذلك، ما مكّنني من التّحكّم بذراعي، والوصول إلى أدقّ وأعمق عصبٍ فيها، صعبَ عليّ التّسليم بأنَّ لحظة يقينٍ واحدةٍ، قد بعثتني، كما الصّحوة، وخلقت لي تقاطعاً عجيباً، مع ذاكرة غريبٍ، إلّا أنّ طبيعة العجائب تقضي التّلذّذ بحدوثها، لا بتفحّصها، والتّحقيق فيها. في آخر الشّارع وجدته أمامي، كان يبحث عنّي، حرّك شفتيهِ بلا صوتٍ، فرك بأنامله

جبينه، اخترع أسباباً، وأحاديث في منتهى الخرق والبلاهة، وكمن يمهّد للقاءٍ ثانٍ، مدَّ لي يده بالبطاقة؛ تحت الوردة المتورّمة، نبت، كما العشبة، رقم الهاتف، دسّها في كفّي؛ فطويت أصابعي فوقها، تلاحقت أنفاسه، وقبل أن يمضي، اجترأ، وهمهم، بنبرةٍ من شجنٍ، بأشياء كثيرةٍ، لم أسمعها، إذ كنت مأسورةً بنبرةِ صوته؛ وهي تتحلّل إلى ألوانٍ، وطيورٍ، وحدائق، وألحانٍ.

لم أهاتفه، ولم أعر الأمر اهتماماً؛ فأنا أحيطُ بالسّرّ؛ الذي لا يعرفه، لم أكن سوى نسخةٍ، طبق الأصل، من امرأته المتوفّاة، لم أنم ليلتها، حتّى أنّني هدّدت بقبضتي المرآة، وصرخت في وجهها:

«إيّاكِ يا بنت، حذاااارِ!!»

بيد أنَّ الإنسان كائنٌ مهرّجٌ، يبلغ من البله؛ أن ليس في مكنته تفهّمُ عواطفه، ولا أفكاره، يُسقطُ منطقه المُعمّى على الآخرين بحزمٍ، أمّا ما يحدث من تفاعلاتٍ في أعماقه القصيّة؛ فيركن لها طائعاً، شيءٌ ما ثبّتني بتلك النّبرة؛ التي حكت، أكثر ممّا قالته، وبتلك النظرة الشّافية؛ التي حرّرتني من لعنتي، وفي برهةٍ، كاللّمعة، خطر لي أن أتداوى به، بدت الفكرةُ فكاهيّةً، لكن باعتبار واحدنا هو أفكاره؛ فقد كان من الوارد، وقتئذٍ، أن تنتشلني عاطفةٌ ما من كآبتي، وتزرع خوائي، ببساتين نشوةٍ جديدة، عزفت على أوتار انسحاره، جاريته، التقيته، لاطفته، ومثّلت دور الحبيبة، ولكن سرعان ما انقلب التّظاهر بالحبّ إلى حبٍّ، وبدلاً من تعديل مزاجي، تعدّلت شخصيّتي، وطباعي، وتخصّبت حياتي العبثيّة بالمعنى، وهكذا أضحت روحي جسراً خشبيّاً، معلّقاً بين الشّرق والغرب؛ يتهزهز تحت أقدام التاريخ، والجغرافية، والأيدولوجيا، والأديان، والشّركات، والإعلام، والمصالح، واللّغات، والأسماء، هكذا كنت، وهكذا صرت، جسراً معلّقاً، يحلمُ بالثبات.

لم يأبه محمود أوّل الأمر بدياتني، وجعل يتأبّط قصائد «محمود درويش» إلى حبيبته اليهوديّة ريتّا، كبندقيّةٍ، أو كشاهدٍ قرآنيٍّ، كان مأخوذاً بانبعاث زوجته، من

أبعد نقطةٍ في الغيب؛ تلك التي أخفى أمرها عنّي، وبدوري لم أكشف سرّي؛ فمذ وعيت قواي الغامضات، والمنامات تحذّرني؛ كلّما هممت بإفشائه لأحدٍ، مات، ولدت بهذي المَزيّة؛ إذ بمقدوري عبور الزّمن، لرؤية يومٍ واحدٍ، في حياةِ أيٍّ كان، شرط أن يُستهلّ ذلك اليوم... بلونٍ أحمر.

تنامى محمود فيَّ، كما البياض، البياض الأقحوانيُّ، الصّافي، المكتمل في فستان العرس الذي اخترناه، ولكن...

قتلته؟!؛ أجل، لن ينظر في عينيّ مجدّداً، ولن يضحك، ولن أضحك، والأرضُ لن تنشقّ لتبلعني، لماذا إذن يكبر هذا الصّبح؟!، كيف له أن ينمو؟!، إنّه يضيء الفجيعة، يكشف قلبي، يبلغُ معي النّهاية المرئيّة، لخنجر الضّوء، يفيضُ بجمر الأسئلة، بالشّعر الأحمر، بالدّم الأحمر، بالوردة الحمراء، يجهدُ كيما يبلغ معنىً ما، لكن أيّ معنىً؟!.

الحسناوات والغيلان

«دمشق ١٨٧٨»

كانت «بدريّة» اليهوديّة؛ ممثّلةً حسناء، وعازفة قانونٍ من طراز الذّهب، بل وداهيةً طاغيةً، تجيد بفذاذتها أفانين السّيطرة، والإغواء، ولقد وقعَ في غرامها نفرٌ من رجالات دمشق، كانَ بيتها الوسيعُ، المحفوفُ بالجنائنِ، والأقاويل، هديَّةً من وجيهٍ، مقرّبٍ من والي الشّام «مدحت باشا»، شيَّده لها، على مقربةٍ من خرير نهر بردى؛ وهو المكلّف، وفق الفرمان، بتجميل ضفّتيه، وتطهير مياهه، وبشيءٍ من الغنجِ، والذَّكاءِ، أضحى نقطة علّامٍ، تومضُ، سرّاً، على خدِّ الغوطةِ، ومحطَّةً دافئةً، لتطبيبِ المسافرينَ، والمُترَفينَ من أفنديّة وخواجات، والمسحولين بالعَوَز على حدٍّ سواء؛ أولئك المُصَدَّعينَ بقهر البلاد؛ التي لا يحكمها أهلها، حتى إنَّ الدَّربَ إليهِ، أمسى، سريعاً، قطاراً من الحَورِ، المتهامسِ بالأسرار الوفيرة، وطريقَ حريرٍ، مرصوفاً بالمغانم، يعودُ سالكوه بتتبيلاتٍ عاطفيَّةٍ فريدةٍ. استثمرت الفاتنة هامش الحريّة الشّخصيّة؛ الذي بحبحه العثمانيّون، قليلاً، حينذاك؛ فجهدت في محاكاة عروض أبي خليل القبّاني، الغنائيّة، وتلك المسرحيّة، ضاربةً عرض الحائط بشكاوى الشّيوخ إلى خديوي مصر، عمّا تفشّى في الشّام، من فسقٍ وفجورٍ، لتجد نفسها، فجأةً، وقد أسّست لفرقةٍ، فنيّةٍ، هجينةٍ، رهيبةٍ، ليست كمثلها فرقة.

الفتاةُ اليتيمةُ؛ التي عاشت في كنفِ جدَّةٍ عمياء، طلعت من بركةِ الطُّفولةِ إلى صباها، بملمحٍ مصطخبٍ، وطافحٍ بالأنوثةِ، أصيبت بمرضٍ غريبٍ، جعل أطرافها تستسلم لتشنّجاتٍ فجائيّةٍ كلّ حينٍ، كما لو كانت تنتمي إلى جسدٍ آخر، غير أنّها تسترّت على جنيّها، وطوّعته، ونقلته إليّ، عبر مورّثاتها المجنونة، كمثلِ لعنةٍ، ومبكّراً؛ اكتشفَت حلاوة صوتها، استثمرته بجني قُوتها، دفعها العوزُ إلى شحذ مهاراتها؛ فتعلَّمَت كلَّ ما طالته يداها، من التطريزِ، إلى تبييضِ المواعينِ النّحاسيّةِ؛ ثمَّ إلى تصنيع

كراسي الخيزران، ومن الغناءِ، إلى العزفِ، والرَّقصِ، والكتابة، لمْ يخطرْ لها أنَّها ستتخبَّطُ، بعدَ وفاةِ الجدَّة، وأن قطيعاً من الذّئابِ البشريّةِ؛ سيقتحمُ مرّةً بيتها، ليأتي على جسدها، دونما كابح، وينهشُ روحها، ويخلِّفها جيفةً من اللَّحمِ، والعارِ، والذُّلِّ؛ الذي لا يزول، لم تملك في مواجهتهم إلّا رشقاتٍ من الصيّاح والنّواح، خَمَدَت البنت، مغشيّاً عليها أشهراً، تهرشُ بصابون الغار جلدها، كيما ينظف، ولا ينظف، تمسكُ مديةً كلَّ حينٍ؛ لتبقرَ بطنها الآخذ بالانتفاخ، ينال منها الخوفُ، ترميهِ، ثمَّ تلتقطه مجدَّداً، ثمّ ترميه، ثمَّ تلتقطه، ناورها الموت، ناورتها الحياة، غيرَ أنَّ القطيعَ؛ الذي أدمنَ افتراسها قد عاد، هرس البطن بمن فيه، ولم يعتقها إلّا كومة عظمٍ، سابحةً في بركةِ دمٍ، ومنذ ذلك الحين ساد السّكون، المرهب، الآبد، في ذلك البيت البعيد.

بدريَّة لم تمت؛ هربَت يوم استطاعت، إلى مغارةٍ خلفَ البساتين، ولو قدرت على الهروب من العالم كلّه لفعلت، حبسَت نفسها، أكثر من عامٍ بقليلٍ، وطوال تلك المدّة، كانت تتقيَّأ براءتها، تكبحُ دمعاتها، تردُّ مع غرّتها طفولتها، تأكل العشب، تسفّ التراب، تسلخُ عن مشاعرها بتلات العذريّةِ، السَّمجةِ، وتستذكرُ عبارة جدَّتها؛ وهي تلعن السّاعة؛ التي غادرت عندها القدس:

«لو لم تكن أمّكِ مسلمَةً؛ لترفَّقَ بكِ اليهودُ، ولو لمْ يكنْ والدكِ يهوديَّاً؛ لترفَّقَ بكِ المسلمون»

تحبسُ أنفاسها، تغرقُ في البكاءِ، تنسل في العتمةِ، تتهادى كخردةٍ آدميّةٍ، تطوفُ في الأحياءِ القريبةِ، تلتقطُ من الزِّبالةِ ما يسدُّ رمقها، وفي النَّهارِ تختبئُ، كفأرةٍ لفظها العالمُ برمَّتهِ.

في ذلكَ الضُّحى، خرجت للمرَّةِ الأخيرة، غادرَت مغارتها، وفي نيَّتها ألّا تعود، هاجَت النَّارِ في دمها، بزغَ لروحها نابانِ، واستطالت مخالبُ رقّتها، فكَّرَت ملياً في الانتقامِ، بالثَّأرِ من بطشِ «الجنسِ المُتجَبِّر»، ومضت كمثل مسخٍ، مقنّعٍ بالحلاوة، الحلاوة؛ التي أمست قشرةً وحسب، طرَقَت كلَّ الأبوابِ، عمِلَت بلا كللٍ، ربَّت قوَّتها بالمالِ، وسحرها بسيف قوامها، وجاذبيّتها، وسرعان ما جمَعَت،

حولها، لفيفاً من المشرَّدات، والوحيدات، والموهوبات، من مغنّياتٍ وراقصاتٍ استعراضيّاتٍ، سوريّاتٍ ومصريات، ومن الضَّائعات، ضحايا التوحّش البشريّ، وممّن كتب لهنَّ الحظّ البقاء على قيد الحياة، شرعت تلَقِّنهنَّ مهاراتها، وأفكارها، وغلّها، صَنَعَت نُسَخاً كثيرةً منها، فريقاً نسائيّاً سريّاً، متعدّد الأديان، والقوميّات، والمعتقدات، تشكيلاً غريباً، يخلبُ الألباب، رقيقاً، وباهراً، ومتحرِّراً، وموهوباً، ومدّعياً للعفّة في الظَّاهر، مطعوناً، ومجروحاً، ومتوحِّشاً، ومسعوراً في الباطن، تجرَّأنَ على تقديمِ عروضهنَّ الفنيّة السريّة، خيال ظلٍّ، ورقص السّماح، والمولويّة، ومسرحيّاتٍ قصيراتٍ، أقلعن عن الملابس التقليديّة السّائدة؛ فلا إزارٌ، ولا منديلٌ يغطّي الوجه، اتّبعن زيّاً إفرنجيّاً، مبهرجاً، لمّاعاً، يغلي بالألوان، والأقمشة الفريدة، لكن من دون أن تعوزه الحشمة، إذ لم يكنّ بائعات هوىً على الإطلاق، وهذا ما أثار حولهنَّ زوبعةً من اللّغط والتّساؤلات، وسرعان ما حدّدن رسماً باهظاً للدّخول، لا يقدر عليه إلّا علية القوم؛ هو سعر الرّعشة الجماليّة؛ التي يقع عليها المفتونون، طوّرن أساليبهنّ المغناطيسيّة، وسطَ مقاومةٍ، وقمعٍ، ورفضٍ مجتمعيٍّ، وذلكَ من دون أنْ يتمكَّنَ أحدٌ من فهمهنَّ، أو من إدراجهنَّ تحت أيِّ تصنيفٍ فنيٍّ أو اجتماعيٍّ واضحٍ.

الدّار؛ التي أقمن فيها، والتي أطلق عليها العامّة «الماخور»، والخاصّة «بيت الفنّ»، باتت ملاذاً لآلامهنّ، ولمخاوفهنَّ، تدخّلن في ترميمها، وتحويرها، فلا نارنج، ولا ياسمين، ولا بحرة بنافورة، أرضيّتها الخشبيّةُ؛ لم تكن صلبةً، ولا ثابتةً، كان الزّوار يشعرون بتلك الاهتزازات الطّفيفة، تحت أرجلهم، وبذلك الصّدى الغامضُ، الذي تخلّفه خطاهم، دخولاً، وخروجاً، لم يعرف واحدهم أنّه يسيرُ فوق حفرة، وأنّها قد تبتلعه جثّةً، في أيّة لحظةٍ، كانت أرضُ الدّار باباً سريّاً، لقبرٍ وسيعٍ، ولولا تلك الرّائحة الكريهة؛ التي لم يوقفها اندياح العطور، ولا غمامات البخور، لكان للدّار أضعافٌ من الرّواد.

جدّتي بدريّة لم تجنّ، لأنّها كتبت، وغنّت، ورقصت، تماماً كما اشتغلت شريكاتها بالشّعر، وبرواية الحكايات، لقد تعشّقَت كتاباتها بتشويقٍ عجيبٍ، عجنت الوقائع بالفانتازيا، ولربّما كان، ما خلته فانتازيا، واقعاً أيضاً، نقشت أسرارها في مذكّراتٍ، على أوراقٍ صفرٍ، جُمِعَت بخيطٍ من صبرٍ، بينَ جلدتين غليظتَيْنِ، وصل إليّ المخطوطُ العتيقُ، كإرثٍ غيرِ ذي قيمةٍ، مع ثلاثةِ أقراطٍ ذهبيّةٍ، وثوبٍ من الدّامسكو، موشّى بورودٍ، مشمشيّةٍ، ناعمةٍ، سحرتني رائحته، النفّاذة، ألهمتني كلماته، الباهتةُ، أنَّ النِّساءَ على ضعفهنَّ يستطعنَ، وفي أحلكِ لحظات حياتي، كانت الغبطةُ تهبُّ من بينِ دفّتيه، كما لعنة باندورا؛ فتؤكّد لي أنَّ هنالكَ دوماً مخرجاً ما، من الواقعِ العفنِ، كانت مذكّراتها بوّابةً، تنفتحُ على عالمٍ من دهشةِ ألفِ ليلةٍ وليلةٍ، وعدسةً مكبّرةً، أتملّى عبرها مخزون المواجعِ، البشريّةِ، المخبوءةِ.

«لسنا صبايا، كما توحي أجسادنا، إنّا عجائزُ في العُمق، نحتضرُ في اليومِ غير مرة، نتعكّزُ بعضنا على بعضٍ، لكيلا نخرَّ، نتلمّسُ بأصابعِ فتنتنا سُبلَ الأمان، لسنا عاهرات، العاهرات في كلِّ مكانٍ، يحاكينَ في الرّجالِ دناءاتهم، ونزواتهم، ورغباتهم، أمّا نحنُ النّادرات؛ فنسعى إلى جرّهم من قلوبهم، وعقولهم، على السّواء، هكذا يُستعبَدُ النّاس، بالاقتناعِ، والتعاطفِ، إنّا نؤجّجُ حاجتهم إلى الفنِّ، والجمالِ، والحبِّ، إلى المرأة في أقصى نقاوتها، وغوايتها، المتعة الخالصة؛ التي لا يشعرونَ إزاءها بالذّنب، للخلاصِ من المُضجِرِ، والعاديِّ، والمُرهِقِ، نضيءُ لهم بقعةً باهرةً، لم يألفوها من قبل، تشعُّ بالمغنّيات، والمؤدّيات المسرحيّات، والعازفات، والرّسّامات، واللّماحات، القادرات على إذكاءِ الحلقات الثقافيّةِ، والسّياسيّةِ، نغلّفها بالأعمال الخيريّة، والاحتشامِ، والرّزانةِ، والشّراسةِ، والنّباهةِ، والتمنّعِ؛ ثمَّ نقطفُ ما يسّاقطُ من تعلقهم، مالاً، وإعجاباً، وثقةً، وقوّةً، هكذا كنّا نستعبدهم، لذلكَ فقد تعاهدنا على إنكار قلوبنا، مهما حصل... مهما حصل»

لمْ تكنْ جدّتي حكيمةً فحسب، وإنّما كانت ذئبةً؛ ذئبةً بما يكفي؛ لتتربّعَ على عرشِ القلوبِ المنكوبةِ، بإصبعٍ واحدةٍ، كان بمكنتها تحريك جيشٍ من الرّجالِ،

صفحاتٍ كثيرةً قرأت، كتبت فيها عمّا حقّقته، عن رجالٍ غيلان، أحرقتهم بأيدي رجالٍ آخرين، عن سجناء أخرجتهم لتدمِّرَ بهم غيرهم، عن جثثٍ مثّلت بها، عن الشَّرِّ الذي لاحقته، عن العدالات التي اعتقدَت أنَّها تحقِّقها، لكأنّها كانت تنتقمُ، لكلِّ نساء الأرض، الموؤودات مرّةً، القرابين مرّةً، وعاملات نظافةٍ كوكبهنَّ المتّسخ دوماً، كتبَت كثيراً عن مرآتها، عن براءةِ وجهها القناع، عن ماءِ الوردِ، وحليبِ جوزِ الهندِ، عن المسكِ، والأوليفيرا، والعطورِ الزيّتيّة، عن كلِّ ما فعلته؛ لتحافظَ على رقَّةِ مظهرها، عن الرِّقةِ، التي اغتالَت الكثيرين، وفعلت كلّ شيءٍ.

صفحاتٌ أُخرى مفقودةٌ، ممزَّقةٌ ربّما، أو تالفةٌ، ضيَّعت عليَّ فرصة التلذُّذِ بانتصاراتها، والرَّبطِ بينَ الأحداثِ المتعاقبةِ، في اللّاحقةِ منها أيقنت أنَّ بدريّة، المدجَّجة بالنّساءِ، الظَّامئات مثلها للثّأر، قد أمسَت فجأةً بمفردها؛ ملكةً وحيدةً، مملكتها ليست إلّا قبراً موحشاً، لا ذكريات فيه، لا روائح لأحبّةٍ، وإنّما أبخرةٌ سامّةٌ، خلّفها تحلّل الجثث، تمترست فيه، بشجاعةٍ، حتّى النّهاية، حتّى حين انفضَّ عنها النّاس، وحين عصفت بالبلاد جائحةُ الجّوع، وحين رأت بعينها، امرأةً تطهو نمساً، ورجلاً يصيدُ آخر، كما تصادُ الأرانب، ويجرّه على ظهره نحو أولاده الجوعى.

«أكاد أنهار، وأنا أرى تلميذاتي يتساقطن من حولي، ينطفِئنَ، يختفين، واحدةً تلو الأُخرى، يخدِّرهنَّ شعورٌ ماكرٌ، يعصفُ بهنَّ، كما المحنة، يُضعفهنَّ، يستغلّ حاجتهنّ إلى الملاذ، اكتشفت، آسفةً، بعدَ كلِّ ما حقّقناه، وتعاهدنا عليهِ، أن بوسعِ عاشقٍ غبيٍّ، أنْ يوقظَ حاجتهنّ الميّتة إلى بكاء، وأن يُخمدَ براكين الكراهية، التي أجّجتها بيديّ، بمركّبٍ واحدٍ، عجيبٍ، اسمه...»

يومَ تزوّجت، في مرحلةٍ متقدّمةٍ من صباها يهوديّاً ذا سلطةٍ، قادماً من قُدس الجدّة، يدعى «عزرا»، بدأت قصّةُ أسرتنا، وانتهت قصّتها بوصفها نجمةً شعبيّةً، كانَ ذلكَ مصادفةً بحتةً، تماماً كاختراعِ البنسلين، والبلاستيك، وأعواد الثقاب، فوّتت عليَّ الأوراقُ النّاقصات؛ إدراكَ دوافعِها، إلّا أنّي تكهّنت بأنَّ خطّةً، هائلةً،

كانت تستدعي الخضوع لرجلٍ، وربّما استغلاله بصفته واجهةً، انتعشَ الزَّوجُ، المنهكُ بالدُّيونِ، بثروةِ زوجتهِ، واستطاعَ أن يشكّلَ ما يشبه مركزاً، صحّياً، صغيراً، مختصّاً بالخِتان، ضمَّ على تواضعهِ، ثلّةً من يهود الشّام، المتمرّسينَ بمهنة «مطهّر»، وباتّحادِ السُّلطةِ مع المالِ، والجمالِ، تأجّجَت بؤرةٌ فاقعةٌ من القوَّةِ، استمرَّ وهجها على مدى عقودٍ، متتاليةٍ، من الزَّمن، حيثُ برزت تقاطعاتٌ مذهلة،بين أحفاد بدريّة وعزرة، وعمومِ ذرّيتهما، شملت الفنَّ والثراءَ في آنٍ، بحيث لم تتمكّن السَّنوات الطَّويلة، من انتزاع مواهبهم، ولا ثرائهم الفاحش، وظلَّ النّاسُ يَستدلونَ على مواطئ أقدامهم، من قصورهم، المُدهشَة، وحدائقهم، الخلّابة، المنتشرة، كالشامات في حنايا دمشق.

بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧م، كابد أجدادي اليهود مشاعرَ التخبّطِ، وانغلقوا على أنفسهم، هاجرَ بعضُهم خوفاً، وبعضهم طمعاً، خلَّفوا وراءَهم أملاكَهم، وأعمالَهم، وبضعَ عجائزٍ، ظلّوا في أحضان ذكرياتهم، لأسبابٍ عاطفيّةٍ جدّاً، أو قاهرةٍ جدّاً، وعاماً إثرَ عام، لم يتبقَّ منهم سوى قلّةٍ، معظمها من كبار السِّنِّ، أمثال جدَّتي لأبي «قمحيّة» التي عُمِّرَت، لتشهَدَ حِقباً كثيرةً، من تاريخِ البلدِ، ولتلملم ذكريات الآخرين في بيتها؛ بيتها الذي أمسى متحفاً، وذاكرةً جمعيّةً للرّاحلين.

وإزاء هذهِ الحقيقة المرَّة، تملَّكتني، في طفولتي، رغبةٌ جامحةٌ للانتقام، تشبه إلى حدٍّ بعيدٍ رغبة «بدريَّة»؛ التي قَتلَت أكثرَ من مئتي رجلٍ، اقتصاصاً من قهرِ الحياةِ.

كثرٌ أكملوا الطَّريقَ إلى إسرائيل، أمّا والدي فقدْ رفض، لم يكن لصّاً، كان يحدس بأنّ الأرض، أيّ أرضٍ، ستلفظُ الغرباء يوماً، استقرَّ مع إخوته في نيويورك، مخلّفاً في الشَّامِ والدين مجنونين، مصرّينِ على أرجَحَةِ الذّكريات، وعلى الموت حيثُ حكايات العمرِ والعشقِ والتّعبِ والتفاصيلِ؛ التي لا تعوَّض، أبي المجنونُ الشَّرقيّ، تزوَّجَ أمّي اليهوديّة الحلبيّة، وأصرَّ على تعليمنا اللّغة العربية، وعلى تطعيمها بلكنتهِ الشّاميّة، كانَ صحفيّاً فاعلاً، في الجاليةِ العربيّةِ اليهوديّةِ، من أبناءِ لبنان وسوريّة،

متديّناً، وشغوفاً بإعدادِ المعروك الشّامي، والحلويات الدّمشقيّة، وفي الدّفاعِ عن فلسطينَ «العربية».

أبي المجنون؛ مات من الحنين، مات غريباً، قبلَ والديهِ، خلّفَ لي قلبَه في صندوقِ المقتنيات؛ التي جلبها معه من الشّام، ورحل، أدخلتني وفاته المفاجئة، في نوبةِ اكتئابٍ طويلةٍ، حتّى طفقت الأسئلةُ تتفرقَعُ في رأسي، كحبّات الفوشار:

«ماذا لو لم يرحلْ أبي؟!»

«ماذا لو عانقَ والديهِ، في محنةِ المرضِ والهذيان؟!»

«ماذا لو لم يُجنّ، ولم تهجره أمّي؟!»

«ماذا لو نشأت في أسرة سويّةٍ!؟»

«ماذا لو كنت غيري؟!»

أمّا السُّؤال، الذي لمْ يتوقّفْ عنْ الانتفاخِ والتمَدُّدِ؛ فكانَ:

«أيُّ انتقام أوصلَ جدّتي بدريّة إلى السّعادةِ العليا؛ التي تحدَّثَت عنها في الصَّفحةِ الأخيرةِ من مذكّراتها؟!، وكيف فعلتها وقهرت جنيَّ «مرضنا»؟! و«رغبتنا» في ردّ الضّيم؟!»

جناح الباز

«ألديك عنقٌ؟!»

شبَّ سؤالهم، المنغّم بضحكاتٍ مكتومةٍ، في صدري، تصادى كمثل لازمةٍ موسيقيّةٍ، ثبّت السّكين أعلى بطني ذلك المدوّر الذي جرّ عليّ سخرية الأولاد، تموّجَ شَعري المرتجف، حوّطني كأنّه الزّنزانة، بيدٍ متراقصةٍ، سحبت النّصل؛ فتلوّى خلفه خدشٌ مورّدٌ، غرزته يمين السّرة، ثمَّ يسار الخصر، ثمَّ رفعته نحو العنق، إذ لطالما عاين الجميع بدانتي، وذلك قبل أن يطلقوا نظراتهم الواخزة، كالنّمل، على طيّات جلدي، زحفت الفضّة اللّامعة على جسمي، المهتزّ، المتعرّق، صقلت ما نتأ من أوجاعي، نحتتني، تمنّيت لو أقتطعُ لحمي الزّائد!، لو أفرمني!، لو أتحرّر، كانت تلك كلّ أحلامي، لم يلحظني سواه؛ الكلب الأبرشُ، الأزرق العينين، كان يقعي، يهرهر، ويلعق ذراعي، كلّما لمست السّكين، أو لمس توجّعي، كان يحنو عليّ، كما لم يفعل، من قبله أحد، الخادمة الإثيوبيّة أيضاً؛ كانت تهرعُ لتنزعها من يدي، تطوّح بها، على خطلٍ، وكأنّها تقرأ نيّاتي؛ فتصفعني على ذراعي عينها، صفعات خفيفات، كالقبلات، بينما تنهمرُ دمعاتها الخفيّات، كمثلِ لمعاتٍ صافياتٍ، كانت ذراعي مدينةً، مثلي، للكلب والخادمة.

كانت تحلم باختطافي؛ الخادمة إيشي، السّوداء، العاقر، وكنت أحلمُ بأن تتجرّأ وتفعلها؛ إذ طالما توهّجت بدفءٍ افتقدته، جعلها تتلهّبُ في ناظريَّ قمراً، كنت أناديها «ماما»، بالعربيّة، ولم تكن أمّي تمانع، ولربّما لم تنتبه؛ فقد كانت لها أحلامٌ، بعيدةٌ، فرديّةٌ، سريّةٌ، جعلتها تهملنا، وتتهمنا دوماً، بنفاد صبرٍ، بأنّنا أكثر شراسةً، وشقاوةً، وعناداً، من أن نكون مجرّد أبناءٍ طبيعيّين.

كانت لإيشي كفٌّ ضخمةٌ، أشبه بالوسادة، لكنّها سرعان ما تتحوّل إلى فأسٍ أو مفكٍّ، كلّما تطلّب الأمر، كانت المرأةُ، الدّامعةُ دوماً، وبشكلٍ ما، عيني في الشرق

الأوسط، بعدما فقد والدي صوته، والتزم سريره، محتقناً بذكرياتٍ، تهدر، كهبّات النّار، في دخيلته؛ ولأنّها لم تتعلّم العربيّة مثلنا، نحن المحكومين بهوى الوالد؛ فقد كانت تسردُ حكاياتها، بالإنكليزية حيناً، وبالعبريّة أحياناً.

من إفريقيا كانت تبدأ كلّ قصصها، وإلى إفريقيا كانت تعود، تزوّجت إيشي طفلةً، والزّوج الذي انتظرها لتبلغ، لم يخفِ لهفته في إنجابِ قبيلةٍ تحمله، احتملها بضع سنواتٍ، ثمَّ أعطاها حقيبة ثيابٍ، ولوّح لها. وفي يومٍ صاهدٍ، انفجرت زفراتها الهوج، انقدح الغلّ في رأسها الذي لم يحتمل، فرّت من بيت أبيها، الممشوق بالخيزران، والقشّ، وخشب البامبو، خاضت، حافيةً، في حقول الذرة البيضاء، وقصب السّكر، راقبت الطّيور جيّداً، شاهدت السّماء؛ وهي تطوى بين ريش الأجنحة، وشاهدت الخوف الذي يحول بين المناقير وقوتها، كانت الفزّاعات منتشرةً في كلّ مكانٍ، اكتشفت أنَّ للطّير كرامة، وأنّ عمر حرّيته هو المسافة من فزّاعةٍ إلى فزّاعةٍ أخرى، تاهت في الغابات البعيدة، نفرت الدّماءُ من تجرّحات كفّها، ظلّلتها خفقات أجنحةِ طيور الباز، توحّدت مع حفيف الأوراق، وخشخشة الأغصان، حادثتها أرواح الأشجار طويلاً، وأخبرتها بأنَّ الرّحيل؛ هو قدرها، ولم يطل الوقت، حتّى تلبّست قدرها، وهاجرت مع يهود «الفلاشا» من ريف الحبشة القديمة، نحو أحلام النّعيم، وذلك في إطار عمليّة «موشيه» السريّة، التي نفّذتها إسرائيل، في خطّتها، لاستجلاب شعبٍ جديدٍ، وأرقامٍ جديدةٍ، تتنكّرُ بهيئة سكّانها، خالت آنذاك، حينما كانت محضَ هيكلٍ عظميٍّ، مستورٍ بغشاءٍ أسود، أنّها ستطيرُ فوق النّيل، أخيراً، نحو الحضارة الموعودة، خلاصاً من القحط، والفقر، والأوبئة، والحروب، ولعلّها بفضل موهبتها الفطرية المذهلة في الرّسم، ستجدُ عملاً كريماً، ولربّما حلمت بأن تصبح فنّانةً شهيرةً، بعد أن كانَ جلّ همّها، طوال حياتها، ألّا تنعس على جوعٍ، وألّا تغتصب.

بعدما تبدّدت غبشة الانبهار بالأرض الجديدة، اغتصبَت آمالها، قُرعت أجراسُ الواقع في رأسها، واكتشفت أنَّ لونها اللّيليّ، لن يمكّنها من حقوقها الكاملة، في المواطنة، وفي العمل، في ساحاتٍ بارداتٍ، وشوارعَ تعجُّ ببشرٍ مختلفين؛ لِمامةٌ من أعراق وألوان

وجنسيّات هجينة، كما لم تشفع لها التّوراة، ولا النّصوص، الدّينيّة الطّويلة؛ التي تحفظها، في أن تكون مواطنةً من الدّرجة الأولى، بيد أنّها لم تستسلم، بدأت رحلة الخدمة في البيوت، من دون أن تفرّط بطموحها الكبير، كانت تشتري الألوان، وأوراق الكرتون، وعينها على أملها البرّاق، وفي إحدى المرّات؛ هزّ حادثٌ مروريٌّ كبيرٌ قلبها، وسارعت مع من سارع، إلى التّبرع بالدّم، وهناك اكتشفت، على حين غرّةٍ، أنّ دماء الإثيوبيّين؛ تسفح في البلاليع، بأمّ عينها لمحت الممرّضة، تشمّرُ عن ساعدها، وتفعلها، اكتشفت أنَّ البيض؛ يأنفون من دمّ السّود، بل وقد يقدّمون دماء قططهم عليه، لقد أسرّت لي، كيف فهمت يومئذٍ، أنّه من اليسير اختصار الدّين، بكتابٍ مقدّسٍ، في حين أنّ اختزال الوطن بأرض... هو المحال.

وكما لم تتخيّل البتّة، شعرت بإثيوبيا تنبضُ، بقوّةٍ، في صدرها، صارت تشتاق إلى الحرمان، والمرض، والشّمس الحارقة؛ التي تطهّر ذلك كلّه، صارت تشتاق إلى الجوع، وإلى الظّمأ، أيّام كانت تملأ الأقداح الفارغات بالورود الملوّنة، كانت تعضُّ معصمها لتنسى، تعضُّ إلى أن ينفر الدّم الملعون، شرعت تتخفّى، كلّما ألهبها الحنين، وتجول بعيداً، تهربُ يوميّاً، أبعد، أبعد، تزور القرى العربيّة؛ فقد كانت بقاعاً حيّةً من الحنين، و ما إن شربت مرّةً كوب الشّاي المنكّه بالنعناع؛ الذي قدّمه إليها عجوزٌ، يروي ذكرياته، حتّى شلّت أناملها، لم تعرف ماذا قال، لكنّها أحسّت،... المخيّمات، السّجون، وبكى، البيوت، الأبناء، وبكى،... تنبّهت إلى كونهما متطابقين في التّشرد، تشرّده نتيجة، وتشرّدُ أمثالها السّبب، خَبَت نظرتها، وشعرت برغبةٍ فجائيّةٍ في الفرار.

تدّعي إيشي؛ أنَّ القدر من ولائد الأفكار؛ وأنّ رحيلها إلى أميركا، برفقة سيّدتها، كاتبة قصص الأطفال، البيضاء، المكتنزة، العاقر مثلها؛ والتي وقّعت عقد عمل مع شركة «أنيميشن» في نيويورك، لم يأت محض مصادفةٍ، وإنّما كان صنيع شواغلها، وابتهالاتها، وإيمانها بمعجزات الرّب، وبأرواح الشّجر الذي يتهامس، ويتلامس، ويبتهل، طارت فوق آسيا وأوروبا وأمريكا، وكأنّها تطير نحو حلمها الأخير، بعد أن وعدتها السيّدة البيضاء، باستثمار أصابعها، أحلامُ إيشي دائماً كانت بعيدةً، بعيدةً كما المستحيل.

المسحوق الأسود

التهمت الكتب؛ فالتهمتني، خبّأتني في بطنها، وأنقذتني، من أخوةٍ طاروا بعيداً، لحظة نبتت أرياشهم، ومن والدٍ عبوسٍ، خائبٍ، طوّحه تآكل الحنجرة، ومن والدةٍ متسلّطةٍ، تسبحُ في ثروته، وتصفه بالعالة، لكلِّ من يطرق بابنا؛ تلك التي التذّت، على الدّوام، بهربِ أبنائها الكبار، وبضراعتي وتذلّلي، كان وجودي عقبةً، أمام رحيلها، لهذا كنت مطالبةً بالاعتذار، عن أشياء لا أعرفها، ولكثرةِ ما اتّهمتني بالسّوء؛ انتابتني شراهةٌ فظيعةٌ، لم آكل الطّعام وحده، بت آكل الصّابون المعطّر؛ كيما أموت، غير أنّي لم أمت، لم أمت حينما أكلت، أيضاً، أوراق علاماتي الرّديئة، ولا أوّل رسالةٍ غراميّةٍ تركها لي صبيٌّ مجهولٌ، أكلت نفسي، بما يكفي لأختفي، لكنّني لم أختفِ، جرّتني مرّةً من أذني، بعدما طرحت نفسي في حفرةٍ حفرتها، ضربتني بالمكنسة؛ فانتثر عبق العشب النديّ، وتتطاير القشّ منّي كأشعّة الشّمس، كان أجمل ما منحتني إيّاه أمّي؛ هو معاقبتي، كلّما أذنبت، بالحبس في القبو، السّفليّ، الرّطب، مع مئات الكتب المهلهلة، برفقة الأعاجيب، والأسئلة، والكلام الكبير، هنالك حيث دَفَنَت ذاكرة أبي، وحيثُ اصطكّت أسناني، برداً، وخوفاً، واعتجنت حواسّي الغضّة بالورق، حيثُ اكتشفت «بدريّة»؛ التي تحدّرت منها، و«لو أندرياس سالومي»، ونفسي.

لأنتقم منها؛ كنت أسرقُ طعام زملائي، أسرق وظائفهم، ألعابهم، أفكارهم، أفتعل المصائب على نحوٍ مسرحيٍّ، وألصقها بالآخرين، كانت فكرةُ معاقبة الجميع، عندي، مثار طمأنينةٍ، وانتصاراً للعدالة، افترضت، في صغري، أنّي ملاكٌ تائهٌ، وقع على الأهل الخطأ، وأنَّ حكايتي قد بدأت في مكانٍ ما، من دوني، وأنَّ عليّ - تشبّهاً بالآخرين- أن أمتلك مثلهم مخالبَ وأنياباً، وذلك ريثما يجدني

أحدٌ ما، لهذا عندما فتحت الباب، للمرأة السّوداء، أوّل مرّةٍ، خلت أنّها جاءت لأخذي، كانت خائفةً، وغاضبةً، وغير قادرةٍ على إيقاف دموعها، قالت لأمّي إنّها هاربةٌ من جارتنا؛ سيّدتها الفظيعة، أخبرتها بأنَّ الأخيرة تستغلّها، وتسرق رسومها، وتهين إنسانيّتها، وقالت لأبي إنّها على استعدادٍ لتقبيل قدميه، لو قبل أن تعمل في بيتنا الفارة، أيّ عملٍ، انتفضَ والدي؛ الذي غالباً ما يتقمّصُ شخصيّة المخلّص، رفع سبّابته، وهمهم بكلماتٍ، ينخرُ بعضها بعضاً، ترجمت لها والدتي ترحيبه، بامتعاضٍ، ووعدتها بإلحاحٍ من همهمات والدي، بأن تحلَّ المسألة مع الجارة، أصغيت إلى ذلك كلّه باهتمامٍ، بينما كنت أمام المرآة أجهّز حقيبتي، وأطلي وجهي بالمسحوق الأسود في علبة ظلال العيون، لقد رنَّ صوتها المعدنيّ، لحظتئذٍ، في أذنيّ تماماً كالجرس:

«اسمي إيشي»

«المزهريّة» ابتداعٌ ذهنيٌّ

تفتّح بيتنا في يد إيشي، كما الوردة، شربت من حكاياتها، وبدا لي أنّي أكتشف العالم فيها، وأعيد ترتيبه، على سلّم صوتها الموسيقيّ، القارات، اللّغات، الأعراق، العقائد، المصائر، التّاريخ، التّاريخ المضادّ، تيّار الظّلم المتنقّل؛ الذي يسري في البشر الحمقى، كأنّه الدّارة.

كانت ضخامتها جميلة، دافئة، لاسيّما حين تتلمّس كفّها، وتتحسّسُ النّدبات، كما لو أنّها تنظرُ إلى مرآةٍ، أو إلى ألبوم صورٍ؛ فتدمع فجأةً، وتغصُّ بريقها، ثمَّ تطويها على رجفتها، كانت بطريقةٍ ما، ذاكرةً تتوسّع، وتحلم، أمّا قبّعة القشّ التي تعتمرها، في كلّ الأوقات، وتعتصرها على صدرها، مع إغماضةِ العينين، في كلّ صلاةٍ خاطفةٍ فقد كانت لغزاً محيّراً، لقد علّمتني أنَّ كلّ إنسانٍ هو ذاكرة، تتوسّع وتحلم، أخرجتني من أزمة **«ألديك عنق؟!»**، أثبتت لي؛ أنّ كلّ أزمةٍ؛ هي سجنٌ، وأنّ في كلِّ سجنٍ باب حريّة، وكلّ ما علينا فعله؛ هو ببساطةٍ... فتح ذلك الباب، أحببتها كثيراً، إلى حدّ أنّني خبّأت ضرسي المخلوع، تحت الوسادة، وتمنّيت لو تقايضني جنيّة الأسنان بأمنية؛ فتصير إيشي أمّي، وأمّي خادمتنا، لكن لسوء الحظّ؛ لم تكن أمنيتي من تخصّص ذلك النّوع من الجنيّات.

فكّرت مرّةً في إحياء المكتبة المغيّبة، لأسبابٍ غامضةٍ، تحت الأرض، كما النّفايات الخَطِرة، المدفونة، غير أنَّ أمّي قد احتدّت، وصفعتها، أجل... صفعتها!، كان ممنوعاً عليها أن تفكّر، أو تقترح، انتبهت، حينئذٍ، إلى لوني الأبيض، كم كان صدى تلك الصّفعة مدوّياً!، إلى حدّ أنّه عشّش أيّاماً في أذنيّ، لمحت البركان يغلي في عينيها، كانت حممه تتقطّر، وترتجُّ على جلدها، ثمَّ تنساحُ كالحروق، وكانت أجنحةُ الباز، وسعفات النّخيل؛ تتطايرُ من نظرتها كما الشّرر، لكنّها سكتت، كان سكوتها مدوّياً، أكثر من الصّفعة.

لم أنم ليلتها، حلمت بعينين مفتوحتين، وأنصت، بقلّةِ حيلةٍ، إلى نشيج الأشباح السّود، في الصباح؛ فتحت الباب، فوجدت كلبي غارقاً بدمه، ما نتأ من السّكين المفضّض، كان يرتعش في بطنه، لبثت مكاني كالحجر، لقد انطفأت عيناه الزرقاوان إلى الأبد، لم أصرخ، لم أهرب، وإنّما جعلت أتفرّج على الموت. في ذلك اليوم العاصف؛ استثمرت أمّي الجريمة، اتّهَمَت إيشي، وطردتها؛ فقد كانت حجّةً ذهبيّةً، للخلاص منها، ومن دون أيّ احتجاجٍ أو رفضٍ أو تسويغٍ، فتحت الأخيرة مظلّتها، وخرجت، لم أبك، لم أغضب، لم أصدّق، خرجت من مشاعري كلّها، ورحت أفكّرُ، كيف عساني أفتحُ باب الحرّيّة.

في غيابها؛ ابتلعني الكهف مجدّداً، سلّمت نفسي للقراءة، كما لو أنّها سلّم رحمةٍ، عشت في جحري السّفليّ، طيّ عوالمي، بين كائناتٍ شفّافةٍ؛ أخذت على عاتقها مهمّة تربيتي، وإنضاجي مبكّراً، في فرنها الهائل، ولقد أضحت نقود الوجبات المدرسيّة، فرصتي للحصول على المزيد من الكتب، كان ذلك إدماناً حقيقيّاً، لم تلحظ أمّي نحولي المفاجئ، لم تلحظ غيابي، حتّى أنا لم أنتبه إلى غيابها، حينما تركتنا ورحلت، عند المساء، إلّا لحظة قرصني الجوع، بحثت عنها، فراءُ الثّعلبِ النّاعم؛ كان خالياً من كتفيها، ومستلقياً، برفقٍ، فوقَ وسادتها، إبرتا الحياكة؛ كانتا مغروزتين، كما السكاكين، في كبّة الصّوف، أمّا عقربُ السّاعة؛ فلم يتوقّف البتّة عن تقطيع الوقت، اقتحمني، راعداً، صوت بكاء أبي؛ كان يهتزّ، مثل صخرةٍ، لصقَ الحائط، سمعت زفرته الطّويلة، وتدفّقها الرقراق، تشمّمت دخان وجيبهِ، ورأيته يمزّقُ، في آخر الليل، كلَّ صورها، يومئذٍ؛ انكمشت، تضاءلت، تشرنقت كما الكرة، احتضنت جسدي بذراعيّ، لم أبكِ، لقد اكتشفت، فجأةً، أنَّ هنالك وحدة جديدة أشدّ، داخل وحدتي، تماماً كما دمى الشايّ الروسيّة «الماتريوشكا»، وأنَّ الوقت قد حان لدخولها فوراً، انكمشت، تضاءلت، ولم أكد أرفع رأسي، حتّى كنت قد تحوّلت إلى غيري.

لم ينقذنا المال؛ لكنّه ساعدنا كيما نفهم؛ أنَّ هنالك ما هو أشدّ من الموت، ربّما لذلك مات أبي، مات وهو يشهق، مثل طفلٍ، ويغمغم بما يشبه:

«أعيدوني إلى دارنا، أريد أمّي»

تلقّفتني القراءة، كبرت، بأسرع ممّا يتيح العمر، فردت فصاحتي جناحيها، أكثر ممّا يحتمل العالم من حولي، وبدأت أتقيّأ الأشياء، الصّابون، والزّيتون، وأوراق الرّسائل، بت هفهافةً بإفراطٍ، ضامرة البطن، ممشوقة القدّ، ذاب التّنمّرُ عن لحمي كطبقاتٍ من الدّهن؛ لكنّ الجراح العميقة لم تكفّ يوماً عن النّزف، بدا لي أنَّ العمر؛ هو مجمل تلك الجراح، وأنّه ما من مفرٍّ، من النّزف حتّى الموت.

ألهمتني كثيراً، عوالم الجدّة بدريّة؛ تلك التي أورثتني مرضها، على هيئة تشنّجٍ فجائيٍّ، غير إراديٍّ، في الذّراعين، لقد رتقت فم الموت، غرزةً فأخرى، وعاشت أكثر ممّا ينبغي، درست حكاياتها، ذئبيّتها، دهاءها، ولم يطل الوقت، حتى تحوّلت في مخيّلتي، من أميرةٍ بأسورةٍ برّاقةٍ، إلى كبّةٍ من العقد، والأمراض، ومبكّراً؛ أدركت فداحة أن تواجه امرأةٌ صافيةٌ، جحيم العالم، وحدها، عالمٌ مهووسٌ بأصوات التّحطّم، يلتذّ الجميع فيه، بهدم كلِّ ما هو بريء، وبتلويث كلِّ ما هو نقيّ، وحالم، لم يكفّ عن التربّصِ بزلّاتي، أنا أيضاً، ولم يعدم وسيلةً لكسري، وكيما أتصدّى لتغوّله؛ أسلمتني لإسقاطاتها، على كلّ شيءٍ في حياتي، جعلتها أوّل الأمر منارتي، في غيابِ الوالدين، لا أكاد ألمس قلبي؛ حتّى تخرج كالمارد، لتشملَ إرادتي بظلّها، وكأنّها بوصلة التّاريخ، ولو شابت مروياتها، رائحة التّحوير، والتّلفيق، إذ ماذا عساها تكون الهويّة، إن لم تكن امتزاج التّاريخ، بالأساطير الجديدة، والأهواء، والحكايات السحريّة!؟، ربّما هذا ما دفعني لأقطع علاقتي بجارتنا، بطريقةٍ انفجاريّةٍ، ومضحكةٍ، وذلك وقت ألحّت عليَّ، كيما تصحبني معها إلى بلادها، كان القبو الشبحيّ، حينئذٍ، قد صعد معي، واحتلَّ - بعد وفاة أبي- كلّ أركان البيت، العجوز المكتنزة؛ والتي تكتب للصّغار، كانت تعيش مع قطّتها المدلّلة، تنتقد نوافذي الموصدة، وأجوبتي اللّاذعة، المظلّلة بالمجازات، وتخترقُ عزلتي، بشتّى الوسائل،

وتتحيّن الفرصة للحديث عن إيشي، طوال سنوات إقامتها في الجوار، كانت تلمّعُ مزهريّتها الخزفيّة، صباحاً ومساءً، تنقّلها معها أينما جلست، من الشّرفة، إلى الصّالة، إلى غرفة النّوم، لم تضع الأزهار فيها، حرصاً عليها، كلّ تلك العناية، وذاك الحذر، جعل منها حالةً ذهنيّةً، روحيّةً، أكثر ممّا هي تجرّد ماديّ، متّصلةً كانت بمشاعر حميميّة، أجلّ من أن أخدشها بسؤالٍ، اصطادتني المرأةُ بفطائر التّفاح، برائحةِ القرفةِ الأشبه برائحة الأسرة، كما لو كنت أسراباً من التّفطّر، والتّذكّر، والتّحسّرِ على ماضٍ حميميٍّ، لم أعشه، عاملتني كمثل ابنتها، أحببتها، أحببت قطّتها، ومزهريّتها، وفطائرها، وكرهت قصصها الحلوة، إذ لا أعلم لم كنت أرى الدّماء، على الدّوام، تزربُ من الرّسوم الملوّنة، الجذّابة، وتنقّطُ من الأحرف العبريّة الكبيرة...

رجلٌ؛ بملمحٍ غبيّ، بعقالٍ، وعباءةٍ، يركبُ حماراً، ولسانه يتدلّى من فمه.

طفلة شقراء؛ ترمي حصّالةً، مليئةً بالمفاتيح، في البحر، وتلوّح لها.

طفل أسمر؛ نصفُ عارٍ، يبول على بوّابةِ مدرسةٍ، نظيفةٍ.

امرأةٌ ملثّمةٌ؛ مخيفة، تهاجمُ بالحجارة، الخبّاز المسكين.

دونكيشوت هزيل؛ بكوفيّة.

احتدّت يومها، بعدما أحبطت محاولاتها في إقناعي، ويبدو أنّني نزعت فتيلها، وخدشت ما تعتدُّ به من زهوٍ؛ فعاينتني من فوق نظّارتها؛ وهي تنشر إعلاناً لبيع منزلها، في إحدى المواقع العقاريّة الإلكترونيّة، سحبت صحني نحوها، رفعت الفطيرة، إلى أن لامست شفتيها، صلصلت أساورها، همهمت:

«ما زلت صغيرةً على فهم معنى الانتماء، أنت وحيدةٌ هنا، وتلك بلادك، بلادي، إنّها إرث اليهود»

عاينتها ببلاهةٍ؛ وهي تقضم تفاحات نشوتي، وتوابل معنى الأسرة، لم أملك، حينذاك، من الوعي، ما يجعلني أدرك أن القصص، والمدارس، والأغنيات، والإعلانات أيضاً، قد تتحوّل إلى أدواتٍ، لتجنيد الأجيال الجديدة، ومغاسل،

لشطف الأدمغة، وإعادة تعبئتها، وأنّ الدّول في كلّ مكانٍ، تستثمرُ في الطّفولة؛ فتهرول لإنتاجِ شعوبٍ، جديدةٍ، وطيّعةٍ، وهيّنةٍ، لتنفّذُ أجنداتها، تحت سقف الانتماء، لم أستطع أنّ أعبّر عمّا جال في خاطري، بدقّةٍ؛ فاستعنت بتوليفةٍ من المعاني، قطفتها من هنا وهناك، هتفت لأُغيظها، ولأنتقم لوجبتي المستباحة:

«يا سيّدتي!، ما الذي جعل مخيال أوروبا، يصوّرنا نحن اليهود، بأنوفٍ كبيرةٍ معقوفةٍ، وقبّعات مدبّبة، وخواتم صفراء، صفراء تحديداً، بل ويتّهمنا بجلب الطّاعون وتسميم الآبار؟!، وبذبح أطفال المسيحيّين، لاستخدام دمائهم في خبز ماتزوس؟!، هل قرأت عن تجارة الرّهن والرّبا؟!، طيب تاجر البندقيّة؟!، الفرسان الثّلاثة؟!، أوليفر تويست؟!، ألف ليلة وليلة؟!، إرث أو منفى أو قفص!؟، لا يهمّني، ثمّ... أينقصهم شعب؟!، أنا لا ينقصني بلد»

الجارة التي كانت تخال المواطنة، انتماءات عقاريّة؛ والتي لم تعرف أنَّ أصولي فلسطينيّةً، لم تكن لتصدّق أنَّ انتماءات الذّكريات، هي الأصدق، ولاسيّما في بقعةٍ من الأرض؛ ساقتني نحوها الكتب، على متن بساطٍ من ريحٍ، لأدركَ أنَّ كلّ كلمةٍ فيها، وكلَّ رقصةٍ، وكلَّ حجرٍ، له امتدادٌ يقاسُ بالآلاف من السّنين، وشاهدت لأوّل مرّةٍ، ذلك الذّعر؛ الذي يقتحم البشر، لحظة إقلاق مسلّماتهم، ومقدّساتهم، ومعتقداتهم؛ البشر الذين اخترعوا كلّ تلك الأشياء، للخلاص من ذعرهم البدائيّ، كان مشهداً يستحقّ أن يكون مفصليّاً في حياتي، انتفضت الجارة الطّيبة، تحوّلت إلى غولةٍ، غولة تشبه أمّي، ركلت برجلها الطّاولة؛ فترجرجت، انقلبت، انكسرت المزهريّة، انتثرت المشاعرُ بين أقدامنا، نزف الخزف، وخيّلَ إليّ أن سحابةً من اللمعِ والأصوات والصّور قد خرجت، كالرّوح، من الشّظايا، بيد أنّها لم تهتمّ، التفتت إليّ بوجهٍ يشتعل، بجسدٍ يرتجفٍ، بنظرةٍ من غلٍّ، هوت بكفّها على ظهري، وانفجرت على نحوٍ حادٍّ:

«أنت بحاجةٍ إلى طبيبٍ نفسيٍّ»

ميكانيكا الحلم

المضطربون نفسياً؛ حكموا العالم، قرأت عن ذلك، بلا سآمةٍ، في مصارف العذابات البشريّة «الكتب»، أمّا في العالم الحقيقيّ؛ فقد أدركت أنَّ المشوّهين من الدّاخل؛ هم كلّ العالم، وأنَّ ما من أحدٍ بوسعه النجاة؛ لهذا لم أجد غضاضةً في إلحاقي بفئة نابليون بونابرت، وستالين، وهتلر، ومارتن لوثر كينغ، أو بفئة شكسبير، وديكنز، وبلزاك، ونيتشه، وفيكتور هوغو، وفان كوخ، وسيلفيا بلاث، فالزعماء، والفنانون، والأدباء، كانوا دوماً الأكثر إغواءً للاختلالات، ولو أُلحقت بفئةِ النّاس العاديين، الظّلال، ما كنت لأمانع؛ فكلّ خائضٍ في مستنقعِ الحياة لابدّ من أن يتلوّثَ... لابدّ.

كان العقل حملاً ثقيلاً على البشر، مذ وجدوا؛ فقد اضطرّوا إلى مواجهة ضعفهم، وخوفهم، وموتهم الباطش، وكما الأحلام من جنس المكائد، فالذّكريات أيضاً؛ ليست نسخةً، طبق الأصل، من الحقيقة، إنّها انطباعات عواطفنا الساذجات، عمّا حدث فعلاً، لهذا أجدني لا أتذكّر حاجزاً تصدّى لتألّمي الفطريّ، كما فعل رحيلي، حتّى لكأنّ حياتي بأكملها؛ هي ما حدث بعد ذاك الرّحيل.

لسببٍ تافهٍ، اخترت ألمانيا وجهةً؛ فقد كانت بلد الفاتنة الشقراء «لو أندرياس سالومي»؛ التي كانت تلتهم مثلي رسائل عشّاقها، وتعشقُ مثلي حريّتها، وتجهدُ مثلي في ترجمة العالم والنّاس، «لو» التي خطفت قلوب أهمّ كتّاب العالم وفلاسفته، قهرتهم، سحرتهم، ثمَّ اشتغلت بالتّحليل النّفسيّ؛ لتفهم ذاتها وتفهمهم؛ تلّك التي جنّدتني لأتبع سيرتها في عشرات الكتب، بدا لي، آنذاك، أنّ التخصّصِ في الطبِّ النّفسيّ، تشبّهاً بها، وفي جامعة «بون» تحديداً، سيكونُ انتقامي الخاص من الآخرين، كلّ الآخرين، أقلّه، مثلها، سأفهمني وأفهمهم؛ فأنا أحسبني، كما لفتت جارتي القديمة، كومةً من الخردة العاطفيّة، والفكريّة، والنّفسيّة، وقد كنت على استعدادٍ، في

سبيل تجميعي، وإصلاحي، لأن أدفعَ عمراً بأكمله، لم أعلم البتّة، أنّ قراري ذاك، كان شكلاً من تدوير المشاعر، وأنّه قد يفتحُ السّبيلَ إلى سلامي الكبير.

كنت أضحك، كلّما اصطدمت بطبقات العالم الاقتصاديّة؛ فهي تصنّفني في رأس الهرم؛ أنا التي لم أر في ذاتي أكثر من مضطهدةٍ، مثيرةٍ للتّعاطف، ربّما هذا ما دفعني مرّةً، لإحراق الأوراق النّقديّة، في الموقد الفاره، والغريبُ أنّني انتظرت، يومذاك، أن أشعر بالدّفء، انتظرت كثيراً، إلى أن فقدت الأمل.

جدّفت بالمال نحو البلد الجديد، من دون أن أكفَّ، ولو لحظةً، عن انتظار الدّفء، وأوّل من التقيت، كان صديقاً قديماً، أمريكيّاً، كاثوليكيّاً، سبقني إلى هناك، لإتمام بحثٍ تاريخيٍّ، هتف ممازحاً:

- آها، جئت لتفهمي هتلر؟!، وكيفَ مارسَ اليهودُ العنصريّة؛ التي مورست عليهم، ضدَّ الآخرين؟!

- جئت لأفهم نفسي يا عيني!

- هذا أفضل، التّاريخ مستنقعٌ كبيرٌ

- افسحوا المجال للنّساء؛ ليكتبنه، لن يظلّ مستنقعاً!

- يا سلام!، وما الذي سيتغيّر إن كانت المعطيات ثابتةً؟!

- ستتغيّرُ اللّغة، فتنقلبُ المعاني، **«معركة»** تصبحُ **«مسرحيّة»**، **«انتصار»** تمسي **«هزيمة»**، **«هزيمة»** تكتبُ **«تطهّر»**، و **«هدنة»** تنقلب إلى **«لعبة»**، وكل صيغِ الجموع؛ تستبدل بضمائر فردية، متلفلفة بأثوابٍ من الحواشي.

- أمممم، هذا السّبب؛ الذي يدفعنا للاستئثار بكتابة التّاريخ، سنتركُ لكنّ الرّوايات التراجيديّة، والمسرحيات الدراميّة، نحن الرّجال؛ الذين ندرك كيف تموّه العواطفُ الحقيقة، وتبعدنا عن الأهداف الرّئيسة.

- كلّ تاريخٍ مزوَّر، بالضّرورة، ثمّ يبدو أنّه هدف عالميٌّ، وليس ذكريّاً وحسب، تحويلنا من كائنات عاطفيّة إلى روبوتات، أو برّادات لحفظ الموتى.

- عموماً، لسنا من يكتب التاريخ، اطمئنّي!، تكتبه الوحوش المنتصرة، مهما كانت ظالمةً أو منحطّة!

هوّن عليّ صديقي، الهرقليّ البنية، وحدتي، إلى حينٍ، أنا مدمنة العزلة، والمصابة برهاب العلاقات الجديدة، رسمني، غازلني، احتضن قلبي؛ الذي أعياه اللهو والتّخبّط؛ لكنّه بعد أن أنهى جمع المصادر لبحثه الجديد، والتّنعّم بدفء أموالي، تركني ورحل، هكذا ببساطة، من دون كلمة وداعٍ واحدةٍ، الأرضُ التي تمنّيتها أن تنفتح، كمثلِ قبرٍ، لم تبلعني، تماسكت بشقّ الأنفس، تشنّجت ذراعاي، أسبوعاً كاملاً، حوّلتني إلى نابضٍ نطّاطٍ، اعتزلت النّاس، فتّشت عن باب حريّة، ومضيت في قهري، إلى أن جفّت عيناي تماماً، وكما دوماً، لم يخيّب العالم ظنّي به؛ فقد أجبرني على دفع فواتيري المتأخّرة.

من يومها؛ وأنا أنتقم، أغزل شباكي حول القلوب، ثمَّ أخنقها؛ فألتذّ بتساقط الرّجال من حولي، وبأصوات تكسّرهم، خضت في الشّرّ الكثير، إلى أن انتشلتني الكتبُ مجدّداً، نظّفني الورق كعادته، وأنقذني من النّاس، وفي ليلةٍ، دهمتني بدريّة، في أحلامي، وشوشتني:

«انتظري رسولاً منّي»

في صباح اليوم الثاني، فتحت الباب، والتفت في كلّ الاتجاهات، اكتنفني حزنٌ مبهمٌ، ضحكت، أغلقت الباب، ودخلت بمحجرين؛ خابيتي أحلام، ترشحُ منهما الخيبات، ثمَّ رحت أذرع المكان جيئةً وذهاباً، مرَّ اليومُ كما ينبغي له أن يمرّ، عاديّاً، هادئاً، مزدحماً بالدّروس، والوحدة، تبعني فيه وجه الجدّة، كخيطٍ متفلّتٍ، من بكرة الأحلام، ليلتها أيضاً، ظهرت لي السّاحرة، وكرّرت:

«انتظري رسولاً منّي»

في صباح اليوم الثّالث، لم أفتح الباب، لكنّه بغتةً طُرق، ارتعدت جزعاً، خطر لي أنَّ جثّتها واقفةٌ خلفه، مومياءَ مكفّنةً بالشّاش، بيد أنّي تماسكت، وفعلتها، وهناك، تذبذبت بين الإغفاءة والاستفاقة، ظهرت الصبيّة التي جاءتني تطلبُ كتاباً والتي ستصبح رفيقة قلقي، والكتف المبكى، ورسول أعماقي إليّ.

كانت ماويّة عربيّةً، ربّما لهذا اخترقت مجالي المغناطيسيّ، بطريقةٍ مدوّيّةٍ، طلعت؛ هي أيضاً، من شرقٍ «ألف ليلةٍ وليلةٍ»، أرسلها حسنُ الطّالع؛ لتشرح أحلامي، وتحملها معي، ذكّرتني بإيشي، وبدريّة، ولو سالومي، بتلك السّلسلة النّاعمة، المستمرّة، من النّساء الهاربات، الرّافضات، النّاميات كمثل آلهةٍ بدائيّةٍ، في كلّ مكانٍ، من أرض البشر، وشيئاً فشيئاً، استحالت كتاباً جديداً، ومعجماً عاطفيّاً، وظّفته لحلّ شيفرة العالم.

كنت أراها في الجامعة؛ تمرقُ كسهمٍ، تظهرُ وتختفي كالأشباح، تتجنّبنا نحن اليهود، كما لو كنّا دبابير سامّة، وكنت بدوري ألسعها، وأتجنّبها، بقدر ما أتحاشى كلّ من يصدّرون اتّهاماتهم الجماعيّة بالجملة، لقد كنّا، طوال الوقت، ومن دون أن نتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ، نتراشق بكراهيةٍ مبطّنةٍ، لم نفهم كنهها، كراهية؛ تتخذ شكل الخوف مرّةً، وشكل النّقمة مرّةً أخرى، إنّها مشكلتي مع عموم البشر، جماعات مهووسة بالتصنيفات والتّقسيمات، جماعات ضدّ جماعات، جماعات مع جماعات، أجد في كلِّ حينٍ من ينبشُ كينونتي، أمريكيّة؟!، عربيّة؟!، يهوديّة؟!، فلسطينيّة؟!، سوريّة؟!، وأنا لا أكاد أقدرُ على أن أكون نفسي.

بعد الباب، أزهرت حكايتنا، انهدم الجدار المحلوم، بين وحدتي ووحدتها، بين خوفي وخوفها، وبخلاف ما توقّعت؛ بدت أنّها من طينة البشر، لم تكن أقلّ من «إنسان»، ولربّما بدوت لها كذلك، تقطّر صوتها البحيح في أذني؛ وكأنّه صدىً قادمٌ من داخلي، وحديثاً فحديثاً، وزيارةً فزيارةً، وسرّاً فسرّاً، ومساندةً فمساندةً، بتنا أسرةً صغيرةً من أختين، عملنا معاً، درسنا، مرضنا، بكينا، تقاسمنا مساحيق التّجميل، وعنوانات القصص، والبودرة المعطّرة، ودبابيس الشّعر، والمشابك

الملوّنة، فردنا جغرافيات ضعفنا بلا وجلٍ، كان جميلاً، تحالفنا ضدّ الحياة، وخروجنا النّظيفُ من نفاياتها.

وحّدتنا الكتب، وحّدنا عشقها، علمت منها أنَّ ميخائيل شولوخوف؛ الفائز بنوبل عن روايته «الدون الهادئ»، إنّما كان قد اغتصبها، من مؤلّفها الحقيقي فيودور كريوكوف، وأخبرتها بأنَّ شكسبير تاجرَ بالقمح، وقت المجاعة، على نحوٍ غير أخلاقيٍّ؛ فحوكم بهذه التّهمة، وأنّه بعد أن أسمى فرقته «رجال الملك»، قد توقّف عن الكتابة المسرحيّة، اتّقاءً للطّاعون، متّجهاً إلى كتابة الشّعر، وأنّه في المقابل قد قدّم للّغة الإنكليزيّة، ثلاثة آلاف مفردةٍ جديدةٍ، قالت، وقلت، قالت، وقلت، ولكم ضحكنا!.

كنّا نهرّبُ القصائدَ، من لغةٍ إلى أخرى، وكأنّنا نقلبُ بطانتها، أو نقطّرُ روحها، كنّا نتجادل في تأويلٍ فلسفيٍّ، أو فكريٍّ، حتى ونحن نغوص في دقائق العلوم، بانسيابيّةٍ سحريّةٍ، أينشتاين سبقنا، يوم كان يقدّمُ الخيالَ على المعرفة، فرويد مثله، كان أميل إلى الجانب الحسّاس في شخصيّته، العالم كلّه، كان يسير وراءنا، بقدمين صغيرتين، الإحساس والفكرة.

رويت لها حكايات بؤسي، من دون توقّفٍ، وبدّقةٍ بالغةٍ، أذهلتها، بحيثُ لم أُخطئ باسم، أو رقم، أو تاريخ، ولربّما بدوت لها مرّةً، وكأنّي أتلو تقريراً تاريخيّاً مكتوباً، تطلَّعت فجأةً في عينيها المحمّلتين بالأسئلة، وأكملت كمن ثابَ إلى رشده، بعد أن ضيّعه الحديث:

- بلادكم تلاحقني مثل لعنة

- بلادنا؟!

- بلادي

- بلادك؟!

لم تسألني عن السّبب، لكنّي افترضت أنّها فعلت؛ فأكملت بنبرةٍ حزينةٍ، ومن دون أن أمهلها، لمداراة فضولها:

«كانت جملةً خطّها أبي، قبل موته، على علبةِ دواءٍ، لم أقرأها إلا لحظة رميت كومة الأدوية في سلّةِ المهملات، نَظَرَت الكلمات الخمس إليَّ بعمقٍ، وجَذَبَت أصابعي بسرعةِ الضّوء، بلى كانت أقسى كلماتٍ خمسٍ في حياتي:

(إن متّ تجدونني في الشّام)»

دبّ الوجل في قسماتها، أفل نور عينيها، لربّما أخفتها، لربّما ذكّرتها، ووطئت المسافة الملغومة بيننا، على الشّباك خلفها؛ ارتعدت أغصان شجرة القيقب، كالأنين، مرّت لحظة صمتٍ عجلى، أغرقتنا في الشّجن، حين هزّت رأسها، لتحثّني على المتابعة، حطّ حسونٌ ذو جؤجؤٍ أحمرَ، على إفريز النّافذة، مرّغ رأسه تحت جناحه، ثمّ نظر إليّ، وكمن أدرك أن لا شيء لديّ لأضيفه طار؛ أنا التي كنت أحسبني غير دينيّةٍ، وغير منتميةٍ إلّا إلى ذاتي، لم أنكر في تلك الهدأة شغفي القديم بالشرق، حيث السكّان أشبه بكائناتٍ شحيحةِ الذّكاءات، تعومُ على بحرٍ غامضٍ من الخرافات والأساطير، أسرتني، في صباي، فكرةُ ارتباطهم بالرُّوحانيات، والغيبيّات، والخوارق، ولربَّما كانَ ذلك َما شدَّني فعليّاً نحوها، أكثر من كلّ تلك الأُلفة التي شعّت ما بيننا، لقد كانت كتاباً، مشوّقاً، نادراً، وكنت ألتذُّ بمجاهيل حكايتها، وبتلمّسُ خارطتي النفسيّة، وبفصل مشاعري عن هواجس الماضي، كنت مختبراً مخيفاً، عجائبيّاً، مرجليّ الغليان، ربّما لأجل هذا كلّه نهضت، ابتسمت لها، وانسحبت.

سنواتٌ مرَّت، لم أكفّ خلالها عن ابتلاع الورق والصّابون، خفيةً في الحمّامات، ولا عن أكل قلوبِ أولئك الذين أحبّوني، كان إحساساً فائقاً، أن أنسج شباكي الرقيقة، وأصطاد طرائدي، بأعذب ما يملك إنسان؛ ثمَّ أنسحب خطفاً، أذوب كمثل الملح، وأخلّفهم ورائي، أسماكاً تتخبّطُ فوق الأرض، ذلك التّلاعب، كان طريقتي الجديدة لأبصق في وجه الحياة، غير العادلة، مع ماويّة كنت أستعمل وجهاً آخر، في الواقع ليس في مكنتي إحصاء الأوجه التي بدّلتها، في ذلك البحر من التّناقض البشريّ العميم، حتى أنّه يصعب عليّ تحديد الحقيقيّ بينها، ما يهمّ حقّاً؛ هو أنّني لم أجنّ.

وقت شبَّت الحربُ، في بلادِ والديَّ؛ ذابت صديقتي، ذابت حرفيّاً، ذرفت وزنها من عينيها، غرقت في بحرٍ من البكائيّات والتراجيديّات، كعادة العرب في اللّطم والنّدب، أنا أيضاً أفرز وأقسّم وأطلق الأحكام، بشريّتي تفعل، لم آبه لتهدئتها، وإنّما أدمنت متابعة الأخبار، في تعاطفٍ معها؛ فقد نكأت قوافل الهاربين، ذكرى ارتحالنا، كل شيءٍ راحَ يذكّرني بأجدادي الذين تركوا موطنهم برغبةٍ أو من دون رغبةٍ، كل شيءٍ شرعَ يذكّرني بأصلي، وبجارتنا القديمة، وفي الوقت الذي تسابقَ فيهِ كثيرٌ من السُّوريين إلى الالتجاء إلى الغرب، مخاطرينَ بحيواتهم، وبأولادهم، وحاملينَ بلهفةٍ، حقائبهمُ الخفيفة، حملت صديقتي شهادتها، وعادت، وقبل سفرها دسست كومةً من المفاتيح في كفّها، وهمهمت:

«لابدَّ وأن يفتحُ أحد أبوابنا معك؛ فبعضها في عهدة الأصدقاء، صوّريها لي أرجوك، ولاسيّما بيت جدّي، ولاسيّما العمودُ الحجريّ، يسار البحرة»

هصرت المفاتيح في كفّيها، رشّت عليها نظراتٍ فارغةً، ولم تنطق، بقينا صديقتين، وظلّت حكايانا المتواشجة؛ حبلاً سُريّاً ما بين عالمينا، رغمَ آلاف الكيلومترات، وآلاف الأسبابِ الأيديولوجيّة التي تفرّقنا، دعوتها إلى زيارتي في نيويورك، قدّمت لها عروض عملٍ، ولم تردّ لي الدّعوة، ولو مجاملةً، لكنّها عوّضتني بالأكثر؛ إذ كانت تردّ لي الجميل بتنفيذ رجاءاتي، ترسل لي، بانتظامٍ، صوراً ممّا تبقّى من معالمَ يهوديّةٍ سوريّةٍ، وتعينني في الوصول إلى بعض المخطوطات المقدسة.

ماويّة التي أُصيبت، مؤخّراً، بمرضٍ نفسيٍّ عجيبٍ، فقدت طفليها بعملٍ إجراميٍّ، ماتت روحيّاً، توقّفت عن مراسلتي، واستغرَقَت في غيبوبةٍ طويلةٍ، أُصلّي لها يوميّاً، أُصلّي لأنّي أُحبّها، أُصلّي لأنَّ لديّ عندها ما هو أكثر.

مقامات الحزن

قبيل رحيل ماويّة حدث لي محمود؛ البروفيسور الفلسطيني البهّار، جعل يظهرُ لي، في نهاية الخطو والأحلام، يتعقّبني سرّاً، يطوف حولي، وكأنّه طائر الطّنان، إلى أن قلب موازين حياتي، وغيّرني، وكمثل طيرٍ طنّانٍ، سرعان ما سقط في أحبال شراكي، إذ استملته بحذاقةٍ، وحظيت بقلبه، وجعلت أرقبُ، من خلاله، تبَقُّعَ عواطفي بألوانٍ جديدةٍ.

لم يكن الأمرُ سهلاً، أذكرُ كيف قاومني، في بداية لقائنا، على نهج الفدائيّين الرّافضين، المثابرين على المكابرة:

- ألا يمكن أن تكون قد أحببتني مثلاً!

- أجزم بأنّك مغرورةٌ

- الجواب؟!

- مستحيل

- ولماذا؟!

- ينقصك شيءٌ كبير

- ما هو؟!

- الكفاح

غير أنّ الوقت لم يطل، حتّى هدمت المستحيل، أكلت لحم إرادته، وكان في وسعي رميه عظماً، على غرار ما درجت عليه، مع أولئك الذين تلذّذت بامتصاص قلوبهم، غير أنّي لم أفعل، لم يكن في مكنتي التّفريط بذاك الحنان العالي، المركّز، الصّادم؛ الذي احتواني، من حيث لم أحتسب، وأحاطني من كلِّ صوبٍ، لم يكن في وسعي إلّا الاستسلام لذلك الانقياد السّاحر للمجهول، أمام تلك المعاني التي

تلألأت في فراغ وجودي، ولكم تمنّيت لو كان بالإمكان نسف ذلك الشّبه المخيف بيني وبين زوجته الرّاحلة، ولكم اشتهيت أن يحبّني لذاتي.

وفي يومٍ ومن دون مقدِّماتٍ، أو أسبابٍ واضحةٍ، تغيّر، ابتعد، لم يعد في متناول عينيّ، كما لو أنّه قد صحا من غفلةٍ، وصفا للكبْو الذي اعتراه؛ فقد ذاب مفعول الشّكل، وبدأ يلحظُ الاختلافات، ويلمس المهاوي التي حدّدت المسافة ما بيننا، ساعة طلب أن نفترق، احتقنَ الحنقُ في حَنجرتي، هزئت بفجاجتِهِ، شتمته، فقدت السّيطرة على أعصابي، طردته، كانت العين في العين، والوجه قبالة الوجه، لحظتها أدركت أنّه غارقٌ فيَّ مهما أنكر، افتعَلَ سعالاً مفاجئاً، هبَّ واقفاً، تكسَّرَ في حرجِ المذنبين، وغادر، يومذاك؛ مشيت في السَّاحات، بلا اهتداءٍ، وأنا على أتمّ الثّقة، بقدرتي على ركله من حياتي، ابتعت ثياباً لا أحتاج إليها، فكَّرت بذراعي الغريبة، بقوّتي الملعونة، بأشباهي الأربعين، بعودة ماويّة الأشبه بالانتحار، بأمّي التي هجرتنا منذُ أمَدٍ بعيدٍ، بأبي الذي لم نتعلَّم منه كيفَ نكنسُ، ونطهو، ونحفظُ الأُسرة، فكَّرت في قلبي المنطَفئ؛ وهو يوضِّبُ الزَّمن، نبضةً إثرَ أُخرى، استليقت على ظهري في الحديقةِ المرتفعة، راقبت السَّحابة الخفيفة التي كانتْ أرنباً؛ ثمَّ استحالت طائرَ فلامنغو، راقبت أخواتها، لحظة أحطنَ بها، وتقلَّبنَ طويلاً مثلَ حبَّات الفوشار، شاهدت أيضاً ذلكَ الغبش؛ الذي تهادى، بحنوٍّ، على وجهِ السَّماء، راقبته وهو يموجُ، ويتّضح، ويصيرُ كلّه وجه محمود.

في ذلك الحين؛ كانت التقارير الخفيّة، قد شرعت تتفشّى في الصّحافة، عن تصدّر ميونخ، لتصبح إحدى مراكز تجارة الآثار المنهوبة، ولاسيّما تلك؛ القادمة من الشّرق الأوسط، إذ لم تعد الفضيحةُ سرّاً، ولست أفهم لماذا انضممت إلى شبكةٍ لحفظ الإرث الأثري السّوري!، ولماذا خضت نضالاً من نوعٍ جديدٍ، لإعادة المسروقات إلى بلادها الأصليّة!، ما أفهمه تماماً أنّي كنت في غاية السّعادة، في غاية الحماسة، في غاية البلبلة؛ فقد بدا عظيماً، عظيماً جدّاً، طعمُ الكفاح؛ ذاك الذي أمسى طريقاً إلى وجه محمود.

كان بودّي لو استطعت معاينة دوافعي، أكانت خيراً خالصاً، أم شرّاً؟!، رحت أرقبني، وكأنّي مزرعةُ جراثيمَ، تتراقصُ تحت مجهرٍ، فيها الضّارّ، وفيها النّافع، ما ينمو أكثر يحتلّها، غير أنّ مخبري الباطنيّ كان أعقد، وأفظع، سلاسل غير منتهية من السّواد والبياض؛ فاستخلاص ما هو نقيّ مناقضٌ لبشريّتي، لقد أثبت لي محمود؛ أنّنا لا نعرفُ أنفسنا جيّداً، وأنّه يحدثُ أنْ نلتقي بها، مصادفةً، على مفترقِ الخيارات الحاسمة، لحظة يتولّى أحدهم، فتح أبوابنا الدّاخليّة المغلقة، بيد أنّي لم أبحث عنه، لم أحارب لاستعادة قلبه، ترجمت خذلاني بالضَّحكِ والجنون، واغترابي بكثرةِ الترحال، عدت إلى أميركا، همت في نيويورك، مدينتي الفارهة، غير السّعيدة، مدينة الأثرياء، وقليلي التهذيب، والقهوة، والبيتزا؛ التي آوت من اليهود، عدداً يفوقُ أيَّ مدينةٍ أخرى في العالمِ، كان شعوراً جديداً بالحريّة، تنامى مع استقراري في منزلٍ صغيرٍ، بعد أن باع أخوتي بيتنا، داويت اضطرابي، بالبحث عن إيشي، فتّشت عنها في كلّ مكانٍ، وزّعت اسمها على مواقع التّواصل، وأعلنت عن مكافأةٍ لمن يدلّني عليها، ربّما لو لم أجدها لكنت ضعت، وأحسبُ أنّها من وجدتني، حيث أنَّ كلّ عاطفةٍ حارّةٍ، ثنائيّةٌ بالضّرورة، ومع خروجي في أوّل مظاهرةٍ «كفاحيّةٍ»، تندّدُ بالعدوان الإسرائيلي على غزّة، أدركت جيّداً، أنّي لن أشفى من محمود، حينذاك زارتني سيّدة غامضة اسمها جيفن، راحت تفاوضني على الانضمام إلى منظّمتهم الاقتصاديّة، القويّةِ التّأثير، اليهوديّة الطّابع، واستفاضت في شرح توجّهاتهم، ورؤاهم المقدّسة، تعاملت معها كمثل التّائهين من مرضاي، ممّن يتهوّرون ويتطلّبون تفهّماً مضاعفاً، جيفن؛ التي لم يعقها صدّي عن تكرار زياراتها الغريبة، أكّدت في آخر مرّةٍ؛ أنّها ستتركُ الباب مواربًا، وأنّها مستعدّةٌ، في سبيل استمالتي، إلى تقديم أيّةِ خدمةٍ، مهما عظمت، لم يكن ذهني صافياً وقتها، بما يكفي لتحليل كلماتها؛ فكل ما فيّ كان مشغولاً، ومنذوراً لمحمود، أثّثت بيتي بقبّعةِ إيشي، ويدها الكبيرة الحانية؛ ثمّ جُلت العالم لأنساه، مرَّةً بحجَّةِ السِّياحة، ومرَّةً بحجّةِ العمل، ومرّاتٍ عديدةٍ بلا هدفٍ أو مسوِّغ، في فرنسا مثلاً،

أربكتني الفروقات بينَ مجتمعهم الحميميّ، ومجتمعنا الأمريكي البارد، بدءاً من المقاهي الخارجيّة، والحدائق العامّة، والسيَّارات الصَّغيرة، والأرصفة الوسيعةِ؛ التي تقاربُ السَّبعَ عشرة قدماً، وليسَ انتهاءً، بطريقة النّاسِ العميقة، في النَّظرِ بأعينِ بعضهم البعض، كانوا يستمتعونَ معاً، في البيوت، وفي المطاعم، وفي السّاحات الصَّغيرة، وفي متحفِ اللّوفر؛ عثرت على تمثالٍ، خطفَ قلبي، كانَ مشغولاً من الفضّة والذّهب، لأفروديت آلهة الحبِّ والجمال؛ وهي تخلعُ حذاءها، في غنجِ الأميرات، أحدُ العاملينَ هناكَ أخبرني؛ بأنها الإلهةُ الإغريقيّةُ الفاتنةِ؛ التي وقعت في غرام إله الحرب، ثمّ غمغمَ بلهجةٍ محايدةٍ:

«إنّه تمثالٌ سوريٌّ»

لمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ، حتّى عثرت على منحوتةٍ أُخرى، للرَّبةِ أفروديت، كانت معروضةً في موقعِ إلكترونيٍّ للمزادات، تحت عبارة **«آثارٌ سوريّةٌ للبيعِ»**، انتابني إحساسٌ حارقٌ بالمهانة، وفي الموقعِ ذاتهِ، عثرت على تمثالٍ ساحرٍ، من الخزفِ المطليّ، لبقرةٍ وعجلها، تعودُ إلى النّصفِ الأوَّلِ من القرنِ الثالثِ عشر، وسرعان ما أدركت أنَّه مسروقٌ أيضاً، من مدينةِ الرِّقَّة السورية؛ والتي كانت من أهمِّ مراكزِ صناعةِ الخزفِ في تلكَ الحقبة، قمت بحملةِ تفتيشٍ عن مواقعِ الإنترنت، واكتشفت فيها أكبر سوقٍ سوداءَ، للمتاجرةِ بآثارِ البلد:

«تريد شراء الآثار السُّورية أو بيعها؟!، لا تبحث بعيداً عن فيسبوك، التّسليم في تركيّا»

«آثار للبيع، الرّجاء عدم عرض قطع مزوَّرة»

«المّادة ذهب، الكتابة مسماريّة، الوزن ٧٠٠غرام، الطُّول ١٢ سم، التّواصل على الخاص»

«لجامعي التحف (مفاجأة سارّة): جديدنا... آثارٌ بعمرِ ١٠ آلاف سنة»

بعد عامٍ؛ من بناء شخصيّتي الجديدة، القويّة، عدت إلى ألمانيا، في زيارةٍ خاطفةٍ، إثر دعوةٍ تلقّيتها، من فريق توثيق الإرث الحضاري السّوري، لحضور مؤتمرٍ موسّعٍ، يضمُّ الباحثين والمتطوّعين والدّاعمين، من جنسياتٍ مختلفةٍ، تطلّعنا إلى إنشاء أرشيفٍ رقميٍّ، للمواقع الأثرية، ولا سيَّما تلك المعرّضة للنّهبِ والدّمار، وذلك بغية إعادة ترميمها إن أمكن، أو إبقائها حيّةً في الذّاكرة، على أقلّ تقدير، كما تباحثنا في وسائل الإطاحة، بتلك الأسواق الخفيّة، لتجارة الآثار، حتّى أنّني طرحت، في حماسةٍ، فكرةً غريبةً، تتعلّق بشراء ما أمكن منها، وإعادتها إلى بلادي، ولكم شدّدت على كلمة «بلادي»، ظننتني أكفّرُ بالخير، عن شرّي، وأتحرّرُ من روح أبي؛ التي لم تكفّ تطاردني في مناماتي، وفي مداخلةٍ قدّمتها، هتفت بأسى:

«ما زالت عمليات الحفر تتوالى، في وضح النَّهار، بمعاولَ يدويّةٍ، وجرَّافات آليّةٍ، من أجل العثور على اللقى، والكنوزِ الأثريّةِ الدَّفينةِ، العالم يسرقنا كما ترون، لمْ يكتفِ بغزونا، وبذبحنا، وبتحطيمنا، وسرقِ مستقبلنا؛ إنَّه يسرق ماضينا أيضاً»

أطلقَ أحدهم صفيراً طويلاً، من دون أنْ يُبدي أدنى تلطفٍ، أو تعاطفٍ معي، قاطعني بتهكّمٍ:

«أووو!، جميلةٌ هذه الـ «نا» التي تذيِّلينَ بها كلماتك!»

غير أنّي لم أهتمّ، استتليت، وكأنّني على عتبة الخلاص:

«أطبّقُ هذا على نفسي، ومنذ اللّحظة، ثروتي كلّها، كلّهاا، تحت تصرّفكم»

لم أنتبه إلى أنَّ محموداً، كان ضيف شرفٍ، في ذلك اللّقاء، ولم أعلم أنّه سمع كلامي، وأجهش في الإصغاء، إلّا حين راسلني بعد أقلّ من ساعةٍ:

«عزيزتي ريتا: يبدو أنّك قدري، وأنا في الطّريق إليكِ»

الدّرجة الثّانية

ماويّة نجيب الواثق

«جميعنا مكسورون، هكذا ينفذ الضّوء»

إرنست هيمنغواي

زهرةُ الصّبّار

لربّما لم أمت!!، وكيف يجزمُ من لم ينعدم من قبل؟!، تنصّلت من ثقلي كامرأةٍ؛ بت وهجةً خفيفةً، تتقاذفها أذرعُ الأخيلة، وإذا بوجه أحمر يشرقُ، كما نجمة الصّبح، في ظلامي؛ فأتبعه، وأنحفرُ في الضّباب المغشّى، أعمق فأعمق.

يخرجُ النّور من أكبر جرحٍ فينا، يتدفّقُ من أوهى موضع؛ فيتحوّل من سرٍّ جوفيٍّ إلى نبعةِ ضوء، وشيئاً فشيئاً يشرح ذاته، تحفّني هاهنا أقمارٌ، بيوتٌ، بحارٌ، تشربني الطبقات البليلة، كمثل دمعة، أنحدرُ، أتوغّل، وفي العمق الكثيف، على مقربةٍ من جوهرٍ ما، أسمعُ صوت نقرٍ على زجاج، حاسّةٌ إضافيّةٌ تشرع بالعمل، لكأنّي في دورةٍ جنينيّةٍ جديدةٍ، بلى أنا أسمع، بيد أنّه ما من مصدرٍ، ما من أصابعَ تدقُّ، ما من صنوج، ما من نوافذ، أو طائرٍ ينقرُ البلّور، ما من... إنّه قلبي.

تنفردُ خريطةُ النّبض حولي، أترجرجُ مع النّبرِ الخفيت، تهدر حواراتٌ ما، في هدأتي، أصواتٌ متداخلةٌ، تزوبع كمثلِ ريح، تتسيّدُ الصّمت، أسمعهم بوضوحٍ، أوقفُ الحفر، أكابد رجوعاً، كيما أصعد، أُحلّق، أبتدعُ أشكالهم، أرتفع، كمثل بخارٍ خفيفٍ، أنجحُ في تخليقِ هيئاتهم، وفي هندسة نظراتهم، أشعرُ بهم، أُدرك أنّي حبيسة قفصٍ ما، ما زلت عالقةً في الطّين إذن!!، تجوسُ أخيلَتهم حولي، يجلجل همسَهم، يمضُّني، يُشَرِّخُ بمخالبهِ غلالَة السُّكونِ العميقِ:

«لن تفيق»

«الغيبوبة تبلعها»

«رَعَشَ إبهامها»

«ستعيش»

«اختلجَ جفنها»

«ستموت»

تترنّحُ ندفُ أحاديثهم بتثاقلٍ، تغلّفني، وتضرِبُ في أغواري جذورها، تتفتّحُ وردةٌ فيَّ؛ فإذا بي صبّارة، تعاينُ، بانسحارٍ، ذاتها المزهرة، من دون أن تفهم ما قد حدث، وكاللّمح تمسي كلماتهم مادَّتي الوحيدة، تنفخُ فيَّ من روحها، وتخلقُني مجدَّداً على طريقتها.

«انتهى الوقت!، رجاءً، هي لا تسمعكم»

تتظاهرُ نبراتهم؛ بأنّها قويّةٌ لا تنكسر، بيدَ أنّي أضبطُ شَرْقَة الغمِّ فيها، سعلةٌ جافّةٌ، زفيرٌ بطيءٌ، نحنحة، أتخبَّطُ بحثاً عن يقظةٍ ما، أجدّفُ في عالمٍ مُضَبَّبٍ، شفيفٍ، عصيٍّ على الإدراك، أطفو، أرصدهم بعينين مغمضتين، أقتفي ببصيرتي دبيبَ أقدامِهم، وأجسُّ تواتر الهواءِ بينَ أنفاسي المتقطِّعة وأنفاسهم.

يؤكّدُ صوتٌ أنَّه ما من داعٍ لبقائي في المشفى، وأنَّ موتاً على فراشٍ دافئٍ، في منزلٍ، سيُريحُ روحي؛ فيتهرّبونَ من التّلميحات، بحنكةٍ، يُفصِّلونَ بعضهم لبعض انشغالاتهم، ويسوّغون برويَّةٍ، غياباتهم، وانقطاعاتهم المطَّولة عنِّي، تطول المحاكمة، من دون أنْ يخطرَ لهم، ولو هنيهةً، أنّني أُعاينهم من مكانٍ عالٍ.

كلّي أُذنٌ؛ رحت أنسابُ مع الإيقاعات، أشهقُ صوتاً، أزفرُ صوتاً، لطالما علّمني **«علمُ الأعصاب»** أنَّ العطبَ الذي يحيقُ بحاسّةٍ ما، لابدّ مِنْ أن ينجمُ عنه تطوُّرٌ تعويضيٌّ، بحاسّةٍ أُخرى، قلبي الآن؛ غشاء الطّبل، لا أرقّ، لا أوهى، كل الكلمات تدقُّ عليه:

«اليوم ذكرى ميلادها»

«كل هذي الأشهر الطّويلات... غيبوبة؟!»

«نحن بانتظارك»

«طالت نومتك يا حبيبة!»

«تسمعينني؟!»

«ردّي بأيّة إشارة»

«ردّي»

«ردّي»

يتحلَّقونَ حولَ جسمي الخشب، يتناوبونَ على استجوابِ الطَّبيبِ، يُثيرونَ سخطَه؛ فيزفرُ جملَته الباردة:

« الأمل ضئيلٌ، فعلنا ما بوسعنا، والباقي على الله»

أتخيّل الأملَ، بقامتِهِ الزّاهيةِ، الملتهبة؛ وهو يخور، ويذوي، ويرتعش كضوءِ شمعةٍ، الأملَ الذي سيُدَسُّ في النَّعشِ معي، وسيُحمَل على الأكتافِ مثلي، وسيذهبُ من دون رجعةٍ إلى حيثُ سأذهب.

رِجلان تخطوان بتؤدةٍ، تتخامدان قربي، لاشكّ في أنّها أختي، عرفتها من ندبة معصمها، ومن ملمس راحتها، الرّاعشة، على خدّي، مازال جسمي معي إذن!، أحسبها تنشّفُ دمعها، بما تدلّى من منديل الرّأس الهفيف، ربَّما تبتسمُ الآن، لتواري جمرَتي عينيها، أسمعها تنتحبُ بصوتٍ واجفٍ:

«لكأنّي أطرقُ باب دارٍ مهجورةٍ»

«لا يفتح أحد»

«لن يفتح أحد»

«أيُّ قضاءٍ لا رادَّ له يا إلهي!!»

تحوطها الأصوات، تربّت على حزنها، إنهنّ صديقاتي، نبراتهنَّ هويّاتهنّ، أتشهّى النداء بأسمائهنّ، بعدَ صمتٍ وجيزٍ، يتنهّد رجلٌ، تنهيدة زوجي!!، أحفظُ مدّتها، وحدّتها، والانقطاع المباغت في آخرها، أحلمُ بإيقاف المشهد عندها، يَخْبطُ بقبضته سطحاً معدنيّاً، أخاله يوشكُ أن يختنق، ثمَّة إشاراتٌ، وروائحُ، وخيالاتٌ،

تؤثِّثُ في رقدتي المديدة، مكاناً بديلاً للحياة، أستعينُ بها لترجمة نأماتهم إلى مشاهدَ مرئيّة؛ فهي عدّة سينما جوّانيّة، تظهّرُ وجودي المخاتل، أُصغي إلى النّغمات الموسيقيّة؛ التي تخلِّفها سحريّةُ الأشياءِ، رنّة جوالٍ خفيتةٍ، صرير بابٍ، تكّة ساعةٍ، حفيف ثوبٍ، فرقعة أصابعٍ، ارتطام مرفقٍ بالجدار، أُحصي اهتزازات السَّريرِ، كلّما مسَّه أحدهم بالخطأ، أُحدِّدُ مسارات خطاهم، وأفعل ما يفعله العميان؛ أُعيدُ خلقَ الخارجِ الموحشِ - برفقٍ – في داخلي.

من الغيبِ؛ تفوحُ رائحةٌ مألوفةٌ، تهمهم جمانة، كما لو كانت تتلو برقيّة رثاءٍ:

«في ذكرى ميلادها، أتمنى لها الخلاص»

أتصَوَّرُ خطفاً شعرها اللَّولبيَّ، ينتثرُ مطراً من ذهبٍ لَمّاعٍ، أُصغي إلى هسهسةِ أساورها الفضّة، إلى حفيفِ معطفها الجلديِّ، وأتنشَّقُ عطرها ديور «Dior»؛ فيختلطُ عبيرُ الماغنوليا، بصوتها المغناجِ، إذْ تهذرُ، بنغمةٍ عجلى:

«لنذهب يا جماعة، إنّا نقضّ هدأتها»

من زاويةٍ ما تغنّي هنادة، على نحوٍ مفاجئٍ، غناءً شجيّاً، خفيضاً:

«سنة حلوة يا جميل، سنة حلوة يا...»

تشاركُها راويةُ الهمس المذبوح، تدندنُ ببُحَّتها العميقة، تسوقهما الأقدامُ، نحو الأغلبيَّةِ السَّاكتةِ؛ فيمتزجُ الصَّوتانِ الواهيان، جرَّة قوسٍ واحدةٍ على أوتارِ كمنجةٍ، من اللَّحنِ الأهوجِ، تعود الخطى اللّائبة، تدنو منّي، تتوقَّف على مهلٍ، تلَمْلِمُ كفُّ أختي أصابعي، تجمِّعها، كمثلِ شُعَلٍ، بينَ قبضَتيْها الضّاغطتيْنِ، تسيل فجيعتها على جبيني، تنسابُ على عنقي، أشعرُ بكلِّ موضعِ تلمسه، كأنّها تبنيني، تطبعُ قبلتها؛ فأتوحّدُ بخلخلةِ الهواءِ، تدَفِّئُ براحتيها قدميَّ المثلَّجَتيْنِ، يلسعني زفيرها المضطرب، يرسمُ لها، في الخواءِ، ظلًّا، كما لو كنت أراها من خلفِ زجاجٍ

مغشّى، تحطُّ برأسها قربَ أُذني، من دون أن يعضّ الخوف روحها، تفرِّقُ الشَّعرَ المرخى فوقها، ثمَّ تصبُّ فيها ابتهالاتٍ عميقاتٍ، متيقّنةً بأنَّ الله سيسمعها، من مكانٍ ما في داخلي، أودُّ لو أصرخ، غير أنّي لا أستطيع.

«يا ماويّة»

ينادي صوتٌ داخليٌّ ما، محاولاً حثّي على المواصلة، لكنّي لا أكترث، لن أعاود الحفر، لا أريد مباهج هذه السّكينة الرّائقة، أريدُ عناق هدى، هناك في الأعالي، أودُّ تهدئة زياد، أَحْسَبُه اللّحظة مطأطئ الرّأسِ، يصرّ على أسنانه، يختلجُ باستذكارات ماضينا، يصوّبُ نظره نحوي، كلّما تماسك، يتضاءل في جاكيت بدلته الكحليّة، ربّما لم يخلعها منذُ... لابدَّ من أنّها تذكّره بنا؛ أنا وطفلينا القتيلين، أحدسُ أنّه أمسى هزيلاً، بذقنٍ غير حليقةٍ، تنكسر فوق ياقةِ قميصٍ بلون البحر، على ضفافها تتلامح تجاعيده المستخفية، أجزمُ بأنّ الآلام؛ تتعاظم في ركبته اليمنى، وفي فقرة ظهره السّابعة، إحداهنَّ تخطو اللَّحظة باتجاههِ، طقطقةُ كعبَيْها الطَّويلينِ، تتخامدُ قربَ قدميهِ، كصوت بندولٍ نحاسيٍّ، ربّما تقدِّمُ له منديلاً؛ ليمسحَ دمعه، ربّما تصبّره بما لا أستطيعُ سماعه، ولكنّه لا يجهش بكلمةٍ، يتجاسرُ أخيراً، **«شفاها الله»**، يعنيني بضمير الغائب، ما أقسى أن يدركَ المرءُ أنّه «الغائب»، يدفعُ اللَّحظة باباً ثقيلاً، يتوقَّفُ ثوانيَ، يهمسُ بجملةٍ مبهمةٍ، ثمَّ يخرجُ، ترافقه طقطقات الكعبينِ الشَّاهقينِ، يغادرُ على عجلٍ، من دون أنْ يلمسَ يدي، أو يقبِّلَ جبيني الفاتر.

ضلالات أيلول

يخترمني النّور مجدّداً، يجرفني نثاراً، في فيوضِ الذّاكرة، الإنسانُ أصلاً ليسَ أكثرَ من ذكرياته، أربعونَ ماويّة يدرنَ اللّحظة حولي، في عرضٍ مسرحيٍّ وامضٍ، يحدجنني بذهولٍ، آخرهنَّ ناحلةٌ، وشاحبةٌ، إنّها الثّكلى؛ التي اعتقدت طويلاً؛ أنَّ حكايتها ستنتهي في مصحٍّ عقليٍّ، لم يخطر لها، البتّة، أنَّ نهاية كلّ حكايةٍ؛ هي بدايةٌ لحكايةٍ أخرى، وأنَّ ذلكَ الانجدالَ بينَ النّهايات، والبدايات، إنّما يحمل الشّيفرة؛ التي تتخلّقُ منها الأبديّة، تماماً كسلاسلِ الحمضِ النووي.

وأتذكّر...

ذلكَ الأيلول الدمشقيَّ، ببردهِ، وبغربتهِ، يومها، كان يمكن لاحتضانٍ خاطفٍ أن ينقذني من بؤسي كلّه؛ ربّما لهذا أسعفَني الخيال، من حيث لم أحتسب، بذراعينِ طويلتينِ، وسرعانَ ما نبَت للذراعينِ جسمٌ، وعنقٌ، ووجهٌ، وكتفانِ رحبتانِ، وعاليتانِ، تفتحت التفاصيل، تباعاً، في حديقةِ الملامح، طولٌ فارعٌ، وشعرٌ كثيفٌ، وعينانِ بُحَيْرَتانِ، وشامةٌ باهتةٌ على أسفلِ الذَّقنِ، ولفرطِ الطَّمأنينةِ التي غمرتني حينها، وجدتني ألجأ إلى مخيَلتي كلّما هدّني وجعٌ، أو مسّني إحباطٌ، وبطواعيّةٍ استجابَت **«مكنةُ التصوُّرِ»**؛ خلّقَت لي طيفاً، وكأنْ من صلصالٍ؛ الطَّيفُ الذي ابتكرته، مصادفةً، أمسى وسادةً، لرأسي الثّقيل، ورفيقاً دافئاً، لأشهرٍ طوال، كانَ يسحبني إلى زمنهِ، كلَّما أطبَقَت عليَّ عقاربُ الوقت، يقودني من يدي، ويختطفني إلى ركنٍ هادئٍ، إلى ربوةٍ، إلى غيمةٍ، إلى أيٍّ من بقاع السَّكينة، وما أكثرَ أن أبحرنا معاً في يختٍ أثيريٍّ!، وما أكثرَ أنْ هدهدَ لي حتّى غفَوت!، ما كنت أرجعُ لوجودي الماديّ إلّا قويّةً، وممتلئةً، ظلَّ الأمرُ مريحاً، مسلّياً، ولمْ يتعدَّ حدودَ تجربةٍ ذهنيّةٍ مثيرةٍ، إلى أنْ انقلب الهناءُ عليّ، بات يُحادثني حينما لا أطلبُ، يحضرُ وقت لا أستدعيهِ، ويفعل بحرّيةٍ ما لا يمكنُ أن أفكّرَ فيه؛ فيستعيرُ جسمي، ليهرول تحت

المطر، أو يقهقه فيَّ كما الأطفال، حاولت خنْقَه، وفق المتاح من المنطق، لكنّه آثرَ الخروجَ من القمقم، صارَ الوهمُ حقيقةً، تجلَّى بلحمٍ ودمٍ، وفقدت- مع الوقت- سلطتي عليه، وعلى الرّغمِ من يقيني بأنّه لم يتعدَّ نتاجَ إرهاقٍ متراكمٍ، أو هشاشةٍ عاطفيّةٍ؛ فإنّه قد انحرفَ بي عن الواقع، ثبَّتني في مهبِّ ريحٍ، أوقعني في إحراجاتٍ غير نهائيّةٍ، إذ ما أكثرَ أن عانيت، في نوبات البكاء، كلّ المرايا والصّور، وما أكثر أنْ سألني زوجي:

«تحادثين أحداً؟!»

وأمامَ البابِ؛ كم وقفت الممرّضةُ مذهولةً، لتغمغمَ:

«يا دكتورة خلتكُ تكلّمينَ مريضاً...!».

لم أكنْ أوَّلَ طبيبةٍ نفسيَّةٍ، يحيقُ بها دمارٌ جوَّانيٌّ كذاك، لكن ربّما كنت أوَّلَ مَنْ اختبَرَهَا مرضٌ، لم يُسجّل من قبل، في كلِّ الكتبِ التي درَّسَتها جامعات العالم، لقد أيقنت، وقتئذٍ، أنَّ ذلك الامتزاجَ الغرائبيَّ؛ الذي عشته، سيقودني من يدي، نحو نهايةٍ مؤكَّدةٍ، ويبدو لي أنَّ هذا ما حدَث.

وأتذكّرُ...

الأيلولَ الذي يليه؛ حلَّ كآخرِ الرَّملِ، في ساعةِ الزَّمن، كانَ يوماً حارقاً، لكأنّما الخريفُ قد استحالَ صيفاً في الجبل، قاظت مثله روحي، وصَلْت إلى أشدِّ بقاعهِ وعورةً، كانت الحجارةُ قد اكمدّت من سفعِ الشّمس، الهواءُ يحترق، العصافيرُ تحلِّق بانضباطٍ، ترفرفُ وفقَ متواليةٍ في السّربِ الطّويل، لم تشَتتها الطَّائرةُ الحربيّةُ؛ التي قصَّت خصرَ السَّماءِ، كل شيءٍ، في ذاكَ الخواءِ المضني، بدا متناسباً مع الحربِ الطَّويلة، الأنسامُ السَّاخنات، والسَّحالي المتخفّيات، وشذا الأزهار البرّية المعشَّق بالبارود، وبحرٌ مثقلٌ، بطفوحاتٍ هادئةٍ، من الصُّخورِ البركانيّةِ، يتوهَّجُ اللّونُ الرَّصاصيُّ فيها، كأنَّه قطعانٌ من الأقمارِ السَّارحة، يتماوجُ بتدرُّجاتٍ غير منتهيةٍ، تتماهى أحياناً مع دكنة الظلالِ، لكن لا تتوقَّفُ البتّة عندَ الأسود، من الصّخرِ انبثَقَت شجرةُ بطمٍ أطلسيٍّ، تباسَقَت كالأُعجوبة، فيما جذعها المُخدَّدُ، العريضُ، ملتصقٌ

باليقين، على حافةِ البئرِ الرّومانيّة، العتيقة، وقفت بثباتٍ، انحنيت، حدَّقت إلى فوهتها، المحفورةِ باستدارةٍ مشوّهة، إلى العمقِ المُعْتم، حيثُ تقبعُ عظامُ أُمّي اليابسات، وهياكل كلِّ المضطهدات، الهاربات من ألمِ الحياةِ، كنت على ثقةٍ بأنَّ لغطاً كثيراً؛ يخرجُ من هناك، تلفَّت حولي؛ فيما صدري يرتفعُ بشهيقٍ عميقٍ، كنت النقطة الحيَّة الوحيدة، في ذلكَ الامتدادِ البازلتيِّ الجليل، تسَارعت أنفاسي، لمحت دوريَّاً، يحكُّ منقاره بزندِ الشّجرة، ورجلاً؛ هو الطّيفُ الذي صَنعته يوماً، ورسَمته بريشة قلبي، يخرجُ منها كحاوٍ، يتطلَّعُ إليَّ بخيبةٍ، يدنو منّي، يغمغمُ:

«ستنتحرين أيضاً؟!، ستموتين؟!، نهاية عاديّة، ومتوقّعة، الموت سهلٌ جدّاً، واقعيّ ومُكرّر، ستنسحبين كأيِّ سيّدةٍ محبطةٍ وواهيةٍ!، أيّتها الطّبيبة؛التي كانت سبباً في سعادةِ مئات النَّاس، أنت الآن سببٌ جديدٌ، سيضافُ إلى تعاسَتهم، أيّتها الأمُّ؛ التي لن تحكي القصصَ لقبرَي طفليها بعد الآن، كيفَ ستكبرُ من دونكِ الألعابُ، والدَّفاترُ، والقُبلات المنقوشةُ على الثِّيابِ الصَّغيرةِ!، أيتها الزَّوجةُ؛ التي خلَّفَت وراءها زوجاً مُنهَكاً، وخائراً، بماذا تفسِّرينَ فعلتكِ للشَّقيّات، والمريضات، واليائسات، وهنَّ يخضنَ ببسمةٍ قهرَ الحياة؟!، أيتها المرأةُ الجميلةُ؛ لمن ستتركينَ مهمّة تهدئةِ العالم، واحتضانه؟!!».

في تلك اللحظة تماماً؛ زلَّت قدمي، وزاغتْ روحي، وسقطت.

ملكةُ عرب الصحراء

«يا ماويّة»

ندَهَ الصَّوت، النّائسُ، مرَّةً أُخرى، تطلَّعت، بخيبةٍ، إلى أسفلَ، جنحت للتّسليم، أجبْت، وقد تهدَّجَت عواطفي:

- ماذا؟!

- اتبعيني

- آه، ليس لي إلّاك، بلى... إنّه البؤس، إنّها الحقيقة الكارثيّة

- كارثيّة؟!، يعزّ عليّ سماع هذا، يعزُّ عليّ!!

- أعتذر، يعني...، ولماذا أعتذر؟!، أنت تدفنني في العدم، في هاويةٍ مظلمةٍ، لا قرار لها

- أنا؟!

- هذي الأشعّةُ الوهّاجة، التي يبثّها وجهك الـ... بلا انقطاعٍ، لن تعميني عن زيفك، انشدادي إلى مؤانستك، إنّما هو من جنس الخدَر، والتأزّم، والرّغائب المحلومة، ما يحدثُ الآن، كل ما يحدث، محضُ تهويمات.

- تحمّلينني ما لا ذنب لي فيه من الدّنايا، والآثام، وعدتكُ بتحريرك، برفعك، كيف أدفنك؟!.

- أرأيت؟!، حتّى مجادلاتك فلسفيّة، تشبهني، لغتك الصّعبة منهكة، مخيفة، تشبهني، تحلّل، وتفنّدُ، وفق طبائعي، أنت معرفتي، وسريرتي، وبصمتي الباطنة، أنت ذاتي بطريقةٍ ما!، أنت لعنة.

- طيّب، بعد كلّ هذه التفاسير، ما الذي تريدينه؟!

- كل شيءٍ في صراع «العتمة والنور» يريد افتراسي، لا أريد أكثر من اجتياز هذا النّفق، أريد الوصول، يا الله، أيّ وصول.

- وما الذي في مكنتي فعله؟!

- لا شيء

- لا شيء؟!

- أنت هامشٌ تلقّف جثّتي، كمثل شاطئٍ، ليتك كنت شيئاً

- لست شيئاً!!، لست... شيئاً، طيّب، اقبليني حلمك لو شئت

- أضحكتني، وكأنّي أملك نعمة الرّفض أو القبول!، سأجنّ، سأجنّ، ليتني أعيش لأضمّهم، ليتني أموت، كيما أحرّرهم من هذا الحزن، ليتني أستريح.

- مؤسفٌ أنّي لا أملك سوى الإصغاء لأمنياتك

- دلّني على وسيلةٍ، على تعويذةٍ، ألم تخرج منّي؟!، ألم تلازمني في حياتي الماضية؟!، اقترح، اكذب، قل شيئاً يلهمني

- ما أغربك؟!، قبل لحظة سفهّتني، إنكارٌ واعترافٌ بآنٍ معاً؟!، جننت أنت أم أنا من جننت؟!

- معك حق، مازلت ألتذّ بفصلك عنّي، لكيلا يقتلني التوحّد ربّما!، أنا السّببُ في تفتّتي

- لن ترينني بعد الآن، هذا ما في وسعي تقديمه

- تمهّل!، سامحني، افهمني، للمرَّةِ الأخيرةِ، أرجوك، لطالما أنّ كلّ ما يجري لنا الآن وهمٌ في وهم، اشرح لي، كيفَ كنت تخرجُ إليَّ بالضَّبط؟!، صِفْ لي الطَّريقة، كل تفصيلٍ قدْ يُفيدُني في التعاملِ مع هذهِ الكارثة

- يُفترضُ أن أضحك، لكنّي حزين

- يا ربّ ساعدني، أنا حيّةٌ أم ميتة؟!، أهذا منامٌ أم واقعٌ؟!، يا ربّ، يا ربّ

- ليتك تستطيعين البكاء، فلو فعلت لهان كلُّ شيءٍ، لكن كما ترين، حواسّك متّحدةٌ معاً، لكأنّها تستعدُّ لطرح ثمرةٍ ما

- أريدُ الفرار من هذه المعركة، أريدُ....، أمم، المعـ...

- اهدئي يا رفيقتي، اثبتي

- ....

- هات يدكِ

مدَّ كفّه نحوي، ضاء كما النّهار، دنا وهو طافٍ في الفراغِ، بجسمه الشَّبحيِّ، بالهالة القدسية ذاتها، توهَّجَت مقلتاه، تخلّلتني دفقات ضياء؛ فاقشعرَّت روحي، أشحت بنظري؛ لكنّه كان في كلّ مكان، يتدفّقُ على نحوٍ نهريٍّ، نديٍّ، أوشكت أنْ أمنحه أصابعي، أو ما خلتها أصابعي؛ بيد أنّي تراجعت، انكمشت على نفسي، سألت برهبةٍ:

«إلى أين؟ تبعتكَ كثيراً، ولمّا نزل نحفر في مجاهل جديدة، ألا يكون «الأسفل» قبراً فاغراً؟!، ألا تكون ملاك الموت؟!»

شعَّ محيَّاه بابتسامةٍ دافئةٍ، انبثقَ، بعدها، اندهاشه متقطّعاً، ومغموراً بكثيرٍ من الودّ، والأُلفة:

- أنت جادَّة؟! تهجسينَ كالأحياء بالموت!، يبدو لي أنَّ فِلْمٍ ذلك الزمن قد ابتلعك

- أيُّ فِلْمٍ؟!

- ...

- أيّ زمن؟!

- لا بأس عليك، أتحسبين حقّاً أنَّ هنالكَ زمناً؟!، ما من زمان يا شريكة، وما من مكان، هنالك شعورٌ وحسب، أمّا تلك التّسميات فألعابٌ لخداع

الوعي، ليس إلّا، الأضداد أيضاً أدوات تلاعبٍ، واحتيالٍ، فالأعلى والأسفل قطبان منطبقان، وكذلك الأبيض والأسود، التّقدم هو التدرّجات، هو التّسامي، التسامي وحسب.

- ولماذا تستعمل اللّفظ إذن؟!

- لكيلا نستمرّ في الجدال إلى الأبد، لكيلا يقتل أحدنا الآخر، لأُفهِمَكِ، أنت التي لا تريدين أن تفهمي

- حسنٌ، دعنا من هذا كلّه، أنا رميم، ابعثني على هواك، وسأفعل ما شئت

- اتبعيني، اتبعيني

حدجني بنظرةٍ مطوَّلةٍ، وغماميّةٍ، على مضضٍ، منحته يدي، أو بعضي؛ الذي تخيّلته يداً، تخيّلت أيضاً شعراً يرفرفُ خلفي، وقلباً يدقّ، يدقُّ، تخبَّطت كثيراً، وكأنْ في بحرٍ هيوليّ القوام، بنيت جسماً، ثمَّ هدمته، بنيت، وهدمت، إلى أن أدركت مثله تماثل الهدم والبناء، انطلقنا، كيان واحد يجرف ما يعترضه، طلقة في فضاءٍ، ليست تعقل، أو تتمهّل، أو تستردّ، تشبَّثت بهِ، يدي في يدهِ، وجودي في وجوده، بسرعةٍ هي اللّمحُ، وبتهاوٍ لمْ يُمكّنّي من التقاطِ النَّفَسِ، أو ذلك الذي خلته نَفَساً، صحت بمطلقِ هلعي:

«توقّف، ماذا تفعل؟!»

جاءني صوته من كلِّ مكانٍ:

«أحميك، اطمئنّي»

وبعد وقتٍ ليسَ يُقاسُ، لاحت تحتنا أرضٌ، بوجودها الحقيقيّ، بتضاريسها الثَّابتة، بالماءِ، والهواءِ، والأعشابِ، والترابِ، والغبار، والحجارة، لم يكن لقوّةٍ أن تقنعني؛ بأنّ ما رأيته من اشتغالات المنامات، كانَ هنالكَ جيشٌ يتقدَّم، خيولٌ تجري، سيوفٌ تلتمعُ، تحت الشَّمس، بلى شمسٌ ساطعةٌ، واضحةٌ، من ضوءٍ،

ودفءٍ، وحرارةٍ، مقاتلونَ بسُمرةٍ مفرطةٍ، بوجوهٍ شحيحةِ الملامحِ، بملابسَ غريبةٍ، وأسلحةٍ بدائيّةٍ، صحت من جزعٍ، فأسكَتني:

«لا تخافي، افترضيه حلماً»

اقتربنا كثيراً، ثلاثونَ متراً فوقَ الأرضِ، عشرون، تباطأ المشهدُ، لكأنَّا وإيّاهم لقطَاتٌ، يُفَسِّرُها الزَّمنُ في عرضٍ بطيءٍ، اتضحَ المنظرُ فجأةً، بانَ القائدُ المقدامُ، تقدَّمَهم بجسارتهِ، بثوبهِ الأبيض الطَّويلِ، يرفُّ مع الرّيحِ، بفرسهِ المرقَّطة، بسلاحهِ اللَّماع، وبشعرهِ المتناثرِ، على كتفيهِ كالحديقة، لقد كانت امرأةً، امرأةً محاربةً، هدأت من ذهولي، لمْ أعرفْ كيفَ عُلِّقْنا فوقها، كمنطادَينِ، لحظة سألت ملءَ فمي:

«من تلكَ؟»

كل ما أعرفه أنَّ الرَّدَّ؛ قدْ جاءني متأخّراً، بطيئاً، ولكن واثقاً جدَّاً:

«إنّها... ملكةُ عربِ الصَّحراء»

الدّرجة الثّالثة

حكاية ماويّة

«يحدث في منتصف الحياة...

أن يأتي الموت لأخذ مقاساتنا،

وقد تنسى الزيارة،

وتستمرّ الحياة،

لكن الثّوب يخاط بلا علمٍ منّا»

توماس ترانسترومر

شبحٌ في الشّام

لو علمت يومها بأنّه سيظهر، لما كنت خرجت، تغلغلت، رَهواً، في متاهات دمشقَ، كانت العصافيرُ تنثال، مبتلةً، والنَّاسُ الهائمون، يسرونَ فيها، قشعريرةً إثر أُخرى، من البيوت والنّوافيرِ والشجرِ، الرَّوائحُ تفورُ، شميماً متناقضاً، عرقٌ وعطورٌ، مطرٌ ودمٌ، انفجاراتٌ ومعجّناتٌ، توابل ومداخنُ، ياسمين وعوادمُ خانقةٌ، تتلاحقُ المشاهدُ، على زجاجِ السيّارة، تتناسل، تتكامل، تسيل؛ فتبعثرها المسَّاحات، تبدِّدها، إلى أنْ تنسلخَ ملامحُ العاصمةِ، الرَّخوةِ، عن أخرى، أكثرَ تماسكاً، تتغيَّرُ سُحنتها، خلفَ كلَّ عطفةٍ، تتبدَّى لي غيرها، مع تسارعِ العجلات؛ تلك التي تسحل المزيد من «خراطيش» الرّصاص الفارغ؛ فالشّام لم تعد حسنة التّرتيب، كما وصفها يوماً القلقشندي، الشّام... لم تعد ذاتها.

غيّرت الحرب كلّ شيءٍ، النّاس، المقابر، استحالت الشّوارع إلى جروحٍ إسفلتيّةٍ غائرةٍ، والأشجار إلى حطبٍ للوقيد، اتّسعت العشوائيات، وتباسقت، توارت الأرصفة، تحت معروضات الباعة، كتب محظورة، ملابس مستعملة، حليب أطفال، كهربائيّات مهرّبة، أنتيكات، باقاتٌ مترادفاتٌ من وردٍ بلاستيكيٍّ أغبر، صارت القمامة رزقاً، أضحت شوادر الأمم المتّحدة «أكشاكاً»، متلاصقةً، لبيعِ كلِّ شيءٍ، كل شيءٍ كانَ يخوضُ معركته الخاصّة، ضدَّ الموت، قعقعةُ محرّكات الدّراجات النّارية، هديرُ المركبات المغتاظة، الأبنية المتداخلة؛ بلونها الرَّمليّ المُطْفَأ، وغسيلها الملوّنُ يرفُّ مهتاجاً على الشّرفات، أسقف التوتياء، أفاريز الشّبابيك؛ وهي تنزّ الشّجارات كالصّديد، أصوات الباعة، بلاطات الأسواق المشوّهة، الفسقيَّات المائيَّةُ، مواءُ القططِ، ظلال الطُّيور، الفول المعلَّب؛ يبيعه الجوعى، السُّحبُ العالقةُ فوق قاسيون، قاسيون ذاته، الآلام الولود، كلّها كانت تموج بالمجازات، تتنكّر بِلبوس

الشّوارع العادية، وتركض تحت الأقدام، في الحقيقة كلّ شيءٍ كان يركض، الفقر، الوقت، الأسعار، الأمراض، العلاقات، الخيبات المحمومة، لم يكن خفيّاً قط؛ ذلك الإحساس العام بالمطاردة.

توقّفت، أنقذتني إشارة المرور من حادثٍ مؤكّدٍ، أضاء اسم صديقتي هنادة الجوّال، خطفاً، قرأت في سديلةِ الرّسائل:

«سلامات، بانتظارك لنعقد جلسةً؛ حول مصائب (ألف ليلةٍ وليلة)، حدّدي الوقت»

رميته في حنقٍ، فاضت عيناي من دون سببٍ؛ فتشنّجُ المزاج أمسى طابعاً عامّاً أيضاً، وتملَّيت - مجدّداً - بؤسَ العابرين، تدافعهم، وجوههم النّضّاحة تعباً، الشكيّات الموؤودة، وبغتةً لمحته، بلى بأمّ عيني**!**، يتراءى، كمثل سرابٍ، في صحرائهم، تمهَّلَ، نظر إليّ، استكان في منتصف الطَّريق، تفرَّسَ فِيَّ بشوقٍ بادٍ، تهلَّلَ وجهه، رفَّ قلبي بلا توقُّفٍ، التقطت أنفاسي، بينما تغيَّرَ لونُ الإشارة، لم يتبع الآخرين، وإنّما تسمَّرَ قدّامي، نَفَرْت بعينَيَّ بعيداً لأتماسك؛ هيَ بضعُ ثوانٍ تمالكتني فيها، وأدركت الزّمامير والشتائم، كانَ المطرُ الخفيفُ قد رنّخَ البلّور؛ فامّحت ملامحه، أفرجْت عن زفيرٍ طويلٍ، **«أنصحُ بتمارين التنفّس لضحايا نوبات الهلع»**، طبّقت ما استطعت منها، **«أحثّهم على لمس شيءٍ صلبٍ»**، اعتصرت المقودَ بين كفيّ، حتى ابيضّت أصابعي، **«أعلّمهم عشرات الخدع؛ للسيطرة على أفكارهم»**، لم أقدر، **«أستنهضُ قواهم»**، لم أقدر، **«أدفعهم للمواجهة»**، لم أقدر، لم**...**، انطلَقْت بمركبتي تجاهه، كمن يصوّبُ، أسفل ومنتصف الهدف، اشتغلت المسَّاحات، راحت تجلو الغَبَشَ عن صورتهِ تباعاً، كان لا يزالُ على وقفتهِ، يبسمُ لي، وينتظرني، تقدّمت، بتهيُّبٍ، نحو قامته، نحو حرارتهِ، نحو ذراعيهِ الممدودتينِ، بلا وجلٍ، تنقَّلَت عينايَ، كنحلتينِ، بينَ المرايا، تتقفَّيانِ وجهه وانفعالاتي، تعرّقت، أدرت ظهري لمخاوفي، وارتطمت به؛ فانتثر لحم الوهم، تطاير كالأحلام الخفيفات، سَحَلَته العجلات، وتماهى الرَّجل الطَّويل، ذو العينينِ المُعتمتينِ، والوجهِ المضيء بإسفلت

الطَّريقِ، مئةُ مترٍ - بعده- قطعتها بأعصابي، كما لو أنّني قتلت أحداً، غسلتني دموعي القهريّة، لكنّي لم أنظف منه، اجتزت نفقاً مظلماً، بسرعةِ «١١٠» كم/ سا، ثمَّ دُسْت بقوّةٍ على الفراملِ، ركنت السّيّارة، حيثما تيسَّرَ لي، لأستعيد تشخيص ريتا الأخير؛ ذاك الذي استنفدت نفسي في تناسيه:

«لا تشير أعراضكِ، إلى مرضٍ صريحٍ بعينهِ، دعينا نرجّحُ الـ (فصام) على نحوٍ مبدئيٍّ، ثمّ نتعامل مع الطّوارئ، خطوة فأخرى»

مضغت حبَّة مهدِّئٍ ثانيةً، وبلعت ريقي خلفها، الكحل المنهال من جفنيَّ، تهدَّلَ كعتمةٍ خفيفةٍ على المرآةِ، في المرآةِ تجلّى مجدّداً، كمثل عفريتٍ، شعرت بيدهِ؛ تدنو من كتفي، تربّت بحنوٍّ، حلّت لمسته كالنّداوة الرّقيقة، أطبقت على قواي، دفنت وجهي في راحتيَّ، ابتهلت:

«ماذا يحدث؟!، دخيلك يا ربّ، دخيلك، دخيلك»

بزخّةٍ جديدةٍ من المطر، وبدفقةٍ من عزيمةٍ غامضةٍ، للمتني، ومضيت، تيبَّست خلفَ طابورِ المركبات، سمعته:

«اهدئي»

جحظت عيناي، نظرت إليهِ، بكلِّيَّتي، كانَ جالساً، هذه المرّة، إلى جواري، بمنتهى الثَّبات، أردف كما لو كان موجوداً بالفعل:

«أترين كلّ أولئك النّاس؟!، جميعهم؛ يكافحون، يصارعون أوجاعهم، ومخاوفهم، وآثامهم، وهشاشتهم، يكابدون لإخفاء كلّ شيءٍ!، أحسب أنَّ أحدهم لا يملك وجهاً أصيلاً، إنّهم محض مشاعِرَ، تتزيّا بالأقنعة»

انهار جبلٌ بين أضلعي، جاشَ قلقي، شهيق، زفير، شهيق، شهيق، تجاسرت، حدّقت إلى عينيه، وبلا وعيٍ واجهت، بما أسعفني من لغةٍ:

- ماذا؟!

- ماذا؟!

- تحدّثني أيضاً؟!

- أمم، لولاي لكنت مثلهم

- ماذا تريد؟

- أنا! لا شيء

- ...

- تماسكي فحسب، العالم رخيص، ودموعك غاليات

- اسمع!، العقل حكواتي، أنت من نسجه، أنت مونولوجي الدّاخليّ، أنت صوتي

- صرعتني!!، وهل أنكرت؟!

نشَّفت وجهي المبتلّ، بظهرِ كفّي؛ فطفَرَ صوتي مذبوحاً:

- يا الله، يا ربُّ أرجوك، رحماااك

- آسف

- أنا أهذي، أنا مرهقةٌ، السَّهر ابنُ حرام، القلق، العمل الطَّويل، يا إلهي سحقاً للحياة كلّها.

تحاشيت النَّظَرَ إليهِ، ركّزت أمامي، استعرضت تسمياتٍ رائجةً تتناسب مع ما يعتريني:

«فصام»

«هلوسة»

«شارل بونيه»

«هذيان»

«هلع»

«حمّى»

«أحلام يقظة»

ناديت طفلةً حافيةً، كانت تطوفُ بينَ المركبات، إذ كان لابدّ من تشتيت تركيزي، وزجّي بمشاهد واقعيّة؛ لكيلا يقتلعني الوهم، وضعت في يدها ورقةً نقديّةً؛ فصبّت في يدي ولّاعةً، وفي أذني؛ سكبت همسها:

«لا... أتسوّل يا خالتي»

تفرَّسْت في أنفها المحمرّ، وفي عينيها اللَّوزيّتينِ؛ الطَّافحتينِ بالعزّة، ابتلعت ريقاً مرّاً، لم أتمكَّن من احتضانها، فكّرت في أنَّ سلالةً بشريّةً، أكثرَ رقيّاً، لا بدَّ مِنْ أنْ تتعاملَ يوماً، بالعناقات والقُبلِ، بدلاً من المال، ثمَّ دحضت الفكرة بأُخرى أثقل؛ **«عقدةُ القبلة لنْ تعتقني»**، شَغَلت نفسي بالرّذاذِ؛ الذي توقّفَ، وبالشَّمسِ؛ التي سطعت - كالخدعة - من جديدٍ، استقويت بالغناء، كانتْ دندناتي المضطربات، مزيجاً من النّهنهات، ومطالع الأغاني، واصلَت روحي انهمارَها من عينيَّ، والسَّائقونَ، المحتجزونَ خلفي، أشعلوا عرساً من الزَّمامير، بدت العاصمةُ برّمتها نافدة الصّبرِ، وغير قادرةٍ على الاحتمال، أقلعت سيّارتي الصّغيرةُ بلونها الفضّيّ البارق؛ فيما عادَ المقعدُ المجاور... خاوياً من جديدٍ.

شراب الورد

في مقهىً؛ تحفّه أشجارُ الزيزفون، ويَحُوطُه سياجٌ من المرجانِ؛ ذي الأوراقِ الجلديّةِ الصّقيلة، جَلَسَت مع قضيّتي، مَسندُ كرسيِّي؛ كانَ متكأً بيضويّاً، من القصَبِ المَرِن، العالمُ بأسرهِ؛ ليس سوى الفكرة في الرّأس، هزيمُ الرّعد في الخارج، محاكاةٌ لهزيم الرّعد في الدّاخل، امرأةٌ عجوزٌ كانت تقرفص أمام الباب المزجّج، قدّامها بضع زجاجاتٍ، من شراب الورد، بدت لي وكأنّها تتكلّم، بعض الأفواه المغلقات، أبلغ تعبيراً، على مقربةٍ منّي؛ ثلّةٌ من المثقّفين، كانوا يناقشون الحرب على طاولةٍ واحدةٍ، يشرّحون دماغها، يقلبون أحشاءها، صيحاتهم كانت؛ صليل سيوفٍ، جلساتهم «الأكابريّة»؛ اشتباكٌ دامٍ، اهتزّت لهواتهم بالمصطلحات والتّنظيرات، انسلّ صبيٌّ لمّا يتجاوز الخامسة بين الكراسي، هفّت أوراق اليانصيب في يده، كالمراوح، أغوته بزّاتهم الرّسميّة، دنا منهم، بترنّحه النّاصل، كرّر قولته، الخجول، الخفيتة:

«أختي مريضة وأمّي تموت»

لم يره أحد، لم يسمعه أحد؛ فالكلّ يموت، حتّى أنّ رجلاً، منفعلاً، قذف كوبه؛ فاندلق الشّاي السّاخن على الورقات، المرقّمات، المائجات، اختنق الطفل، صاح، لم يسمعه أحد، هرِعَتْ نحوه العجوز الصّامتة، الضّئيلة، بتثاقلٍ، بغضبٍ، لم يرها أحد، صرخَتْ فيهم:

«يا ويلكم من الله»

لم يسمعها أحد، كان الرّجال يخوضون معاركهم الخطابيّة، وكنت في شللي، أتملّاهم كما لو كانوا حلمي، أو كما لو كنت أنا حلمهم، قدّمت إحدى زجاجاتها العزيزات للطّفلِ، ربّتت على ظهره، ثمّ تقاودا نحو الباب، وافترقا، ذهبَ، وظلّت، لحظتئذٍ؛ كنت قد

شرعت أُدوّن أحمالي من الهمّ، جملاً غيرَ مترابطةٍ، بخطٍّ مائلٍ، راجفٍ، كمن يكتبُ وصيَّته، صحّحت بعضها، شطَبَت بعضها الآخر، ونثرت بعنايةٍ الأسهم، والخطوطَ، والدَّوائر؛ فتطوَّرَت الصّفحةُ الفارغةُ، في دفترِ الملحوظات، إلى خارطةٍ فوضويّةٍ، لمنجمٍ من الأفكارِ المتدافعة:

- ليسَ شبحاً... لقد خرجَ من ضيقي وحسب، من نصف دماغي الأيمن، يعشّش هناك
- المزيد من كتب الأصوات الطّيفيّة، طيفي من الطبقة العليا، الموهوبة، الحسّاسة، الحكيمة.
- الهلوسات متنوّعة بتنوّع البشر، إنّها تخلخل ١٠% من الناس، إنّها من اليوم حياتي.
- يزدادُ تجلِّياً، يتحدَّثُ بما لا أُمليهِ عليهِ، أشعرُ بوجوده، أسمعُ أنفاسه
- فحوصاتي الدِّماغيّة سليمة وكذلك صور الأشعة والتّحاليل ← مطمئن لكن غير كافٍ
- أدوية منشِّطة لإنتاج الأستيل كولين، والبدء ببرنامجٍ قاسٍ لتدريب الذَّاكرة
- لابدّ من نقاهةٍ حقيقيّةٍ، إجازة في ~~بيروت~~ في السويداء الأسبوع القادم... أو... بعد أسبوعين
- تقديم مواعيد المرضى ذوي الحالات الحرجة
- هيام وعبد الكريم هلوسات انتحاريّة، هيلين اكتئاب ما بعد الولادة متقدّم جدّاً، كل أطفال «صدمة الحرب»
- ضمان مستقبل يوسف ورُها في حالِ تطوّرت أزمتي
- طلب العون من صديقاتي... زوجي... هدى... استيلا... بلى استيلا

- الكثير من المشاريع، بصحبةِ طفليَّ، النزهات، المشي، التّسوق، الرّسم، الرَّقص، الرَّكضُ في البراري، الكثير من التّفاهات المفرحة، والحماقات الصّغيرة، الكثير من السَّعادة.

- منذُ اليومِ أنا المريضة، سأبدأ بتشريحِ حياتي ودراسةِ الماضي

تساقطَ الغمُّ من حدقتيَّ، امتزجَ برغوةِ المشروبِ الدَّاكنِ، تلَفَّت حولي، وكأنّي أنتظرُ أحداً، أو أُفتّشُ عن أحدٍ، ثمَّ أغلقت الدّفتر، تهدّجَ صوتي؛ وأنا أهمسُ لنفسي:

«أجل يا ماويّة... اثبتي»

أخذت شهيقاً طويلاً؛ فيما دويٌّ خفيتٌ، كان يتكرّر في رأسي، كلازمةٍ موسيقيّةٍ:

«أختي مريضة، وأمّي تموت»

انقبضت، أخفيتني، خلفَ نظّارةٍ شمسيّةٍ، قريباً منّي؛ جلس عاشقانِ صغيران، توهّجت على محيّاهما، لغة العيون المشرقة، هدأت، هي الحياة مسرحٌ للمتناقضات، كانَ الأزرق النّيليُّ يتماوجُ، مزهوّاً، في قميصِ الشّابّ، والأزرق السّماويّ يرتجفُ، خجلاً، في عَينَيِ الصبيّةِ.

«للألوانِ أيضاً كلمتها، كلّ ما في الحياة يتدرّج مثلها، من الأغمق نحو الأفتح»

هذا ما فكّرت فيهِ، لحظة اخترقت رصاصةٌ طائشةٌ الزّجاج، نثرت الشّظايا، جمّدت قلوب الرّجال، أسكتتهم، واستقرّت في رأس العجوز، صرخ العاشقان، وركض الطّفل، عائداً من الغيب، فيما نزفت المرأة شراب الورد، نزفت كثيراً؛ ورداً جوريَّاً، ورداً أحمر.

زهايمر الجماهير

دفعتني الرّيح، وتدحرجت خلفي؛ روح العجوز، وأوراق الشّجر، وصلت إلى العيادةِ، كمثل ناجيةٍ، تماماً كما لو كانت ضفّة العالم الأخرى، غارقةً كانت في النَّغم، قاعةُ الانتظار؛ في استسلامٍ تامٍ، لموسيقا شامان؛ تلك التي وظّفها السَّحرةُ الدِّينيّون، في التشافي، ومخاطبة الأرواحِ، محوت الكحلَ، بسبّابتي من تحت الجفنينِ، استجمعتني، قوَّست بسمةً بينَ شفتيَّ، ودخلت.

استقبلت مرضايَ بالتتالي، خنجراً إثر خنجرٍ، امرأةٌ فقدت المقدرة على البكاء، أخرى تبكي من دون توقّف، عجوزٌ ناحلٌ كالقصب، يلهثُ تعِبَاً، أتى لغايةٍ أُخرى، سألني العونَ في بيعِ كليتهِ...

«لأدفع فدية ولدي لخاطفيه»

قالها بجسارةٍ وسكت، ذبت في جمرتي عينيهِ، أردفَ:

«ولو تمكَّنت... لبعت قلبي»

هاتفت مأخوذةً، ما استطعت من الجمعيّات الخيريّة، فيما راح صوته؛ ينخر في صوتي:

«لا أريد حسنةً، يا دكتورة، أخبريهم أنَّ لدينا كلية للبيع، أخبريهم أنَّ... يا ابنتي»

عقبَ انصرافهِ، أغمضت عينيّ، على كابوسيّة ما يحدث، تمالكت طعناتي، مثل النّاس من حولي، فتحتهما، لأجدني أمامَ مريضٍ جديدٍ، مريبٍ، لم تسبق لي رؤيته، دخلَ بعينينِ، مفرطتيّ الاحمرار، وأسنانٍ محزَّزةٍ، وبرائحةٍ كريهةٍ؛ انبعثت من سعلاته الثّقيلات، متعاطياً قديماً للمخدّرات، تجهَّزت لأحاصر الإدمان بخطّةٍ جاهزةٍ؛ لكنّه سرعانَ ما تقمَّصَ شخصيَّة الغول في حكايا الجدّات، لا أعرفُ كيف ولماذا شعرت بذلك!، لكنّه

أصبحه على أيّةِ حالٍ، تحدّث قليلاً عن الدّوافع المرضيّة للمجرمين، **وضحك**، عن القانون، **وضحك**، عن المحاكم، **وضحك**، ثمَّ طلب تقريراً عن أيِّ مرضٍ أنتقيه له، وهو يتلمّس المسدّس على خصره، استطالَ سكوتٌ فظيعٌ، ضحكت بدوري، زمجر، سكت، انقضَّ عليَّ بعينيهِ الذّئبيّتين، هدّدني بتلميحاتٍ مبطّنةٍ، انقبضت، فانزلقَ نحوي في الأريكةِ الطَّويلة، ارتجفت، وقفت، وتراجعت نحو طاولة المكتب، أمرني محتدّاً بالاستجابة، بيد أنّي سرعان ما طردته، وليتني اكتفيت!، إذ رشقته فوقها بكوبِ الماءِ، فعلتها يدي من دون الرّجوع إليّ، شرعت أفكّكُ فعلتي غير الإراديّة وقت اتّسعت حدقتاه، اصطكّت أسنانه، جعلَ يتفرّسُ فِيَّ بغلٍّ، ضاقَت، مجدّداً، عيناه المتوعّدتانِ، تخدَّدَ جبينه العريضُ، بما يكفي لبثِّ الهلعِ في خلاياي، لم أسمع ما تلفّظَ بهِ، استحال بركاناً قدّامي، فيما الماء يزربُ من شعره، هصر أصابعه في قبضته الغليظة، خفت كثيراً، خمّنت أنّه سيصوّبها نحوي في الحال، إلّا أنَّ الطّيف كان قد اندفع كحاجزٍ شفيفٍ بيني وبينه، صاح:

«اُخرج»

شعرت بقوّةٍ غريبةٍ، كرّرت وراءه:

«اُخرج»

هبَّ المريض واقفاً، صرّ على أسنانه متوعّداً، خَفَقَ قلبي بشدّةٍ، حتّى بعد أنْ صفَقَ خَلْفَه بَابَ غُرْفَةِ المُعَايَنَة، واهتاجَ صوته بعيداً، تسمَّعت كالممسوسة، وتسمَّرت أمامَ كاميرا المراقبة، قال لهم:

«الدّكتورة مجنونةٌ يا جماعة»

نشَّفَ براحتهِ عنقه المتعرّق، ثمَّ شدَّ قبضَته على ظرفِ التحاليل، فنفَرَت العروقُ المحتقنة في ساعدهِ، بعدَ خطوتيْنِ طويلتينِ استدارَ، عاينَ المرضى السَّاكتينَ، بوجهٍ عدائيٍّ، شديدِ السُّمرة، يتخلّله شاربٌ، داكنٌ، كثٌ، غمغمَ محتدّاً، وسطَ دهشَتهم:

«أُقسمُ لكم، كانت تحدّثُ نفسَها، رمتني بكوب الماء»

انتفَضَ الرَّجُل الجَالسُ في الزَّاويةِ، ودقّقَ مجدَّداً في اللّافِتةِ المُتأرجحةِ أعلى الباب:

العيادة النَّفسيّة التّخصّصيّة

د. ماويّة نجيب الواثق

تعرَّقَ، تنحنحَ إذ ثارَت حفيظَته، وانسحبَ إلى الخارج، مستغلاً شجارَ هانية، الممرضةِ القصيرة مع المريضِ المُحتدّ، أمَّا المَرْأةُ المُتمَترِسَةُ، تحت الخمارِ الرَّقيقِ؛ فقد استمرَّت في هَزِّ رُكبَتيها، كما لو كانَ الأمرُ طبيعيّاً، في حيّزٍ يعجُّ بالمختلّينَ عقليّاً، الفتاةُ ذات الحجابِ الفاتح العصريّ؛ كانت مشغولةً، بقضمِ أظفارها، وهي تصغي إلى شيءٍ في سمّاعات الأذنِ، الصَّبيّةُ الشّقراءُ أيضاً؛ ذات الزَّهرةِ الموشومة على الكتفِ اليسرى العارية، رَنَّحت عينيها على الباب، من دون أنْ تكُفَّ عَنْ التقاطِ دموعها، من تحت النَّظارةِ القاتمةِ، غادرَ رَجُلٌ آخر، ومراهقٌ يشكو الصَّرَع، بينما واصَلَت هانية؛ الممنوعة من ارتداءِ كعبٍ عالٍ، مضغَ علكتها، وكأنَّ شيئاً لم يكن.

رانَ الصَّمت ثانيةً، ليطبق على المكان الأنيق، حيثُ السَّتائرُ المخرَّمة، الرَّقيقةُ، بلونِ الأثاثِ الفيروزيِّ، والعبارات المؤطّرةُ، موزّعةٌ على الجدرانِ؛ المطليةِ بتدرجات الأزرق:

«لا تنس... أنت لست وحيداً»

«إن انتابكَ دوارٌ في هذه اللحظة فأمسك يدَ من جاوركَ ولا تخجل... أنت تشفيهِ أيضاً»

«إذا لم يكن بمقدورنا العيش إلى الأبد فلنعش سعداء... السّعادة حلّ»

«تقبّل اعتذارنا إن كنت تنتظرُ عقاقيرَ دوائيّةً... نحن هنا يا عزيزي لعلاجكَ بالحديثِ... بالتّصور... بالموسيقا... بالحبّ»

الأحاديثُ في حجرةِ الانتظار نادرةٌ، والنّاسُ الحذرونَ من افتضاحِ زياراتهم؛ يجيئونَ ويروحون في الخفاء، وغالباً ما يبدون متحفّظين جدّاً، تجاهَ الغرباء، لم أطلبْ إدخال المريضِ التالي، لكنَّ أحداً لم يلحظ سوى الشَّابِّ الأصلع المتبرّم، والصَّامد

وسطَ النّظرات السَّاهمةِ النِّسائيّة، كانَ باحثاً في الحياةِ البرِّيّةِ، من أسرةٍ ترثُ الزّهايمر المبكّر، تأفَّفَ كثيراً، كرَّر التحديق إلى ساعته، ثمّ استكانَ مجدَّداً، تحت تخديرِ أفكارٍ ما، كانَ يشبكُ ذراعيهِ، وساقيهِ أيضاً، ربّما فاق عدد مرتادي العيادة توقّعاته، وربّما فكّر في أنَّ لديهم متّسعاً من الوقت، وفائضاً من القهرِ والكآبة، وفي أنَّ كلّ واحدٍ فيهم يخال أنّه العاقل الوحيدُ، المتأذّي من جنون المجتمع، بدا لي أنّه يُدوّن، في رأسهِ، تفاصيل نظراتهم وهدآتهم، ولربّما اكتشف أخيراً أنَّ الحربَ؛ قدْ حوَّلَت الجميع إلى خزَّاناتٍ متنقّلةٍ؛ من المآسي النّفسيّة.

في الدّاخل؛ كنت بشعري الملمومِ لأعلى، أُقاومُ ما تواثبَ في رأسي من قلقٍ، وأكتب سطراً أخيراً في رسالتي الإلكترونيّة:

«أتعلمينَ يا ريتا!، معهم حقّ، أنا أفقدُ عقلي بالتّدريج»

وقبل أنْ أضغطَ على كلمةِ **«إرسال»** في شاشة الجوّال، طنّت أذني، سَحَبت أصابعي، فرَدتها أمامي، راقَبْت ارتجافها، ثمَّ تحسّست الوحمة المنفرطة، على عنقي، والمتوارية على نحوٍ ذكيٍّ تحت طبقةٍ سميكةٍ من كريم الأساس، استكانتْ كفّي فوقَ النّبض، اختبَأت تحتها الفراشة، المصوغة من الفضّة، المدلاّةُ من السّلسلةِ الرّفيعة، والتي باتت أصغر من تمويه الأثر القاتم، استغْرَقت في التّحليل، بدا لي ذاكَ المستوى من التّوتر، كفيلاً إذا ما ترافقَ مع دافعٍ كبيرٍ، بقتلِ أحدٍ ما... زياد مثلاً ! تحديداً عندما صرخَ، صباحاً، بطفلي إثرَ نوبةِ الشّقيقة:

«اخرس يا ابن الحرام»

هززت رأسي، وكأنّي أنفضُ منه التباسَ التّشَتّت بالهذرِ، اكتنزت شهيقاً طويلاً، أنساني من قتلتهم؛ كلّ أولئكَ الذينَ تمنَّيت موتهم، يوماً، فماتوا.

ضَغَطَت على جرسٍ؛ فدخلَ المريض، غاصَ سريعاً في الأريكة الخفيضة، وبعدَ سيلٍ من الأسئلةِ والإجابات، طرحَ عليَّ فكرةً طريفةً لكنها مروّعةٌ **«زهايمر الجماهير»**، قالها بنبرةٍ خفيضةٍ، وأكمل:

- سوريّة الفتيّة، في طريقها إلى التّحوّل إلى بلدٍ كهلٍ، بعدَ أن مات من مات من شبابها وهاجرَ من هاجرَ، إنّها تستحيل إلى بلدِ عجائزَ، إنّها معرّضةٌ مثلي للإصابة بالزّهايمر، والمعتل بالزّهايمر مريضٌ سهل الانقيادِ

- تعتقدُ هذا حقّاً؟

- خائفٌ منه

- أتعرف، يخطرُ لي الآن، يومَ حدَّثتني عن مشاهدتكَ للدُّب البنيّ السوريّ، في مشتى الحلو، تذكرُ؟

- لا أذكرُ أنّي رويت لكِ الحادثة، لكنّي لا أنسى أيَّ تفصيلٍ، يتعلقُ بهذا الحيوان، ربما لأنّي لا أنسى خيباتي، فذاكرتي الانتقائيّةُ متواطئةٌ جدّاً ضدّي، تقفَّيت أثره، طويلاً، بعدَ أنْ شاهدته في السَّبعينيّات، حاولت تقديمَ الإثباتات والصُّور، للنَّاس والإعلام، لكنَّ أحداً لم يُصدِّقني، حتى المختصُّون، أكَّدوا آنذاك أنَ ما شاهدته ليسَ أكثرَ من دبٍّ هاربٍ من حديقةِ حيوانٍ، أو ضالٍّ، أوصله المسيرُ إلينا من تركيّا، وفجأةً عثرَ طيّارٌ أميركيٌّ، عام ٢٠٠٦ عبرَ منظارِ الأشعةِ تحت الحمراءِ، على دبٍّ بريٍّ سوريٍّ، في العراق؛ فقامت الدنيا ولم تقعد، تصوَّري حينَ تمَّ إعلانه حيوان سوريّة لعام ٢٠١٠ لم أفرح!.

- دبٌّ صغيرُ الحجمِ، اصطاده النّاس، وهاجموه، وتاجروا بجلدِهِ، وبعد نصفِ قرنٍ من اعتقادهم أنَّهم أبادوه؛ يكتشفون أنَّ الطَّبيعة أقوى بكثيرٍ من اعتقاداتهم، كانَ ذلكَ دبّاً، حيواناً، لا إرادة، ولا أحلام، ولا أمل؛ فما بالكَ بالبشرِ؛ الذينَ لا يكتفونَ بالبقاءِ المجرّد، الشجعان يموتون لكن لا ينقرضون، الخيرُ والحبُّ والطّيبةُ والجمال مكوّنات طبيعيّة لا تنقرض لا بزهايمر ولا بغيرهِ، تعلمُ لماذا؟!، لأنَّها من أصل الحياة، الزهايمر؛ يا عزيزي، يُضعفك، لكن لا يُغيِّرُ مطلقاً من حقيقتك.

- مخطئة

لم أعلّق بأكثرَ من هزَّةِ رأسٍ، وبسمةٍ كالحةٍ، كتبت وصفةً سريعةً، وتابعت شرحَ حالتهِ:

- المشكلةُ في دائك أنَّ تطوّره يبدأ قبلَ تفشّي أعراضهِ بسنواتٍ، من الممكن تعقّب المرض باستخدامِ الرّنينِ المغناطيسيّ، لقياسِ حجم الدّماغ، وفحص السّائل الدّماغي الشّوكي، إلّا أنّكَ، في المحصّلة، تعاني من حالةٍ تسمّى **«الضّعف الإدراكيّ البسيط»** MCI، لا شكّ في أنّك تلاحظ ذلكَ، من فجوات الذّاكرةِ، والصُّعوبات المرتبطة باتخاذك القرارات، صحيح؟**!**

- وكيفَ يمكنني الحدُّ من ذلك؟**!**

قدّمت له الوصفة؛ ففَغَرَ فاه، قرأها بذهولٍ مرَّتين، إلى أن استدركت:

- لا تتوقّع أنْ تؤثِّرَ الأدوية على حالتكَ السّريريّة

الرّجل؛ الذي نكَّسَ رأسه، قرأ في الورقةِ نصائحَ، حولَ تغيير نمطِ الحياةِ، وتوصياتٍ لممارسةِ الأحاجي والشطرنج، وبعض الحميات؛ التي تركّز على الزّيتون وجبن الماعز، والمشي نصفَ ساعةٍ يومياً، تطلَّعَ إليَّ بخيبةٍ، جادلني طويلاً، وبعدَ سبعِ دقائقَ من حوارٍ مستفزٍّ، تفاقمَ حنقي، شددت قبضَتي على قلمِ حبرٍ، أنيقٍ، ماركة **«Parker»**، الهديّةِ الوحيدةِ؛ التي تلقّيتها من زياد مذْ تزوّجنا، ثمَّ غمغمت ببضعةِ إرشاداتٍ حاسمةٍ، مؤكدةً لمريضي، أنَّ بإمكانهِ المغادرة؛ وهو مطمئن إلى وضعهِ:

- هكذا من دون وصفةٍ دوائيّةٍ**!**

- عذراً منك، لست بحاجة إليها

- لا دواء؟**!...** ولا حتى مهدّئات**!**؟

- لن تفيدك المهدّئات

- وبماذا تعالجين إذن؟

- بكلِّ ما طلَبْته منك، بالموسيقا، بالرّياضة، بالضّحك، بالتّأمّل، بتغيير نمط الغذاء، بالفنون من رسمٍ وكتابةٍ ومسرحٍ ونحتٍ ورقصٍ، بالخيال، بالحبّ.

- بالحبّ؟

آمنَ المصريونَ القدماء، يا سيّدي، بأنَّ «القلب»؛ هو مركزُ الأشياءِ كلِّها، من عاطفةٍ، ونسيانٍ، وتذكّرٍ، وبأنَّ المجنونَ؛ هو من سكنَ الشّيطانُ فؤاده، اعتقدوا أنَّ من يعثر على قلبه، يستعيدُ تلقائيّاً عقله، قد لا يبدو الأمرُ منطقيّاً اليوم، لكنّي بطريقةٍ ما أجدهم قد سبقونا إلى قوّةِ العاطفة، إلى قوّةِ الحبّ، الحبُّ؛ هو الفضيلةُ الكبرى، القادرةُ على أنسنَة بهيميّةِ الكَونِ.

- صدّقيني لا أريدُ إغاظتك، لكن ألا تعتقدينَ، وأنت البارعةُ علميّاً، أنَّ علاجاتكِ لا تزيد على كونها نصائحَ النّساءِ العاطفيّات المسكينات!.

- إذن فالنّساءُ العاطفيّات المسكينات، سينقذنَ الكوكب، برمّتهِ، من هذا الاكتئاب الجمعيّ، من التداوي بالسّحر، والدّين، والتعاويذ، والنُّذور، والتّنجيم، إلى التداوي بالعقاقير الكيمائيّة... ما سيطبّب روحك حقّاً؛ هو الحبّ صدّقني.

خرجَ الرَّجل وفي نيّتهِ ألّا يعود، أمّا أنا؛ فقد كنت أبحثُ عن الجوّال؛ الذي باغتني رنينه، أمضَّني صوت بثينة الحادّ:

- ألو مرحبا دكتورة، قتلوا الدكتور فؤاد، وأميناً سائقَ سيّارةِ الإسعافِ

- ماذا... تقولين!؟، فؤاد العريس؟!!

- أنقذَ مريضه من الموت، وبعد ساعةٍ قُتلَ

- .....

- أُعلمكِ كيما ترتدي الأسودَ للعزاءِ

«في وقتٍ ما بينَ مليونين إلى ثلاثةِ ملايين سنةٍ خلت، وربّما في أرضِ السّافانا القديمة، في إفريقيا تحديداً، أصبحَ أسلافنا بشراً يمكنُ تمييزهم بجلاءٍ»

وقعَ بصري على الجملةِ، في المجلةِ العلميّة، المفتوحةِ، وطئت لفظةُ «البشر» بحوافرها مواضِعَ جافَّةً في ذهني، إنّنا محضُ فقاعاتٍ حيّةٍ، تعذّبُ وتنكأُ وتطفئُ بعضها البعض، تختفي كما ظهرت؛ فلا تتركُ على هذا الكوكب إلا ندوباً من المقابرِ والقصص، تخلخلَ توازني، وجدتني أنهزمُ، أبهت، وأخلعُ برويّةٍ روبي الأبيض، هفهفت تحته بلوزةُ الشّيفونِ الموشّاة بأزهارٍ منمنمةٍ، خرجَت لا ألوي على وجهةٍ، مرقت قدّام المنتظرين، انسحبت بلا اعتذارٍ، حاوَلَت هانية استيعابَ الموقف، أقسَمَت لهم أنَّي لم أفعلها قبلاً، أكّدَت أنَّ الأسبابَ ولاشكّ قاهرةٌ، إلّا أنَّ ذلك لم يمنع كيل الاتهامات والشّتائمِ.

لعلعَت الانتحابات، أمامَ حجرةِ العنايةِ المركّزة، والحزنُ الصّامت قدْ هدَّ زجاجَ الشّبابيك، بثينة رئيسةُ قسمِ التمريضِ جُنَّت، إذ شاهدتني كما كلِّ مرّةٍ، ببلوزةٍ زاهيةٍ وبارقةٍ، لم تذكّرني بالثّيابِ القاتمةِ المطويّةِ للطّوارئ في خزانةِ الممرّضات، لم تفضح رفضها الفوّار، تبادلنا عبارات الأسى، وقبلَ أنْ أتركها وشوشتها، من دون أنْ أمسح عن شفتيَّ أحمرَ الشّفاهِ:

«الجهدُ المبذول لنذعن لنكساتنا، مساوٍ تماماً لذلكَ الذي نبذله في التماسك»

انفرَطَت بينَ غيظٍ ملغّزٍ، ورغبةٍ عميقةٍ في صفعي، جعلت تلقّنني حكمةً في الأُصول، لفلفَتها بلطفٍ شفّافٍ، يفضحُ من العتب أكثر ممّا يستر، نَفَثَت خواطرها وكأنّها تحدّثُ نفسها:

«قد لا أفهمكِ يا دكتورة، لكن قلبي ينفطر، أرتدي الأسود كما أغسل وجهي، هو نوعٌ من التّحسّبِ... من الإحساسِ بالتلاشي، حتّى الميت أقصى ما قد يعانيهِ ألمٌ جسديٌّ، غيرَ أنّه لن يدرك مثلنا طعمَ الموت، أمّا نحنُ الكثرُ الأحياءُ فتساورنا مشاعرُ الموت بلا انتهاءٍ... ألا تشعرينَ بذلك يا سيّدتي؟».

في طريق العودة لم أحسّ بشيءٍ، نَفَسِي كانَ طبيعيّاً، نبضي كذلك، أسنانُ العروسِ المكلومة فحسب كانتْ تصطكُّ في صدري، والصَّرخةُ التي لم تصرخها قدْ غَزَلت كُبَّةً من حبالي الصَّوتيّة، لمع المصطلح مجدّداً في ذهني «زهايمر الجماهير»، كم علينا أن نصلّي لننسى!!، نسياناً جماعيّاً، يخرجنا من هذه الذكريات الأليمة، من الأحقاد، من الشّقاقات، من دون أن نضغط على زرّ «حفظ»، مشيت وحيدةً بظلٍّ مزدوجٍ، لم أعلم من أينَ جاءَ الثّاني، لم أنظر إلى الشَّمس لأعرف، حينَ ظهرَ الطَّيفُ أمامي؛ حملقت في ذراعيه؛ ففتحهما كوسادتيْ مبكى، كما انتظرت، تلفَّت حولي، خلعت عقلي، تطايرت كمثل كيانٍ من هشيمٍ، ثمَّ ارتميت بلا تردّدٍ بينهما، عندما عانقت نفسي، شعرت، أوّلَ مرَّةٍ، بالشّعورِ الذي لا اسمَ له.

عورة «الفرح»

«لا تخبري أحداً أنَّ صديقتك يهوديّة!»

نظرت إلى المرآة؛ لأتأكّد من أنّ النّصيحة قد خرجت منّي لا منها؛ فتفتّحت أعينها المغمضات، ولمعتها الضّريرة، نظرت إليّ، تهاوت المنشفة من يدي، انفرطت سحنتي على صفحتها، شعري الهفهاف، أهدابي البليلة، الدّكنة تحت جفنيّ، ثوبي الزّهريّ الموشّى، الأزرار البيض، رابني وجهي؛ فتراجعت خطوةً إلى الوراء، مخطئٌ من يظنّها تعكسُ الصّور وحسب، المرايا؛ كيانات حربائيّة، أفخاخٌ تنتحل وجودنا الخاطف.

قبل الخطوة الثّانية؛ احتواني من الخلف بذراعيه، جفلت، أغمضت عينيّ؛ لأشعر بهما، **وشعرت**، حلّقت أصابعه في شعري، **وشعرت**، تنفّس، تنهّد، **وشعرت**، ملت، درت، مذهلاً كان اندغام الحقيقة الصّارمة، بالخيالات الهوج، وتوحَّدْنا طويلاً؛ أنا ورغبتي العارمة بالاستسلام، همس من داخل رأسي، أو من خارجه:

«وماذا يعني؟!، رفيقتان، تتبادلان الدَّورين العظيمين، عند الملمّات، «الأمّ» و«الابنة»، ما تحيطُ بهِ كلٌّ منكما عن الأُخرى، يفوقُ ما يعلمه أهل محيطها مجتمعين، تعرفُ إحداكما ذوقَ الأخرى في الثّيابِ والكتب، مكامنَ التجاعيد في وجهها، رقم صبغة شعرها، درجة حمايةِ واقيها الشمسيّ، وكلَّ زيادةٍ، غير ملحوظةٍ، في وزنها»

تفصّدَ جسمي عرقاً، ذبت، فتحت عينيّ، رفعت رأسي، استدرت، عاينته بصمتٍ كسيحٍ، وكأنّي أمتصُّ ملامحه، ابتلعتني دوّامةٌ، من نسائم عطريّةٍ، لم أعلم من أين هبّت، أسرتني، انتشيت، لم أشعر بالذّنب؛ فقد بدا مريحاً جدّاً، اطمئناني إلى شبحيّته، غير أنّه ما لبث أن ابتعدَ عنّي، كنصفِ ورقةٍ، يفصلها تمزّقٌ عن بقيّتها، تابَعَ:

«امرأةٌ سيّئةٌ، أمريكيّة، تدينُ بدين من اغتصبوا فلسطين، وشرَّدوا أبناءها العرب، شيءٌ شبيهٌ بـ (عبد لأنّه أسود) أو (غبي لأنّه فقير) تعميمٌ قاسٍ، من رزمةِ الفوارق الطَّبقيّة، والدّينيّة، والعرقيّة، والجنسيّة، التي حفلَ بها التّاريخُ العاقل للآدميّين، مذ توجّبَ تصنيفُ النّاس، بينَ أحطّ وأرقى، للزومِ التكسُّبِ والمتاجرة، لكنّك تعرفين ريتّا أكثر منهم، إنّها نصيرةُ الحقّ، والخير، والعدالة، والحريّة، لكلّ شعوب العالم»

ألقى عليّ نظرةً، وانخرط معي في السّكون الرّائق، لم أَطْرِفْ بعينيَّ، لم أشأ التّفريط بنأمةٍ، لم يعنيني ما قاله؛ فهي حواراتي الدّاخليّة ذاتها، تتكرّر، لكن هذه المرّة على لسانٍ آخر مختلَق، ساعتئذٍ؛ لم أتألّم من وجوده، لم أنكره بصفتِهِ أمراً واقعاً، لم أشكّك، كان شيئاً شبيهاً بذروة الطّمأنينة؛ تلك التي تشعّ منك، وتنقلك إلى مستوىً أعلى من الوعيّ، لقد ارتقيت إلى عرَضٍ جديدٍ، بات بوسعي الإحساس الجسمانيّ به، لم يقلقني اضطراب سيّالاتي العصبيّة، لم آبه لدرجة الخطورة؛ التي بلغتها، سمحت لنفسي -أوّل مرّةٍ- بأنْ ألتذّ، أن أتذوّق الفرح النّاشز عن كلّ البؤس الذي أعرفه، وبغتةً؛ اتّجه نحو الباب، كان من المفترض أن يتلاشى، كعادته، عند ذلك الحدّ، كآخر البحر؛ التّائه بين الأزرق والأخضر، لكن...، المقبض النّحاسيّ تحرّك بالفعل، إلى أسفلٍ، ثمّ إلى أعلى، تحرّكَ يا إله النّاس!، ارتجفت، انشقّ الباب ببطءٍ، انقطعت أنفاسي، صريره الحادّ؛ بدا كأنّه خارجٌ من أعماق روحي، لحظة دخل زياد؛ بلعت ريقي، والتمع جسمي كلّه بالعرق، كان لابدّ للمشهد مِنْ أنْ يتقوّض على تلك الشّاكلة، لم أجتهد في مواراة ذعري، رمقني بنظرةٍ مبتورةٍ، وطرح سؤاله المفتاحيّ، إيغالاً في ابتزازي؛ ذاك الذي حرّك الأسئلة العميقة الرّاكدة:

«خير إن شاء الله؟!، تحدّثين نفسك كالعادة؟!، نعم ولاشكّ؟!»

نظرت إليه، ببلاهةٍ، تضرّجت بحمرة الذّنب، اعتصرت بسمةً فاترةً، بين شفتيّ، لم أُجب، اكتفيت بسكوتٍ؛ يلملم إثم نشوته، كان الفرح آنذاك عورةً كاملةً،

عورةً في البيت، عورةً في الشّارع، عورةً في جغرافيا البلاد الحزينة كلّها، تستّرت عليه، احتلّ زوجي مطرحي قبالة المرآة، سوّى ربطة عنقه المخطّطة اللّامعة، فكّرت في أنْ أتملّص، بدفعه لاقتراحِ طبخةٍ للغذاء، غير أنّه قطع الطّريق على المناورة، استأنف كلامه:

- أتعلمين، تغيّرنا كثيراً
- تقصد تغيّرت وحدي!
- بت مزاجيّةً، صعبةً، متوتّرةً، غريبة الأطوار، من العويص شرحك
- ليتك استبدلت بالاتّهامات سؤالاً واحداً: «ما بك؟!» مثلاً، مثلاً!
- «ما بك؟!» «ما بي؟!»، أرهقتني حروب المصطلحات والمعاني، تعبت، حياتنا المعقّدة تحتاجُ إلى تحديث
- كيف؟!
- هذه مشكلتك، تفرّغي لحلحلتها، بدلاً من هرولتك خلف مشاكل النّاس!
- هذا شجارٌ جديدٌ؟!

لوى شفتيه، هزّ كتفيه، بنزقٍ، تناول الحقيبة والمفاتيح، ثمَّ خرج، أطبقت الظّلمة مجدّداً على الحجرة، فقدت التوازن، تساقطت على السّرير، لم أبكِ، معه حقّ، لا يعلم أيّ صراعٍ أخوض، فكّرت في ريتا، وحدها تفهمُني، أرسلت لها تسجيلاً صوتياً، أشرح فيه وضعي، وحالتي، وأطلب منها تشخيصاً حياديّاً؛ فأجابتني في الحال بآخر، خالٍ إلّا من النشيج، ولم تكدْ تتماسَكُ حتّى هاتفتني، انهمرت بشجنٍ:

- ما بك؟!، صدّقت أنّك مريضة؟!، العالم الملوّث؛ هو المريض، نفسك تدافعُ عن سلامتها وحسب، هذا يحدث، يحدث كثيراً، بصيغٍ لا تحصى، كلّنا نتألّمُ لنشفى، وهذا حظّك من الألم

- ليست المواساة ما أحتاج إليه يا عزيزتي، تفكيري مشوّش، أحتاجُ إلى عونك في الوقوع على تشخيصٍ ما، أرجوك**!.**

- يا حبيبتي، تعلمين أنّ الحالات الاكتئابيّة؛ نوعٌ من الاستسلام، المستمرّ، المربك، المعيقِ، المتنكّر في أعراضٍ جسديّةٍ، تعرفينها أكثر منّي، صح؟**!**

- كأنّك في قلبي، أنا استبعدت الاكتئاب مثلك**!**

- تعرفين أيضاً أنّ الفصامَ؛ إخفاقٌ في تمييزِ الواقعِ، وأنّ أعراضه تدريجيّة، غير فجائيّة، فيما أنت يا ماوي، لا أعراضٌ جسديةٌ واضحةٌ، لا نقصٌ في الطّاقةِ أو الدّافعيّة، وليس لديكِ مشاكلُ في الأداءِ الوظيفيِّ

- وهذا في حدِّ ذاتهِ أليسَ رهيباً؟**!**، يعني ألّا أجدَ تصنيفاً، أو مسبّباً لكلِّ ما أُعانيه**...!**

- لحظة واحدة**!**، للبشرِ، كما تعلمين، مقدرتهم المُذهلة، على تجريب الأُمورِ في أذهانهم، قبل خوضها، وعلى محاكاة المواقفِ، لقطفِ المشاعرِ المريحةِ النّاجمةِ عنها

- ماذا تقصدين؟**!**

- غالباً ما نلجأ إلى ذلك، عندما نعتقدُ أنَّ توليفة حياتنا غير مرضية

- لكن**...**

- هل سبقَ أنْ لجأت إلى التخيّل من قبل؟**!**

ملأت الحشرجة فمي، انقدح الماضي أمامي، تصاعد كمثل جرجرة النّار، لم أشعر برغبةٍ في نبش حياتي، سكت مطوّلاً، تدفّق صوتها**:**

- ألو**...** ألو**...** ألووو

- نعم أسمعك

- سألتك أكنْت قد**...**

- نعم سبق أنْ فعلتها... في العاشرة.

- كيف؟!

- أذكر...، أذكر وقت ذقت عسل «المخيّلة» أوّل مرّةٍ

- لماذا تضحكين؟!، أكملي!

- حينئذٍ؛ أسرفت باستحضارِ أمّي، وخالي، وكلِّ الذينَ بادلوني الحبّ قبلَ موتهم، كنت أجدل شعري، وأتظاهرُ بأنَّ والدتي من فعلت، أغفو محتضنةً مخدّةً، على أنّها زندُ خالي، تعلَّمْت باكراً أن أبتكرَ أماني، ولربّما هذا ما مكّنني من أن أُصبحَ امرأةً طبيعيّةً فيما بعد!

- عظيم!، عالجت نفسكِ بالتّصوّر إذاً؟!

- نعم

- ولماذا لم تستدعي صورة أُمّك؟!، أو خالك؟!، أو حبيبٍ قديمٍ؟!، أو أيٍّ ممّن سبقَ أن منحوكِ الرّاحة المؤقّتة!؟

- ألو... ألوووو

- لا أعرف، هنا تحديداً يكمنُ السِّر؛ فأنا لم أقصد أنْ أبتدعَ رجلاً، ولا أعلم أصلاً من أين جاء!، إذ لم يخرج من ذاكرتي، أو حتّى من تصوّراتي

- نعم... نعم

- ربّما كانَ مزيجاً من نجوم السّينما، في أفلامٍ شاهدتها، وأبطال الرّوايات الملحميّة، التي سبق لي قراءتها، لا سبيلٍ آخر؛ فأنا مشغولةٌ جدّاً كما تعلمين، ووقتي موزّعٌ، بشقِّ النَّفسِ، بين الأسرة والعيادة.

- رجلٌ دافئٌ، بارعٌ في تهدئتكِ، والاستحواذ على حواسك، جاهزٌ دوماً؛ للتّربيت على قلبك، يظهرُ في المحن، وفي آخر الحزن، ألا تتّفقينَ معي على أنَّ المتخيَّل هو المنقوص؟!، وعلى أنَّ احتياجاً إلى عاطفةٍ صادقةٍ قد يكونُ السَّبب؟!، إذ لا يمكنُ لأحدٍ أنْ يجلسَ في رأسٍ لم يُخَصِّصْ له كرسيّاً.

- أمرٌ غير وارد، أحببت زياداً؛ فتزوّجته

- وما علاقة هذا بذاك؟!

- ريتّا اسمعيني، الحدُّ الأدنى من الخيال مطلوبٌ، للعيش بهناءٍ، ولكن ما يحصل لي قضيّة أخرى.

- هل تمرّينَ بضغوطٍ ما؟، بمشاكلَ أكبر من المعتاد؟

- إطلاقاً لا شيء أكثر من المعتاد

- والمعتاد؟!

- إلامَ تلمّحين؟!

- غالباً ما تكونُ الكثيرُ من اليوميّات العاديّة؛ قاتلاً صامتاً، صح؟!

- قد ينطبق هذا على غيري، أنّا ممّن يؤمنونَ بموجهةِ الصّعابِ لا بتجنّبها

- لا يتعلّقُ الأمرُ بالقضايا الكبيرة يا ابنتي، العلّة في التّفاصيل، في... ا ل ت ف ا ص ي ل

- فهمت، سآخذُ إجازةً طويلةً لأرتاح

- هذا لا يكفي

- أنا واثقةٌ بكونهِ مجرَّدَ تجلٍّ لأعماقي، سأراقبُ نفسي من الآن وصاعداً، سأجمعُ الدّفاتر التي من دونت فيها مذكّراتي القديمة، سأدوّن يوميّاتي من جديدٍ، لابدّ من أن أفهم كيفَ وصلت إلى هذهِ النقطة.

- أحسنت، إيّاك والخوف يا ماوي!، إنَّه مضادٌّ للتّعافي، طيفك المخلوق في عقلك الباطن ليس صنيعَ خيالكِ وحده، على ما أظنّ، ربّما كانَ غريباً موحياً بالثّقة والأُلفة، التقيتهِ مصادفةً ولا تتذكّرين، ربما كانَت تقاسيمه خليطاً اصطفائيّاً، من تقاطيع آخرينَ كُثُر، أو من خيالٍ وحقيقةٍ بآن.

- إنّه محض خيالٍ يا رفيقتي، خيالٌ صرفٌ... وصافٍ.

السّعادة... كيف تعمل؟!

أرقدت طفليّ في فراشهما، وحسمت أمري، كان يجب أن يعلم، ولو انهار حزناً عليّ، حتّى لو اتّهمني بمسٍّ في عقلي، حتّى لو وجدها فرصةً مواتيةً للهرب، اتّجهت إلى الصّالة المضاءة، وبعد شوطٍ من التّطواف العبثيّ حوله، جلست، نبشت بعض الأحاديث؛ فاكتفى بنظراتٍ خاطفةٍ، وهزّات رأسٍ، قطّعت الفاكهة، كدّستها في صحنٍ، لن يأكل منه أحد، زفرت بغلٍّ فيما عيناه معلّقتان بالجوّال، همست في برهةٍ من صمتٍ:

- هات كفّك، لأجرّب قراءة طالعك

افترّت شفتاه عن بسمةٍ هازئةٍ، همس:

- ها يا عزيزتي!،عاد إليك عقل الرّحمن؟!

- تقريباً، حاليّاً عقل العرّافة

- على عيني دعابتك، ما الذي تريدينه؟!

- أتصدق إن قلت لك إنّي مريضة؟!

- حقّاً؟! لا يوحي منظرك بذلك

- لا شيء جسدي، لكن...

- حرارة؟!

- لا

- لا تقولي نفسي؟! أوف؟! هي العدوى إذاً

- تهيّؤات، خيالات، لا أعرف كيف أشرح لك!

- يا سلام!، هذا ما كان ينقصنا

- أتعلم؟!، أشعر بأنَّ لديّ روحَيْن.

- مهلاً عليّ، مهلاً، أضحكتني والله

- ما بك؟!، زياد لو سمحت؟! هذه ليست طرفة، فكّر فيها من قبل ذلك البرازيلي... ماشادو دي أسيس!

- دي ماذا؟! أسيس؟! ستنشقُّ خاصرتي من الضّحك

- أرى أنَّ...

- أرى أنّ القصص والرّوايات التي تستخدمينها في العلاج، قد أدّت مفعولاً عكسيّاً

- دعني أحْكِ لك

- أرجوكِ!

- أرجوكَ

- ماذا تحكين؟! هيّا لنحجز في مشفى المجانين يا حبيبتي

- أنا مريضة فعلاً

- نعم، أنت مريضة فعلاً

نحّى يدي القابضة على يده، وأشاح عنّي باستخفافٍ؛ فامتلأت الهوّة الوهميّة بيننا - مجدّداً- باللّيل، والرّيح، وأصوات الجداجد، وأحاديث الجيران البعيدة، ذابت حماستي فوقي كقلاع الطّين، وانزلق قلبي معي في الأريكة الوثيرة، انطفأ كل ما مسّه نظري، عندها انقدح الطّيف كومضة نورٍ، لكنّي هششته، اعتصرت عينيّ، ودفنت وجهي في ساعدي، رفعت رأسي، بعد حينٍ، لأفصح عمّا يعتمل في دخيلتي، تجاسرت،؛ بيد أنّ الخيبة طفرت من وجهي، وأجهضت رغبتي، كلّ شيءٍ حولي بدا مكفهرّاً، ومطموساً بالسّواد، حتّى ضحكةُ زياد المرتدّة، المجلجلة.

يومَ كنت، مديرةً لفريقٍ بحثيٍّ، وأستاذةً في العلومِ العصبيّةِ عندهم، لم يخطر لي أنّ انكساراً كهذا ينتظرني عندنا، في يومٍ من الأيّام آثرت الكشف عن أُسس السّعادة البشريّةِ، ما أشدَّ حماقتي!، نعم «السّعادة»!، نعم «البشريّة»!، أشعرُ برغبةٍ في القهقهة كلّما تذكّرت تلك الأيّام، كان مكتوباً على جبيني «عربيّة»، لهذا لم أحظ بالتّقدير المُستحقّ، حدث أنْ تعلّمت أنّ «المتعة» خبرة حيويّة معقّدة، وأنّها دافعُ الكائنات للبقاء، فهمت تكوّنها من عواطفَ متداخلةٍ، من رغبةٍ، إلى شعورٍ حسّيٍّ، إلى انتشاء، وأدركت أنّ الدّماغَ بكلّ أجزائه يجتهدُ لضخّ ذاك الوهج الدّافئ، الذي يغمر الإنسان بالأمان، درست أيضاً عن بؤرٍ تلذّذيّةٍ، يُحفّزُ تنبيهها، أحاسيس المتعة، مثلَ داراتٍ، بمصابيح حلوة، ولطالما حلمت، حينذاك، بأن أكشف أماكن تلك البؤر، وأن أتحكّم بالولع والإمتاع، كدت...، حاولت، وكدت، واريت جبيني عن المؤمنين بأنّهم من رتبةٍ بشريّةٍ أرقى، فهمت كيف أنّ الدّماغ يترجم المكافأة إلى وهجٍ لذيذٍ، وكيف أنّ ما يميّزُ البشرَ عن الحيوانات هو تعدّد المكافآت من حولهم، لقد علّمتني الفئةُ الأرقى أنَّ تكرار المؤثّرات لا يولّد مع الوقت الإثارة عينها، لذلك فقد راودني وهلةً شعورٌ بالتّفوقِ عليها، خطرت لي أفكارٌ لم تخطر على بالهم من قبل، برهنت عليها بالورقة والقلم، فانبلجلت الإبراقات الأولى لفكرة بحثي، قلت لفريقي عندها:

«في أجسادنا جيوشٌ خفيّةٌ من المخبرين، يعزّ عليها تكرار الفرح؛ فيستنفر بتقاريرها جهازنا العصبيّ؛ ذاك الذي لا يطيق التّعوّد، والمخالفات؛ ذاك الذي سرعان ما يفسدُ كلّ شيءٍ، يا جماعة، البشريّة كلّها تنتظرنا، كيما نقطع الطّريق عليهم، عدم وصول النّميمة يعني أن يعيش الدّماغ في نعيمه إلى الأبد»

ضحك الرّفاقُ يومها، وهم يتخيّلون السّعادة، تحقنُ مثلَ إبرةٍ في الوريد، وحدي يومها لم أضحك، وحدي كنت على يقين.

نظرت إليه وضحكت، نضحكُ كثيراً نحن التّعساء، التفت زوجي متعجّباً، سألني بعينيه عن السّبب؛ فأجبته بإيماءةِ رأسٍ، ثمَّ تواريت خلفَ خصلةِ الشَّعرِ؛ التي

انهمرت على وجهي، عاينني بطرف عينه، تكسّت ملامحه بالتّعاطف، قال وكأنّ مسّاً فجائيّاً، من الرّقة، قد أصابه:

- هذا انطفاءٌ جمعيٌّ، حتى ضحكاتنا فيها ظلام

- أمممم

- ألم تبحثي، أيّام ألمانيا، عن وسيلةٍ لخلق السّعادة

- تقريباً

- كم ستشكرك شعوبنا لو حاولت مجدّداً!

عرّتني كلماته من لبوس الكلام، كان بودّي لو أضحك ثانيةً، لو أسخر، لو أعلّق على تلك الأمنية السّطحيّة، الفارغة، المفرّغة من الصّدق والجديّة، غير أنّي لم أفعل، كانت الرِّيحُ تلهو بملاقطِ الغسيلِ على منشرٍ في الشُّرفة، والأنوارُ البعيدة، تنسل إلينا، بخفَّةٍ، من قبضةِ العتمةِ، تناهضت، تهاديت، دلفت إلى المطبخِ، بألمٍ مبرّحٍ في الحلق؛ فوجدته أمامي، كأنّما ينتظرني منذُ بدءِ الزَّمانِ، كيانٌ من نورٍ مجهولٍ، كانَ يصوّبُ نظره، وكأنْ إلى أعماقي، خفت، تجاهلته، فركت جبيني، لأُهدِّئ الصُّداع، حفرت في صدغيَّ أخاديدَ، بأصابعي المرتجفات، هرِعْت إلى الصّنبورِ، ورشقت وجهي بالماءِ مراراً، التصق فمه بشحمةِ أُذني، كالطّلقة، حينما ترقرقَ صوته بكاملِ البهاء:

«لا تستسلمي، لا شيء يتأخّر»

نظرت إليه، كان الماءُ ينقّطُ من ذقني، حين حاولت لمسه وأخفقت، حرّكت الهواءَ بكفّي البليلة، بدا، وهلةً، واقعيّاً أكثر منّي، وبدوت في حاجةٍ إلى سماعه، حاولت أن أرتّب نفسي، فيما واصل صوته الهادئ التّدفّق:

«الأشياء تجيء في وقتها وحسب»

«استعيدي حلمك»

«السّعادة أثمن ما يمكن خلقه على هذه الأرض»

أغمضت عينيَّ المحتقنتينِ، لكيلا أراه، زجرتني، نهرته:

«ثمّة خللٌ ما، أخرج من رأسي... أخرج»

تراجعت إلى الخلف هرباً منه، ارتطمَت مؤخِّرةُ رأسي بالثّلاجةِ، ارتدَّ ظهري، ثمَّ انزلقَ برفقٍ على سطحها، وعلى الأرض، رحت أنتحبُ، بلا صوتٍ، دنا ليُقَلِّصَ المسافة بيننا، جثا أمامي حتى إذا ما نظرت إليهِ، زحفَ بأصابعهِ على ذراعي، قالها من عينيه:

«سلامتك»

اتّسعَت روحي، شعَّت، كان صوتاً يصعب شرحه، كانت نبرةً تشبه الحضن، ابتسمت له، بكيت، ابتسمت ثانيةً، وما إن ثُبت إلى رشدي؛ حتى جررتني لغسلِ الصُّحونِ، نبشت ذاكرتي العميقة، الذّاكرة الأرشيف، بحثاً عن تلميحٍ يدل عليهِ، في حينِ كانَ قد تلاشى في كلّيتهِ، شكوت لنفسي بصوتٍ مسموعٍ:

«كان يجب ألّا أعود، ما الذي جناه العالم من آمالي؟!، من جهدي؟!، ما الذي جنيته أنا من هذا العالم السّخيف؟!، تبّاً لي، تبّاً لي»

لا أعرفُ بماذا كنت أهذي حينما حلَّ بي السّؤال كالصّاعقة:

«هل تحدّثينَ أحداً؟»

تعجَّبَ زياد الذي نبت فجأةً أمَامَ الباب، أخفقت في مداراةِ فزعي، اضطربت، فانزلقَ الفنجانُ من يدي، وتطايرت الرَّغوةُ، الحليبيّةُ، في الهواءِ، استدرت نحوه كالمذنبينَ، واكَبَت شهقَتي الواضحة، ارتطامَ الزّجاجِ الأبيض بالأرض، حمحمت باختناقٍ:

- أجفلتني!

- عفواً كان لابدّ من طرق باب المطبخ!

- كنت شاردةً وحسب

- أريد إعادة الفاكهة، هل أطرق باب الثّلاجة؟!

جالَ بعينيهِ النقّالتينِ في أنحاءِ المكان، لم يجدْ جوّالي، تأمّلني مجدّداً بتوجّسٍ، فلفّته حيرةٌ جليّةٌ، أدخل الصّحن في الثّلاجة، ونسي إغلاقها، عقدَ يديهِ خلفَ ظهرهِ، وبمبالغةٍ فخّمَ نبرته محتجّاً:

- كنت تحدّثينَ نفسكِ هذه المرّة أيضاً؟!، هذه هي الهلوسات؟!

- كنت أقول إنّ... خريف هذا العام... أبردُ من المعتاد

- آها قلت لي أبرد من المعتاد!!

- ليس كثيراً!، قليلاً صح؟!

- طيبِ اسمعي، ليست أعصابك وحدها التّالفة، كل ما فينا تالفٌ، يبدو لي أنّ بيروت هي الحلّ

- بيروت؟!، من جديد؟!

- القرار حاسمٌ هذه المرّة، وأخير!، حياة جديدة، خلاص، هروب

- ما أعرفه أنّكَ منحازٌ إلى نصفِ أبيكَ وبلده

- غيّرت رأيي، صرت منحازاً إلى نصفِ أُمّي، عيب؟!، حرام؟!

- ليسَ عيباً، ولكن ما عسايَ أفعل حيالَ هذا التّغيير

- تجهّزين الحقائب، وتنهينَ أعمالكِ المعلّقة هنا

- هكذا ببساطة!

- أنا لا أستطيعُ التّعاملَ إلّا مع المشكلات الملموسةِ، هل ترينَ مشكلةً في اقتراحي؟!

- كلّ مشاكلي غير ملموسة، لا تتعب نفسك لتراها

- أجل، لن أتعب نفسي يا زوجتي العزيزة

قالها ثمّ ذاب سريعاً، صفقَ بابَ غرفةِ النّومِ خلفَه، وصفقت باب الثّلاجة، هكذا باتت تنتهي حواراتنا في الآونة الأخيرة، بانفجارٍ تلو انفجارٍ**...**

زياد خلاصة ماضي الدّلال، مفرداته ماديّة، نافرة، والفرق ما بيننا هو فرقٌ في اللغة، لن يفهم أحدنا الآخر مهما حاول، لست أفضل حالاً، لغتي محض طلاسم، مفرداتي غائرة، حسيّة، كلّنا أبناءُ الماضي مهما تنكّرنا له، كلّنا**..**، الماضي**!**، **«كيف لم يخطر لي ذلك من قبل؟!»**، تساءلت وأنا أفكّر بعلم النّفس التّجريبي؛ الذي تمكّن من إحياء الماضي الميّت، يوم لمس لحاء الدّماغ بالكهرباء الخفيفة، وقطف رجع الذّكريات كرزةً كرزةً، لكن**...** أنا؟**!**، كهرباء؟**!**، لن أقدر، **«لحظة يا بنت!»** لمع البديل في ذهني، بديل مطابق للكهرباء، بديل وحيد، عبقريّ، مخيف**...** إنّها الكتابة**.**

دارةُ القمر

«حلم يقظة ليس أكثر! خيالٌ لطيفٌ، يمتدُّ تحت قدميّ، كما الجانح، يرفعني عن الأشياء، يفصلني عن بشاعتها، إنّه نعمة»

قرأت ما دوّنت للمرّة الرّابعة، كان يجب أن أقتنع بهذا، بدت الصّيغة الخدّاعةُ؛ مريحةً، تذكّرت هيمنغواي؛ الذي ظلَّ يصرّ على أنَّ الإنسان؛ ليس مخلوقاً للهزيمة، وأنّه مهما تحطّم لن ينهزم، هيمنغواي؛ الذي مات في النّهاية، بائساً منتحراً، ضحكت، نعم ذلك الضّحك؛ الذي يعني دوماً شيئاً آخر، كان زياد عند أمّه في بيروت، يوم بدأت القذائفُ بالتّهافُت على الضّاحية القريبة، ارتجَّ الباب، غيرَ أنَّ الياسمينَ الافتراضيّ، المتدفّقَ في شوارعِ الشّام، لم يتوقّفْ عن التسربِ، من شقوقِ النافذة، ومن تحت أظفاري، وقبل أن أهرول نحو حجرة الأولاد، ركضت رها نحوي، راحت تحجل حولي، ثمَّ جثت أمامي، وجعلت تفرُكُ عينها اليمنى، وتغمغمُ شاكيةً:

- أنا أكره العالم

- لا تخافي يا روحي، استيقظت!

- واستيقظ يوسف أيضاً

حملتها بين ذراعيَّ، لامسَ خدِّي خدَّها الوردة؛ فالتصَقَ الدّبدوبُ النَّافرُ، من البيجاما الصّغيرة بقلبي تماماً، والتفَّت الرجلانِ النّاعمتان، خلفَ ظهري.

في العتمةِ؛ سَمِعْت صوت بكاءٍ خافِتاً، لم أحسَبْ أنَّ الرُّعب؛ هو ما دفَعَ ابني إلى الانتحابِ، فالتّوءمان وليدا حربٍ، وقد اعتادا الرّصاصَ، والقذائف، والدَّمار، كما يعتادُ الأطفال، حول العالمِ، أصوات حفر الطّرقات، وورشِ البناءِ، تحسَّسَت جبينه بشفتيَّ؛ فلم ألحَظْ أيّةَ حرارةٍ، أو اختلاجٍ، هدّأت من روعهِ، وتغلغلت بينه وبينَ أُختهِ، فردت جناحيَّ فوقهما كالحمامة، لنموت معاً، إن لزم الأمر، لففتهما جيّداً، ثمَّ سقيتهما ماءً، وشربت.

«الأطفال يموتون يا ماما؟»

سألَ يوسف، بحاجبيهِ المتصلينِ، اندفعَ كما الحلزون، من تحت اللّحافِ السَّميك، حدّق إليَّ، بغلٍّ، كما لو أنَّه يحملق في الفراغ، تجمّدت حافة الكوب فوقَ شفَتي السُّفلى، ارتجفت كأنّما طُعنت في الصَّميم، لم أُفكِّر، حرَّكت رأسي بالنّفي سريعاً، ثمَّ بحجّةِ إرجاعِ الكوبِ إلى مكانه حرّرت نظري من مقلتيهِ، الحَادَّتيْنِ كالشَّفرة، تنفّسَت عميقاً، إلى أن هوى بقبضتهِ، فوقَ الوسادةِ، صرخ:

- ألم تسمعي؟!، سألتكِ هل يموت الصّغار؟!

- لا يا حبيبي، الصّغارُ لا يموتون... البتّة

- لماذا مات جود إذن؟!

كل ما فيَّ راحَ يجهشُ، ببكاءٍ مريرٍ، أصابعي، عنقي، الأزرارُ المنمنمةُ، أسفَلَ الياقة، أكمامُ ثوبيَ الخفيف، وزنّارُ الدّانتيل على خصرهِ، عيناي فحسب؛ كانتا صامدتين، استعدت ابتسامَتي الباهتة، مسَحت صدغَيه، أحطت بكفّيَّ، خدّيهِ الورديَّين، وسألت قبل القبلة:

- جود؛ الذي أطعمك طعامه مرّةً؟

- أجل، ذهبَ ليقضي العطلة في مدينتهِ، ولكنّه لم يعد، قلَمه مازال معي، والمعلّمةُ تقول: أصبحَ شهيداً، جود يكذب؛ لقد أكّدَ لي أنّه سيصبحُ رائد فضاء، أمُّه أيضاً كذبت؛ أكَّدت له أنَّه سيصيرُ رجلاً، الكبار يكذبون.

- الكبار لا يكذبون

- بل يفعلون

- بعضهم فحسب

شهقت رُها، ألصقت رأسها بالمخدّة، فارتعشَ الدبدوبُ على بطنها:

- وزينة ماتت أيضاً، قبل أنْ تعلِّمني أُغنيتها الطَّويلة

- أتعلمان**!**، زينة وجود أصبحا، ولابدّ، في مكانٍ أجمل، بعيدٍ جدّاً، عن المدرسة وعنّا، أصبحا بطلين كبيرين، وسيكتبونَ عنهما، في يومٍ من الأيّامِ قصصاً حلوة

- أنا أكره القصص الحلوة، ألا يصبحُ الأطفال أبطالاً إلّا إذا ماتوا؟

- **...**

- طيّب أينَ هذا المكان؟ في السَّماء يعني؟

- أنا لا أعرفه

- ومن يعرفه؟

- ربما القمر البعيد**!**، دعونا نخبّئ أسئلتنا في عبِّهِ، وننم

- وهل سيجيبنا حقّاً**!**؟

- ربّما، في يومٍ لابدّ سيجيبنا

- لا أصدّق، على الموت أن يأخذ الكبار أوّلاً، بابا مثلاً

- ما الذي تقوله يا يوسف، أتكره أباك؟**!**

- هو يكرهنا**!**

اجتهدت لأبدو كما لو أنّني لم أسمع، دغدغت أقدامهما، داعبتهما بالوسائد حتّى التّعب، وقصصت عليهما حكاية «ملكةِ الثَّلج»، وفي هدوءٍ تحوَّلَت كلماتي، في رأسيهما، إلى أخيلةٍ ناعمةِ الملمسِ، تهدَّلَ ولدايَ، كلٌّ على ذراعٍ، ومن نومهما الغزلانيّ، وأجفانهما نصف المطبقة، استيقظت كلماتهم، مجدَّداً، لتنقرَ رأسي، بدّدت رفرفتها هدأة العالم، وكذلكَ فعلَ أزيزُ نغمةِ الرّسائل، تفقّدت في الجوّال بريدي الالكتروني، تطلَّعت إلى العنوانِ المرسل منه؛ فإذا به**:**

Retta fabena73@yahoo.com

«صديقتي الغالية، مازلت أنتظرُ صورَ المقتنيات الأثريّة، في بيت جدّتي، المفتاح الجديد تجدينه مع العجوز؛ الذي أخبرتك عنه، أرجو الاستعانة بمختصٍّ إن أمكنكِ... قبلاتي»

عصفت بي أفكارٌ كثيرةٌ، ليست هي ذاتها؛ التي أبكاها تعاطفها معي**!**، أتظنّ أنّ حالتي تسمح**!**، تذكَّرت «إيميلاتها» الأخيرة؛ التي تحمل الطَّابع عينه، وتدورُ في فلكِ الآثارِ وتجارتها، تواثبت المخاوفُ في رأسي تباعاً، وبغتةً؛ صَحَت يدي من سَكْرَتها، شعرت بأنَّني محاطةٌ بالأُحجيات، من كلِّ صوبٍ، وخامرني الشَّكُ في أنّي محض أضحوكة، رميت الهاتف النقّال، ثمَّ ارتميت على الوسادةِ بتوجّسٍ، انغرزت أسناني في شفتي السُّفلى، وأطْبَقْت جفنيَّ على روحي؛ لكنَّ الرّسالة المريبة، أقضَّت مضجعي، وفي السُّكونِ المطبقِ، دوّى في أذنيَّ، صوت يوسف؛ ذاكَ الذي لم ينمْ، كما توهَّمت، وإنّما خرج، كمثل سمكةٍ، من البقعة البليلة تحته، ليهتف**:**

«لم أنس أنَّ القمر حجرٌ، أنت أيضاً يا ماما... تكذبين»

رائحةُ البحر

الثلجُ النَّادفُ؛ غطَّى الهَضْبة، الرِّياحُ الغربيَّةُ؛ نهشت رطوبتها، والبيوت الباردةُ؛ غَرِقَت في النَّوم، أمّا الضَّبابُ؛ الذي ابتلعَ المدينة الصَّغيرة، فقدْ تعشَّقَ برائحةِ المفرقعات، والألعاب النّاريّة، والرَّصاص، والأسلحة السّكرى، هكذا هلَّلت السُّويداءُ، للعامِ الجديدِ، الكثير من الاحتفالات، والهدايا، الكثير من الأضواءِ، والزّينة، وشجرِ الميلاد، الكثيرُ من «بابا نويل»، والقليل من الفرح، حالها حال البلادِ المنكوبة؛ التي زُيِّنَت بعنايةٍ، وجهَّزَت، في تلهفٍ، إكسسوارات العيدِ، لإتمامِ تمثيليّةِ البهجة.

أزحت ستارة السَّاتانِ الباهتة، اختلقت مرادفاً صوريّاً، للعتمةِ الكليلةِ، تماسَكت، إذ واجهت صورتي، على زجاج الشُّباك الرّطيب، كانت ترتعشُ، كلّما صَفَرَت الرّيحُ، تضامناً مع اهتزازِ الأوراقِ الرّفيعةِ، على هيكلِ الشجرةِ الباسقة، ثلاثونَ متراً من الكينا، كانت ارتفاعَ الشّبحِ؛ الذي ما فتئ يتسلّقُ السّماءَ، كلَّ ليلةٍ، اشتدَّت العاصفَةُ، تمزَّقت الشّجرةُ، ثُمَّ ذَوَت، وتجعَّدت مثلها على البلّور، انعكاسي المُلتبِسُ؛ كان مكدوداً ومُطْفَأً، هالتانِ داكنتانِ؛ حولَ العينين، تجاعيدُ؛ بزغت في الفراغِ الضَّيقِ بينَ الحاجبين، وإنهاكٌ مروّعٌ؛ لا أذكرُ أنَّه تراءى بتلكَ الفجاجة من قبل، حتّى «بيجامة» المخمل، بلونها البنّيِّ، الأشبه بشراب السُّكر المُكَرْمَل، بدت سوداء، على الزّجاجِ الصّقيلِ، لكأنّها قطعةٌ من اللّيل خلفها، الأزرارُ المفضَّضةُ وحدها؛ كانت تلمعُ مثلَ عينيهِ، برقَ مُحيَّاه أمامي، وانهالَ صوته في البردِ العميقِ:

«في ماذا تفكّرين ؟»

رشحَ العرقُ من بدني كلّه، استلقَيت لأُفرغَ رأسي، قبّلت يوسف ورها، دثَّرتها جيّداً، فركت بشعرهما خدّي المبتلّ، وسلَّمت قلبي لأحلامها.

استماتت أُختي، في سؤالي، عن سببِ الزِّيارةِ المفاجئةِ، من فورِ وصولي، وذلكَ بعدَ أن انحسرَ غطاءُ رأسها، وهبطت خصلةُ شعرٍ رماديّةٌ، أمام حدقتيها الوامضتين، أجبتها بكذبةٍ مفضوحةٍ:

«زياد في بيروت، والأولادُ متحمّسون؛ متلهّفون للّعب بالثّلج»

عاينتني بريبةٍ، رسمت ابتسامةً بلهاء، أغدقَت عليَّ اضطراباً واضحاً، ثمَّ ربّتت عليَّ بهمسها:

- البيت بيتكم يا حبيبتي، ليته يكون السّبب الأوحد**!**

- لا تخافي، كل شيءٍ على ما يرام

خطرَ لي أنْ أُفضي إليها بما يصيبني، أن أُوصيها بولديَّ، في حالِ تدَهْوَرَت حالتي، إلّا أنَّني امتنعت، ربّما لأنّها شمَّت خطباً، من دون حاجتي إلى الكلام، وربّما لأنّه لم ينقصها لتموت، سوى مصيبة إضافيّة واحدة، وربّما لأنّني كنت واثقةً، بأنَّ ما يحدثُ لي، ليسَ أكثَر من هلوسات، وتهيّؤاتٍ لعينةٍ، يستخدمها عقلي الباطن، للتنفيس عن ادّعاءات عقلي الواعي ومكابراته.

صباحاً؛ طرَقَت هدى الباب، برؤوسِ أناملها، دفعته برفقٍ، ثُمَّ دلفت منه، كما الغزالة، فانداحَت مَعَها نفحات الكشكِ السَّاخنِ؛ المطعَّم بملعقتينِ من السّمنِ العربيّ، ظَهَرَ رأسُها أوّلاً، ثمَّ انهالت بكاملِ جسدها، كانَ ثَوبها الطَّويل، يلعبُ مع الجورب السَّميكِ، لعبة الاختباء، أمّا المنديل الذي لفَّت بِهِ رأسها؛ فقد بلعَ أُذنيها، ومدَّ طرفيهِ من عقدةٍ خلفيةٍ؛ ليطلقهما فوق الكتفينِ، النَّحيليتين، مضفياً عليها؛ ما استطاعَ من هيبةِ الجدَّات، سَبَرَت نظراتها العميقةُ رأسي، ونفذت كأشعّةِ X إلى ما تحت الجلد.

لم يكنْ للبردِ يدٌ في مبالغتها في الاحتشامِ؛ فمذُ أوغلت في تدَيّنها، أمسَت كائناً جديداً، بقناعاتٍ ورؤى مختلفةٍ، كائناً حياديّاً، منزوعَ الرّغبات، والحماقات،

والأنوثةِ، التزمت بجلساتٍ دينيّةٍ دوريّةٍ؛ فإذا بأحاديثها؛ تستحيل إلى عِظاتٍ في الهداية، ودروسٍ في الطّاعةِ والتّسليم الإلهيّين، عندما هدلت بصوتٍ خافتٍ:

«يا صباح الفلّ والياسمين»

تصوّرتها فجأةً، في صباحٍ شبيهٍ من عام ١٩٩٦، حيثُ بالكادِ تعرّفت إليها؛ أختاً من لحم «نجيبِ الواثق» أبي، هبّت من البابِ، يومها، رائحةُ الحليبِ المغليّ، أيقظتني بالجملةِ ذاتها، وقدْ أردفت:

«قومي يا رزقتي بلّي ريقك»

كانت يومها؛ ترتدي بلوزة حريرٍ، أرجوانيّة، من دون أكمامٍ، وسروال ضيّق، لصيق بجسدها، خَطَفَت يدي، وقادتني إلى الصّالة؛ لأُشاركها مشروبَ الدَّلال «متّة بحليب».

في كلِّ مرّةٍ أزورُها؛ أطلبُ ألبومَ الصُّور؛ فقد كان آخر المُتبَقّي من أسرتنا البائدة، رحت أُقلِّبُ صفحاته؛ فيما ابني يوسف يطوّقُ عنقي، بذراعيهِ، يؤرجحُ رأسَه، بما يتناسب مع رؤيةٍ أوضح، أمّا رها فقد لاصقتني، مكتفيةً بمدِّ سبّابتها، كلّما سألت:

«من هذه؟ طيّب هذا؟»

«من هذا؟ طيّب هذه؟»

كنت أنا؛ تلكَ الطفلة البائسة، في بيت اليتيم، المستندة إلى الجدارِ الخشن، كعمودِ إنارةٍ مطفَأ، وتلكَ العابسة، في معسكر الطّلائع، وكانَ أبي؛ الرَّجلَ، الضّخم، المبتهج؛ الذي يجاورُ صبيّةً كئيبةً هي أمّي، خلفهما كان ينداح البحر، أعدت الصُّورة إلى مكانِها، برويّةِ الحائرين، أغلقت الألبوم؛ فارتفعت رطوبةُ الجوّ، وفاحَت من رأسي رائحةُ «ثنائي ميثيل الكبريتيد»، المُنفِّرة، والشَّبيهة إلى حدٍّ ما برائحةِ الكبريت، رهيبةً كانت لحظتئذٍ... رائحةُ البحر.

المرأة الجَمَل

في كونٍ تأسَّسَ على التّعقيد؛ هنالكَ من يحرصونَ على إيقاظِ بقايا أحافيرِ الحيوانات، الرّاكدة داخلَ النّاس، وفي الأزمات؛ حينما يُرْكَنُ الخجل على رفٍّ علويٍّ، وتستوي ستائرُ اللّيلِ السّميكةُ، بصَلَفِ النّهارِ، تتحفَّزُ العقاربُ، والكلابُ، والذّئابُ، والقرودُ، والأرانبُ، والنّعاج، والقطط، والأفاعي، وكلّ الدَّوابّ المتوارية في النّفوس، ولربّما تثبُ من كلِّ جسدٍ آدميٍّ، قد آواها، كانت هدى قافلةً من الجِمالِ، والصَّبرُ؛ الذي يعلمُ ذلكَ جيّداً، لم يكن يتوانى عن نصبِ المحنِ أمامها، أينما سارت؛ فقدْ أكلت الحربُ ولديها، وأتت على ذاكرةِ زوجها؛ الضّابطِ السَّابق؛ الذي أُشرفُ على علاجِهِ، عندَ المساءِ؛ سلَّمت طفليَّ لقيلولةٍ قصيرةٍ، طرقت بابَ الصَّالةِ الموارِبَ؛ فدعاني صوتها إلى الدخول، ثمَّ سلّمني سريعاً لصخبِ التّلفازِ، شققت طريقي، بمشقّةٍ، بينَ أكياسِ الخيش، وأكداسِ الثيابِ الباليةِ، بسمت لي، ثمّ لقّمت العجوزَ ملعقةً أخرى، من حساءِ العدسِ السّاخنِ، همست مشيرةً بحاجبيها إلى الحجرةِ المقابلةِ:

- المسكين؛ لايزالُ على جلسته، لليومِ الثّالثِ على التّوالي، يرفضُ النّومَ.

- لا عليكِ

- استدركت؛ وهي تفركُ عينيها بكمّها:

- تريدينَ إبرة المهدّئ؟

- لنرَ

شدّتها العجوزُ من ثوبها، مُلحّةً:

- من هذهِ؟ الممرّضة؟

- لا يا عمّتي، إنّها ماويّة

- تكذبين، سمعتكِ

اضطربَت حنقاً، ضربت الصّحنَ، بأصابعها المُكرمِشة، لطَّخَت ثيابها، كتمت هدى شهقتها، بيدها، بضَّت عيناها المقهورتان؛ فدنوت لأقبِّلَ رأسَها، الضّئيلَ، لاحقت بإصبعي، تجاعيد جبهتها، وكأنّما لأخفيها، أو لأتيقّن من كون الذي كان، قد كان حقّاً، احتضنت كتفيها، المهيضتين، الثّائرتين، وهززتها، غمغمت، بما تيسّر من صوتٍ:

- ماويّة يا عمّتي، والله العظيم!

- من؟!

- بنت نجيب أخوكِ

- أخي نجيب! الواطي، شكوته لله، شكوته لله

- هوّني عليكِ

- هل يعلمُ يا... أنّي هنا؟

- لا

- لا تخبريه للظّالم، بالله عليكِ

- لن أخبره، وحياتك

- عديني بأنّكِ لن تفعلي

- أووو!، يستحيل أن يعلم، مات من زمان

- مات!؟، نجيب!؟، يا سندي يا أخي، سبقتني يا حبيبي

تركتها تنقلبُ على حالها، وتنتحبُ كعادتها، تفقَّدت الرَّسائل النَّصيّة، في جوّالي، منّيت نفسي بكلمتينِ من زياد:

«اشتقت إليك»

«كيفَ حالك»

«أنا آسف»

«تحتاجينَ إلى شيءٍ؟»

لم يُفاجئني غيابُ اسمِهِ، رسائل سواه؛ بدتْ تافهةً، استشارات المراجعين، هانية تطلبُ إجازةً، جمانة تسأل:

«أنت في المنزل لأهاتفك؟!»

مريضٌ يخبرني جازماً:

«أنا ميّت»

وآخرونَ يقولونها على شكلِ أسئلةٍ مكرَّرةٍ، أسرعت نحوَ جمال؛ الغارق في الكنبةِ الصّغيرةِ، كانَ مبهوتاً، تحت لمبةِ السَّقفِ، المترنّحة، يثبّت رأسه، فوق كفّيه المتشابكتين، ويعلّقُ حواسّه المرهقة في نشرةِ الأخبارِ، تطلَّعَ إليَّ خطفاً؛ فبانَ السّوادُ، الثقيل، المتحلّقُ حولَ عينيهِ، واسيته:

«كيفَ أمسيت يا أبا بسّام؟»

أجابَ محتدّاً، من دون أدنى التفاتةٍ:

- لم أصبح لأمسي، هنالكَ هديرٌ فظيعٌ يضربُ رأسي، ما زلت أشعر بأنَّي في حلمٍ، لا وشائجَ تربطني بأحدٍ؛ لكنّي لست مريضاً افهمي، انظري إليّ، مثل القرد!

- من قالَ إنّك مريضٌ؟! ما شاء الله عليك، ولكن من بعد إذنك...

ضغطت زرّاً، في جهازِ التحكّم؛ لأكتم الصّوت، تملّيت الرُّتبَ الذَّهبيّة، المنتشرة حوله، فيما تابعَ التّلفاز الأبكم عرضَ أخبارهِ بالصّور، قاطعني مغتاظاً:

- باللهِ عليكِ ماذا فعلت؟، وكيفَ لي أن أفهمَ الآنَ ما يجري!

- ما يجري الآن غير قابلٍ للفهم، وظيفةُ الشّاشات أن تخلطَ الأمورَ أكثر

- يا أختي اتركيني وشأني، يعني تركْت النّاس وعبدتني**!** يجبُ أن أعرف المنتصرَ في هذه الحرب

- هذه الحرب لا منتصرَ فيها، الجميعُ مهزومون، يجب أن نتحدّث

- وما أدراكِ؟ من أنت أصلاً؟، ما مدى معرفتكِ بي؟

- أخت هدى كما أخبرتك

- ربّما خانني التعبير، من المفترض أنَّ هدى زوجتي صحيح؟**!**، إذن لابدَّ من أنّكِ تعرفين انتمائي السّياسي، بعضهم يدّعي أنّي خائنٌ فارٌّ، وبعضهم يقول إنَّني بطلٌ مقدامٌ**...** مع أيّ الطّرفين كنت؟**!**، أنا ضحيّةُ من؟**!**

- أنت ضحيّةُ الحرب

- أنت لا تفهمين، لا تفهمين، أنا ضائعٌ ومشتتٌ، أُحاول فحسب تجميع نفسي

- أنا أفهمك، أكثر ممّا تعتقد، وسأساعدكَ بقدر ما تساعدني

- أجيبيني إنْ استطعت، أستطيعُ استعادة ذاكرتي**!**؟

- تستطيع، بكلّ تأكيد

أطلَّت أختي برأسها، أشارت لي بإيماءاتٍ، تلمِّحُ إلى خروجها من المنزلِ قليلاً، وافقتها بهزَّةِ رأسٍ، أغلقت البابَ خلفها، بهدوءٍ؛ فيما مطَّ جمال شفتيهِ، بتبرُّمٍ، وهمهم:

- أرأيت**...** إنَّها لا تعتبرني أصلاً، أيَّةُ زوجةٍ لا تكترثُ لزوجها**!**

- لا يا أبا بسّام على الإطلاق، إنّها لا تريدُ أنْ تقطعَ حديثنا فحسب

- لكنَّها خاطبتكِ أنت، وكأنّني صنمٌ ها هنا**!**

- صدِّقني إنّها لم تقصد، لا تريدُ أن تشغلكَ، تخشى أن تثقلَ عليك فحسب

- أيَّةُ مسوّغاتٍ واهيةٍ هذه**...!**

- أتسمحُ بأنْ أعتذرَ منكَ بالنّيابةِ عنها!

- لا أسمح، اسمعي، انسي الأمر الآن، قلت لكِ إنَّني أتصدَّع

مرَّ الوقت ثقيلاً بيننا، جهدت في اختراعِ الأسئلة، وفي نبشِ الأجوبة، غير أنّه لم ينطق إلّا بعينيهِ الثَّائرتينِ، وبأنفاسهِ المتقطّعة، ولم يفضّ محاولاتي الحثيثة، إلّا إطلاقُ نارٍ، تعالى فجأةً، في مكانٍ غيرِ بعيدٍ، لم يهتمّ كما توقّعت؛ فاندفعت، بدوري، نحو النّافذة، إلّا أنّ أحداً من المارّة لم يُعرِ مثله الأمرَ بالاً، وحيثُ أنَّ غيبة هدى قد طالت؛ فقد انقبضَ قلبي، خرجت بلا تفكيرٍ، في إثرها، بدت الحياةُ، في محيط منزلهم، مضغوطةً بقوّةٍ، في مساحةٍ لا تحتمل كلَّ ذاك الضّغط، دكاكين فوقَ الأرصفة، بسطات فوق الشَّوارع، مخالفات بناءٍ في كلِّ مكانٍ، أمّا حاويات النّفايات؛ فباتت نقاط التّمركزِ، لمكبّاتٍ عريضةِ الانتشار، في محلِّ البقالةِ القريبِ؛ والذي تحوّلَ إلى متجرٍ فاخرٍ لبيع الألبسةٍ الأوروبيّةِ المستعملةِ، دوّى صوت فؤاد؛ العامل السّابقِ في ورشةٍ للفِّ المحرّكات، والبرجوازيِّ المستجدِّ، بفضلِ الأزمة، لم تنجح النّداءات؛ التي أثارتها الجلبة، في تهدئته، مستخدمةً نعتاً جديداً:

«اهدأ يا حبيب، روق معلّم فؤاد»

«أنت أكبر من الرّد على امرأة، يا معلّم!»

«يا معلّم!!، يا معلّم!!»

اختلطت عليَّ الأصوات، في معمعة الشّارعِ؛ فلم أُميّز الصّراخ الأنثويّ، إلّا لحظة دُفعت هدى إلى الخارج، جعلت ترفعُ غطاءَ الرّأسِ؛ الذي تهدّل، وتلوبُ كريحٍ هوجاء، بصقت كلماتها:

«لن تذلّني بخبزي يا فؤاد، الله موجود، هل تسمع؟!، الله موجود»

هرولت نحوها، وقد اندفعَ الدّمُ إلى رأسي، ما إن حاذيتها حتى قبضَت على أصابعي، ودفعتني أمامها دفعاً، لتلملمَ القضيّة، وتنسلَّ من نظرات المارَّة، الواقفينَ للفرجةِ، زفرت صدمتي في وجهها:

- تمهَّلي لأفهم، أجيبيني، ما الذي يحدث؟!

- هل جمال بخير؟!

- لا تتهرَّبي، ما الذي فعله ذلك السّافل؟!

- لا شيء، النّصاب؛ يتهمني مجدّداً بالسّرقة، ليتهرّب من دفع أجوري

خلَّصت يدي من قبضتها، خبطت الأرضَ برجلي، فانهرسَت نبرتي:

- سرقة؟!، أنت؟! ابنةُ نجيب الواثق، وزوجةُ جمال يونس!

- سحقاً لابنةِ نجيب، ولزوجةِ جمال، أنت في الأصلِ كالجميع، لا يغرّنّكِ علمك، أين هدى من كلَّ ذلك!؟، ها؟!، لا وجودَ لها، اسمٌ عدميٌّ حقيرٌ، ينحشرُ بينَ ذكرين، عندَ كلِّ مطبٍّ.

تجاهلت سكاكينَ كلامها، أردفت في تغابٍ بادٍ:

«وتجادلينَ ذاكَ الحقير؟»

شدَّتني ثانيةً صوبها؛ ففاضَ الغل على فمها:

- لأنّه يملكُ الآنَ شقّتنا، افهمي، بعته إيّاها لأعالجَ جمالاً، وأنا أعمل لديهِ، بدلاً من دفعِ الأجرةِ، عبوديّة يعني، حالي حال أكثر النّاس من حولك!

- ولماذا لم تخبريني بهذا من قبل؟!، على ماذا تتسترين؟!، وماذا يفعل بيت أبيكِ المهجور أصلاً؟!

- فضحتك صح؟!، أُعفيكِ من قرابةٍ لن تشَرِّفك

- ما هذا الهراء؟!

- تعرفينَ أيّة علاقةٍ مشحونةٍ، كانت بين جمال وأبي، ناهيك بالوضع الأمنيِّ المتدهور هناك

- والدكِ وافته المنيّة، وزوجكِ لا يذكره أصلاً، أمّا الأعمارُ؛ فهي بيدِ الله، كُثُرٌ من سكّانِ قريتنا لم يخرجوا منها

- لا أعرف، قد يكونُ الحقُّ معكِ، ربّما ارتحالنا إليها؛ هو الحل لكلِّ شيءٍ

- ثمَّ متى أصبحَ هذا الهمجيُّ ملّاكاً**!**؟

- مذ أصبحَ لصّاً كبيراً، بربّكِ، هلّا تجاوزنا الأمر**!!...** رجاءً.

سيطرنا بالسُّكوت على توتّرنا، كدت أُطيِّبُ خاطرها بكلمةٍ، لكنّي تراجعت، انتظمَ إيقاعُ خطواتنا، تملّيت طيّات ثوبها الأسود؛ المتهادي بخشوعٍ، أيقنت أنَّ ما يحرّكنا، ليسَ القناعات بالضَّرورة؛ وإنّما البحثُ عن ملاذٍ، وأنَّ التحصّن بكتبِ الدّين، وبالقدّيسين والأنبياء، والأولياء الصَّالحين؛ أسهل وأوضحُ صُورِ الالتجاءِ، إلى كائناتٍ مختصَّةٍ في مناهضةِ التعبِ، قفزت، بخفَّةٍ، نحو موضوعٍ على الضّفةِ الأُخرى للألم، اقترحت عليها؛ أساليب جديدةً، للتّعامل مع جمال؛ حيثُ لا جدوى لأيِّ عقارٍ دوائيٍّ من دونها، تبدَّلت ملامحها سريعاً، أصغَت إليَّ، بوداعةٍ، بعدما أدركت أنَّ البلى قد لحقَ بصوتي أيضاً، هممت، بكثيرٍ من العنادِ، والتآلفِ مع وضعها الجديد:

- أحياناً أخافُ منه، أحياناً عليه، لست أدري، ما زال فريسةً لنوبات الهلع

- الأمور بخير، زالت الاضطرابات الحادّة، كلّ تركيزنا الآن ألّا تقترنَ حالته بأعراضٍ تحوّليّةٍ لاحقةٍ

- لم أفهم

- علينا إعادةُ الجزءِ المفقودِ، من ذاكرتهِ، إلى وعيهِ، بأقصى سرعة ممكنة، فغيابه سيعمل كنواةٍ، يتمُّ من خلالها تكوين كل النّوبات المتعاقبةِ.

- لا تحسبين أنّي فهمت الآنَ أيضاً، أليسَ كذلك**!**

- اسمعيني، باختصار هناك احتمالٌ لظهورِ أعراضٍ اكتئابيّةٍ، قد تترافق مع أفكار انتحاريّة، أو وساوس لإيذاء الذّات، لا سمح الله، ما عليكِ فعله هو ملء فراغ الذاكرة بالصّور والأحداث والحكايات

- يا إلهي، لماذا يا ربُّ كل ذلك!

- لا خوفَ طالما أنّكِ إلى جواره

- أجيبيني بصدقٍ يا ماويّة، من الممكن أن يتعافى!؟

- لا أُخفيك؛ فقدان الذّاكرة، الانشقاقيّ، الحادّ، النّاجم عن صدمةٍ معنويّةٍ، أقرب إلى التعافي من المترتبِ على أذيّةٍ دماغيّةٍ، كما في حالة جمال

- تحدّثي مثلنا رجاءً!

- الشّفاء ليس مستحيلاً؛ فالدّعم الاجتماعي، والحبّ، كفيلان بالمعجزات، لا مانع من استخدامِ المنوّم، ومضادّات الاكتئاب، عند الضّرورة، أمّا الأهم؛ فتبديدُ وحشته، كلّما شعرَ بالدّفءِ، هانت علينا المسألة، أنت وسيلته؛ لترتيب معلومات مُخِّهِ بالكامل.

- سأفعل ما بوسعي لأجله، لم يتبقَّ لي غيره

بعد وجبةِ «اليبرق»؛ التي أولمتها أختي، على شرفي، دخلت عمّتي، على كرسيّها نوبةً من الإغفاءات المتقطّعةِ؛ وهي تهذرُ بالغائبينَ والموتى، هدى التي شرحت لي، كيف تغسل الثيابَ، وتكويها، وتعدّها للبيع، راحت تقشّرُ البرتقالات، في صحنِ جمالٍ، بشكلٍ لولبيٍّ، تقطّعها مكعباتٍ صغيرة، تلقّمه إيّاها كالأطفالِ، ثمَّ تجبيه بصبرٍ، لحظة يُنقّل سبّابته، بينَ الغرباءِ في ألبوم الصّور:

- هذا رؤوف صديقكَ من دير الزور

- وهذه؟

- هذه أمّكَ في صباها، كانت فاتنةً صح؟!

سارعَ يرصدُ العجوز، الغافية على الكرسيّ؛ فتضاعفَ التّورّمُ، أسفلَ الجفنينِ المُجْهَدَيْن، أشاحَ بوجههِ مدمدماً:

- لماذا أفتقدُ أيَّ عاطفةٍ تجاهها؟!

- لا تقلق يا عزيزي، حتى المشاعر سَتسْترَدّ

عدّلت في رأسي، مَقْصَدَ هدى «ستسْتزْرَع»، ثمَ تدخّلت:

- لا تنسَ الزهايمر أيضاً، كلاكما خَسِرَ جزءاً من الرّابط الأعزّ «الذّاكرة»

قلبَ الصفحة، كما لو أنّه لم يسمعني، مضغَ مكعّبَ البرتقال، بمشقّةِ من يلوكُ حصاةً، وحطَّ بإصبعهِ مرّةً أخرى؛ فأجابت هدى؛ وقد تفتّحت كمثل وردةٍ:

«هذا أنت»

رفعَ حاجبيهِ مستغرباً، تملّى انعكاسه على الإبريقِ، بعينينِ شاخصتينِ، فأكّدت:

«والله العظيم أنت، لا تصدّق!؟ كنت جذّاباً»

وضعت يدها على فمها، في خفرٍ، واستدركت:

«وما تزال»

ابتسمَ لها؛ فالتمعت حدقتاه، افتعلت شواغلَ صغيرةً، وأيقظت عمّتي؛ لأَقودها إلى سريرها، سمعتها توغل في الخيالِ، إذ آنست قربَه:

«كنت لطيفاً، مرتّباً، شديدَ العنايةِ بنفسكَ، تحلقُ ذقنكَ كلَّ يوم، تشذّبُ شعركَ بانتظامٍ، تلمّعُ حذاءكَ، بتأنٍّ، قبلَ كلِّ خروجٍ، حتّى إنّكَ كنت تحيّرنا يا رجل، في انتقاءِ ربطاتِ العنقِ الحريريّةِ كلّها...»

قاطعها مستنكراً، لخاطرٍ استبدَّ بهِ:

«على الأرجحِ أنّكِ تبالغين، كيفَ لضابطٍ مغوارٍ، أن يكونَ بتلكَ الأناقةِ، الطَّاغيةِ؛ التي تصوّرينها»

توترت قليلاً، لكنّها أصرَّت، بعد إيماءتي المتواطئةِ:

- كنت خليطاً مذهلاً

- وكيفَ التقينا؟!، أخبرتني أنّكِ لمْ تعرفي، أوّلَ الأمرِ، أنّي قريبك

فركت ذقنها بظهرِ كفّها، غابت قليلاً، بينَ أجفانها البليلة، ثمَّ همست بنبرةٍ حارّةٍ:

«كانت قصّة حبٍّ... جميلةً»

تنهَّدت، وعاودت تهجيتها:

«ج م ي ل ة»

دخلت؛ حيثُ طفلايَ النَّائمان، أغلقت البابَ برفقٍ؛ فتناهت إلى سمعي، بعض التّفاصيلِ المُنكِّهَةِ؛ التي أضافَتها إلى الحكاية، تمدَّدت قربهما، تدفَّأت بأنفاسهما، وشعرت بأنّي أقرب إلى عيادةٍ نفسيةٍ متنقّلةٍ، منّي إلى كائنٍ حيٍّ، يحلمُ بقسطٍ ضئيلٍ من الرّاحةِ؛ فبيت هدى؛ الذي طالما وطئته؛ لأنعمَ بالسّكينةِ، قد بات جرحاً مفتوحاً، خلّفته الحربُ الطّويلةُ، ولا مجالَ فيهِ لخياطةٍ سريعةٍ، على الإطلاق، تصارعت الضّغوطات الكثيرةُ، في ذهني المُنتهبِ، فقدانُ ذاكرةٍ ما بعدَ الصّدمة؛ الذي تعرّضَ له جمال، إثرَ إصابةٍ في الرّأس، هدى؛ وهي تخوضُ معركتها المصيريّة السرّيّة، فتكذبُ بدأبٍ، لتعيدُ خلقَ شخصيّةٍ جديدةٍ؛ للزَّوجِ الذي أرادته، تلبسه إيَّاها برويّةٍ، وبحنكةٍ تدخل ذراعيهِ الخشنتينِ في كُمَّيها، تذكَّرت يومَ كانَ البيت في حضرتهِ، أشبهَ بثكنةٍ عسكريّةٍ، انضباطٌ، وقسوةٌ، وخوفٌ، وجدّيّةٌ، وفجاجةٌ، تذكَّرت ذبولها أمامه، انكسارها، مشاحناتهما الطَّويلة، وسقطت أمنيةٌ في بركةِ قلبي... ليت زياداً يفقدُ ذاكرته.

قرنفل بلدي

انتقَلَت هدى، بزوجها، وحماتها، وأحمالها من الهمِّ، إلى بيتنا في القرية، كتبَت لي -وقد أدركت الخيبة- عن البيوت المهجورة؛ كيفَ أمسَت ثكناتٍ للخوفِ، وأقبيةً لطوابقَ علويّةٍ من الجنازات الطَّافية، كتبت عن قريةٍ جديدةٍ، داخلَ القريةِ، من المقابرِ والأضرحةِ، عن وردٍ فوقها، يتجدَّدُ كلَّ يومٍ، ليسكبَ شيئاً من اللَّونِ، على سحنةِ السَّوادِ اليابس، عن تلَّتينِ متضامَّتَيْنِ، تتناءيانِ؛ لكثرةِ ما عبَرَت بينهما، آليات الحربِ الثَّقيلةِ، وعن رؤيتها الضبابيّة، لأقدامِ أطفالٍ، تعدو وحدها في العراء الوعر، عن اغتيالاتٍ سرّيّةٍ، لآلافِ الذكريات الطّفليّةِ، عن أزقّةٍ متروكةٍ للرّيح، وسماءٍ ملتاثةٍ بالهمِّ، كتبت عنْ دوريٍّ تشرَّدَ، بعدَ أنْ صارت كلّ شجرةٍ مخردقةٍ؛ فزّاعةً، وكل رصاصةٍ فارغةٍ؛ مأوىً لروحٍ ترتجف، استطردت بجدّيّةٍ:

«لربّما امّحى أثرُ الشّمالِ؛ فآثارُ المعاركِ، قدْ خلخلت اتساقَ الاتجاهات، ضعنا يا بنت!»

عاصفةٌ، من الصُّورِ العتيقة، انبثقت من مضائقِ القلبِ المستخفية، لم أُصدِّق البتّة؛ أنَّ رائحة الموت؛ وهي تنزُّ من الكلمات، قد تقوى على عبقِ القرنفلِ، السَّابحِ في دمي.

«زرعنا قرنفل بلدي، أحمر»

جاءتني رسالتها بعدَ يومين، هبَّت عليَّ، كأغرب النُّبوءات، هدى لا تعلم ما يعنيه القرنفل، في الأساطير الكاثوليكية، ترى ماذا لو علمت أنّه ترميزٌ لدموع الأمّ العذراء على ولدها؟!، اختارت أختي الأمّ، دموعها حمراء، بلديّة، قرأت، تحت سطوةِ السَّعادةِ الدَّافقة:

«أصلحنا البيت، نظّفناه، وزرعنا حبقاً ومنثوراً، حرثَ زوجي الأرضَ، حتّى صارَت بملمسِ المخمل، سيغرسُ فيها شجراً جديداً، أتعرفينَ!، رغمَ أنّنا ننحت

حياةً جديدةً وسطَ هذا الفراغ الوحشيّ، لديَّ شعورٌ بأنَّ البيوت، كلّها، ستخفقُ بالنَّاسِ مجدَّداً، لو تسمعينَ عمَّتي الآنَ؛ وهي تغنّي قصائدَ على الشُّرفة، هل خطرَ لكِ يوما أنّ عمّتنا قد تغنّي!؟، لم أشعر ببهجةٍ كهذهِ من قبل؛ ففي حين يحفُّ بنا الخطرُ من كلِّ جانبٍ، أُحسُّ بأنَّ هذه الحياة البدائيّة؛ التي نخلقها اللّحظة، إنّما تخرجُ من رحمي أنا، لو تعلمين يا ماويّة كم صرت كثيرةً، أتسمّون هذا مرضاً يا ترى؟!»

وفي اليومِ التاسعِ؛ لاستقرارهم هناك، استيقظت على صورةِ عمَّتي؛ تملأُ الصّفحات الإخباريّة، وقد تحوَّلت، برفَّةِ عينٍ، إلى بطلةٍ شعبيّةٍ:

«عجوزٌ ثمانينيَّةٌ؛ تقتلُ ثلاثةً، من عناصرِ تنظيمٍ مسلّحٍ، في هجومٍ شُنَّ على منزلهم»

لم أُصدِّق ما قرأت؛ فأنينُها كانَ ما يزال يطنُّ في أُذنيَّ، اصطبغَ قلبي فجأةً، بتجاعيدها الحارّة، اتّسَعت روحي، سارعت أُهاتفُ أُختي؛ لأَطمئنَّ إلى أحوالهم؛ فأخبرتني بأنَّها قضَت ليلتها في تنظيفِ بيتهم، في المدينة، بغية تسليمِهِ، وأنَّها تفاجأت مثلي بما حدث، أردفَت بنبرةٍ غريبةٍ:

«يبدو أنَّ جمال؛ قد تناولَ حبوباً منوّمةً البارحة، وعمَّتي التي أدركت الحركة الغريبة في الخارج؛ تناولت سلاحه، وزحفت نحوَ الباب، لم تفكِّر في إيقاظِهِ، لكيلا تزعجه؛ فالشَّيءُ الوحيدُ الصّامدُ فيها؛ كان أُمومتها، أمومتها الصّارمة»

ومن يعيدُ إلى العالم أمومته!، تساءلت في دخيلتي، وأنا أحاول تخيّل ما حدث، مرَّت أسابيعُ، بعدَ تلكَ المحادثة، لم أسمع فيها صوت هدى، بعدَ أن كانتْ تحرصُ على إطلاعي على وضعِ زوجها، أوَلاً بأوّل، بدا غيابها المفاجئ مُربكاً، حتى أمست -كلَّما هاتفتها لأَزورها- غيرَها، تعتذرُ وترجئُ الموعد، لم أصبر أكثر، تحيَّنت فرصة سَفَرِ زيادٍ، طلبت إلى صديقتي راوية، أنْ تبقي طفْلَيَّ مع أولادها، ريثما أعود، ثمَّ سارعت إليها.

استقبلتني بملامحَ ثقيلةٍ، استحلفتها، برحمةِ ولديها، علّها تطلعني على ما تخفيهِ، انهارَ شيءٌ في سكوتها؛ فاصطحبَتني إلى غرفةِ عمَّتي، المهملة، وأغلقت البابَ خلفنا، بإحكامٍ، ملأت عينيَّ نظرَتها القاسيةُ، قلت بنبرةٍ؛ يغشاها القلق:

- كنت واثقةً بأنَّ هنالكَ خَطْباً ما

- أشعر بأنَّني عدوَّةُ نفسي

- ماذا حدث!؟

- لا أعرفُ من أين أبدأ

- يا أُختي تحدَّثي، باللهّ عليكِ، أوقعت قلبي!

- أنا أدرى بسلاحِ زوجي، لم يكن في حجرةِ الانفجارِ سوى رصاصتين؛ فيما كانَ هنالكَ ثلاثةُ قتلى، أمامَ الباب، وكل جثَّةٍ مصابةٍ، بعدّةِ عياراتٍ ناريّةٍ

- ماذا تعنين؟

- ظلَّ الأمرُ حبيسَ رأسي، إلى أنْ دخلت القنَّ القديم؛ والذي حوّلته إلى مستودعٍ صغيرٍ، لبعضِ الحاجات

- ثمَّ؟

- قبَضَ على كاحلي؛ وهو مُلْقَى على بطنِهِ، زعقت كالملدوغة، اصطدمت بجسدهِ على الأرض، صرخت بأعلى ما استطعت، شلَّني رعبٌ ليسَ يوصف، لحظة المطروحِ لمحت وجهه، ولكنّه أفلتني، هكذا ببساطة؛ فتىً في الثَّالثة عشْرَة من عمره، وما إن خطَّ شاربه، ينزفُ، ويحمحمُ بكلمةٍ واحدةٍ:

«عطشان»

لمْ يكنْ بمقدوري زحزحةُ قدميَّ، نفذت نظرته المتوسّلة إلى قلبي، أطرقت متمعّنةً في لثامهِ، في هيئتهِ، وفي جانبِ وجههِ؛ الملتصقِ بالأرض، كان بإمكاني أنْ أتركه يقضي نزفاً، أنْ أصرخَ؛ فأجمعَ الرّجالَ حوله، أن أهربَ، وأُفضي لزوجي بما شاهدت، غيرَ أنّي تثبَّت في الأرض، بمساميرَ خفيّةٍ، قلت لنفسي:

«هي مَيتةٌ واحدةٌ»

تجرَّأت، كلَّمته، حرّكته، سألته كثيراً، لكنَّه لم ينطقْ، كانَ يهذرُ بثلاثِ كلماتٍ فحسب:

«لم أقتل أحداً»

ولم يكد يستعد وعيه، حتى انهارَ بكاءً وابتهالاً.

أكملت وهي تفركُ عواطفَها المتضاربة بعينَي الصَّقرِ المزروعتينِ في وجهها:

«يُشبه ولدي يا ماويّة، والله العظيم، يُشبهه كثيراً»

زلزلتني نظرتها؛ المحمّلة بآهاتٍ غائرةٍ، سألت؛ وقلبها يتقافزُ في حدقتيها: من هو؟!، وماذا فعلت؟!

قلت لكِ؛ يشبه كثيراً ولدي؛ الذي ذبحته العصابة، امّحَت من رأسي، حينها، أيُّ تفاصيل إضافيّة، ارتسمت في مخيّلتي نظرةُ بسَّام، وجسدُ بسّام، ودمُ بسّام، وألمُ بسَّام، نظَّفت جرحه بلا وعيٍ، ضمّدته، جلبت له مضادَّات التهابٍ، ومسكّنات ألمٍ، كمَّمت فمه، قيَّدت رجليه ويديهِ، بإحكامٍ لأستوثقَ مِنْ أمرِهِ، داومت على تقديمِ الماءِ والطَّعامِ له، في يدي، سرّاً.

- من كان؟!، ردّي!

- فقدت عقلي، جنَّنني ذلكَ الشَّبه القاتل، وأُقسمُ لو كانَ الشيطان لداويته، تخيّلي كنت أُصوّرُ وجهه، كلّما غفا، إذ لا صورَ عندي لبسّام؛ لأشمّها، وأُقبّلها، وأُحادثها، وأضمّها حتّى التعب، لا صور يا ماويّة... لا صور.

- يا الله، ألفُ سؤالٍ يراودني، كيفَ حدست بانتمائهِ؟!، لماذا لم تخبري الآخرين؟!، أو تستدعي الإسعاف مثلاً؟!

- بعدَ يومين؛ بدأ الدَّمُ يطفرُ من جرحٍ، أعلى بطنهِ، جلبت المعقّمات، رفعت سترته فإذا بشعارِ التّنظيم مرتسمٌ على قميصهِ الدَّاخليّ

- يا ربَّ السَّماوات!، ولم تسلّميهِ للسُّلطات

كانَ يرجوني، ويقبّل قدمي، أخبرني أنّه فارٌّ من بطشِ قادته، وأنّه من قتل رجلَيْن من الثلاثة، صدَّقته يا ماويّة، صدّقته، كنت أتفرَّسُ في وجههِ؛ فأرى ابني، أضربه في كلِّ يومٍ، حتى يكاد يموت؛ فأرى ابني، أُطعمه، أسقيهِ، أُداويهِ ثانيةً، لكيلا يموت؛ لأنّي لم أعدْ أرى في عينيهِ، وفي وقفتهِ، وفي شهقتهِ، سوى... ابني.

- داعشيٌّ يا هدى!؟، إرهابيٌّ!!، كيفَ تأمنينَ على نفسكِ؟!، كيف تأمنينَ على أسرتك؟!، بلى... فقدت عقلكِ

- إنّه طفلٌ يا ماويّة، لم تنبت شعرةٌ في وجههِ بعد، أتعلمينَ!، أخبرني أنَّه فكَّكَ حزامه النَّاسف، وأخفاه في حقلِ الزَّيتون، وقدْ أبلغت عنه المعنيّين، ألم يكن بإمكانهِ استخدامه ضدَّنا؟!

- وماذا ستفعلينَ به، هل ستسلِّمينه؟

بانَ التوجُّعُ على وجهها كوخزِ الإبر، زَمّت عينيها، إلى أنْ تغضَّنَ الجلدُ المتحلّقُ حولهما، ثمَّ نفضت رأسها محتدّةً:

«لست أدري، أشعرُ أحياناً برغبةٍ في انتزاعِ قلبهِ، انتقاماً لولدي، وأحياناً أراه فيه فأهمدُ، وأنطفئ»

فوجئت بما سمعت، ووهلةً لمْ أُصدِّق أُذنيَّ، ناشدتها في نفادِ صبرٍ:

«خذيني إليه»

شَقَّت أختي بابَ القنِّ بحذرٍ، كمن يحتجزُ وحشاً لا يؤتمنُ، حتّى وهو مكبَّلٌ بأصفادهِ، تراءى لي في حزمةِ الضَّوءِ؛ جسدٌ فائقُ النُّحولِ، مثخنٌ بالجراحِ المتوسّطة، ومربوطٌ بحبلٍ غليظٍ، يرتجفُ في زاويَةِ القنِّ، محموماً كان، موهناً، ومنهنهاً من الهلع، التهبَت عينا هدى، لحظة لمحَته، اتّسَعَت حدقتاها، وكأنّما وقعت تحت تأثيرِ مُخَدِّرٍ ما؛ فجعلت تخلعُ حذاءها، تخبُّ في القشِّ صوبَه، وتنهال عليهِ ضرباً، وصفعاً، وبصقاً، وشتماً لا ينتهي:

«الله لا يوفقك، يا سافل، يا وسخ، يا بن الكلب»

«الله يحرق قلوبكم، مثل ما حرقتم قلبي»

لمْ يُبْدِ مقاومةً تذكَرُ، اصطكَّت ركبتاه، ارتعدت فرائصه، تشنَّجَ قليلاً، لكنْ سرعانَ ما ارتخَت أطرافُه، ترنَّحَ بينَ يديها كخرقةٍ، تأتأ وسأسأ، حنى رأسه، وانهارَ مغشيَّاً عليهِ، خُيّلَ إليَّ أنّني سمعت صوت ارتطامهِ بالأرض؛ فلمْ أشعرْ بساقيَّ بعدها.

«كل وحشٍ؛ قادرٌ على إخراجِ الوحشِ الآخر، من ضحيّتهِ»

التمعت الفكرةُ في خاطري؛ فنادَيت بينَ شهقَتيْن:

«يا هدى!!»

لم تسمعني، ولم تتركه، إلّا وقد تكوَّمَ خلفها، بضعة كيلوغراماتٍ من اللّحم، نفَضَت يديها، ورجعت خطفاً إليَّ، لمْ تكنْ قويَّةً، لفعلِ ذلك؛ لكنَّ جسَد الفتى، الهزيل، المدمَّى، كانَ أوهى منَ الصُّمودِ أمامَ نسمةٍ، لمْ تتوقَّف أُختي عن اللهاث؛ فالانتقال الآدميُّ بينَ ضدَّيْنِ، لمْ يكنْ هيّناً، على الإطلاق، تلَفَّتتْ بحذرٍ؛ وهي تخرجُ من بابِ القنِّ الوطيء، آبت إلى رشدها، أغلقت البابَ بإحكامٍ، ثمَّ هرولَت أمامي، بكتفينِ محنيّتينِ، مثلَ حريقٍ يتقدَّمُ في الهواء، تبعتها على الممشى الترابيّ، أَنصتُّ لتكسُّرِ الأعشابِ، ولفرقعةِ الحصى تحت نعالنا، قلت مُحاولةً مجاراتها:

«وماذا فعلت الآن؟!، شربت من دمهِ؟!، أريتني مهارتك في الثّأر؟!»

قاطعتني، بانفعالٍ شديدٍ:

«أنا ضائعة، أكادُ أُجن»

انهرنا على الأرضِ، صامتتيْن، وكأنّنا نفكّرُ في تسويةٍ بينَ المنطقِ والخوف، همست بعد سكوتٍ طويلٍ، وأنا أكسرُ عوداً بينَ يديَّ:

«ماذا لو قتلتهِ!، قد تجدينه الآنَ ميتاً!»

حدجتني بنظرةٍ ثلجيّةٍ، تفكّرت، انتفضَت، هبّت من مجثمها، ثمَّ هرولَت، نحو القنّ، طاويةً كلَّ خطوتينِ بوثبةٍ، سبقتها جرياً، دخلت، مطّت بدنها من البابِ الضَّئيلِ، وهمست:

«هل مات؟»

تشجَّعت، دنوت منه، سألته عن اسمهِ؛ فتلعثم، أمضَّه جلده المتورّم، همهمَ بعينينِ مغمضتينِ:

«والله العظيم، لم أقتلْ أحداً، كنت دوماً، أُصوّبُ نحوَ... البقاعِ الخالية»

سألته، وأنا أُفَتشُ بنظري، عن موطنِ الإصابة:

«لماذا تقاتلنا معهم إذن؟»

ردَّ متلجلجاً بكلامهِ:

«لا أعرف، وجدتني هناك، لا أذكرُ كيف، لكنْ يا سيّدتي، إن كانَ العجل الذي تعبدون، يحبُّ الألوانَ والضَّحكَ والأغاني؛ فأقسمُ أنّي سأعبده معكم»

صُدمت، كتمت ضحكتي باندهاشٍ، سألت:

«أيُّ عجلٍ!»

ثمَّ همهمت؛ وأنا أنقرُ رأسه بسبّابتي:

«هذا أولى من العجل بالعبادة، يا ولد!»

انفرَجَت أجفانه، ومضت عيناه بأملٍ جليٍّ، تعجَّبَ، وقد شابَ نبرَته الامتنانُ:

«يعني لن تقتلوني!»

جنديٌّ بسترةٍ ملوَّنةٍ

- احكِ لي يا ناصر

- ماذا أحكي

- كلَّ شيءٍ...

- كنت أتدرَّب؛ لأُصبحَ انتحاريّاً، قالوا لي إنَّ والديَّ أحضراني في الثَّامنة إلى مخيّمٍ للتّكوينِ الدّينيّ، ومنه انطلقت إلى معسكرِ التدريب؛ لأُحاربَ الكُفّار

- يعني نحن؟!، وهناك ماذا فعلت؟!

لا أعلمُ متى تعلّمت مهارات القتال بالضّبط، كل ما أعرفه أنَّ أخمصَ الكلاشنكوف؛ صار وسادتي الأحبّ، أشْبَهَ بذراعِ الوالدة، لا أذكرُ شكلَ أبي، ولا شكلَ أُمّي، ولا أعلمُ أكان لديَّ أُخوةٌ، أو أكان ناصرٌ اسمي الحقيقيّ، منذُ الخامسة وأنا أُحاول الهرب، ربّما لأنّي جبانٌ كما يقولونَ، فقد كنت الطّفلَ الوحيدَ؛ الذي يبكي ويبول في سروالِهِ، وربّما لأنّني لا أستطيع التّنفّسَ بانتظامٍ، ولا الصّراخَ ولا الجريَ طويلاً مثلهم، إذ كنّا ننامُ في أنفاقٍ، تحت الأرض، إلى أنْ فتكت الرطوبةُ برئتيّ، سخامُ المواقدِ أيضاً، نسجَ في أنفي زوائدَ، أشبهَ بشباكِ العناكبِ، كانوا يقولونَ لنا إنَّ الأملَ معقودٌ علينا، وإنّنا جيل الخلافة، وإنَّ الله يحبّنا...، وكنت أبكي، بلا دموعٍ، عندما لا يجيبني أحدٌ عن سؤالي:

«ماذا يعني يُحبّنا؟»

كانَ من السّهلِ، إقناعُ رفاقي؛ بأنَّ القتالَ فعلٌ نبيلٌ، وبأنَّ الموت لأجلِ الدِّينِ حياة؛ لهذا فقد بدا تجنيدُ الصّغارِ، أمراً عظيمَ الأهمّيّة؛ فكلّما زادَ الضّغط على التّنظيم، تصدّرنا الصفوفَ الأماميّة، لمْ نكنْ أطفالاً البتّة، وإنّما كنّا قنابلَ موقوتةً، كل شيءٍ فينا

كانَ أسود... الثّيابُ والعقول والقلوبُ، حتّى مناماتنا، وأحلامنا في الوصولِ إلى الجنّةِ؛ كانتْ سوداء يا سيّدتي، قلت لصديقٍ مرّةً، إنّني أُحبُ القوسَ الملوَّنَ؛ الذي لاحَ في السَّماء، عَقِبَ المطرِ؛ فضربني بحجرٍ على صدري، وهمس محذِّراً:

«اخفضْ صوتكَ يا حمار!، ولا تحك عن الألوان، أمامَ أحد»

كنت مقتنعاً بأنَّ الله لا يحبُّ الألوانَ، ولا الضَّحك، ولا الأغاني، بقدرِ ما يُحبُّ رُؤوسَ الكفَّارِ المقطوعة؛ لذلكَ فقدْ كنت أهربُ منه، في كلِّ مرّةٍ، أُقرِّرُ فيها الفرارَ من المعسكر. مؤخّراً أرسلَ القائدُ بعضَ الانتحاريّين؛ لتنفيذِ عمليّةٍ انغماسيّةٍ في قريتكم، عندما رجوته أنْ يُلبسَني حزاماً ناسفاً، لم يتوانَ عن ذلك، بدا لي أنَّ وجودي يمضُّه، وأنّه في غايةِ التّلهفِ؛ للخلاصِ منّي، كانَ الهدف؛ الانتشار بينَ المنازلِ فجراً، قتل ما يتيسَّرَ من النّاسِ، وتفجيرُ أنفسنا حيثُ التجمعات، ألبسَني بيديَّ، سترةً ملوَّنةً، فضفاضةً، للتمويه، غطّى بها المتفجّرات المزروعة حولَ جسدي، نزلنا منَ السّيارة، انقسمنا إلى مجموعاتٍ، واتّجهت مع ثلاثةٍ آخرينَ، صوبَ المدرسة، كانَ الجوُّ غائماً، لكأنّما السَّماء تتستّر علينا، لم يكن بإمكاني التوقّفُ عن الضَّحك؛ فقد قدّموا لي نوعاً من السّجائر المريبة، طوال الطَّريق، ثمَّ هبَّت من شرفات البيوت، مسرَّاتٌ لمْ يلمحها أحدٌ غيري، طفقْت أعدُّ الأُسر، ففي كلِّ بيتٍ لابدَّ أسرة، كنت فرحاً بالشّرفات، وبالنّاس، وبالسّترةِ الملوّنةِ، كنت فَرِحاً، كما لم أكنْ في حياتي، عندما رقصت خلفهم، وصفَّقْت في يدي، ظنّوا أنَّ ابتهاجي، بفعلِ السيجارةِ، ليسَ أكثر، هدَّدني أحدهم:

«ستفضحنا!، انتظرنا هنا، ريثما نذبحُ لكَ سكّانَ البيت؛ ذي البابِ المفتوح»

بينَ أشجارِ الزَّيتونِ اختبَأت، تسمَّرت مكاني، انقبضْت، اختنقت، وتلاشَت بهجتي، لكن ما هي إلّا ثوانٍ، حتّى سَقَطَ أحدهمْ، برصاصةٍ من الدَّاخل، تنازعتني، لحظتها، هواجسُ كثيرةٌ، فكَّرت بالسّيناريوهات؛ التي حضّرتها، من قبل، في رأسي، فكّرت في أنّي لا أُريدُ الانتحار... لا أُريدُ أنْ أموت، وأطلقت...

- على رفاقك؟

- نعم، أرديت الاثنينِ الباقينِ، وأجهزت على الأوّلِ؛ الذي لم تمته الرَّصاصةُ الواحدةُ، كانت تلك أوَّلَ مرّةٍ؛ أقتل فيها أحداً فعلاً، ولو لمْ أكنْ تحت تأثيرِ السّيجارةِ، لما امتلكت الجرأة.

- لماذا فعلت ذلك؟

- لأتحرَّر

- لكنّكَ أقبلْت على الموت طائعاً

- لم يكن لديَّ مفرٌّ، للخلاصِ منهم، سوى الموت

- وهانَ عليكُ قتل نفسك؟

لم يهن؛ لذلك قتلتهم، وهربت، غيرَ أنَّ رصاصةً ثانيةً، خرجت من الدَّاخلِ، مسَّت ساقي، انتزَعت بعضَ لحمها، واستقرَّت في جذعِ شجرةٍ، فكّرت في أنْ أُفجّرَ نفسي؛ لكنّي تراجَعت، خطوت، دائخاً، مترنّحاً، مع ٥ كيلو غراماً، من الموادِ المتفجّرةِ، حاولت عبورَ سياجِ الصّبّارِ، غير أنّي سرعانَ ما تهاويت، ففكَّكت الحزامَ هناكَ، دفنته، ثمَّ زحفت، وئيداً، نحوَ القنِّ، اختبَأت، واريت البندقيّة في القشِّ، ولذت في الزَّاوية، كانتْ مغامرةً، لا رجعة عنها، خطَّطت أنْ أستخدمَ سلاحي، عندما يهجمونَ عليَّ فحسب، لكنَّ أحداً لم يفاجئني، سوى تلكَ السَّيّدةِ، أوهمتها بأنّي فاقدُ الوعي، وحينما باغتّها ممسكاً برجلها...

سكت قليلاً، ابتلعَ ريقه، حوّلَ بصره إلى الأرضِ، حنى رأسَه، أكملَ؛ وقد انفرطت عناقيدُ الضَّوءِ، في عينيهِ، واكتسَبَ صوته، رقّةً طارئةً:

- ذُعِرَت هي، تخشَّبت، كمنْ صعقته الكهرباءُ، هزَّتني من كتفيَّ، أخذَت رأسي في حضنها بغتةً وبكت، راحت تناديني باسمِ ولدها، وتقبّل شعري، عندها فحسب، لم لأكنْ لأحزَنَ لو مِتّ، سألتني كثيراً، لكنّي لم

أنبس بحرفٍ، وبدورها لم تتّبع معي، أيّاً من إجراءات السّلامة، فكَّرَت بقلبها، ولو حدثَ وفتّشتني؛ لكنت قتلتها، وقتلت نفسي.

- وماذا تريدُ الآنَ؟!

- أُصبحُ خادمكم، أعمل ما تشاؤون

- لا تكذب

- أنا لا أُريدُ أنْ أموت يا سيّدتي، أريدُ أنْ أعيشَ، حياةً كاملةً، ككلِّ النّاس

- وكيفَ نصدقكَ يا ناصر!؟

- لا سبيلَ لديَّ لإثبات ذلك، ربّما لن تصدِّقوني، مهما فعلت

- ربّما

عدت إلى دمشق، بلا صوتٍ، وبلا لونٍ، وصلت مسلوبة القوى وخائرة، ما رأيته وسمعته كانَ اغتيالاً حقيقيّاً للإنسانيّة، عسكرةً للبراءة، لإنتاجِ جيلٍ متشدِّدٍ ذِيْ عقولٍ مريضة.

بعدَ أسبوعٍ؛ حادثتني هدى، قالت بتوجُّسٍ:

- يا ماويّة أسعفيني، إنّه لا يتورَّعْ عن فعلِ أيِّ شيءٍ، مرضاةً لنا، يُعَشِّبُ الحاكورة، يسقي المساكب، وهذا يخيفني، يخيفني كثيراً، أخشى أنَّه يُبدي ما لا يُبْطن!

- مجنونة!، هل أخرجته؟!، هل استبقيته؟!، ماذا قلت لزوجك؟ للجيران؟

- قلت لهم إنَّه فتىً يتيم، نازحٌ من دوما، يبحثُ عن أيِّ عمل، تصوَّري أحبّوه، وشرعوا يعتمدون عليه، النَّاسُ طيّبون يا عزيزتي، كلهم يقولونَ لي:

«يشبه ولدك»

- ليسَ لديَّ ما أقوله يا أُختي... ليسَ لديَّ ما أقوله.

الدّرجة الرّابعة

حبال الخلاص

«مذكرات»

١٩٧٨-١٩٨٧

«ولدت في الوقت المناسب»

آنّا أخماتوفا

على سبيل الاختباء

لم أكن طفلةً سعيدةً، كما توحي الغمّازة، الغائرة، على زاويةِ فمي، كنت أضحكُ، على سبيلِ الاختباءِ، لقد كنت ابنةً مثاليةً، يتمناها أيُّ أبٍ، لأبٍ لا يتمنى سوى موتي.

وحدث أن تمنّى ما تمنّاه، يوم سحبتني القابلة، من رأسي، مخلّفةً وراء الصرخة الأولى، صرخات النسوةِ الخائبات:

«له له، أنثى أيضاً يا خطيّ!»

في ذلكَ الحين؛ كانَ بردُ الجبلِ، صقيعاً سيبيريّاً، يؤذنُ، من قسوتِهِ، بنهاية العالم، لقدْ عشت، ومات حلم أبي بالذّكر، أخذَ طولي يزداد، سنتيمتراً بعد الآخر، وراحَ شيءٌ ما، مستدقٌّ، وموحشٌ، يستطيل، ويتعمّق، هو الآخر، في قلبي كالنَّصلِ، وكيما أُداري مرارته، جعلت أُطفىء حرقتي بالرحيل، هرباً من تحديقةٍ مطوَّلةٍ، أو تلميحاتٍ هامسةٍ:

«اللّي ما عندو ميمة، ينصب بالتّربة خيمة»

ربما لهذا؛ لا يسعني، مهما حاولت، تذكُّر مكانٍ، عشت فيهِ، على نحوٍ متواصلٍ، فمصطلحُ **«بيت»**، كانَ مفردةً بمعنى **«مأوى»**، من بيت أبي، إلي بيت جدي، إلى بيت خالي، إلى بيت عمّتي، إلى ملجأ الأيتام، إلى بيت أبي مرّةً ثانيةً، لاحقتني الغربة دائماً، ودائماً كنت أهرب منها، نحو أملٍ، بآتٍ أجمل؛ فلا الآتي كان أفضل، ولا الماضي انتهى، فتتني عذاب الأمكنةِ، قطّعني كالحطب، بين مواقدها، سعيٌ حثيثٌ، نحو التّالي، تعلّقٌ أهوج بالسّابق، ولكثرة ما امتلأ صدري بالتفاصيل، بات خزانةً متخمةً، متهتّكةً، لا مكان فيها حتى... لفقاعات الهواء.

الحزن منافسٌ صنديدٌ، وأوّل من يصل إلى الواجهةِ، في سباقِ الذكريات؛ فأنا لا أنسى كيفَ واظبت، ومنذ سنٍّ مبكّرةٍ، على الاختلاء بنفسي، داويتها بالإيهام،

أدمنت أن أهمسَ: **«ماما»**؛ لأجرّب ذاك الشعور الناجم عنها، وفي مرحلةٍ متقدّمةٍ، من الخلوات، بدأت أغنّي وأرقص وأُفكّر، وأوّل ما فكّرت فيه، مكانٌ محتمل الوجود؛ أغنّي وأرقص فيه، من دون حياءٍ أو وجلٍ.

في صغري؛ كنت شديدة الولع بالأمّهات، وإن كنّ أُمّات قططٍ أو عصافيرَ، غير أنّي قد كنت، في المقابل، شديدة الحرص، على مداراة شعوري؛ ليقيني أنه عارضٌ، لازمٌ، من عوارض اليتم، الجانبيّة، تضافُ، تلقائياً، إلى ملَكةِ التخيُّلِ، إنّه التشوُّه النّاجمُ، عن فقدان الوالدة، الأقرب إلى رسوم الأطفال، السّورياليّة، المحفورة إلى الأبد، في هيئة الدماغ، وفي شكل المشاعر، لم أمتلك أُسرةً كالآخرين؛ لكنِّي حظيت بحُبٍّ وافرٍ، من المحيط، زوجةُ عمّي كاميليا، كانتْ طيبةً، بما يكفي؛ لتقُصَّ أظفاري وشعري، وتسلّيني بالحظوظ؛ التي تنثرها رميات علبة الكبريت، وتجدلَ لي أوراق الصّنوبر، في نسيجٍ كالبساط، وتفركَ ظهري، وقت الاستحمامِ، وتعينني في ارتداءِ، الملابس ذات الأزرارِ الخلفيّة، كنت أقفزُ، من فرحتي، حينما يُسْمَحُ لي بالنّومِ، في بيتهم؛ حيثُ تمُدُّ كاميليا، فراشاً صوفيّاً عريضاً، يتّسعُ لثلاثةِ أولادٍ، وتفردُ فوقه، لحافاً سميكاً، لا نكادُ نندسُّ تحته، حتّى توزّعُ القبلات، على الخدودِ السّتةِ، تطْفِئُ ضوء الكاز، وتغيب، لحظتئذٍ، تتفتحُ أعيننا، نحنُ الأولادُ المتلهّفونَ لمسامراتٍ لا تنتهي، كما الأشباح، **«ما هذه؟ ثآليل!؟»**، يُشيرُ الصَّبيُّ إلى ثلاثِ حبّاتٍ يتوسّطنَ ذقني، مثلَ خرزاتٍ دقيقاتٍ، أُجيبه مبهوتةً:

- لا أعرف!

- لابدّ من أنْكِ عَدَدت النّجمات

- ولماذا تفعل النّجمات ذلك؟

- لا أدري، ولكنها تعاقِبُ مَنْ يُحصيها

- لكنّي لم أفعل

- لا شكّ في أنّك فعلت، اعترفي

- لم أفعل

- أنت تكذبين، سيحرقكِ الله

سأختبِئُ تحت اللحافِ، ولن يراني

فكّرَ برهةً، ثمَّ مدَّ رأسَه، كسُلحفاةٍ رشيقةٍ، سأَلَ أُخته هامساً:

- ألا يستطيعُ الله رؤيَتنَا من خلالِ اللّحاف؟

- إذا كانَ يرانا عبرَ السّقفِ؛ فهوَ قادرٌ لا محالة، على الرؤيةِ من خلالِ القماش

سَكَت، ابتلَعت خوفي بمشَقّةٍ، بعدما أقنعاني، شَددت الغطاءَ فوقَ وجهي، وأغمضَت سريعاً عينيّ، بينما غمغمت ابنةُ عمّي، برقّةٍ، لطمْأنتي:

- سأقطُفُ لكِ، غداً، ورقَة تينٍ كبيرةً من عنقها، وسأدهنُ ثآليلكِ بحليبها، شاهدُت أمّي تفعل ذلكَ مراراً.

حلمت ليلتها حلماً عجيباً، شاهَدت غولاً؛ يجمعُ، حولي، حطباً كثيراً، يُقَيِّدني إلى شجرةِ تينٍ، يحرقني على طريقة الهنودِ الحمر، وقد كانَ للشجرةِ ساقانِ رشيقتانِ فهربت بي، ركضَت، وتطايرَ الحليبُ، من ضرعها الورديِّ، المكتنز، مثلَ مطرٍ من لؤلؤاتٍ بيض، صباحاً لم أنتظرْ فطور كاميليا «الأُمنية»، وإنّما أسرعت إلى خالي، شاكيةً، تجاوزت صنوبراتهِ؛ ذوات الأهدابِ الطَّويلةِ، دَفَعَت بقدمي البابَ الخَشَبيَّ؛ الذي لا يُغْلق، عبرت الردْهة الضَّيّقة؛ التي منحتها النّوافذُ الزّجاجيّةُ، نثاراً رقيقاً من النُّور، تسلّلت إليهِ، حيثُ يجلس، تعلَّقَت برقبَتهِ، من دونما **«مرحباً»**، كعادتي حينما أحمل أمراً مُلحَّاً، رويت له ما حدث، تملّى باهتمامِ شعري المنفوش، كتاجِ شجرةٍ، وعندما انتهيت، اعتدلَ في جلستهِ، تناوَلَ مشطاً، وأجلسَني في حِجْرِهِ، ثمَّ هَمَسَ وهو يُسَرِّحُه:

- النُّجومُ تشْبِه الحجارة يا ماويّة، هل تقدرُ الحجارة على الحركة، أو التّفكير، أو اتّخاذِ القرارات؟

- لا

- أحسنت، إذن لا شأنَ لها بما يَحدُثُ في جِسْمِكِ

- والله سيحرقني؟!، أنا لا أكذبُ يا خالي، لكن أخشى ألّا يُصدّقني

- الله مُحبّ، ومُتسَامِح، فهل يكونُ رحيماً حينَ يَحرقُ بنتاً حلوة؟!

الغرفةُ التي ينام فيها خالي، أشبه بكهفٍ؛ ذي بابٍ خشبيٍّ، قصيرٍ، يصدرُ صريراً مزعجاً، وقد كان يُضطرُّ إلى أنْ يحني رأسه داخلاً أو خارجاً، كانَ ذاك الوضعَ الوحيدَ؛ الذي رأيته فيه، برأسٍ محنيٍّ.

جدّي والدُ أمّي؛ لم ينجب سوى ولدَيْنِ، طفلٍ وطفلةٍ، وقد سكنَ بالوراثة الدَّار؛ التي تتالى عليها القاطنون منذ ألفي عام، لذا كان بديهيّاً، بعد وفاته، أن يشغلها وحيده، حتى وهو المتمرِّدُ الكبير، البيت بالمجمل؛ عبارةٌ عن بناءٍ رومانيٍّ ضخمٍ؛ ذي باحةٍ، مَحُوطةٍ بالغرف، ومكسوَّة ببلاط صخريٍّ صقيلٍ، بُني في عهد الإمبراطور الرومانيّ ألكسندر سيفيريوس عام ٢٣٥م، كما أكَّدَت قنطرةٌ؛ منقوشةٌ بعباراتٍ يونانيّةٍ، متآكلةٍ، من الجنوب؛ يتقاطع بسورٍ واحدٍ، مع بقايا معبدٍ يعود لعام ٦٥٢م؛ وهو المعبدُ الذي استحالَ، بدورهِ، إلى بناءين، أحدهما كنيسة، والآخر مزار مكنّى باسم أحد الأولياء الصَّالحين، ذلكَ على اعتبارِ أنَّ الدّيانات؛ غالباً ما يتغذّى بعضُها على بعضٍ.

لكثرة اللّقى الأثرية، واللّوحات الفسيفسائيّة، المكتشفة مصادفةً، في محيطِ الدَّارِ؛ فقد شغل موقعها بالَ الباحثين عن الذّهب، وتجّار الآثارِ السِّريّين، في المنطقة؛ فاستعانوا بالسَّحرة، والمشعوذين، وتجرَّؤوا على المداهمات الليليّة؛ ذات الحفرِ الصّامت، فترةً طويلةً، انتهت بمقتل خالي، وضمِّ دائرةِ الآثارِ، جزءاً من الأبنية التّاريخيّة، المنتشرة كما اللآلئ السّود الدّاكنة، في بحرٍ بازلتيٍّ ممتدٍّ.

لا أذكر من بيت جدّي العريق؛ والذي غالباً ما كنت أُحرَمُ زيارته، سوى التوتة القريبة، النَّامية في الصَّخر، بين شجيرات السِّنديان المتباعدة؛ وهي شجرةٌ كمثل الخرافة، تفوقُ البيت عمراً، بساقٍ رماديةٍ؛ ملّتفةٍ على نفسها، مخدَّدةٍ، ذات

تجاعيدَ حرشفيّةٍ، بعرضٍ يزيد على المتر، وطولٍ يُقاربُ الأمتار الخمسة، كانت التوتة؛ إحدى أهم مراكز لهونا، على الرغم من العَسْكَرة الخطرةِ تحتها للزَّواحف، ربّما لغزارةِ إنتاجها من الثِّمارِ الشَّهيّةِ (الكبوش)، وربَّما لشدّةِ تعلّقها بالحياة، بطريقة تذكّر بالأجواء الأسطورية؛ التي تفوح من ملحمة جلجامش، ولاسّيما الجزء المتعلِّق باقتلاع الآلهة «إنانا» شجرة سنديان، من على ضفاف الفرات، وغرسها في مدينة أوروك؛ لتنمو وتمتدّ وتؤوي تحتها أفعى، في ذلك الحين، كنت أدهى من يجمع طاقةً، من أزهار شقائقِ النُّعمان، وبأقصى تنوعٍ لونيٍّ ممكن، حتى إنّني في إحدى المرَّات، وقعت على زهرةٍ ذهبيّةٍ جديدةٍ، أضفتها، باعتزازٍ، إلى طاقة أزهاري الكبيرة باعتزازٍ، وما هي إلا أيام، حتى امتلأت الأرض بأزهار تشبهها، قال لنا خالي؛ إنّها سوسنةٌ ذهبيةٌ، نادرةٌ، وإنّ هذه المستعمرة الصَّغيرة، تتفتح في كلِّ عامٍ، أيّاماً قلائل، كما أنّها الوحيدةُ الباقيةُ، في كلِّ البلادِ؛ فإذا ما تعرَّضت للأذى؛ فإن بلادنا كُلّها، ستشهد حدثاً موازياً، من حيث القيمة، لانقراض الدّيناصورات، لحظة لمعت عيناه، شعرت بحجم الحبّ القديم؛ الذي يكنّه لتلك الوردة، كان حباً جمّاً، لا يستطيع إلا أن يكون بحجم... ديناصور.

أمّا بيتنا الحجريُّ؛ ذو المُربَّعات الثَّقيلة، السَّوداءِ، والقناطرِ الدَّاخليّة، فقد كانَ متّسعاً، بلا انتهاءٍ، ومغروساً كرايةٍ، في أعلى تلةٍ، لا يربطه بالمنازل الدّانية، إلا طريقٌ متعرجٌ، ترابيٌّ، تتزحلق عليهِ عنزتنا، كلَّما فكَّرت في الهَرَبِ، يتجمَّد إن هطل الثلج؛ فيسرق الأولاد أكبر الصّواني النحاسيّة، من مطابخ أمّهاتهم، ويتزحلقونَ، بسلاسةٍ، نحو الأسفل، وحيث إنّي لم أملك أُمّاً، ولا صينيةً كبيرةً، فقد كنت أجلس، خلف فتياتٍ أخرياتٍ، متشبثةً بخصورهن، ومطلقةً صيحاتٍ يتيمةً، أعلى بكثيرٍ من صيحاتهن.

بيتنا الباردُ، الفندقُ نهاراً، وشبه المهجور ليلاً؛ كان مصنعاً حقيقيّاً للكوابيس، قبل غياب الشمس تتجمّع النسوةُ، عند عمّتي الخياطة، في غرفتها؛ الملاصقة لمضافة أبي، يخطن لديها الثّياب، والأحاديثَ النَّسويّة السِّرية، يقرأن في

فناجين القهوة، ما يتمنَّين حدوثه، يشربن المتّة، بكأسٍ واحدةٍ، ويفردنَ ما جلبنه في جعباتهنَّ، من حفنات زبيبٍ حلوٍ، وقضامةٍ مالحةٍ، وتينٍ مجفّفٍ، كما لو كانت غرفةُ الخياطةِ الصَّغيرة؛ مخزناً للحكايات، أو ركناً للهروب، من رتوب الحياةِ، المخطّطة بطابعٍ واحدٍ، منذُ عشرات السّنين.

وهناكَ؛ على مسافةِ عشرينَ خطوةً، كانَ أبي ينتصبُ، باشّاً، في مضافتهِ، مستقبلاً ومودّعاً ضيوفه اليوميّين، يتسلّل نحونا، صوته المدوّي الرَّهيب؛ فنسكت قليلاً، قبلَ أنْ تتابعَ السَّيدات مواضيعَهنَّ، وأمضي أنا في التلصُّصِ على عُكّازات الضّيوف، وسُبُحاتهم ذات الخرزِ الملَوَّنِ، والنُّموات الغزيرةِ، لشعرِ شواربهم ولحاهم، وبعد ربع السَّاعة، من كلِّ لقاءٍ، ينطلقُ الجدل؛ فلا نُمَـيِّز من يناقشُ، ومن يُقَاطِعُ، ومَنْ يَحتجّ، تهيجُ الأصوات، تحتدُّ، وتتنافسُ كأيائلَ يفني بعضها قرونَ البعضِ الآخر، في نزالٍ ذكريّ، على الوجود برمَّته، تتماوج القضايا الكُبرى، في بحر اللّغطِ؛ فمن حديثٍ في السِّياسة، إلى حديثٍ أُسريٍّ، تشوبه المهاترات، يرثي فيه والدي النِّعم الزَّائلة، وتاريخ الأسرة المجيد، يذكِّرُ باضمحلال نفوذ أسرتنا، وهيبتها البائدة، بينما يُلمحُ الحاضرونَ إلى أفضالِ أجدادهم في النِّضال، وفي استقلالِ البلد، وبالمقارنةِ بين نمطَي الأحاديث السَّائدة من حولي؛ فقدْ أيقنت مبكِّراً أنَّ النساء؛ هنَّ الجنسُ البشريُّ الوحيدُ... البعيدُ النَّظر.

بيت عمّتي السّحريُّ

اعتدت تسمية حجرة الخِياطة **«يت عمتي»**، إذ شكّلت، بفرادةٍ، منزلاً متكاملاً، ركناً للمنامة، وركناً للطّهو، وواحداً للعمل، وثانياً للاستقبال، والمثيرُ للعجبِ؛ أنّها لم تستخدم من غرفِ المنزلِ الكثيرة، إلّا واحدة فحسب؛ تلكَ التي قيّدها جدّي في وصيَّتِه، لها ولأخواتها، في حالِ خانتهم الظُّروف، تحت مُسمَّىً طريف: **«غرفة المقاطيع»**، وبغضِّ النَّظرِ عن إلحاحِ أبي على عبارة:

«دارُ أهلك يعني دارك»

فَإنَّها آثَرَت الالتزام بكرمِ الوالد... **«غرفةٌ واحدةٌ لمن تنقطعُ بها سبُل الحياةِ»**.

وعلى الرغم من إخفائها، سفط الرّاحة المعطّرة، والدّراق الموبر، وكتب «الحكمة» الدّينيّة، ومن اضطراري إلى الهرولة، نحو حمّامٍ خارجيٍّ، يُغلق بستارةٍ مهترئةٍ، لدى رغبتي في قضاءِ حاجةٍ، فإنِّي لم أتوانَ عن اللجوء إليها، كلّما طالتني قسوةُ والدي، بقدمين حافيتين، وصرّةِ ملابسَ صغيرةٍ، جاهزةٍ دوماً للترحال، مقتبسةٍ من صرّتها الكبيرةِ المخبوءةِ خلفَ الباب، لم يكن لينتهي لجوئي إليها، إلا بغضبي منها، وبلجوءٍ آخر إلى أبي، ولاسيّما بعد نفادِ أسرة أمّي، بموت أخيها أستاذ التاريخ يحيى، أمّا الصرّة؛ فلم تفارقني، إلا يوم خاطت لي عمتي، حقيبةً قماشيةً مطرّزةً، بفراشاتٍ زرقاءَ، تتسع لأغراضي بأكملها، ولفرطِ ما اعتادَ الأخوانِ الكهلانِ، قفزي بينهما كأرنبةٍ؛ فقد تبعثرت أيّامي، شهورٌ هنا، وشهورٌ هناك، من دون أن يتنبه أحدهما، متى آتيه ومتى أهجره، حتى أنّي كثيراً ما أمضيت ليلةً عند خالي، بين كلِّ هجرتين متلاحقتين، وهما غافلانِ، يحسبني أحدُهما عند الآخر، مما دفعني أحياناً إلى اختلاق المشاجرات، والتخطيط لها بعنايةٍ وتروٍّ.

في بيت أبي؛ غرفٌ كثيرةٌ، يأكل الغبارُ صمتها المطبقَ، ويبثُّ في رطوبتها خيالات جنيّاتٍ، يحرسْنَ خوفي، كانت عمتي تنهي تنظيفه، وتطهو أطباق أبي

المفضلة، قبل استيقاظنا، لتعود إلى غرفتها محنيّةً، تعدُّ لنفسها، طبقاً بسيطاً، وتنام ثانيةً، على فراشها الرقيق، بعمقٍ، وقد يَحْدُثُ أن يَمضِي يومٌ بأكمله، من دون أن تلتقي بأخيها، وحيثُ أنّ لعلاقتهما، هذا الشكل مذ ولدت؛ فلم ألحظ الحالة، الشّاذة، إلا بعد أن سمعت همساً بين سيِّدتين، غمغمت الأولى في إشارةٍ إلى والدي:

«أُقسمُ بغربةِ أبنائي، إنّها تتمنَّى موته»

فألمحّت الثانية غامزةً:

«كيف لا، وقدْ تسَبَّب في نقمةِ ولدها عليها!».

تزوّجت عمتي، رغمَ جمالها الوافر، وفي سنٍ متأخرةٍ، ضريراً؛ فقدْ اعترض استبداد الأخوة وتشدّدهم، سبيل الراغبين في الاقتران بها، ردحاً من الزَّمنِ، وعلى الرغم من كونها كائناً، لا يبتسم، ولا ينفعل، ولا يُطيل الحديث، فإنَّ شابَّاً يدعى «عادل الرّاوي» قد وقع يوماً في غرامها؛ طردَه أهلها مراراً، لفقرهِ مالاً ونَسَباً، ويقال إنّها قاطعت الحياة أياماً، مجاهرةً بحبّه، في بيئةٍ تعتبر كلمة «حبّ» عيباً، ومعصيةً، وخدشاً عميقاً للحياء، نالَت عمتي إعجاب نساء القرية؛ اللَّواتي لم يتوانين عن ذمّها، في الجلسات العلنيّة، وباتت في قلوبهنَّ، رمزاً سريّاً للشجاعة، والتّحدي، ولاسيّما بعد أن بدأت العمل؛ لكيلا تقضم من رغيف أبٍ، أو أخٍ، ولو عن جوعٍ.

قالت إحدى السَّيّدتينِ، المتهامستينِ:

«الحياة كسرتها، جعلتها تحلم بأيّ رجلٍ، يمكّنها من إنجاب طفل»

تمتمت الأخرى؛ وهي تسترُ بكفِّها ثرثرتها:

- عندما حملت من الكهل، طافَت حافيةً، شوارعَ القرية

- وحينَ مات رماها أبناؤه، ورمى أخوتها طفلَها؛ فعاش الوليدُ حاقداً، وذابت كمكعّبِ جليدٍ، في الغرفةِ البائسة.

درت في خيالي، حول صورةٍ مدهشةٍ، لصبيةٍ رفضت، ورقصت، صبيَّةٍ بدا من المستحيل أن تكون، هي نفسها، عمّتي الحالية؛ تلكَ التي لم تجِدْ إبعادي، عن

صرَّتها الغامضة، رغمَ الاحتياطات؛ التي اتّخذتها لمواراتها؛ فقد كنت قادرةً على فردها مراراً، أتابعُ التغيّرات الطارئة عليها، أقيسُ حرارة الاغترابِ والوحشة، أجسُّ الفقدَ، كنت أبحثُ بفضولٍ، عن تلك المنمنمات الصّغيرة المختفية، بين الملابسِ القاتمةِ، والتنانيرِ الطَّويلةِ، وأغطية الرأس الشاشيّة الرَّهيفة، دائماً كان هناكَ المزيد، من صابون الغار والأدعية، الضَّائعة داخل الأوراق؛ المطويّة على نفسها مرّاتٍ عديدةً، بحيث لا تتخطّى مساحتها، خانةً من خانات رقعة الشّطرنج، كان هناك ليراتٌ ذهبيّةٌ لامعةٌ، تزدادُ باستمرارٍ، وأوراقٌ ماليّةٌ، ملفوفةٌ جيّداً، بحيث لا توحي البتّة، بحجمها الحقيقي، لقد كانت مليئةً بالخشيةِ، والخوف، والخذلان، والاحتراسِ من الغد، وكثيراً ما كنت أستيقظ، بعد ليلة شجارٍ عاصفٍ؛ فلا أجدها، ولا أجد صرّتها، أسأل أبي عنها؛ فيدمدمُ:

«عند ابن الكلب... ولدها»

كنت أتوقُ إلى رؤيةِ ابنها، وفي معنىً أدقّ؛ لترصّدِ ذيله؛ الذي سيلوحُ من خلفِ ظهرهِ، وكنت أواظبُ، في الوقت عينهِ، على مراقبة صرّتها؛ فإن بانت خلف الباب، أيقنت أولى دلائل عودتها، كانت تظهر باستمرار، بالفجائيّة التي تختفي بها، لهذا لم أشكّ يوماً، في أنّها قد تحمل صرّة ضماناتها، وتمضي، إلى غير رجعةٍ؛ فمذ ولدت؛ وهي في حالٍ من الانتحاب، السرّيّ، المفضوح، كنت أشعر بأنَّ الوقت لا يسري على قِصَرَ قامتها، أو نحولها المترافقِ مع بطنٍ بارزةٍ، وتجاعيدَ خفيفةٍ، ووجهٍ لوّحته الشمس، كما أنَّه لمْ يَنَلْ بتاتاً من حياديّتها، لقد كانت حياديّةً إلى حدِّ القهر، أمَّا السّبب الأهمّ في تعاطفي معها؛ فقد كان كرهها لأبي؛ ذاكَ الذي لم يعرف أنَّ الأطفال ليسوا دجاجاتٍ، وأنّهم يحتاجون إلى ألعابٍ، وعناقٍ، وحكاياتٍ، كان يعتني بي كما يعتني بخروفه، بفرقٍ واحدٍ؛ هو أنّي لا أُحبس في زريبةٍ، هذا قبل أن أكتشف؛ أنّنا متطابقانِ، حتى في ذلك، أمّا هي؛ التي تلقّمني ملعقةً من مغليِّ الكمُّونِ، إذا ما شكوت لها، ألماً في معدتي، وتدثّرني جيّداً، أيّام البرد؛ فقد عاملتني، برفق من يعامل قطّةً مدلّلةً، في حين لم يشعرني أحدهما قط، بأنّي من صغار البشر.

وحيث تلقى الأشياء؛ الأدنى قيمة، عند أمثال الأمير، على كاهل النساء؛ فقد أُوكلت تربية الأولاد إليهنَّ بالنّيابة، وفي ظل انكفاءِ عمَّتي، وبالتالي الانكفاء النسويّ في حياتي؛ ذاك المتضمّن غياب العقاب، والثَّواب، والمحبّة؛ فقد اكتفى والدي بالزَّجرِ، واللَّجمِ، والتّأنيب، الدَّوافعِ الوحيدةِ التي تضطره إلى التعاملِ معي؛ فهو حين يقرِّر تربيتي، يُهرعُ من مجثمِهِ، ويهجمُ نحوي، هجوماً مغولياً؛ فالمغول قبله -كما أكَّدَ خالي - تفنَّنوا كثيراً، في ربطِ العصي بجيادهم المهاجِمَة، لإثارة الزوابعِ الترابيَّةِ والهلع، دخل مرّةً عليَّ، والأرض تميدُ، تحت رجليه، تخيّلت خيولاً برّيةً، تخلِّفُ عاصفة غبارٍ، نهرني بسؤاله:

«أين أخفيت الصورة؟»

حملقت فيه ببلاهةٍ، انتظرَ، اقشعرَّ بدني، صفعني بيده؛ ذات الأربعِ والأربعين إصبعاً، كانت تلك آخر مرّة، أُخفي فيها صورة جدّي الرّاعبة، والمعلّقة على الجدارِ كفزّاعةٍ.

كرهت معهما الشتاء، حيثُ العجوزُ المُبحرةُ، من قيلولةٍ إلى أُخرى، والأب العابسُ، المشغول بالتّحضير، للقاءاته الاجتماعيّة، ومبارزاتهِ الخطابيّة، وفي ليلةٍ كانونيّةٍ؛ حالكةِ السَّوادِ، جرفت الريحُ معها نباحَ الكلاب، واصطفاق الأغصان، خفت، ألصقت وجهي بزجاج النافذة، دخلت عمتي بالكازِ المُضاء، ارتحت، غيرَ أنّي ما التفت إليها، فقد كنت مفتونةً، بفراشات اللَّيل الرَّمادية، المغبرّة، المنقَّطة بالأسود، وهي تحومُ، من الخارج، حول البلور المشعّ، طفقت ترتطم به، وقت أدركت أن لا أمل في اختراقه، فكَّرت كثيراً، لحظتها في ذلك الغباءِ؛ الذي يدفع مخلوقاً واهياً، إلى مواجهةِ حاجزٍ أصمّ، الغباءِ؛ الذي قد ينهي حياته مهشّماً، أو مسحوقاً، فكّرت كثيراً غير أنّي لم أقتنع، في أنّ الفراشات غبيّةٌ كما تبدو، فكّرت إلى أن أطلقت عمّتي جملتها المعتادة:

- حطّي رأسك على المخدة وقولي: «اتكلنا على الله»

- ما بدّي

- أستغفرُ الله العظيم؛ على هذهِ التّربية، يا بنت نجيب وبجعة.

«بجعة» اسمُ أمّي؛ ففي منطقتي يتداولون أسماءً، للوليدات الجُدد، غريبةً أحياناً، ومضحكةً أحياناً أخرى، ولاسيّما لبقايا الجيل الأسبقِ، على غرار «مثمنة» «ثلجة» «عسكريّة» «ترفة» «ميلة» «هيلة»، فتراهم يسمّون، بأسماء جنسيّاتٍ؛ كما «تركيّة» «هنديّة» «باريسية» «تركمان»، أو بأسماء ثمارٍ؛ مثل «تفّاحة» «لوزة»، أو بأسماء طيورٍ كمثل؛ «حجلة»، وحيث أن هذهِ الأسماء المادّية؛ اعتمدت إلى حدًّ بعيدٍ، على التّكرار والتّقليد؛ فقد كان كافياً أن يُطلقَ أحدهم على ابنهِ «اسماً ما» ليكون له فرصةً في التّوريث والانتشار، إلاّ أنّ اسم أُمّي؛ كان ولاشك الأندر، وربّما الأوحد، على الإطلاق؛ فقد سمّاها أبوها؛ ولسببٍ غامضٍ «بجعة»، أما المثيرُ في الأمر؛ فهو ذلك الارتباط العجيب، بين الاسم العشوائي، غير الدَّارج، وبين صاحبته «أمّي»، ورغمَ اعتقادي بعدم وجود تأثيرٍ أو صلةٍ، بين الناس وألقابهم، كما يشيع كهنة الأسماء، غير أنّ شيئاً في الحكاية، جعلني أتمهّل قليلاً؛ فطائر البجع، غالباً ما يُخلص لشريكٍ واحدٍ، طوال حياتهِ، ويستحيل في حال فقده أن يقترن بغيره، بل ومن الممكن أن يقضي بعده منتحراً.

هكذا كانت تناديني، حينما تقرِّرُ شتمي: **«بنت نجيب وبجعة»**، أمّا أنا فلم أكن آبَهْ، بقيت أردُّ: **«ما بدّي»**، كلّما نهرتني:

«قولي يا ربِّ ارحمنا، يا ربّ سامحنا، يا ربّ»

بقيت أقول **«لا»**، ثمَّ أنظرُ إلى أعلى بثقةٍ، وأبتسمُ، كنت أشعر بأنَّ الله؛ الذي لا يحتاجُ إلى شرحيَ الشّفويّ، سيردُّ لي الحبَّ والابتسامة... من مكانٍ ما.

ذبابٌ أزرقٌ

«هذا الكوكبُ؛ مكانٌ تعيسٌ، وسافل»

استطردَ خالي؛ وهو يَقلِبُ صفحةً، في القصَّةِ المُصَوَّرة، لَمْ يكنْ يحكي عن الثّعلب الأحمر، المرسومِ على الغلافِ اللَّامعِ، وإنّما مجدّداً؛ عَنْ قابيل وهابيل، امتعضْت بدايةً، ولم أستطع ربطَها بالولدِ؛ الذي رمى قطَّةً، بحجرٍ؛ فقتلها؛ ذاكَ الذي جئت أشكوه، قاطعته:

- احك لي عن الدّجاجة العمياء، هذهِ القصَّةُ كبيرةٌ عليَّ

- وماذا يعني كبيرة؟

أطرقت، هنيهةً، أردْت أن أُوضّح بأنّها «قاسية»، لكنّي لم أُوفّق:

- يعني بشعة وشرّيرة

- لأنَّ البشرَ بشعونَ وأشرار

- ولكنّي لست كذلك

- نعم إنَّهم يتطورون بالحبّ، أنا أحبُّكُ، وأنت كذلك، صح؟!، وهذا يجعلكِ طيّبةً، وجميلةً.

فكَّرت لحظَتها:

«لو لم تمُت أُمّي لكنت أجمل!»

قرَأ خالي أفكاري، إذ لطالما أشعرَني بأنَّ خيالاتي؛ مرسومةٌ في الهواءِ، ومعروضةٌ دوماً على الملأ كالفقاعات، أفزعني حينَ هتف:

- أُمّكِ أيضاً؛ كانت جميلةً مثلَكِ

- وطيّبة؟

- وطيّبة

لم أتدرَّب على كلمة **«أمّي»** جيّداً، كانَ يَصْعُبُ عليَّ التلفظُ بها علناً؛ فالكل كانوا يتشدَّقونَ عنها بالسُّوء، يقولونَ إنَّها بالكادِ أتمَّت الرابعة عشرة، حتّى خُطبت لابنِ عمّها فواز؛ ذاكَ الذي هاجرَ إلى فنزويلا مراهقاً، ومات هناك، أمّا هي؛ التي اقترنت بذكراه، سنواتٍ طوالاً؛ فقد رفضت الزواج من بعده، ولا أعتقد أنّ حبّها هو السّبب، بقدر ما كانت التربيّةُ الدِّينيّةُ الصَّارمةُ؛ والتي حثتها بشكلٍّ ما على التطرّفِ في كلِّ شيءٍ، حتى بالوفاءِ، ولمّا كانت تملك من الحُسنِ؛ ما دفع شباب المنطقة إلى التّهافت، على كَسبِ عينَيْها؛ فقد ذوى أبوها وانكسر، أمام لغو الناس حول رفضها؛ ذاكَ الذي حطَّ من كرامةِ الأسرة، وسوَّغَ لاتهامهم إيّاه بـ **«قلّة الرجولة»** التهمةِ الجاهزةِ، للنَّيلِ من رقّةِ أيٍّ كانَ، وإنسانيَّتِهِ، وكيما يستردّ رجولته؛ فقد فعلَ فعلة الملكِ في الحكايةِ الشهيرةِ، زوّجها لأوّل طارقٍ للباب، كانَ الطَّارقُ أرملاً نزقاً، يجعجعُ دوماً، يتوعَّدُ دوماً، يكبرها بثلاثينَ عاماً، كانَ أيضاً إقطاعيَّاً قديماً، وسليلَ ألقابِ السُّكَّرِ، التي رشَّها المستعمرون يوماً على أزلامهم، إنَّه الأمير نجيب الواثق؛ الذي لم يتوانَ عن خطفِها من مريديها، خطفَ الكحلِ من العينِ؛ أبي الذي شعرَ بالنّدمِ سريعاً على زواجٍ؛ كان أشبهَ بالمراهنةِ أو بـ **«تكسيرِ الرّؤوس»**، من الصبيّة التي كانَ أجملَ ما فيها أنّها... حلمٌ مستحيلٌ.

قالَ خالي إنَّها حُرَّة ووفيّة، ولم يقل إنّي ذات اغتصابٍ شرعيٍّ جئت، كانَ يُحاذرُ مثلي الحديثَ عنها، ليحافظَ على انسجامي مع العالم، وحينما كُنت أسأل:

«هل رمت نفسَها في البئر حقّاً؟»

كانَ يفركُ أصابعَه بعضها ببعض، يُعدّل جَلْسَته، يبتلعُ غصّته، ويتهدَّجُ صوته العميق:

«لم تكنْ قويّةً كفايةً، فالبئرُ تبتلعُ الخائفينَ، والجبناءَ، لا الشُّجعان، البئرُ تذكّر بأنَّ هنالكَ الكثيرَ من الظّالمين والكثيرَ الكثيرَ من (قابيل)»

وقتها؛ كنت شغوفةً بطرحِ الأسئلة، لم أكترث بالخديعة؛ التي تنطلي عليها الأجوبة النّهائيّة، لقد كنت أصغر من أنْ أعي أنَّ من يمنحكَ إجابته، إنّما يجذبكَ نحو غايته.

لحظة تهدّل جفناي؛ طُرق الباب، دفع بوسادةٍ تحت رأسي، ودثّرني، ثمَّ أسرع ليفتح، كانت عيناي مغمضتيْنِ، لحظة عاد مع رجلٍ غريبٍ، جلسا قريباً منّي، سقطت في بئرٍ، ثمَّ غرقت في نهرٍ، ثمَّ هربت على ظهر حمارةٍ، إلى كوكبٍ آخر، ولحظة رأيت أمّي؛ علت الأصوات من حولي، كان خالي والغريب؛ يتجادلان، هربت أمّي، وولدت الحمارة، والجدال لم يهدأ، هتف خالي، مباغتاً:

- مذكّرات جدّي المهاجر لي، ونشرها واجبي، إنّها كنزٌ جماعيٌّ، من كنوز القرن التّاسع عشر

- حتّى وهي مليئة بالادّعاءات، والمغالطات، والأكاذيب؟!

- حقّقتها يا رجل!، حقّقتها بنفسي، أنتم لا تريدون حقيقة جديدة، لطالما التّاريخ يناسبكم

- اسمعني، والدك لم يجرؤ على نشرها، لو فعلت أنت؛ لأثرت البلبلة وحفيظة النّاس، ولأسأت للكثيرين، من ذوي المكانة

- إضاءة العقل انطفاءٌ للقدسيّة، وهل قلت لك إنَّ المذكّرات مقدّسة؟!؛ فلنسمع صوتاً جديداً، ما المانع؟!، لماذا تفضّلون الحياة بروايةٍ واحدةٍ؟!.

- أنت لا تقدّر عواقب ما أنت مقدمٌ عليه

- أنت تتدخّل فيما لا يعنيك

- عليك اللعنة، ألم تتعلّم يا أخي من غيرك؟!

- أرجو ألّا أراك مجدّداً، الله معك

- بالنّاقص منك!، ومن نُصحك!

خبط الباب؛ فهربت الحمارةُ، وهرب وليدها، ثمّ ضاقتْ أنفاسي، وعدت إلى كوكبنا، إلى بيت خالي، إلى الوسادة الصّغيرة.

لا أنساها؛ الغجريّة التي أطلّت من الغيبِ يوماً، بردائها المزركش، وبالسّنِّ الذّهبيةِ؛ تلتمعُ كلّما قهقهت، مدَّ خالي نحوها، ذراعيْنِ حنونَيْنِ، محمّلتينِ خبزاً، وعناقيدَ عنبٍ، تهلّلَت لتعطّفهِ، شفتاها الرّقيقتانِ، دنت من كفّهِ، فردتها، وجعلت تمرّرُ سبّابتها، فوقَ انحناءات الخطوطِ، كمن يقرأ سطراً في جريدةٍ، طوّعت أفكارها إذ ركّزت؛ فتجعّدت زاويةُ عينها اليسرى كثيراً، نقّلت نظرها بيننا، بطريقةٍ تحدُسُ بالخطرِ، نحنُ الأولادَ؛ الذين تحلّقنا حولها مشدوهينَ، تاركينَ الكرة تتدحرجُ خلفنا وحيدةً، راقبْتها جيّداً؛ وهي تمضغُ حبّة العنبِ، استمعت بعنايةٍ لتكسّرِ البذورِ، تحت أضراسها الطّفليّةِ، وانتابتني رهبةٌ مبهمةٌ، رغمَ أنّي لمْ أُقلّبْ جملتها مليّاً:

«أنت منذورٌ للفقدِ، وستمضي برجليكَ إلى حتفك»

خالي؛ الذي خلّص يدَه، كما لو أنَّه ينفضها من ماءٍ، قلبَ شفتيه باستهزاءٍ:

«أين الجديد يا امرأة؟!، أنا مفقودٌ حقّاً، ومنذُ أمدٍ بعيدٍ، طوفي القرية إذا ما شئت، اسألي عنّي، لن تجدي ما يُفضي إليّ، أنا محضُ فراغ»

ضحكاته؛ التي اندلعت كلفيحِ النَّارِ، لم تمنعني من دفعِ يدي نحوها، أبعدَتها بنزقٍ مرَّتين، ثمَّ ما لبثت أن استعادتها، بعدَ إيماءةِ تواطؤٍ منه، سكتت مجدّداً؛ وقد تكبّدها الهلع، سألته:

- ابنتك؟

- ابنةُ اختي

أفلتت كفّي، هرهرَت عبارتها المدوّية:

«يا لشقائكِ يا صغيرة، ويا لهولِ التّطابقِ بينكما»

الغجريةُ؛ التي لم نرها منذُ تلكَ الظّهيرة، سمَّمَت مداركي، جعلتني أقيسُ حياتي بخالي، وأنتظرُ حتفي في تحدٍّ، يغل القلب.

خالي؛ الذي سمّاني على عجلةٍ من أمرهِ ماويّة، قطَّبَ حاجبيهِ مرَّةً، هزَّني من كتفيَّ، وغرزَ عينيهِ في عينيَّ قائلاً:

«كان الاسم قبلكِ؛ يعني الصَّافية كالماء، أُريده بعدكِ؛ أن يصبحَ الحرُّة، والصَّافية كالماء، الحُرَّة أوَّلاً يا ماويّة، تفهمين؟!»

كذبت حينَ أجبت: **«فهمت»**، مددت بعدَ الحوارِ الرَّديءِ، ساقي المجروحة؛ فعقّمها، ضمَّدها بالشّاشِ، ربطَ لي شعري المنثور، وأمطرني بالسَّكاكرِ، والقصص المصوَّرة، مازلت أذكرُ تحوُّلات ملامحهِ، كلَّما ارتميت عليه باكيةً، كيفَ ينقلبُ فجأةً إلى مهرّجٍ، بدعاباتٍ مبتذلةٍ؛ فأتملّاه، بهلالتي دمعٍ، كثيفتين، بانتفاخين مالحَيْن، في الجفنين السفليين، ثمَّ أضحك، وتنحدر دمعةٌ صغيرةٌ من عيني، وصولاً إلى زاوية فمي الرَّاجفِ.

صديقُ خالي الوحيد؛ كانَ شيخاً، في سنّهِ تقريباً، عاشَ زاهداً، متعبّداً، في مغارةٍ نائيةٍ، كنت أنتظره بصبرٍ؛ فأتملّى تداخل أشجار الصنوبر، في بيته المحفوف بالأسئلةِ والأسرار، مع حجارةِ السُّورِ الخفيض، لبيت جدّي، كنت ألمحه، كلّما جاءَ القرية، للتزوّدِ بالمؤونة؛ فيشعشعُ وجهي، وتنتعشُ نفسي؛ وكأنْ برائحةِ اللَّيمون، لم أكن أعلم لماذا يناديني **«الطَّاهرة بنت الطَّاهرة»!**، لكنّني كنت أُحبّه، إذ لطالما أشعرتني نظرته، بأنّه الوحيدُ؛ الذي يُجِل أُمّي، كانَ الشَّيخُ مثقّفاً، هزيلاً، مُحبّاً، ولم يكن لمحدّثه مفرٌّ، من السقوط في تيّار عطفه، وقد حدثَ مرَّةً؛ أن سألت خالي عن اسمه؛ فردَّ بصوتٍ متهدِّجٍ:

«عادل الرّاوي»

لم أُدركْ أنَّ تلك؛ كانت آخرَ إجابةٍ سأتلقّاها منه؛ إذ هربت في اليوم التّالي، لأُخبره أنِّي سمعت أبي يقول؛ إنّه سيعاقبُ بنته الأرملة، بتزويجها من جمال ذي الذَّيل، كونها

ترفضُ العودة إلى بيتِهِ، والاندساسَ تحت جناحِهِ، بحثت عنه طويلاً، لكنَّه كانَ قدْ اختفى، سألت عنه؛ فتفشَّت الإجابةُ الواحدةُ، كمثل الطَّاعون، على أفواهِ الجميعِ:

«حتى الذّباب الأزرق لا يعرفُ مكانَه»

عندما قالوا إنّهم وجدوه مقتولاً، عرفت أنَّ الذّباب الأزرق؛ هو من أكله، لست أنسى كيفَ هتف أبي آنذاك:

«سيطقّ عقلك، يوماً، كخالك، إذا أتيت على ذكرهِ، مرّةً أُخرى؛ فسأقطعُ لسانكِ»

ثمّ لمّ قصص الأطفالِ وأحرقها، كما لو كانت أصناماً صغيرةً، أذكرُ جيّداً، كيف بحثت عن جثة خالي، ولم أجدها، أذكر كيف هرولت نحو أبي، وقفت أمامه بثباتٍ، تجهّزت للموت، صرخت:

«القصص في داخلي، لم تحترق»

عصرت الشّمس بين عينيّ، وكأنّي أتوعّده بالكثير، ورفرفت فوقي؛ شريطةُ شعري الحمراء.

فراشة الفضّة

في العتمة؛ كان السّواد يمتلئُ بوحوش الحكايات، بالضّباع تحديداً، كانت الضباعُ هي كل الشّرّ، ولشدّما استهوتني مراقبةُ الظّلام، واستخراج مركّباته؛ فقد كبرت لصق الشبابيك.

في بحيرةٍ من الأوراقِ الملوّنةِ؛ وقفَت شجرَةُ الجارنكِ، ذات مساءٍ، بساقها الواحدة، وبمئات الورقات المرتعشات، لتوقفَ الرِّيح، الشَّجرَةُ؛ التي شاهدتني، وأنا أفتحُ النَّافذة، خَافَت أنْ أبْرُدَ، فاهتزَّت لأُدخلَ رأسي، لَمْ تعْلَمْ أنِّي هربت إليها، من ترَّهات النُّسوةِ المُجتمِعات، كنَّ ينبشنَ أحاديثَ ماضيةً، ويتحدَّثنَ عن البنت **«نسمة»**، كيفَ قتلها أخوها الصَّغير، لأنّها عشقت شابّاً، من خارج **«الملَّة»**، أشارت إحداهنَّ إلى عنقي، وغمغمت:

«كان لها مثل تلك الشّامة، على رقبةِ الصّغيرة، وفي موضعها أيضاً»

أغمضَت النَّافذةُ عينها، أمّا أنا فقد استحلت بستاناً غاضباً، من شجرِ الجارنكِ، إذ إنَّ خالي لم يعد موجوداً ليشرح لي معنى **«ملّة»** أو **«عشق»**، ورغمَ هلعي، واستحضاري لنبوءة العرّافة؛ فقد كانت فكرةُ عدم وجود أخٍ ذكرٍ، مريحةً جدّاً، وُمطَمْئِنة، حلمت بنسمةٍ في الأيّامِ التالية، ورحت أُحدِّثُ الأولادَ عنها، ولكثرةِ ما سمعتني النسوةُ أهذرُ بها، قمنَ بعمليّةٍ حسابيّةٍ صغيرةٍ، واكتشفن أنَّ يومَ مقتلها؛ هو يومُ ميلادي، رنَّ صوت إحداهنَّ؛ وهي ترشقني بنظرةٍ غريبةٍ:

«إي إي!، تشبهها أيضاً!!، أقصُّ يدي من هنا، إن لم تكن هذه البنت، هي نسمة في جيلها الماضي»

امتقعَ لوني، اختلجت، وسقطت من يدي فطيرةُ القرعِ المخبوزة، سألت خالي في رأسي، أكان هنالكَ حياةٌ سابقةٌ حقّاً، لكنّه لم يُجب.

لاحقاً زارنا غرباءُ كثرٌ، هوَّمت أعينهم عليَّ، جلبوا لي الهدايا، ربّتوا على ظهري الطَّريّ، انتحبوا، استجوبوني، حاجُّوني، أحَدُهمْ قدَّمَ لي فراشةً، فضّية، معلَّقةً بسلسلةٍ ناعمةٍ، قلَّدني إيّاها، بعاطفةٍ غريبةٍ، وبصوتٍ كالفحيح؛ وشوشني:

«هذه ستخفي الوحمة؛ التي تزعجكِ»

بقيت عابسةً، إزاءَ غرابةِ الأمرِ، إلى أن قالت امرأةٌ مسنّةٌ إنّها أمّي؛ فضحكت، ضحكت كثيراً... ضحكْت من دون توقّفٍ.

القُبلة

لا شيءَ يحدثُ من دون ثمنٍ؛ فالانتصارات الصغيرةُ، وكل شكلٍ من أشكال السَّعادات، التي نتحصّل عليها، لابدَّ من أنْ تقتطعَ منَّا جزءاً؛ لتحلَّ محلّه، حتى الوجبة السّاخنة، والثيابُ النّظيفةُ، والأظفارُ المقصوصة، بحاجةٍ أيضاً إلى مقابلٍ، هذا ما علّمتني إيّاه طفولتي اليابسة.

ولدت ثائرةً، تعرفُ ذلكَ القابلةُ غازيّةُ؛ التي هتفت في أواخرِ شتاء ١٩٧٨:

«الطّفلةُ؛ لا تريدُ الخروج»

أتصوّرُ أمّي الحامل، في شهرها العاشر؛ وقد بهتت فجأةً، راقبَت خيطَانَ العرقِ، تنسَابُ من جبينِ القابلة، تلتقي عندَ ذروةِ الأنفِ؛ لتهطُلَ فوقَ بطْنِها، المتفخِ، العاري، تنحدرُ نحو السّرة النّابضة، لتسيلَ مجدَّداً في كلِّ الاتجاهات، التذّت بآلامها الوحشيّة، غرسَت أسنانها في شفَتها السُّفلى، المكتنزة، استطالت وجنتاها الغائرتان، ابتلعتني كالزِّئبق، شَهَقَت، وعصرت ما طالته حولها من أذرعِ النّسوة، بدت واثقةً بي، بعد أنْ أمضت أشهرها الأخيرة، ترجوني أن أعودَ، من حيثُ أتيت، سحبوني أخيراً كقطعةِ لحمٍ، كانَ ذلكَ صبيحة عيدِ الأضحى، حيثُ الرّجال الأشدّاءُ؛ يلوبون في الخارج، يُقيِّدون خرافَهم، يرفعونَ رؤوسها إلى أعلى، في الدّاخل شرعت النّسوةُ بغسلي منَ الدّم الدّاكن، عندما مسَّت السَّكاكين أعناقَ الخراف الحامية، جحظت العيونُ الدّائريّةُ، واندلعت النَّقمةُ في نظراتها، في تلك اللحظة كانَ جسدي الورديّ؛ يتلوّى بينَ أكفٍّ حانياتٍ، تمسحه بكولونيا الأطفال، وحينَ تطايَرَت رشقات الدّمِ مِنَ الذّبائحِ، انتشرت البودرةُ البيضاءُ، تحت إبطيَّ، ورقبتي، وخلفَ أذنيَّ، وفي كلِّ ثنيات جلدي، أطْلَقْت يديَّ ورجليَّ في الفضاءِ، واختبرت الحُرّية للمرّةِ الأولى، غيرَ أنّهنَّ سرعانَ ما ثَبّتنَها ولففنَنِي... لَفَفْنِني جيداً.

تشبّثت بثدي أمّي القمحيِّ، لأتشمَّمها؛ لكنّها لم ترضعني، حدَّقَت إلى عينيَّ الواسعتينِ، وانتحبت، عندَ المساءِ؛ لم يجدها النّاسُ إلى جواري، تقفّوا أثَرَ الدّماءِ؛ التّي استحالت سرباً من البُقَعِ الحمراء، واكتشفوا بيسرٍ أنّها أصبحت... في البئر.

لم تبدَأ علاقتي بالبئرِ حتّى سنِّ السّادسة، تحديداً مع بدايةِ السَّنةِ الدّراسيّةِ الأُولى، كنْت عائدةً مِنَ المدرَسةِ بـ «الفولار» البرتقاليّ الرّقيق، ذي الطَّرفينِ المنسدلين، من جوزةٍ بلاستيكيّةٍ، برائحةٍ كريهةٍ، وبالمريولِ البنيّ، المتدَلّي حتّى مُنتصَف ساقَيَّ، هكذا انتقَته عمَّتي؛ أكبر منّي، كنت أكره هداياها، في الحقيقة كنت أكرهها؛ عمّتي التي أغرقت المياه الزرقاء عينيها، مع أنّها لم ترَ البحرَ في حياتها.

في أوّلِ يومٍ لي في المدرسة؛ قادَني أبي من يدي، لم تكن كفّه الضَّخمةُ الباردةُ يداً، وإنّما حبلاً ثخيناً، يَشدُّني خَلْفَه، كُلَّما تلكّأت، مرّت بجانبي ثلاثُ بقراتٍ شاهقاتٍ، كنَّ يُحرّكنَ فكوكهنَّ، متوعِّداتٍ، مسَحت إحداهنَّ مخطمها الرَّطبَ بسروالي؛ فزعقت، لكنّه لم يسمعني، تباطأ كلبٌ أمامي، هزَّ عنقه، تثاءبَ، وحملقَ فيَّ، ذعرت، التصقت بساقه، لكنّه مجدَّداً لم يشعرْ بي، لقد كانَ يرتدي طبقاتٍ عديدةً من الثياب، صدريّةٌ سميكةٌ، تحتها شروال أسود، أدخله المحتلّونَ الأتراك يوماً، الأتراك الذين رحلوا، ولم يتمكّنوا من سحبِ شروالهم من تراثنا، فوق جسده الهائل انسدلت عباءةٌ سوداء، مفتوحة من الأمام ومُصوَّفة من الدّاخل، ألقاها على كتفيه، من دون أن يدخلَ ذراعيه في كُمَّيّها، كان يُسمِّيها «فروة»، وكنت مقتنعةً تماماً بأنّها فراءُ دبٍّ عملاق، ليسَ لكونها ساخنة دوماً، وإنّما ليقيني بأنَّ جسد والدي؛ كانَ فضفاضاً، بما يكفي لاحتمال كائن آخر... دبّ مثلاً، أمامَ البابِ الحديديِّ، الشّاهق، أفلتها، فهوَت، وارتطمَت بجسدي، قالَ لبنتٍ كبيرةٍ؛ وهو يُرنِّحُ سبَّابته أمامها:

«انتبهي لها جيّداً يا شاطرة»

أدركت، لحظتئذٍ، أنَّه لَنْ يَعودَ لأخذي، حينما مضى؛ كانَ هنالكَ عشرات التّلامذةِ الصّغارِ، الحديثينَ، يبكونَ حولي، وعشرات الأمّهات والآباءِ؛ يُهدِّئونهم

بالقُبَلِ والعناقات والحُبِّ الكثير، كنت الوحيدة؛ التي لم تبكِ، حتى بعدَ أن غابَ أبي، وغابَت معه القبلةُ... التي انتظرتها.

بدت المدرسةُ لي يومها زنزانةً شاسعةً، بسورٍ أفعوانيٍّ غير منتهٍ، وسرعانَ ما ضاقَت أكثر، حينما سخرَ الأولادُ من فُستاني، فُستانٌ مشمشيٌّ تحت المريول خاطته عمّتي، على عجلٍ، بكشكشةٍ تكنسُ الأرضَ حولي، كُلَّما ركضْت أو استدَرْت، بعد ساعتينِ طويلتينِ؛ جاءَت البنت الكبيرةُ لأخذي، همَسَت للمعلِّمة، كما لو أنّها تروي طرفةً عن العالمِ الآخر، خلفَ السُّور:

«يا آنسة، الشّرطةُ في القرية؛ لقد اختلفَ رَجُلانِ، ورمى أحدهما الآخرَ في البئر»

في ذلكَ النّهار؛ لم أنتبه إلى الأغنامِ؛ وهيَ تقْطَعُ الشَّارع، مُخَلِّفَةً غَمامةً من الثُّغاءِ، والرَّوائحِ، ورنينِ الأجراسِ، لم أنتبْه إلى البنت الكبيرة؛ التّي حَمَلَت عنِّي، كتبي الجديدة؛ وهي تمدُّ لي يَدها، بقطعةِ بسكويتٍ مقضومةٍ، كُنت أفكِّرُ في شكلِ البئرِ من الدّاخل، في عمقها، وفي كلّ ما يحدُثُ... لِمَنْ يَسْقُطُ فيها.

ليلتها؛ بكيت خالي كثيراً؛ فوحدَه كانَ سيَعرفُ، إجابات أسئلتي كلِّها، وحينَ نمت؛ حلمت بأنِّي رميت أبي وعمَّتي، في البئرِ السَّحيقة.

توتٌ شاميٌّ

في المدرسة؛ كان التلامذة يتندّرون باسم أمّي وباسمي، أصرَّ الأشقياءُ على مناداتي **«واويّة»**، ومع ذلك فقد أضحَت مدرستي، الشَّكلَ النِّهائيَّ للعالَم، ربَّما لأنَّ فقدانَ الأُمِّ، يَتضمَّنُ تلقائيّاً، ضَياعَ كلِّ التفاصيل، والملامح، والمشاعرِ، والنَّكهات، والنَّبرات، واللَّمسات، والنَّظرات «الحارّة»، دخَلت المدرسة مُحمَّلةً بالأمنيات، الحضْن، والقبلة، والهمسةُ في الأذن، والثِّيابُ المرتبة، والشَّعرُ النَّظيفُ المُسرّحُ، ونقطةُ العطرِ خلفَ الأذن، والحلوى، والمصروف، والألعاب، والشَّكل الأوليُّ للرَّبِّ، و**«يا روحي»**، و**«يا عمري»**، و**«يا ماما»**، كُل حَدَثٍ عاديٍّ، يَعيشُه الأطفال كانَ أمنية.

خَلْفَ المقعَدِ؛ أدركَت أنِّي مساويةٌ، تماماً، لكلِّ الأولادِ، هنالكَ حيثُ لا أمَّهات، ولا عناقات، ولا دلال، لم أكنْ أقَلَّ من أحدٍ، بل على العكسِ، كنت ندّاً، وكانت فُرَصي في قَنصِ إطراءات مُعلِّمتنا، وبسماتها، تزدادُ يوماً بَعْدَ الآخر، لم يتطلَّب الأمرُ منّي أكثرَ من تحويل العالم؛ الذي يبدأ عندَ الواحدةِ ظُهراً إلى حقلِ تدريبٍ، أقلام، أوراق، كتابة، قراءة، أمل.

شيءٌ في داخلي؛ وجدَ في المدرسةِ قنَّ دجاجٍ، آلةً لقصقصةِ خيالاتي، وقفصاً لحبسِ إرادتي الحُرَّة، غيرَ أنَّ ذلكَ لم يمنعني من التقدَم والمثابرة، فقد كنت معتادةً، إجادة ما لا أُطيقه، في الحقيقة لم أقصد أنْ أتفوَّق، لكنّي بذَلت جهدي؛ لأكسَبَ ودَّ المعلِّمة وإعجابَها، وإلى جانبِ اجتهادي، بت أرتدي حذائي، كلَّ يومٍ، على نحوٍ معكوسٍ؛ لأنّها كانت تناديني، تنحني، تخلعه عن قدميَّ، ثُمّ تبَدِّل ما بينَ الفَرْدَتيْنِ، وتعيدُ ربطَ سيوره.

كنت أُشبه غيري من الأولاد، في التسابق نحو المطخ؛ الذي روى سكان القرية أجمعين، قبل وصول المياه إلى المنازل، بركةٌ وسيعةٌ بمياهٍ خضراء، تتماوجُ تحتها الأعشاب

الموحلة، تتوزّعُ الصُّخورُ الزلقةُ على حافاتها، بتحنانٍ، مكسوةً بعيونٍ من الطحالب الفضوليّة، كنت أتقاطع معهم في امتطاء جياد المكانس، ورشق كرات الوحل، ودقّ اللّوز على حجر، وجمع أكبر كمّيةٍ من الفطرِ والدِّردار والخبّيزة والعكّوب وقرص عنّة، وفي العثورِ على أجمل حجرٍ مفلطحٍ لـ «الخوطة»، أو أنسب الحصى لـ «الزقطة»، أمّا الفارق الأوحدُ ما بيننا؛ فكانَ مدى الإلمام بلفظةِ «موت»، ففي الوقت الذي كان جلَّ ما يعرفونه؛ أنَّ ذئباً في الحكاية، حاول التهام الحِملان، ومات ساقطاً في البئر، كانت معرفتي بالحقيقة، وأنا أصغرهم تؤرّقني؛ ففي النهاية ليس الذئب وحده من يموت، لهذا كنت أدرّبهم، أرمي بنفسي في حفرة صغيرة، وأموت؛ فيتراكضون نحوي، ويتفرّجون على بقعة الدّم الحمراء؛ التي تتفشّى، سريعاً، على ملابسي، وما إن يشتمّون رائحة التّوت الشّامي، حتّى يتضاحكون، ويرشقون جسمي بالتّراب.

بعد موت خالي، اقتحم أبي ملعبنا، انتصَبَ بيننا واعظاً، زأرَ بصوته الجهوريّ المدوّي:

«كبرتم يا عمّي على هذه الألعاب!، منذ اليوم؛ يلعب الصبيان بعيداً هناك، وتلعب البنات معاً في هذا الشارع، بنات فحسب، مفهوم؟»

تخضَّبَت وجناتنا، والتمعَ برقُ الذَّنبِ في أحداقنا، كنا نعلمُ أنّنا كبرنا، من السَّنتيمترات الإضافيّة، في أطوالنا، لكنّها كانت المرة الأولى؛ التي ننتبه فيها إلى أنّنا حقّاً صبيان وبنات، كبرت من تلقاءِ نفسي، قبل أن أميّز الفرق الحقيقيّ، بين البنت والصبيّ، كبرت بشعرٍ مقصوصٍ دائماً، وغير منسّقٍ، وبمشيةٍ أقرب إلى الهرولة منها إلى مشية أنثى، ومن دون أن أنتبه كبر الـ **«حسن صبيّ»** المتواري فيَّ أيضاً، كبرت مراراً، مرّةً حينما انتقلت عمَّتي، للعيشِ عندَ ولدها، على نحوٍ نهائيٍّ، ثم حينَ مرضَ أبي، وأصغى إلى وسوسات من أشاروا أنْ يودعني، مطمئنّاً، في ملجأ الأيتامِ.

قصدنا مركزَ الرّعايةِ، في المدينة القريبة؛ هنالكَ حيثُ سأتعلَّمُ، رغمَ المرارةِ كلّها، التّنظيم، والانضباط، والمشاركة، والتّحدي، لم يكن لديَّ من يوصيني،

بتسريحِ شعري، قبل الذهاب إلى المدرسة، وبالتلفّت باتجاهيْنِ، عند عبورِ الشارع، وبالحذر من الغرباء، غير أنّي التزمت بذلك وحدي؛ فقدْ توجَّبَ عليَّ فجأةً أن أصيرَ «أُمّي».

لم يزرني أبي مرَّةً، خلالَ مدَّةِ إقامتي في الملجأ، وحينما لمحته بعدَ سنواتٍ؛ أمامَ البوابةِ، وقد دلفَ بخطواتٍ بطيئةٍ، أخبروني أنّه حضرَ لاصطحابي، تدفَّقَ الدَّمُ في عروقي، حامياً كالصُّهارة، وبقدرِ ما تمنَّيت موته؛ فقد ابتهجت لتحرُّري من تهمةِ «اليتيمة»، بدت المعادلةُ قاسيةً بإفراطٍ، لم تأذنْ لي كرامتي بمرافقتهِ، ولم تسمح لي حرّيتي بالبقاء، ذاكَ العراكُ العنيف بينَ الكرامة والحرّيّة؛ علّمني أنَّ اصطدامَ القيم النَّبيلة، يساوي الذُّلَّ... تماماً.

انتصرت حرّيتي؛ فيما أصغيت بغلٍّ إلى حوارٍ، لا معنى له، بينه وبينَ المدير، قبّلني، لكنَّ طعمَ القبلةِ كانَ قدْ مات، اقتادني من منفايَ إلى منفاه، ذهبت معه، لا كما جئت، كنت أطول، أنحف، أقسى، بضفيرتينِ، ونظّارةٍ طبّيّةٍ. تعلَّمت الطَّهو، والكيَّ، والتّنظيف، وبت بلمحةِ عينٍ؛ ربّة منزلٍ، لكنّي بقيت، في عيونِ الآخرينِ، المسكينة الوافدة من ملجأ الأيتام، وفي يومٍ؛ تغيَّرَ كل شيءٍ، حدثَ ذلكَ في السّاعةِ الخامسةِ إلّا ربعاً، من مساءِ أجمل أربعاءَ في حياتي، كنت أكنسُ درجَ المنزلِ، عندما جاءني جارُنا، بنتيجةِ الثّانويّة العامّة...

ملاك ورجل ميّت

وطئت عالمَ الكبار، وبات عليَّ أنْ أعثرَ على الزِّرِّ السِّحريّ؛ الذي يُحوُّلني من طفلةٍ إلى صبيّةٍ، ومن سلحفاةٍ، بدرقةٍ تخفيها، إلى غزالةٍ. خَلَقَت لي كلّيّةُ الطِّبِّ جناحين، وشقَّت لي دروباً، في القلوبِ الموصدةِ، صارَ هنالكَ من يسألني:

«كيف الحال؟»

ومَنْ يُنجدني عندَ الضِّيق، ومَنْ يجدُ اسمي جميلاً، ومَنْ يتغزَّل بعينَيّ، ومن يُرافقني كلَّ مرَّةٍ إلى العاصمةِ؛ لإنجازِ معاملات التسجيلِ في جامعتها، حتّى والدي تغيَّر، أصبحَ يُهاتفني باشّاً، أدهشني أنْ يطفو حبُّه لي، على السَّطحِ أخيراً، وحينما قرَّرت أنَّ أحبَّه؛ وجدتني غيرَ قادرةٍ على ذلك.

انقلبَت حياتي، والجنِّيَّةُ؛ التي وهبتني السَّعادة فجأةً، لم تحَدِّد وقتاً لاستعادتها، غيرَ أنَّني لم أنقَدْ لغوايةِ اليُسرِ، لم أندهش، لم أُرفرفْ فوقَ الأرض؛ إذ بدا لي أنَّ منْ مرمرتهم الدُّنيا، لا يثملونَ بسهولةٍ، لمْ أُفَوِّت درساً، لم أتخلّف عن محاضرةٍ، لم أقع في الحبِّ، ولم أحلم كالفتيات، بولهٍ من النَّظرةِ الأولى، صُنت قوّتي كما شاءَ خالي، خبَّأت قلبي؛ فلا أُغوى بنظرةٍ، ولا أُزهرُ بكلمةٍ حلوةٍ، على عادةِ الفتيات؛ الطَّالعات إلى أُنوثتهنَّ، قاومت فطرتي، ولم يخطر لي أنّي أُربّي احتقاناً في العاطفة، وبؤساً قابلاً للاشتعال.

تخطّفتني الكتب القديمةُ؛ التي تنازعتها بسطات الأرصفة، ومذ رحت أشتريها، بدأت رحلتي مع تلك الكنوز السّريّة، المستخفية؛ فبعيداً عن عقيق المعاني، والشبابيك المطلّة على العالم، غالباً ما كنت أعثرُ على ثرواتٍ، من نوعٍ مختلفٍ، ذكرى بخطّ اليدّ، منديل مطوي، دمعة ناشفة، رسوم كمثل «أطلس مشاعر»، ورقة نقديّة

بالية، رسالة خائبة، قصاصة جريدة، رائحةُ تبغٍ، بقعةُ عطرٍ زيتيٍّ، وردة مجفّفة، ملاحظات حميميّة بأقلام الرّصاص، بطاقة يانصيب، صورة شخصيّة، ومع الوقت أضحت هذه الأسرار المجهولةُ أسراري، ومعطفاً دافئاً، يقيني برد العالم.

وفي يومٍ مات الرَّجل؛ الذي لم تغلبه أمراضُ القلب، والضَّغط، والسُّكَّريّ، والمفاصل، بسكتةٍ دماغيّةٍ، مات رافضاً زيارة طبيبٍ؛ لكيلا يذعن لتعليماته، أو يضطر لتنفيذ الأوامر، ولحظة لم يَعدْ موجوداً، اكتشفت أنَّني كنت أتكِئ على وجوده، من دون انتباهٍ، أوجعتني الاستنتاجات المتأخِّرةُ، حمَّلَتني مسؤوليَّة وفاتهِ، وأقنعتني أنَّ الله إنَّما استجابَ، لابتهالاتي القديمة.

كانت جنازته؛ أفقرَ ممّا انتظرت، بضعُ نسوةٍ، متشحاتٍ بالسَّواد، يتوزّعن على المدرّج المهيبِ، يحطنَ بالجثمانِ، على نحوٍ منظّمٍ، كنَّ يتثاءبن بالتناوب، يردّدن أشعاراً دينيّةً، بحيث حوّلن المكان إلى تشكيلٍ حادٍّ، بالأبيض والأسود، كانت ثرثرات بعضهنَّ َ تتناهى إلى سمعي، في كلِّ صمتٍ، خليطاً من النمائم، والمواجع، وأحاديثَ عن الطبخ والأزواج، كم آلمني أنّي شئت بكاءه ولم أستطع، كم آلمني أن يرحلَ الأمير، من دون أن تسيل لأجله، دمعةٌ صادقةٌ واحدةٌ؛ فبناته الخمس من زواجهِ الأوَّل، مبعثراتٌ في بلادِ الله الواسعة، وقد اكتفين بمشاركة نعوةٍ مؤثِّرةٍ على «Facebook»، في حينِ كانت سادستهنَّ هدى، في أحد المشافي برفقة ولدها المريض.

بعدَ أشهرٍ؛ علمت أنَّه أوصى بميراثهِ، لإخوتهِ الذُّكور؛ الذين طالما عاداهم، وأوصى بغرفة عمّتي لي ولأخواتي نصفِ «الدَّزِّينة»، إذا ما انقطعت بنا السُّبُل، وصرنا **«مقاطيع»**، حينها شعرت كم كنت يتيمةً، وكم بت أكثرَ يتماً.

مرَّت سنوات الدِّراسة، بأفضلَ ممَّا اعتقدت، لم أزرْ خلالها القرية، إلّا مرّتين أو ثلاثاً، أذكر لحظة الصّدام مع أشيائه، ثيابه، مقتنياته، أحذيته، كان الأمرُ مفزعاً حقّاً، إذ لم يتّسع المنزل لنا معاً، أنا وأشباحه الهائمات، بحثت عن كتبي؛ التي تخلّص منها، باعتبارها توسوس لي، وتعلّمني القوّة و**«ردّ الجواب»**، وتخطفني إلى عوالم

بعيدة، من الجيّد أنّه لم يحرقها، كانت مكوّمةً في صناديق، داخل السّقيفة، ظهر معي كتاب **«اختراع العزلة»** لبول أوستر، نفضته، فنثّ منه الغبار، قلّبت صفحاته، فانفتحت الصّفحةُ الثّامنة عشرة، في مصادفةٍ عجيبةٍ، جفلت، وأسقطته من يدي، لحظة قرأت:

«ليس ثمّة ما هو أسوأ من مواجهة أشياء رجلٍ ميّت»

في تلك الآونة، نَمَت بيني وبينَ أُختي هدى، علاقةُ ودٍّ جديدةٌ، أخذَت تدعوني إلى منزلها، في الشّام، تغسل ثيابي، تسأل عنّي كلَّ حينٍ، وكنت لا أردُّها، حينَ كانت تملأُ محفظتي، بينَ الحينِ والآخر، وفي يومٍ؛ هاتفني محامٍ، ليبلغني أنَّ خالي كان قد سجَّلَ لي ميراثه، حتّى إنَّ الدَّائنينَ؛ شرعوا يعيدون إليَّ، تباعاً، ديونَه القديمة، باعتبارِ أنّي وريثه الوحيدة، وفي غمرةِ غبطتي وتهللي بالثَّروةِ الجديدةِ؛ جَمَحَت أحلامي، وتملَّكني هدفٌ؛ متخمٌ بالتشَفِّي، أنْ أَختصَّ في أفضلِ جامعات العالم.

بعد حفلِ التخرجِ؛ قرّرَ الزُّملاءُ التوجه إلى السِّينما، دخلتها معهم، أوّل مرّةٍ، وفي ذلكَ الحيِّزِ اللَّذيذ، تلألأ على شاشةٍ رحبةٍ، فلم فانتازيا عاطفيّة، اسمه **«مدينة الملائكة»**، حيثُ لا تؤمنُ بطلته، جرَّاحة القلب، بوجود ملائكةٍ، تعيشُ على الأرض، ولكنَّها تلتقي في المستشفى من يُقنعها بأنّه ليسَ رجلاً عاديّاً، وإنّما ملاكٌ؛ وظيفته قبضُ أرواحِ المحتضرين، وبعدّ قصّةٍ طويلةٍ من حبٍّ عاصفٍ، يُقرِّرُ الملاكُ التخلّي عن قدراتهِ أجمعها، كيما يتحوَّل إلى بشريٍّ ويتزوّجها، طوال الفلم؛ كانت الدُّموعُ تهرُّ من مقلتيَّ، بلا توقُّفٍ؛ فيما قهقهات رفاقي الهازئةُ، تلمزُ إليَّ، أوقفت البكاءَ؛ غيرَ أنّي لم أفلح مع الرَّجفة، غيَّرني الفلم، أكثرَ ممّا يحتمل المنطق؛ فمنذُ ذلكَ الحين، وأنا أنتظرُ الملاك؛ الذي سيتحوَّل إلى بشريٍّ لأجلي.

الدّرجة الخامسة

تحت سماء باردة

«أنت لا تملك اسماً... ربّما لاشيء يملكُ اسماً»

روبرتو خواروث

كائنات الحُمم

لم أهتمّ بوداعِ أحدٍ سواه، ساقني الدّربُ إلى الشيخ عادل، تطلّعَ إليَّ؛ وكأنّه ينبشُ فرحي، ويدفعني إلى التّحديق في نفسي، أصغيت، إلى نظراته، فأسكتني حزني؛ الذي ما انتبهت إليه، نهضَ بمشقّةٍ، أوكأ عصاه على الجدارِ، مسحَ عينيهِ الذّائبتين، همهم، على نحوٍ أقربَ إلى التراتيل، منه إلى الكلام العاديّ:

«لا تزعلي!!، سترجعينَ في يومٍ من الأيّام، وستكتشفين أنّه كانَ ينبغي لهذا أن يحصل، ليحدث ما يجب أن يحدث، أنا والقرية سننتظرك، بأمان الله يا بنتي»

أصرَّ عمّي حَمَدُ على نقلي، بسيّارته البيك أب، من القرية إلى مطارِ دمشق، وقد خلت، على نحوٍ غير قابلٍ للشّكِّ، أنَّ زوجته كاميليا؛ هي من زنّت على رأسهِ، انطلقنا في الخامسة صباحاً، رغمَ الطّقسِ العاصفِ، قفزت، بخفّةٍ، بينَ البركِ الموحلةِ، واستحالَت أنفاسي، سُحباً كثيفةً، من الأبخرة، أصغيت، إلى أصوات المزاريبِ المتناغمةِ؛ وهي تحيل مياهَ الأسطحِ، مسيلاتٍ صغيرةً؛ تترقرق فوق الترابِ، المشبعِ بالمطرِ، كأنّما لتخبرني؛ أنَّ وقت التّحليق قد أزف.

كانَ عمّي يحتفظُ، قربَ قدميهِ، ببرّادِ القهوةِ المرَّة، وفي درجٍ ما، بالفناجين المزخرفة، بعناق روميو وجولييت؛ وكنت حينها، شبهَ مختفيةٍ، داخلَ الطّاقيّة، والوشاحِ، الصُّوفيَّينِ، ومعطف الفرو الثّقيل، اضمحلّت العتمةُ، المتوحّشةُ، تدريجيّاً؛ فبانت، كما الحوريّة، مدينةُ الصّخر، تكشّفَت كالحبيبات، كيلومتراً تلو الآخر، كانت تثلج ندفاً، وكانَ السَّوادُ؛ يجبل بالمشَاعرِ، أذرعُ الرِّيح؛ راحَت تجسُّ الحنان، النّابت في ذُرا البازلت، حيثُ أسرابُ الزرازير؛ تعشِّشُ، راعشةً، في الشبابيكِ الوسيعة، اقتربنا، هبطت السماءُ، فوق أسطح البيوت الوطيئة، بين كل تلَّيْنِ يتهامسان، سهلٌ مكويٌّ بعنايةِ الوالدةِ، وفي آخر كلِّ دربٍ ملتوٍ، مجهولٌ ما ينتظرُ، كنت سعيدةً بالحنانِ الطّارىء؛ المنسابِ على قسمات عمّي القاسية، وبوصاياه المكرَّرة كلَّ حينٍ:

«انتبهي لنفسك يا حبيبتي، أنت أخت الرّجال»

«أنا موجود إن احتجت إلى مالٍ، أو مسّك ضيم»

لكأنّما هنالكَ خزانةٌ، سرّيّةٌ، من العواطفِ المجهّزة، لمن سيموتونَ أو سيغيبون، على المرآةِ الجانبيّةِ؛ انفرطَ عِقدُ الشجر، كرز، عنب، سرو، لوز، سمّاق، ثمّ سنديان، سنديان، سنديان، غطسنا في الضَّباب، إلّا أنَّ الدِّفء سرعانَ ما شعشعَ، وقت ولجنا الاندفاعات، والانطفاءات البركانيَّة؛ تلك التي تورَّطنا فيها، إلى حدٍّ ورثنا طبيعتها؛ فبات لكل منَّا، جيشٌ من البراكينِ، المتأهِّبة، تحت جلده، وعلى الرَّغم من كوننا؛ نحن **«كائنات الحمم»**، لسنا مهيَّئين، بما يكفي، لاحتمالِ البردِ، لكنّا على أيَّةِ حالٍ نحتمله، وفاقٌ بين المتناقضات؛ مكَّننا من تدبّر قسوتها، الهضبةُ الأمُّ؛ المستترةُ خلفَ اسمِ الجبلِ المذكَّر؛ فحجارتها الدَّاكنة، عُدَّةٌ كاملةٌ، ضدّ الموت، والقَشَبُ الأخضر؛ المنسابُ على جسدها، بمنتهى الإغواء، يوقظُ، منذُ الأزل، أحزاننا الهادرة، أمّا أوديتها؛ فجراحٌ مفتوحةٌ، تنزُّ السّوسن والمنثور والزّعتر البرّيّ، باتّجاه العاصمةِ غادرناها، انطوت بسلاسةٍ خلفنا، انطفَأت قمراً فآخر، بهتت، لم أتوجَّع، لم أبكها، ولم أعلم أنّي سأدسُّها يوماً، بحرقةِ الأطفالِ، تحت الوسادة، لوّحت بيدٍ للأحراش، فيما ركنت الأُخرى، هامدةً، فوق قلبي، خفتت الجلجلة، تضاءلت خلفنا، تضاءلنا أمامها، وفجأةً تحوَّل بلدي، إلى كلمةٍ مدوِّيةٍ، ومهجورةٍ، وطويلةٍ جداً.

زهرة الكاردينال

بَرحت مطار **«كولن بون»**؛ النَّشِطَ على مدار السّاعة، لفحتني هبَّةٌ صقيعيّةٌ؛ فانقبضت، وتحسّست لزوجةً، أشبهَ بالمنامات؛ الملتصقة بباطنِ الجفون، مسَّني دوارُ المدُن الكبيرةِ، أقضَّتني حُمّى الزُّحام، وفي القطارِ؛ المتّجه إلى مدينةِ بون، تعرّفت، بإيجازٍ، عليهاَ، بدت مدينةً؛ دقيقةً، منظّمةً، مكتظّةً، تلقائيّةً، غير مبالية، لا تلتقي فيها نفسك، إلّا مصادفةً، لم أجهد كثيراً في إيجاد مبنى المشفى؛ وهو يهل فوق جبل **«فينوس بيرج»**، إلى جوارِ محميّةٍ طبيعيّةٍ، بديعةٍ، جلت بحماسةِ السُّيّاحِ، في ردهات الأقسامِ السّتة، كانت مؤثّثةً تأثيثاً أنيقاً، ضمَّ كلٌّ منها عدداً فائقاً، من الأسرّةِ البيضاء النّظيفة، وكثيراً من الحجرات الفرديّة، وبعد زمنٍ وجيزٍ؛ تعرّفت إلى ركائزِ العلاجِ المثيرة؛ بدءاً من الحديث الهامس، ما بين المريض والطّبيب، ووصفات الأدوية، حتى العلاج المرافق، من رياضة، ورقص، وتنويم مغناطيسيّ، افتتنت بالتفاصيل، وبالإمكانيَّات المسخَّرةِ، لهندسةِ النَّفسِ، إلّا أنّه ورغمَ كلِّ ذاك التنظيم، وتلك الإيجابيّة؛ فقد كانت أيّامي الأولى خانقةً، اجتهدت في تفعيل ملَكةِ التأقلم، مثل سحليّةٍ، وأدمنت مع الوقت الطوافَ، كلَّما تيسَّرَ لي، في الطَّريقِ ما بينَ **«شرقِ برلين»** و **«غربها»**، ابتهجت بما يتكوّن، مثلي، من أجزاءٍ متحدةٍ، النّاسُ عندهم لطفاء بالفطرة، يبتسمون بيسرٍ، تخيّلت، بادئ الأمر، أنَّ سعادتهم بديهيّةٌ في ظلِّ ظروفٍ، إنسانيّةٍ، ممتازةٍ، غير أنّي سرعان ما اكتشفت؛ أنّهم لا يطيرون بهجةً في الشّوارع، وسرعان ما لمحتها، خلفَ الضحكات العاليات، **«نقطة البؤس»**؛ تلكَ التي تأخذُ شكلَ البصمةِ، في عينَيْ كلِّ إنسان، تملَّيتها طويلاً، في العيون، وكأنّما أصطاد أسراراً، ولكم ضحكت، وقت فكّرت في التعاسةِ العُظمى، تلك التي توحِّدنا نحنُ البشر.

أسرتني المناظرُ، البليغةُ الجمال، كانت ترطن بسحرٍ أعجميٍّ، عصيٍّ على الفهم، قطارٌ؛ يسيل على حافات الغابة، فسقيّةٌ مائيّةٌ؛ وسط السُّوق، المبلَّط بتماثيلَ رائعةٍ؛

لأطفالٍ يطاردون البطّ، وفي السّاحة الهادئة؛ يتهادى الحمامُ، بين الدّراجات الهوائيّة، لا الحمامات تخافُ؛ فتطير، ولا راكبو الدّراجات يفزعون، أو ينحرفون، كان هناك ثقةٌ متبادلةٌ، وأُلفةٌ؛ مكّنت طائراً، من أن يأمن على نفسه، بين دواليبِ الدّراجات، لم أرها إلا في فسحة الجامع الأمويّ، لقد كانت مدينةً كاملةً، بخشوع مسجدٍ.

ذات صبحٍ؛ رَنَّت كلمةٌ في أُذني: **«مرهبا»**؛ تلكَ الـ «مرحبا»؛ التي لن أنساها ما حَيِيْت، تسبَّبت بتعثُّري؛ فيما كنت أصعدُ درَجَ الجامعة، استدرت؛ فإذا بفتاةٍ، بشعرٍ أحمر، ونمشٍ خفيفٍ على الأنفِ، وشبه نافرٍ، كسمسم البرازق، على الخدَّينِ، لم يكنْ شكلها غريباً؛ فقدْ سبق أن قصدتها؛ لاستعارة كتابٍ، خطرَ لي أنّها محضُ مفردةٍ، حفظَتها للتّحية، لكنَّها أردفت، من فورها، وبعربيّةٍ مكسَّرةٍ:

«اسمي ريتا فابينا، أنا أمريكيّةٌ من أصلٍ سوريٍّ، وفلسطيني أيضاً»

تطوَّرت صداقتنا سريعاً؛ فمن الأحاديث المطوَّلة، إلى التّسوق، إلى السَّكنِ المشتركِ، عرّفتني العديدَ من الأصدقاء، وبات الجميعُ يناديني اختصاراً **«ماوي»**؛ تخفّفاً من حبل التّاء المربوطة وعقدتها، وما بينَ **«واويّة»** و**«ماوي»**؛ راحت حياتي تتقلَّب، على نحوٍ دراماتيكيٍّ سريعٍ، كما لو كنت كثيباً رمليّاً، أو خيمةً متنقّلةً.

علَّمتني أساليبها في الاسترخاءِ، والتطَهرِ النَّفسيِّ، رافقتها مراراً إلى دروس الرّقصِ، كنت أُراقبها بافتتان؛ وهي ترقصُ الفالس، أو «*Walzer*» بالألمانيّة؛ فيُخيّل إليَّ أنّي أسمع في الموسيقا فريد الأطرش؛ يغنّي **«يا زهرةً في خيالي»**، بعد الدَّرس؛ كانت كل الأغنيات العربيّة؛ المعتمدة إيقاع السرمند؛ الموازي لإيقاع الفالس، تتردّد في أذنيَّ كالصّدى، بدءاً من **«أنا قلبي دليلي»** لليلى مراد، ولغايةِ **«يا لور حبّكِ»** لفيروز.

يبدو أنّنا أكثر تعوّداً**!**، وأكثر مقدرةً على النّسيان، ممَّا نعتقد؛ فمجتمعٌ كذاك الألمانيّ، يسهل على المرءِ فيهِ الحياة، بتوافقٍ، مع شخصيَّتهِ الواحدة؛ عزَّزَ انسجامي الداخليّ، فلترني من كمٍّ هائلٍ من الأدمغةِ الزَّائفةِ، والتخبّطات العاطفيّة، ثمَّ إنَّ ريتا قد وجدت لي عملاً، في متجرٍ، ثمَّ في مكتبةٍ، وكانت عوناً حقيقّاً، في إتقانِ

لغةِ البلاد، وعلى الرَّغم من الفروقات الشَّاسعةِ بيننا، في نمطِ الحياةِ والتّفكير؛ فإنَّ إحدانا لم تطلب إلى الأُخرى أيَّ تغييرٍ، مقابل الحفاظ على صداقتنا.

في يومٍ؛ دخلت عليّ واجمةً، وفي يدها زهرة بريّة، لامعة، ذات أبواقٍ طويلاتٍ، غمست ساقها في كوب الماء، قبعت إلى جواري بلا حراكٍ، شبكت ذراعيها إحداهما بالأخرى، سألتني، وقد تخافت صوتها:

ماوي!، أيوجد في العربيّة مفردةٌ، يمكن أن تعني الحبّ، والثقة، والحيوية، والدّفء، والعاطفة، والرّغبة، والحماسة، وكذلك العدوان، والخطر، والقسوة، والتّهور، والغضب، والذّعر، والموت، في آن؟!

- أوف!، طبعاً لا

- ولا في الإنكليزية، ولا في الفرنسيّة، ولا في الألمانية، ولا في العبرية، ولا في...

- ولا في أيّة لغة؟!، هذه المعاني المتناقضة، تحتاج إلى معجمٍ، ليضمّها، لا كلمة

- لا يوجد مفردة، لكن يوجد لون

- الأحمر؟!، أمممم!، يا لها من زهرة جميلة!!

- ....

- لحظة!!، لا أعتقد، إنّه قطعيّ، ناريّ، واضح، إنّه...

- ...

- لكن لا!!، ربّما!!، ربّما كان لوناً موارباً فعلاً، مضطرباً، قليلاً، متأجّجاً، بلا هويّة، مثلنا جميعاً في العمق، أقوى ممّا نتخيّل، وأضعف ممّا نتخيّل، إنّه...، يعتمرُ عواطفنا، ينتعل أفكارنا، ينتحلنا، ويمشي نحو صورته النهائيّة!.

- لو تعلمين كم أكره هذا اللون

قالتها بغلٍّ، ثم زمّت عينيها، نظرت إلى زهرة الكاردينال الحمراء، وسكتت.

مقاصل

كانت ريتا تشبه اللّون الذي تكرهه كثيراً، عرباتٌ من المفارقات، المتقاطرة، الغريبة الأطوار، كانت تعبر في صمتها، وصوتها، ونظرتها، الكون كلّه يشبه ريتا، البشر كلّهم، ولربما كان هذا ما دفعني إليها، نفاذها إلى خفاياي الصّادمة، المخيفة، ورغبتها في فهم العالم، وترتيبه، وتبسيطه، وتعريته.

كاللّمح؛ مرَّت السَّنوات، بت أُكثرُ، بين الفينة والأخرى، من التّوقف، والتّأمّل، في عمري؛ الذي جعل يتلامح قدّامي، بتقنيّة «مونتاج سينمائيٍّ»، مكابدة، مساهرة، عمل وحزن، دراسة وحزن، وجبات سريعة وحزن، كتب وحزن، لم يكنْ هنالكَ من يخبرني أنَّ هوسي في إشغالِ نفسي، إنَّما ينهبُ حياتي، أنهيت اختصاصي بتفوّقٍ، وحسمت أمري، في الحصولِ على الدُّكتوراه، درَّسّت في الجامعة، وانهالت عليَّ عروضُ عملٍ لا تعوَّض، وفي الوقت؛ الذي شرعت فيهِ أقطفُ ثمارَ التّعب، وأُعدُّ أبحاثاً نوعيّةً، نالت نصيباً من الشّهرة؛ اندلعت الحربُ هناك... في بلدي.

نزفت سوريّة ناسها؛ البلد النّائية، القابضة على حضاراتها العتيقة؛ التي آوت، طويلاً، المهجَّرينَ والنَّازحينَ، صارَ اسمها ملازماً لنشرات الأخبارِ في العالم، وأصبحت أرى بشراً، من كلّ الألوانِ واللّغات، يجوبونَ شوارعَ ألمانيا، بصفتهم **«لاجئينَ سوريِّينَ»** وتفشَّت هذهِ «التهمة»، كالجراثيمِ، في القَّارّات أجمعها، في الحقيقة؛ نحن لا نستطيع الهروب، من حيواتنا السابقة، مهما حاولنا، إنّنا نجرُّ بلادنا خلفنا، أينما حللنا؛ فهي جزءٌ ثابتٌ من كينونتنا، لا يمحى بالرّحيل، ولا يشفى بإغماضةِ عينٍ.

عنكبت في شبكة الإنترنت، واظبت على مطاردة أخبارِ المعاركِ والتّفجيرات، كنت أُهرعُ لأحفر في صدري، أماكنَ جديدةً، لإقامةِ موتايَ؛ فأضيقُ، وتتّسعُ المدافن، وفي مرَّةٍ، قرأت كلاماً جميلاً، عن شيخٍ جليلٍ؛ حملَ

بارودة الصَّيد، وخرجَ يقودُ شبابَ قريتِهِ دفاعاً عنها، كتبوا عنه طويلاً، كيفَ قاتلَ ببسالةٍ، وكيفَ أُسِرَ، وكيفَ قُتل، وعندما قرأت الاسمَ **«عادل الرّاوي»**، شعرت بأنَّي بت بكلّيّتي حفرةً، كانَ التّواصل الرّقميُّ؛ وسيلتي؛ إلى إخمادِ قلَّةِ حيلتي، رحت أتقفَّى الأخبارَ المخفيّة، أبحث في القائمة الطّويلة، عن أصدقائي السّوريين، أحاول أن أحصي من ظلَّ منهم في سوريّة، ثمَّ من ظلَّ منهم حيّاً، ثمَّ... أُغلقها وأبكي.

كتبت مها في رسائلها الإلكترونيّة:

«نحاول الفرار، ولكنّ المخارج كلّها مفخّخة، تدمر تنهار»

«محاصرون في القبو، نساء الحيّ، كلهنَّ، في قبونا، نسمع رشقات الرّصاص، وهدير الطّائرات على نحوٍ متواصلٍ، سينفد الطعام قريباً، سينفد شحن الجوّالات أيضاً، كل ما أستطيع قوله أخيراً، أنّي أتمنى رؤيتك، إن عشنا بعد هذه الليلة»

«إصلاح» الفلسطينيّة، النّاعمة، ذات الوشاح المنقّط، المتدلّي دوماً على كتفيها، أسرَّت لي في رسالةٍ:

«هجّرنا يا ماويّة من مخيّم اليرموك... لاجئون للمرّة الثانية»

عزّة الحورانيّة؛ البيضاء، ذات النّمشِ المنحني، أعلى الخدّين، كتبت من الأردن:

«تسألين عن شهادة الصيدلة حقّاً؟!، عن الورقة؟!، قُتلت أمّي، وخرجنا من المخيّم، وجد لنا أخي بيتاً في عمّان، وأعمل الآن في تعليب الخضار»

أمّا رسائل هيفي الكرديّة، فقد كانت قصَّةً وحدها:

«أرفقت لكِ صورتها، ليست بفستانٍ مورّدٍ كعادتها، هذه المرّة، أختي نيركز، في ثيابِ القتال، تصوّري نرجستنا تقاتل!، أمّي ليست حيةً لتمنعها، وأنا لست هناك لأُساندها، أشتهي الصراخ بلا انتهاءٍ»

«يا ماويّة، قتلوها، ماتت نيركز!»

في ذلك الثلاثاء؛ وعلى الشُّرفة العاليةِ، الضّيقة، كانت خيول الهمِّ، تخبُّ في رأسي؛ فكَّرت في أُختي؛ التي انقطعت أخبارها، مذ فقدت وحيدها في الحرب، فكَّرت في نفسي، المتخفِّية تحت طبقاتٍ من الذَّوات؛ التي لا أعرفها، قبضت على الفراشة الفضيّة، المدلّاة من عنقي، وكأنّي أتمسّك بها، لأتوازن، وفي غمرةِ القهرِ، اتخذت قراري؛ ذاكَ الذي، بدا للزّملاءِ مفاجئاً، ومتهوِّراً، شرعت أتجهَّزُ للعودة، استماتت ريتا بإقناعي، بكون البطولة؛ التي أفتعلها، ليست أكثرَ من وهمٍ، تروِّجه القصصُ الغبيّة، قالت: «ستندمين» بثلاثِ لغاتٍ، شتمتني، ذكّرتني بكلّ الهواجسِ؛ التي نَقَرت، كالبَرَدِ، عظمي:

«إلى منْ سترجعين؟!، لا أسرة ولا أهل ولا أصدقاء»

«إنّها الرّغبة في البطولة الفارغة ولاشكّ، قاسيت لنيلِ شهادتكِ؛ فما أنت فاعلةٌ بها، في بلدٍ يتدمَّر؟!، من ستنفعين؟!، وهل سيكترثُ أحدٌ لكِ أصلاً؟!»

«هل تعلمينَ معنى أنْ يترشَّحَ بحثكِ لجائزةٍ علميّةٍ وازنةٍ؟!، وبدلاً من اللَّحاقِ بأحلامكِ تهدمينَ ببلاهةٍ... كلَ شيءٍ»

«الانتماءات إلى الحدود والتّقسيمات أوهام مغفّلة، أنت تنتمين إلى العمل والجدّ»

«تتقنين اللّغة، تأقلمت مع البلد وسكّانها؛ فلن يكونَ بقاؤك مهما طالَ عسيراً»

«مستقبلكِ يا ماوي هنا، هنااا!!»

حينَ خمَدَت صديقتي كالحريق، رفعت رأسي، نظرت إليها لأقولَ أشياءً كثيرةً، غيرَ أنّي لم أقدر.

الدّرجة السّادسة

أعشاش مهجورة

«لا فخّ، ولا قيود، فلماذا نحن أسرى!؟»

جلال الدين الرّومي

طريق البارود

على متن الطّائرة، المتّجهة إلى بيروت؛ كانت هناك ثلاثةُ توابيت، وحيدة، وغريبة، ومرميّة بين الحقائب، كانت الجثث الثّلاث، مسافراتٍ معنا، إلى قبورها السّوريّة، هبطنا في المطار، مع نهايةِ تشرين الثّاني، الموظّف؛ الذي لاحظ اضطرابي، أرشدني إلى حقائبي، لم يعلم أنّي أبحث عن التّوابيت، كان بودّي لو أصطحب الموتى معي، كنت على ثقةٍ، أنّها تفوقنا حياةً، كل شيءٍ كان معقّداً، وبارداً، وطويلاً، أشعرني بأنَّ فراغاً ما؛ قد توسّطَ روحي، السّائق الشّاميّ؛ الذي حيّاني بابتسامةٍ باردةٍ، واضعاً حقائبي في سيّارة الأجرة، كان أوّل من همَسَ لي:

«الحمد لله على السّلامة يا آنسة»

غير أنّي سمعتها:

«لماذا رجعت!»

كان أوّل من نكأ تراجيديا العودة، بجرِّهِ رجلَه الصّناعيّة؛ والتّي عَوّضت، كما ادّعى، تلك التي خسرها في الحربِ، لم أسأله: **«كيف الشّام؟!»**، بيد أنّه أجابني من تلقاء نفسه:

«الشّام بلا مطار، وبلا اتّصالات، وبلا حياة، الغربان؛ صارت أكثر من النّاس»

رافقنا الثّلج، الناصع الذهول، اجتزنا الحدود، عبقت رئتاي بكولونيا الماضي؛ تلك التي سرعان ما تحلّلت إلى مئات الرّوائح العجيبة، صارت السّماء صفراء، والطّيور الصغيرة، راحت تدخل وتخرج من الأشجار - حيث الثّمار اليابسات تتهزهزُ مثل الأجراس- كما لو كانت في عجلةٍ من أمرها، تفشّت الفراغات في دخيلتي، كما البقع، شرعت السّيّارةُ تترنّح، شعرت بأنَّ البلاد تنجرف، تحت

الإطارات، تباطأَت، انزلقَت، ثمَّ توقّفت، نزل السّائق ليتحقّق من المشكلة، لم يعبأ بأصوات الرّصاص البعيدة، تلبَّستني سحنة التّابوت، التصقت بالنّافذة، انكمشت، تملّيت الطّريق النّاصل؛ وهو ينغرز في صدري، صوّبت نظراتي الخاطفات، في كلِّ اتجاهٍ، قرب بيتٍ وحيدٍ، ظهر طفلان، أحدهما يطاردُ الآخر؛ فيدوران، ويتراكضان، ويقفزان، وبينما كانا يلعبان، طفق الرّصاص يقترب، وبينما كانا يضحكان، فرد أحدهما ذراعه، طوى الخنصر والبنصر والإبهام، تحوّلت كفّه إلى مسدّسٍ، هتف:

«طاخ، طاخ، طاااخ»

ترنّح الطّفل الثّاني، تهاوى، نفر الدّم من رأسه، وسقط.

جمد السّائق في الخارج، ابتلعَ ريقه؛ فاختلجَت تفَّاحة آدم، في عنقهِ المغضّن، ولم يكد يتموضع خلف مقوده حتّى صرخت:

- مات؟!

- لم يمت

- أقول لك مات

- لم يمت، يلعبان

- إلى أين تمضي؟!، عد إليهما

- لم يمت، لم يمت

- الدّم!، مات!، رأيت الـ...

- نامي، طريق الرّصاص طويل

- ونمت؛ إلى أن اختلطت المنامات بالأشباح، بالحقيقة، بالخوف.

حين وصلت؛ كنت قد أمسيت فراغاً كبيراً، لم تبق من صوتي قطرةٌ لأشكره، حجزت لحقيبتي الخفيفة، غرفةً في فندقٍ رخيصٍ، ثمّ رفرفت، على غير هدىً، قصدت

سوقَ الحميديّة؛ ذاك الذي أفضى إلى هدأة الجامع الأمويّ، ثمَّ حديقة تشرين؛ فساحة الأمويّين، زرت كلَّ ما يُزار، كمن يطمئنُّ إلى حال أبنائه، نظرت إليّ فوّهةُ رشّاشٍ، في زاويةٍ ما، ولمع عنق الآر بي جي، المشرئب في أخرى، صعدت درجاً في المهاجرين؛ فوصلت إلى السّماءِ، مدّت أشجارُ الجانبِ الأيمنِ أغصانها، في الشّارعِ الحجريّ الهادئِ، بالتكيّة السليمانيّة، لأشجارِ الجانبِ الأيسرِ وتنهّدت، فنثّ فوقي، الدّمع العالق بالورق، هربت من قلق الطّريق، التحقت بالعابرين، نأيت، تملّيت بيتاً، فقد وجهه ذات حريقٍ، ورجلين يتفاوضان على مزبلة، ومشيت فوقَ دمٍ ناشفٍ على الرّصيف، جرفني ضجيجُ الحياةِ في الشّعلانِ، تهاويت على مقعدٍ خشبيٍّ؛ فلم أسمع خمسَ حماماتٍ، يتهامسنَ قبلَ الفراق، عالجت المناظر، بخيالات الذكريات، جرّبت محو الواقع، وفي ساحةِ بابِ توما، لم يرني الطّفل النّائمُ في «الكرتونة»، وأنا أتجعّدُ، وأنكمشُ، وأشيخ... فوق رأسه.

كانَ لابدَّ من إخبارِ أحدٍ ما بعودتي، للإفلات من شبحيّتي، ولتأكيد وجودي، لم آكل، لم أنم، قلّبت الأسماء الأجنبيّة في الجوّال، استعرضت الصّفحات الشّخصيّة، من لا اسم له على الشّاشة؛ لا وجود له، هذا ما كنت أحسبه قبلاً، بدا من الصّاعق أن أكتشف؛ أنّني أخبُّ في الوهمِ، في مدينةٍ افتراضيّةٍ قصيّةٍ، لا وجود لها على شاشتي، فكّرت، مشيت، ثمَّ قصدت بيت هدى، أجفلَ الرَّعدُ، مراراً، سيناريوهات اللِّقاء؛ التي تصوّرتها، دوَّى بجلجلتهِ، في قبّة روحي، أعقبه مطرٌ سبطٌ، ومشاعر غير منسجمةٍ، على الباب الحديديّ، أكّد السُّكانُ الجدد، أنّهم لا يعرفونَ المذكورة، احتقنَ الخذلانُ في حنجرتي، هشّمني الوهنُ، كانت خبطةً قاتلةً، على الرّأس، نزفت على إثرها ندماً كثيراً، جرجرت خطاي خلفي، ابتلعني الظّلام، وتبدّت الضّباعُ من حولي؛ أضحت أميل إلى الغيلان، وأشبه ما تكون بالبشر، تهت، تماماً كما لو نبت في حكايةٍ، غير حكايتي، لحظتئذٍ، انقدح فيكتور هوغو، انفجر ساخراً، همس في أذني:

«يا له من أمرٍ محزنٍ، أن يفقد المرء عنوان روحه»

نواطير

وجدتني أمام رجلٍ ضخمٍ، مريبٍ، تردّدت في الجلوس، غير أنّي فعلتها، دونما احتسابٍ، بثّت الحافلةُ، موسيقاها الهادئة، وانطلَقَت كالسّهمِ إلى الجبل، شقّت واجهتها، الموشّاةُ بثقوبٍ قديمةٍ، ذاكرة الرّصاص، تسمّرت عيناي، بنظرةٍ جانبيّةٍ سريّةٍ، على جاري المريب، تفحّصت جهامة وجهه، معطفه المنفوخ، بدا وكأنّه يواري سلاحاً ما، تسلّحت بالتّحفّز والحذر، غمغمات السّائق؛ كانت صلواتٍ مسموعة، وأنفاسه قد ترافقت بحشرجةٍ رتيبةٍ، خلفه سيّدةٌ مليحةٌ، غارقةٌ في السَّوادِ، ضبطتها تعضُّ كفَّها، لكيلا تشهق، وراءها فتاة يافعة، متعطّرة برائحةِ الدّراق، كانت ترسمُ قلبها على منديلٍ ورقيٍّ، وتتنهّدُ كلَّ دقيقةٍ، حينَ فرغَت، كوَّرَته في كفِّها، ثمَّ مزَّقته نتفاً صغيرةً، صغيرةً، كما لو كانت تنتقم، على مبعدةٍ منّي، تجادَل شابّان، حولَ أسلمِ الطّرقِ، لهجرةٍ غير شرعيّةٍ، وخلفي نزّ صوت كهلٍ، يهاتف زوجته:

«ستعيشين!، قسماً ببيتنا»

تململ جاري الوحش، وأخذ يوزّع نظراته، كيفما اتّفق، فعلا وجيب قلبي، وتظاهرت بالنّوم...

شعرت بأنّني أتضاءل، ولا أعلمُ لم خطرَ لي، بغتةً، درسُ الجراحةِ الأوّل، فوبيا الدّم، والغثيان، ونصائح الأساتذة، المشوبة بالسُّخرية، لانسحابي من الطِّبِّ، لم يجد أحدهم غضاضةً، آنذاك، في فضحِ استيائهِ، ألمحَ؛ وهو يُركّزُ نظّارته الزَّلقة:

«قد تنجحينَ في مكانٍ آخر، يتطلَّبُ رقّتكِ، في التطريزِ مثلاً»

صفَّدت المريولَ، من وجلٍ، حولَ جسدي، هَصَرْتني فيهِ، هيّئ لي أنّه قد شفَّ كفايةً، لتنغرزَ أنظارُ الطُّلاب، بالبلوزة الزّيتونيّة، التي خطتها بنفسي، لكنَّ الأيَّامَ لم تطُل، حتّى خيّبت توقُّعاتهم، اجتزت اختباراتهم أجمعها، ونجحت؛ نجاحاً باهراً.

يومَ قرّرت أن أختصَّ بالنَّفسِ، خلتني أنسل من بين يديه وحشِ الجراحةِ، لم أُدرك أنَّ وحشاً مهولاً ثانياً، سيتلقّفني بعد رجوعي إلى الشّام، تماماً في تلك الظَّهيرة، عندما دَخلَت عيادتي، طفلةٌ خرساء، برفقة أُمِّها، جلستا أمامي كَلِيلَتيْنِ، ولم أكد أستجوب الوالدة، حتى أطلقت في وجهي جملتها الجاهزة:

«في طريقها للمدرسةِ، تعثّرت... برأسِ والدِها»

شَقَّت العبارة قلبي، خطَفَتني، تضَعضَعَ الصَّمت فيما بيننا، ورشَحَت منّي قوى الكلام، التصوُّر، التفكير، تحوّلت إلى كائناتٍ كثيرةٍ، ليست من بينها «نفسي»، الأمُّ التي تكلّمت، قرابة السّاعة، حثَّتني على تقديم العون، لكنّها لم تلقَ منّي إلّا الفتور، خارَت في انتظاري، لم تمهلني لأطلع من عتمةِ الصَّعقة، جرّت ابنتها، رمقتني بأسفٍ، وربَّما بشفقةٍ، ثمَّ مَضَت، إلى غير رجعةٍ، فطنت لحظتها إلى كونِ عنقي؛ قد ناءَ بحمله رأسين، أحدهما... لوالدِ الطفلة.

وفتحت عينيّ؛ كان البازلت الأسود، قد تكاثفَ على جانبي الطّريق، وبدا تقدُّم الحافلة أشبه بجريان الوقت، نسغاً يتدفّق، على مهلٍ، في عروق التّرقّب، انتعشت، تمنّيت، وهلةً، لو تحملني، حتّى نهايةِ الزّمنِ، سعلَ الرّجل المخيف؛ فتنبّهت إلى وجوده، وشعرت بأنّني في مرمى الخطر، كانت الحافلة، قد بدأت تتهادى، في مدينةِ شهبا، لاحت الأعمدة الأثريّة، استعدَّ بعضُ المسافرين للنُّزولِ، عندها انتفض، تخيّلت النساء السّافرات؛ مقطوعات الرؤوس، وقف في مقعده، تخيّلت المجزرة؛ التي أتت على ركّاب إحدى الحافلات، رمقني بنظرةٍ جانبيّةٍ، دافئةٍ، ارتجفت، حيّاني، بصوتٍ في غاية الرّقة، واللّطف، والموسيقا:

«الحمد لله على السّلامة يا أختي»

تفتّحت مساماتي بغتةً، دخلت منها كلماته، ودخل معها الأخوة والأخوات والآباء والأمّهات، وأمسى جسدي شجرة عائلةٍ، نزل من الحافلة، كمثل آلة كونتراباص، على ضخامتها؛ فإنّ صوتها أعمق ما يكون، خطر لي باتريك زوسكيند،

حين وصفها، في مسرحيّته، بأنّها الآلة الوحيدة؛ التي يفضَّل الاستماع إليها عن بعد؛ البعد الذي لا يمكن أن نستطيعه، أيقنت أنّنا، نحن البشر، عبيدُ أحكامنا المسبقة، ودمى عالقة في أحبالها، فارقنا شهبا، المدينة الأثريّة بالكامل، أو «فيليبوبولس» نسبةً لإمبراطورها فيليب، حاكمِ روما، الذي جعلَ من مدينتهِ الصّغيرة، عاصمةً لمقاطعةِ العربِ أجمعها، ترجرَجَت الحافلة، تفرقَعَت الحصى البازلتيّة، تحت عجلاتها، وحدي بقيت مع الكرسيِّ الفاغر، أحصي المحنَ، في وجوهِ الرُّكّابِ، وحدي اندهشت، حينما شاهدته، طفلٌ في المقدِّمة، تسلّقَ كتف الوالدة، زها كوردةٍ مختبئةٍ، مدَّ رأسه، بشَّ لي مبتهجاً، مؤكِّداً كالبشارة؛ أنَّ الحياة ولا بدّ في زاويةٍ ما... حلوةٌ جدّاً.

حطَّ قلبي في السُّويداء، تحرَّرَت قدمايَ من جاذبيَّتي، وانهالَ طوفانُ الذَّاكرة، كانت عربات البيعِ، قدْ أُتخمت بأهراماتٍ صغيرةٍ، من الفول والفريز والعوجا، باصُ الحضانةِ؛ الذي حاذاني، جَعَلَ يطيرُ، بتلويحات الأكفِّ النّاعمات، ثمَّ يحلّقُ مبتعداً، بأولادٍ حسبت أنَّ نصفهم بلا آباء، أعقبته سيَّارةُ الهلالِ الأحمرِ، كانت تبرقُ بمسعفاتٍ فاتناتٍ، تناغشُ الكَمَدَ، الهائمَ في الهواء؛ فتصْفُرُ تحتها المدينة، الشَّوارعُ الفقيرةُ، السَّاحات الصّغيرةُ، الأرصفةُ الضّيقة، كلّها تحوّلت إلى أسواقٍ شعبيّةٍ، التقى حمصيّان قربي، وتحادثا، ابتسَمَت امرأةٌ، بجبَّةٍ سوداء، ترقرقت فوقَ الشّرشِ الطويل، لرجلٍ شديدِ السُّمرة، حيَّته، بلكنةٍ حورانيَّةٍ:

«السّلامُ عليكم، سلّم على العيال»

ثمَّ مضَت؛ وهي توازنُ على رأسها، خبزاً طازجاً، طفَقَت أُذنايَ تجَمِّعانِ اللَّهجات، من شارعِ حجريٍّ واحدٍ، الإدلبيُّ بيَّاعُ الزِّيت، الحلبيُّ بيَّاعُ الحجابات، الدّيري، الشّامي، فكَّرت، في برهةٍ من صمتٍ، في أنَّ بلاداً تذروها الرّيح، ستظل تتجمّع، وتتشكّل، وتنمو حتّى أبد الآبدين، ضعت، الأشياء والأبنية لا تبقى مكانها، إنّها تنزاح على خريطة القدمين، بفعل العاطفة، يحدث هذا كثيراً، أقلعت إلى القرية، احتشَدَت حياتي، في عينيَّ، مِدْت بوهنٍ، صعدتها بيتاً، بيتاً، كان للحزن المقيم صوتٌ

أشبه بالهسيس، عشّش مع الخفافيش، في شقوقِ الدُّورِ المهجورةِ، إلّا أنّه لم يمنع الزّنابق من التّسامق، ولا النفنوف من التّفتّح، كان هنالك رجلٌ؛ يمشّطُ تقحّل أرضه، بالمجرفة، وأشجاره، من حوله، مقطوعة الأعناق، عصرت عجوزٌ - تجلسُ أمام باب دارها - عينيها، وسألتني، كما النّواطير، عن اسمي، فيما تبعتني قطّةٌ شقراء، انتظرتها، حتّى وصلت منهكةً؛ فرمقتني بنظرةٍ ضبابيّةٍ، ثمّ مدّت قائمتيها، وهزّت ذيلها، انحنيت، داعبت عنقها، غاصت أصابعي في وبرها الدّافئ، تجعّد أنفها الورديّ، ارتعشَ شاربها، واستحال المواءُ غناءً شجيّاً، افترقنا، وأكملت المسير، لكن سرعان ما دهمت الطّريق، المخضرّ، المتعرّج، بغتةً، قافلةٌ من سيّاراتٍ، فارهةٍ، بزجاج أسود «فيميه»، وسبطانات رشيقة، تخرجُ من شقوقٍ في النّوافذ، ارتعشت الحشائشُ، وكأنّها أذيال كائنات الخوف، النّعاميّة؛ تلك التي لم ير أحدٌ وجهها يوماً؛ فيما ظلّت البيوت المتفرّجات، تدخّنُ الغيم بلا اكتراثٍ، وهنالك؛ حيث لا حسّ ولا حسيس، زمجرت الكلاب، شرحت لي؛ كيف يُمسكُ بالغريب متلبّساً، لم أطرف بعينيّ، بحثت، بعينين مغرورقتين، عن بيت خالي الحجريّ، وسط البيوت الإسمنتيّة الجديدة، غير أنّي لم أجده، لقد اختفى بطريقةٍ غريبةٍ، تماماً كما اختفى صاحبه مرّةً، ضاقت أنفاسي، لم أشعر بذلك الفزع من قبل، تقلقلت الذكريات، تحت قدميّ، ابتعدت ما استطعت، كنت فرجةً للشّبابيك، وكانت الأشذاء للقديمة، للورود ذاتها، قد ماتت، مات حفيف الأشجار؛ الذي أعرفه، وصوت الرّيح، ماتت الدّروب، الترابيّة، السريّة، والألوان داخل الألوان، وولدت ألعابُ الأولاد الحربيّة، بأسلحتهم الخشبية، وطلقاتهم الخيال، وسبطانات العيدان المشرئبّة، وبغتةً؛ تبدّت القطّةُ الشّقراء، نفر من فمها رأس طائرٍ، راح الدّم يقطر من نابيها، وفي عينيها برقت نظرةٌ راعبةٌ، ارتعدت، ومشيت نحوه، بحذرٍ، وتردّدٍ، وتوقٍ؛ فمشى نحوي، بلا مشاعر، بيتنا الذي لم يستقبلني فيهِ أحدٌ، لم يفصل عناقنا الفاتر، لحظتئذٍ، إلّا العقربُ الطّافي على فضّة الخابية، وصوت عجوزٍ، حارسةٍ أخرى:

«بنت من يا سندي؟!»

عروس

بدا لي، لفرطِ سذاجتي، أو لكثرةِ ما أطاحت بعقلانيّتي الكتب، أنّني انجررت إلى فكرةِ المخلّص، انجذاب فراشةٍ إلى النّار؛ فتسرّعت، وتورّطت، لكن كيف لفردٍ بئيسٍ، أن يخلّص بلاداً وسيعةً مجروحةً؟!، عالجت ندمي، بفرضيّةِ انجذاب الشّبيه إلى شبيهه، لروحي شكل هذي الأرض، بصخورها، ورملها، وشوكها، ونبتها، قد لا أفلح في تضميد نزفها، بيد أنّها تعرفُ كيف توقف إظلامي.

رنَّ الجوّال، كان اسماً لطبيبةٍ، جمعني بها فضاء الانترنت، نشّفت وجهي، قبل أن يبتلّ، وهتفت بنبرةِ المحاربين: «ألووو»، خالت أنّها تطلبُ مساعدتي، غير أنّ ما فعلته حقّاً، كان غرز جناحين على ظهري، طرت إليها، ولم يطل الوقت، حتّى التحقت بفريق دعمٍ نفسيٍّ، لمجموعاتٍ إغاثيّةٍ، من الأطبّاء المتطوّعين، رافقتهم إلى المناطقِ السّاخنة، انحصرت أهدافنا ما بين إيجادِ أحياءٍ، وتخليصِ المهدَّدين بالأوبئة، المرافقة لتعفُّن الجثث، واتخاذ التدابير الوقائيّة، لإنقاذِ الأصحّاء من الهلاك، وبعد أسابيعَ قليلةٍ، باتت أصوات الهمهمات، ومشاهد الحطام، والمذابح، وروائح البقايا المتفسّخة، الخلفيّة الحصريَّة لعملي الجديد، كففت عن مناداتهم، بصوت الخوفِ المهذارِ «انتظروني»، صرت أتقدّمهم، مع يقيني بأنّي قد لا أعود، بدا شعوراً رائعاً، أن تذهب إلى الموت برجليك، من دون أن تمنحه الفرصة ليأتيك، وجدت في المآسي، والفجائع، تفاصيل مهملةً، عجيبةً، أدهشني أنَّ هناك من يضحكُ، في قلب الكارثة، منهم من وجد في الحرب، عذاباً مناسباً، للتطّهر من أخطائه؛ فارتهنَ طائعاً لسِحرِ «تعذيب الذّات»، ومنهم من وجد في تنفُّسِهِ المجرَّد، نصراً معنويّاً على المعركة، وعلى الرغم من ذلك، كانت الزّلازل الإنسانيّة، تتجاذبنا، في كلِّ حينٍ، كلّما واصلنا التّقدم.

قصدت البيوت العتيقة؛ التي منحتني ريتا مفاتيحها، بيت جدّتها كان الوحيد، الباقي على حاله، إذ كانت - لدى الجيران - نسخةٌ، جعلتهم يديرون شؤونه، طوال تلك السنوات، كان المنزل؛ الحديث ظاهريّاً، أثريّاً داخليّاً، لكأنّه ركنٌ في متحفٍ، في أحد أعمدته حجرٌ، أقرب إلى رقيمٍ، بكتابةٍ مسماريّةٍ، صوّرت كلّ شيءٍ، كما طلبت رفيقتي، إذ اقتنعت معها بأنَّ التّوثيق الرّقميّ؛ هو عملٌ بطوليٌّ بحقٍّ، بعد حينٍ اكتريت عيادةً صغيرةً، في أحدِ أحياءِ دمشق الشّعبيّة، وأقمت فيها، كان لابدّ من العمل، في ضوءِ نفادِ مدّخراتي، وبعدَ فترةٍ وجيزةٍ، من تعليقِ اللاّفتةِ، تيقَّظت لغزوٍ أنثويٍّ، سيّداتٌ وآنساتٌ، قد جئنَ إليَّ متخفّياتٍ، كما لو كنت خطيئتهنَّ، وأُخرياتٌ جئنني، بوضوحٍ من أجهضَت الحربُ حساباتهنَّ، كنَّ كفيلاتٍ بتعريةِ القهرِ كلِّهِ، حالات هجر، غير معلنةٍ، أمراضٌ نفسيّةٌ، سرعانَ ما تنقلبُ إلى عضويّةٍ، طيفٌ من الفتيات المعنَّفات؛ ينتظرنَ الاقتران بالمخلِّص، أطفالٌ شيوخ، طيفٌ مضطربٌ من الفتيان، مُسِحَ من مخيّلتهِ أيُّ شكلٍ آخرَ للأسرةِ؛ غير شكلها المختلّ، متوالياتٌ من الانهيارات العصبيّة، زهرة التي باتت أسبوعينِ في قنِّ الدّجاجِ مع أولادها، جاءتني بمكياجٍ طاغٍ، أخفت بيدها لكمةً في الوجه؛ لكيلا ينكشفَ تفَتتها، قطَعَت أميالاً، سيراً على الأقدامِ؛ لتسألني:

«هل ينتقل المرض النّفسي... بالعدوى؟»

ومن الباب؛ دلفت سيّدةٌ لطيفةٌ، بيضاءُ كالثّلج، قصيرةٌ، ممتلئةٌ، بشعرٍ مجعّدٍ، مصبوغٍ، ووجهٍ طافحٍ، وعنقٍ ناصعٍ متهدّلٍ، مدّت رأسها، بعد طرقاتٍ ناعماتٍ ثلاثٍ، وابتسمت، نقّط الكلامُ، بلكنةٍ لبنانيّةٍ، من فمها المطليِّ بالأرجوان:

«أيمكنني الدخول؟!»

رحَّبت بها؛ فعرّفتني بنفسها، ثمَّ تساقطت على الكرسيّ، كبتلةِ وردٍ، وجعلت تتملّاني بدقّةٍ، حتّى استطال الصّمت، وخشية أن أحسبها المريضة؛ دخلت مباشرةً في الموضوع:

- زارتكِ صديقتي، وأُعجبت بكِ، ونصحتني بلقائك، قبل ذهابي

- على الرّحب، وما الذي تعانين منه بالضّبط؟!

- لست أنا، إنّه ولدي

- وما مشكلة ولدك؟!

- أبحث لولدي عن...

«بووووم»

ارتجّت الجدران، وطغى صوت الانفجار على كلمتها الأخيرة، غير أنّها خرجت ثانيةً من أعماق حنجرتها، لكن بصوتٍ مبحوحٍ خفيضٍ:

«عروس، عرووووس»

تذكار للرِّيح

كنت صنماً، وكانَ زياد؛ عريساً محتملاً، أمّا المسافةُ بيننا فتلالٌ من البارود، والدّم، والخوف، التقيته أوّل مرّةٍ في متجرٍ، كانت مصادفةً مدبّرةً، أثارت حنقي، حملقت في حذائي الرّياضيّ، الموحل، وتحسَّست الكعكة؛ التي أمساها شعري، خلفَ رأسي، تلبّسني الخفر، حاولت التملصَ، غيرَ أنَّه اندفعَ نحوي بحرارةٍ، حكَّ ذقنه، تلعثم، نبت قبالتي كشجرةٍ، ظلَّلني وجهه، بعدما أضاءَ مثلَ **«فلاش كاميرا»**، خلعت نظّارتي الطِّبّيّة، بعجالةٍ؛ لأُنقذَ شيئاً من مظهري، فيما بذلَ جهداً ليلقي التحية، وببطءٍ حرّرت النَّفسَ الذي حبسته.

في الطَّريقِ الطّويل؛ مشيت على هينتي، تذكَّرت الأحاديث الغبيّة؛ التي تبادلناها، النظرات التّمثاليّة، رغبتي في التّملص، فكّرت في السّقف، في المستقبل، في الشجرة المقطوعة؛ التي تعبت من تجسيدها، تغلغلت في النَّسمةِ الغاديةِ، واستحالت التفاصيل حولي إلى **«ديكورٍ»** شبحيٍّ، استوقفتي، فجأةً، عجوزٌ تحضن يُدَ زوجِها لتعينَه؛ فيحملق الكهل طويلاً في عينيها، راعني أيضاً شابٌّ، يتفقَّدُ ساعته، بعدَ كلِّ زفرةٍ، يحرسُ وردته الجوريّة، من البلل، بمفكّرةٍ كُتب عليها **«دليل المعلّم»**، خطفَ الهواءُ المهتاجُ، عن عنقي وشاحاً عسليّاً، منقّطاً بالأبيض، لكنّي لم ألتقطه، تركته تذكاراً للرّيح؛ فحلَّقَ مبتعداً، وكأنّي قفصه، رفعت رأسي، انسابَ الماءُ على عنقي، واغتسلَت الوحمةُ بالرّذاذِ، ولجت غرفتي في العيادة راجفةً، مصدومةً من كوني تأخَّرت كثيراً، لأُميّزَ خيطَ الحريرِ الواهي، في الشَّوارعِ السَّوداءِ، لم أُبدّل ثيابي، لم أتناول الغذاء، أمضيت جلَّ الوقت، وراء النّافذة، أفتّش بعينَيّ، عن قصص حبٍّ، أو عن بقاياها، وأبحثُ في المذياع، عن أغانٍ عاطفيّةٍ، تحبُّها البنات، المرآة؛ التي ما اعتادتني بتلك الصّورة، راقبتني بذهولٍ، ثمَّ ضمَّتني، برفقٍ، طيَّ غَبَشَتها.

عصرَ ذلكَ اليوم؛ قرأت رسالة ريتا، الموشّاة بأشعار محمود درويش، انكببت أعاينُ جملتها الأخيرة:

«الشعر يقتل يا ماوي!، ها نحن الآن، محمود فلسطيني جديد، وريتا يهوديّة جديدة، وحكاية فارغة؛ ترنُّ فيها الكلمات، يا له من جمالٍ بهّارٍ، عذبٍ، هذا الذي يتصاعدُ من الاحتمالات، المجهولة، الخطرة»

وبغتةً، ومضَ النّقال، إذ رجّه الرّقمُ الغريبُ، دمدمت المرأةُ، على الجانب الآخر، بصوتٍ كسيرٍ، أطبق عليّ الذهول، وبشقِّ النَّفسِ هتفت:

«هدى»

ومضى الصّوت البعيد ينشج، ويشرح، كيف امتلكت بيتاً جديداً، في الجبل، وكيف تحصّلت، مصادفةً، على رقمي، وكنت لا أزال أشهقُ، غير مصدّقةٍ:

«هدى!»

صباحاً؛ وجدت طاقةَ وردٍ، مرميّةً كطفلٍ، على باب العيادة، وعلى بطاقةٍ مزخرفة، تدلَّت منها، رسمت فراشةٌ، بخطٍّ راجفٍ، وكتب تحتها:

«لكِ أنت»

لبثت مكاني، فكّرت في أنّها لربّما أخطأت عنوانها، بتردّدٍ، امتدّت يدي نحوها، انخرطت في افتراضاتٍ سريعةٍ، انتظرت من أحدٍ أنْ يستعيدها، احتضنتها، امتصّت عيناي الرّسمة، ورئتاي شذاها، قرّبتها من وجهي، حتى لامست حدبةُ جبيني روحَها، وهناك ركنت، طويلاً، للعبير الحبريّ الفوّاح.

في المساء، طرقت عليَّ البابَ، طاقةٌ أُخرى، بوردٍ أحمر، بفراشةٍ مرسومةٍ، بخطٍّ واثقٍ، تطلَّعت إليَّ، في منتهى اللّهفة؛ فاختلجت عبارةُ: **«لكِ أنت»**، نظرت في كلِّ مكانٍ، بحثاً عن واضعها، دهمني القلق، خطر لي أنَّ أحدهم، يحاول اصطيادي، بذاك الطّعم، عكمتها؛ فتوحّدت بصدري، تنفّست أنفاسها، دخلنا معاً، لاحظت أنّها

منسّقةٌ، بطريقةٍ غير احترافيّةٍ، ممّا جعلها تنبضُ بحرارةٍ، تعانقنا حتّى حلّ الظلام، كتبت لريتا عن ذلك الشّعر الحقيقيّ، الذي رأيته، وعن التلاقي الجديد في مصيرينا، وكمثل السِّحرِ، اقتنعت مذّاك، بأنّه لطالما لا وجود للملائكة على الأرض، فلا بأسَ من رجلٍ صيّادٍ... بروحِ شاعرٍ.

أمضيت صباحاتٍ عدّةً؛ أقطفُ من بابي الزّهر، ألتذّ بدور الطّريدة، أجمع البطاقات المجهولة، أؤثّث قلبي بالفراشات، وأحفرُ في صدري، مكاناً رحباً، يليقُ بالشُّعورِ الجديدِ، البليغ السّحر، الشديد الحمق، والذي دفعني؛ إلى منح نفسي كلّها، كرمى لبضع ورداتٍ نديّاتٍ.

ركنت لاسم زياد، ولخطّ زياد، وللبلبلة السّريعة؛ التي أحدثها بيني وبين نفسي، لم أحسب أنَّه قد نجحَ في استلابي، في منتهى الذّكاء والبساطة، بدا لي أنّه عليمٌ، بأنّ قلوب النّساء، حصونٌ مفاتيحها الكلمات، حتّى إذا ما اقترح فكرة الزواج، لم آبه لإجراء حساباتٍ طويلةٍ، لأتيقّن من كونها الصّفات المثلى، لزوجٍ «أرضيٍّ» مناسبٍ.

سقف

مشكلتي مع الحياة؛ مشكلة سقف؛ لهذا شعرت، بأنّي أقتربُ كثيراً، من ذلك الأمان الحلميّ، خطّطنا لزفافٍ، سريعٍ، عقلانيٍّ، لم تزعجني في الحفل نظرات الاستهجان، وافتقاد الحاضرين لأقاربي الغائبين؛ فهدى كانت ماضيةً في حدادها الأبديّ على وحيدها، أمّا ما تبقّى من أقاربي؛ فقد انفرطوا في بقاعِ الأرضِ، كان قاسياً ذلك الفستانُ العاجيُّ، ذو الياقة الملكيّةِ، المُختارُ بعجالةٍ، تسريحةُ الشّعر؛ كانت كامدةً، الحِليُّ، الأظفار الاصطناعيّةُ المطليةُ، والأهداب اللّاصقةُ، والمكياجُ، وطاقات الورود الميّتة، والموسيقا الهادرة، وحلبةُ الرّقصِ، والقصاصات الملوَّنةُ، الهاطلةُ من الغيب.

في الليلة الأولى؛ لم أنم، بقيت أرقب السّقف، بعينين متقرّحتين، أنظرُ إليه بتفجّعٍ وأبكي، شهدت الأسابيع الأولى انتقالاً حادّاً، من وهج الغرام إلى الاعتياد الشّاحب، والرّوتين، والواجبات المملّة، تبخّر الشّعر من مساماته، تنكّر لطاقات الورد، وتبرّأ منها، وبدأت المشاعرُ الحلوة المنتظمة، تنمو على نحوٍ غابيّ، مضطربٍ، ومخيفٍ.

دأبت على اختراعِ عاطفةٍ، في كفني المنزليّ الجديد؛ إذ ليس ذنب أحدٍ، أنّي لا أبلغ دفئاً، مهما فعلت، اشتريت الكثير من أسفاط الرّاحة المعطّرة، والدّراق الموبر، كنت أتلمّس خيطان السّتائرِ المخرّمة، كالمهابيل، أقرصُ أجنحة النّحل؛ النّافرة على الأرائك، أتحسّسُ قطنَ المخدّات، ومخمل الكراسي، لم يفلت منّي جنسٌ من الورد، حوّلت البيت - في محاكاةٍ لقريتنا - إلى حديقةٍ جليلةٍ، **«مسكُ الليل»** كانت ترشُّنا بالكولونيا، كلّما اختلجت، **«قلب عبد الوهاب»** كان ينبضُ على الجدران، على هيئة قلوب، غير منتهية، **«كفّ الدّب»** ربّتت على لمعة **«الكاوتشوك»**، **«اليوغا»** مارست وحدتها معنا، **«أذن الفيل»** سمعت أسرارنا وسكتت، كواعب **«راقصة الباليه»** جعلت تتدلّى على طاولةٍ، قبالة الشّباك، وعلى الرّغم من كلّ ذلك، لم أنجح البتّة في

خلق الحميميّة ذاتها؛ تلك التي توجَد ولا تصنع، أوقفت - مرضاةً لزياد- مهامّي التطوّعيّة، والتزمت بالعيادة الجديدة؛ التي أهداني إيّاها، سرت على خريطة المجدِ؛ التي رسمها لي، وكاللَّمحِ، صرنا ككلِّ النّاس، زوجينِ صامتينِ يأكلان، زوجين ساكتينِ، يشربان الشّاي، زوجين شاردين، في تلفازٍ يَعرضُ برامجَه، لأشباح الفراغ؛ التي انبثقت في زوايا البيت، ولقد دأبَ يلخّصُ الفرقَ العميق، ما بيننا، بالمسافةِ ما بين الأرزِ والسّنديان، وحيثُ ينتصرُ العلوُّ، في النّسبةِ، لصالحهِ؛ فقدْ كنت أقصرُ، فجأةً، إلى أن أتلاشى تماماً، إلى جوارهِ، كحبّةِ رزٍّ منسيّةٍ، لقد ظلَّ السّقف غريباً وبارداً إلى حدّ أنّي بتّ أتجنّب التحديق إليه.

أدمنت أجهزة اختبارِ الحملِ، ولم أكفّ عن شراء ألعاب الأطفال، إلّا وقت أسرّ لي بمشكلةٍ صحيّةٍ، تعوقه عن الإنجاب، مذّاك؛ انشقَّت في السّقف بئرٌ، بئرٌ تبتلعُ الأمّهات، ومن جديدٍ، أطبق البيتون المسلّح على قلبي، حينئذٍ عدت إلى شراء الكتب، على نحوٍ هيستيريٍّ، تماماً كما كان يهربُ، بدوره، إلى أناقته، وشحذ جاذبيّته الذّكريّة، كنت أتساءل؛ ما الذي سيفعله بذلك العدد الكبير من الأحذية، وربطات العنق، ودبابيس البزّات الفضيّة اللّامعة!، مثلما كان يتساءل إن كان في مكنتي، قراءة تلك الآلاف الشّاسعة، من الصّفحات!، وشيئاً فشيئاً أمست أركان بيع الكتب، في الشّام، بسطات لبيع المعونات الغذائيّة، المكتبات العريقة؛ شرعت تستسلم، وتنهار، وتغلق واحدةً بعد الأخرى، ومع ذلك فقد جعلت الكتبَ أحجاراً، بنيت منها بيتاً داخل البيت، سقفاً أعلى، وجدراناً أشفّ، بيد أنّ الأحجار البيض، التي تلفلفت بحلميّتها؛ قد استحالت سدّاً بيننا؛ فتدفّقنا كلٌّ في اتجاهٍ، إلّا أنّ أحدنا لمْ يُفرِّط بالآخر؛ فقد انقلبَ نسيجُ الحزنِ؛ الذي تخلَّقَ بيننا، إلى رابطٍ -من تعاطفٍ- لا يُهزم، استبدلنا بالأطفال العملَ المتواصلَ و التّصديَ لأهوال الحرب والحياة، كتفاً إلى كتفٍ، ونكايةً بالحقيقة، ملأ زياد الجدران، بصورنا البهيّة، الجامدة؛ تلك التي أظهرَتنا للنّاظر كمثل... أميرةٍ وفارسٍ.

أطفال للبيع

واكتشفت؛ أنَّ الاشتغال بالدّم، أهون من الاشتغال بالرّوح...

لم يكن القادمون إلى عيادتي هم المرضى، كانوا محض ضحايا، ميّتة، لا ينفع معها العلاج، أمّا المرضى الحقيقيين، فكانوا ينتشرون في الخارج، يمشون في الشّوارع، يتحادثون في الأسواق، يتشاجرون في وسائل النّقل، هنالك أمراض غريبة؛ تكتسح كبرياء هذه الأمكنة، عُقد جديدة بحاجةٍ إلى فرويد جديد، أكثر تفهّماً، كنت أمشي في الأزقة؛ ذات التضاريس الكبريتية، أتلمّس بكاء الجدران، وكأنّي أنسخُ خريطتها الحسيّة، أتفقّد الشقاء اليوميّ، والبؤس الطّافح، أتملّى العابرين من حولي، كشُعل نارٍ، كنت أحفظُ النوافذ، وأعيدُ قراءتها؛ فأحصي الهزائم والانكسارات، أجمّع في قبضتي حفنة ياسمين بلدي، وأفركه، دائماً كنت أنتظرُ أن تتفتّح نافذةٌ، فتندفع منها يدٌ بتلويحةٍ، غير أنَّ اليد الحلم، لم تظهر مرّةً، مع أنّي في كلّ مرّةٍ، كنت أتركُ لها ظلّي كعلامةٍ، وأهرب، بكفّي المعطّرة.

هدى؛ كانت تظهر وتختفي، في حياتي، كمثل الأشباح، تدفعها نحوي، أمومةٌ تعويضيّةٌ جديدةٌ، ريتا؛ لم تعد ترسل لي إلّا أخبارها عن محمود «فلسطين»، ولسببٍ أجهله، كان قلبي ينقبض، ربّيت صداقاتٍ جديدةً علّي أقوى؛ أنا ابنةُ العزلة الوفيّة، كابدت كيما أتوقّف عن الانهيار، أمام كلّ سيرةٍ فجائعيّةٍ، تروى في عيادتي، غير أنّي بدأت أتساءل؛ كيف يمكنُ لهشٍّ، أن يُنقذ هشّاً مثله!، إلى أن فكّرت مرّاتٍ كثيراتٍ في أن أهربَ، أجل أهرب، من ذلك الطّب النّفسيّ المجرم.

وذات عشيّةٍ؛ بدت لي تصرّفات زياد مريبةً، بإفراطٍ، لم يطرف بعينه، جعل يتملّاني في الخفاء، جلس إلى جواري، ولم يبد امتعاضاً من التلفاز، المفتوح على فلم وثائقيٍّ، بالأبيض والأسود، على أجوبة الأسئلة الأزليّة؛ التي تنسخُ نفسها، بلا حياءٍ، علّق عينيه في النّافذة؛ فسقطتا، فرك فروة رأسه مراراً، حكّ ذقنه، لم ينجح في

السّيطرةِ على نظراته المضطربة، شارف على قول شيءٍ ما، ثمّ سكت، نظرت صوبه، تفرَّست وجهه، علَّني أُخمِّنُ، حينَ يئست؛ نبشت وجهه، بحثاً عن إجابةٍ شافيةٍ، فلوى شفتيه، وهزّ رأسه نافياً، غير أنّه سرعان ما زفر، ليخفّف من هياجه، تماسك، وقال كلّ شيءٍ...

وفجأةً؛ أطبق عليّ ظلامٌ خاصٌّ، فصرخت:

«ماذا تقول؟!، أتشتري طفلاً؟!»

وضع كفّه على فمي، وهو يحاول تهدئتي، صاح بحنقٍ:

«اششششش، من قال هذا يا مجنونة؟!»

ثمَّ شرع يشرحُ لي، بجملٍ غير مترابطةٍ، عن الأسرة المشرّدة، العاملة في مزرعة قريبه اللبنانيّ، عن هجران الزوج وهربه، عن غرق الأم وبناتها في بركة البلدة، عن اختناقهم، وانتشال جثثهم، وعن إخراج توءمين حيَّين، من رحم المرأة الميتة **«قمر»**، في معجزةٍ قلَّ نظيرها، قال إنّ الزّوج النذل **«عبد الرحمن إبراهيم المرابعي»**، كان قد فقد، في الحرب، أفراد عشيرته كلّهم، وإنّ مصير الطّفلين، اللذين لا يملكان اسمين، ولا أوراقاً ثبوتيّةً؛ هو التّشرّد، والتسوّل، وملجأ الأيتام في أحسن الأحوال، تجادلنا، هبّ واقفاً، اتّهمته بكلماتٍ جالدةٍ، ألححت كيما يسكت، لكنه لم يفعل، اكتست نبرته لطفاً ورقّةً، في الحقيقة؛ أنا لم أسمع ما الذي قاله بعد ذلك، غبت خلف سواتر شفّافة، وتخيّلت، وتأمّلت، تهلّلَ وجهه، لحظة ركنت إلى الصّمت، لا أعلمُ كيفَ أذعنت بغتةً، ربَّما أضعفتني نظرته العميقة، ربّما جرحتني كلمة: **«ماما»** المشتهاة، كل ما أعرفه أنَّه هوى، شجرةً كسيرةً، بعد أن اخترقت رصاصةٌ، زجاج النّافذة، وأصابته.

وكأنَّ يداً خبيرةً، تعرفُ كيف تقفل مسرحيات حياتنا، العجائبيّة؛ هي من أنهت المشهد، لم يكن رصاصاً طائشاً، البتة، لقد كان رصاصاً عاقلاً... عاقلاً بإفراط.

كائن غير مرئيّ

لم يكد زياد يتعافى من إصابة كتفه، حتّى سافرنا إلى بيروت، لإتمام الخطّة، أقمنا في بيت والدته؛ التي أشرفت على تمثيليّة الولادة، وبعد ستة أشهرٍ بالتّمام، عدنا بالوليدين الجديدين، كبرا أمام أعيننا، وراح قلبي؛ ينمو معهما، يوماً فآخر، وعاماً فآخر، محمّلاً بالحبِّ، وبالذّنب، وكان همُّ البلاد؛ مثلهما، يعلو ويكبر.

استبسلت في التهوين على زياد؛ ذاك الذي تغيّر، وراح يعالج ندمه بالغياب، باذلاً جهداً مهولاً، في التّستّر على نفوره، من الطّفلين، اللذين حملا اسمه، حتّى شحّت طاقته، إلّا أنّه كان أقوى من الجهر بالعذاب، ولقد قدّرت فعلته، إذ ضحّى برغائبه، تكفيراً عن ذنبٍ، لم يقترفه، تعاظمت المماحكات، وتسرّبت المخاوف، وطوّحتنا وحدانيّةٌ موجعةٌ، وفي ذلك الضّمور العاطفيّ؛ نما كائنٌ عجيبٌ، غير مرئيٍّ، وتولّى إنقاذنا.

أبصرت، وسمعت، بيد أنّي أنكرته كثيراً، وأصابني مسٌّ من الذّعر، والخمود، والتّنبّه، حتّى شككت في صحّتي العقليّة، فيما هو - ومنذ ظهوره - كمثل روحٍ رقيقةٍ، كان قادراً على بلسمة الجروح، ولملمة الشقاءات، وحلحلة تعقيدات الحياة، انزويت طويلاً، في الجانبِ الظَّليل للحياة، لم أشأ أنْ يُحرِّكَ أحدٌ، سرّي الرَّاكد، غيرَ أنَّ الرَّفيقات المستاءات، من انسحابي التدريجيِّ، من مواعيدِ لقيانا، الدَّوريّة، لم يُذعنَّ لأهوائي، تحت إلحاحهنَّ اللَّجوج؛ استجَبْت، دعوتهنَّ يومَ عطلتي، واستضفتهنَّ، صاغرةً، في العيادة، كانَ من الصَّعبِ أنْ يتخيَّلْنَ؛ أنّي لن أستقبلهنَّ بمفردي هذهِ المرَّة، وأنّي قدْ أصبحت رهينةً؛ لنَفَرٍ خفيٍّ، لنْ يتمكَّنَّ من رؤيتهِ أو لمسهِ، لنْ يفهمنَ أنَّ جفائي الأخير؛ إنَّما حذرٌ صرفٌ، ووسيلةٌ للفكاكِ من فخِّ الاحتكاكِ المباشرِ مع النَّاس؛ لهذا كانَ انتقائي للمكانِ مدروساً بعنايةٍ؛ فالأمانُ الذي أحطت بهِ مرضايَ، طويلاً، قد بات ملاذاً، وخندقاً أتحصَّنُ فيه.

في الصَّباحِ الباكرِ؛ هَدرَت عجلات المركبات، في نداوةِ المدينة، إلى يميني؛ ولداي النّاعسانِ، يرتدَّان، كجندِيَين، فوقَ المطبَّات، على الرّصيفِ؛ أسرةٌ غافيةٌ على حرامٍ رقيقٍ، وعامل بلديّةٍ كهلٌ، يسندُ مكنسةً طويلةً إلى كتفه... ويبكي.

«يا فتّاح يا عليم»

هتف بياعُ البطاطا قربه؛ وهو يلحسُ إبهامه، ويعدُّ رزمةً، من أوراقٍ ماليّةٍ، مهلهلة، في الأعلى عجوزٌ؛ تتكِّئُ بمرفقيها، على درابزين الشُّرفة، وتتبعُ سيّارتي، بعينيها الدَّقيقتيْن، إلى الأعلى أكثر؛ غيمةٌ تنفلشُ، كلَّ حينٍ، ثمَّ تلملمُ نفسها، في الحديقة حطَّابٌ، بمنشارٍ آليٍّ، يتنقَّل بينَ الأشجارِ، يقطعُ أعناقها، ولا يتلفَّت كالخائفين، والقطَّةُ التي راقبته، من كثبٍ، تموءُ في توجُّعٍ، ثمَّ تتمرَّغُ في فراغٍ كانَ... ظلَّ صنوبرةٍ.

أمامَ بوَّابةِ الرَّوضة؛ كانَ وداعنا اليوميّ، قبلةٌ هنا، وأخرى هناك، عناقاتٌ مديدةٌ، ثمَّ المزيدُ من القُبل، والمربّيةُ المأخوذةُ كعادتها، بالحنانِ الكثير، تنتزعهما منّي، وتطوي في ناظريها، استهجاناتها الأزليّة، يومها؛ أجدت إتقانَ شخصيَّتي المألوفة، تماهَيْت مع تعابيري الظَّاهريّة، تناسيْت أنَّني سدادةُ الفلّينِ الطَّافيةُ، على بحرٍ من التّشتّت، ودفنت عميقاً، الرُّعبَ النَّامي، باطرادٍ، لم أنتظر طويلاً، أمامَ درج العيادة؛ فالرَّفيقات سرعانَ ما تدفَّقنَ، بخفَّةٍ، كسنونواتٍ، تعانقنا، تعاتبنا، ودخلنا معاً، خلَعنا على البابِ تجهّمنا، وهمومنا، وسخام الحياة، استسلمنا بحميميّةٍ، للترّهات الموصولةِ بالمسرّة، أحكمنا إغلاق البابِ بالمزلاج، وخلقنا العالم من جديدٍ، إذ تحوَّلَ المكان، في غمضةِ عينٍ، إلى بقعةٍ نافرةٍ، على كوكبٍ آخرَ، لقدْ قُمنَ بما يفعلْنَه، أينما حلَلنَ، حوَّلنَ المكان إلى منصَّةٍ، لكرنفالاتٍ نسويّةٍ صغيرةٍ، صخبٌ، دندناتٌ، اعترافات، انتحابات، ضحكاتٌ رنّانةٌ، أغانٍ إيقاعيّةٌ، وأُخرى حزينة، بيتزا، فطائر زعتر، قشورُ لبٍّ، وبقايا مكسَّراتٍ، حقائبُ يدٍ، نصفُ مفتوحةٍ، نقاطٌ متراميةٌ، على الأرضِ، من طلاءِ الأظفار، فناجينُ بطعمِ أحمرِ الشّفاهِ، أحاديثُ متداخلةٌ، وأُخرى متقاطعة، الكثيرُ من الشكوى والغضب، الكثيرُ منَ التّعاطفُ والتّضامنِ، ثمالةٌ أُنثويَّةٌ؛

اجتاحت الهواء، لم تستطع القذائفُ، ولا الدُّخان المتصاعد، من بعيدٍ، منعها من الانتشار، هتفَت هنادة؛ وهي تصَوِّبُ عدسة الجوَّالِ نحونا:

«ابتسمنَ للكاميرا... أيتها النُّسوةُ الرَّائعات»

ثمَّ **«تك»** التقِطّت الصُّورة، جلَسَت ترمقها بحنوٍّ؛ وقد تدفَّقَ صوتها الرّقيقُ مجدَّداً:

«أنا أحلاكم مع أنّني لست بينكنّ!، إنّنا أشبه بالبكتريا المتوهّجة، لا نلمعُ إلّا بوجودِ الرَّفيقات حولنا»

تعالَت الضَّحكات، والتّعليقات السَّاخرة، ولم تكد تخمد، حتّى لفتتني، نهنهةُ جمانة، كانت مُمَدَّدةً على الأريكة قربنا، وقد اغتمَّت من دون سببٍ، سمعتها؛ وهي ترفعُ يديها بوَهَنٍ لأعلى:

«الوقت يمرُّ، يمرّرر، أريدُ طفلاً يا الله، أنجدني»

قُطِعَ التيّارُ الكهربائيُّ، بالتزامنِ مع تنهيدتها الأخيرة؛ فأمست زفراتها أكثرَ وضوحاً، وكذلكَ القشعريرة الثلجيّةُ؛ التي انتابتها، لم يبد على فكاهتها الطّرافة، انسابت فيَّ رجرجةُ أناملِها السَّمكات، انقبضت، شَغَّلت الإضاءة البديلة؛ فيما قهقهت هنادة ورائي؛ تلكَ العاكفةُ على توزيعِ قطع المعمول، صاحت، لتطغى على الموسيقا:

«طيّب كيفَ يرسله لكِ، وأنت ترفضينَ الزّواج؟، بالبريد مثلاً؟!، أم بتفعيلِ ملكةِ الانشطار؟!»

غضَّنَت جمانة عينيها، على نحوٍ استفهاميٍّ، وكرّرَتٍ بنبرةٍ تهكُّميَّةٍ:

- بالبريد أم بالانشطار، وتضحكين!!، تصبحُ المرأة زوجةً، بعدَ اقترانها برجلٍ؛ لكنَّها أُمٌّ منذُ ولادتها يا فهيمة، الزّواج لإنجابِ طفلٍ وحسب، من أحطِّ ما يُقدم عليهِ البشر

- لكنّه دأبُ الكائنات الحيّة يا عزيزتي، ومنذُ بدءِ الخليقة... «التّناسل»

- حفظُ الجينات ونقلها، غريزةُ بقاءٍ فحسب، الأمومة شأنٌ مختلفٌ، ليست محضَ فطرةٍ، إنّها اكتمالٌ أُنثويٌّ، سعادةٌ ضامرةٌ تنمو بالعطاء.

ارتعدت من وقعِ الكلمة **«الأمومة»**، كانت أشبهَ بصخرةٍ؛ تهوي في منطقتي المحرّمة، أو بكفٍّ ثقيلةٍ، تجسُّ جثّةً، متعفّنةً في داخلي، وعلى الرّغمِ من كونِ عينيّ أشبه بشاشةٍ رقميّةٍ، تظهرانِ عادةً، وزنَ الكلمات، وشدّة العواطف؛ فإنّي حافظت على حياديّتي، إذ لم تلحظ أيّاً منهنَّ أصابعي؛ وهي تدعكُ منديلاً، في جيبِ المعطف، خطفتني الكلمةُ، إلى بعدٍ آخر، انحسرت إلى حافَةِ روحي، فيما استمرَّ نقاشهنَّ حامياً:

- اعذريني جمانة؛ فالأمومةُ لدى الحيوانات أيضاً، تحتمل معاني سامية، لكن انتفاء العقل؛ الذي يُسبغُ عليها مزيجاً من الجدوى والشّاعريّة، يُبقيها في إطار الغريزة، والغرائز من شأنها أنْ تدفعنا إلى التماس الإشباع، بالقوّة، العقل؛ هو مقاومتها الوجوديّة الوحيدة، وبالمناسبة؛ التّكاثر ليسَ معيباً، وإنّما وسيلةٌ لاستمرارِ الحياةِ، في الكونِ كلّه، نظَّمَت المادّة نفسها، على هيئةِ بُنَى، بدءاً من الأجزاءِ؛ التي تكوِّنُ الذّرّات، وليسَ انتهاءً بالمجرّات، التي تشكَّل في الفضاءِ عناقيد مجريّةً عملاقةً، ماذا تريدينَ بالضَّبط؟**!**، دعينا نفهم طفلٌ أم حبيب؟**!**

- لا أعلم إنْ كنت أهِنت التّوّة، أو أنّكِ تفلسفينَ كلَّ حديثٍ كعادتك**!**، لا أعلمُ أيضاً لماذا يبدو لي حصولي على الاثنينِ، في هذا العالم المضطرب، حلماً صعبَ المنال**!!**.

- لأنّهما مرتبطان أوّلاً، ولأنّكِ لم تنضجيُ بما يكفي، لتعي أنَّ الخيارات المفصَّلة تفصيلاً جاهزاً، على قياسِ أمنياتنا، مجرَّدُ ترّهاتٍ.

تدخَّلّت راوية؛ لفضِّ الجدلِ، هتفت؛ وهي تقلِّبُ كرة النِّيكلِ، في يدها:

- يا جماعة، الأمرُ أكبرُ من حدودِ الغريزةِ والاحتياجات، إنّه لا يتعلَّقُ بنضجِ الأفرادِ، بقدرِ ما يتعلّق بنضجِ المجتمعات، وإلّا بماذا تفسّرنَ عماءَ

الرّجال عن امرأةٍ في غايةِ الجمالِ كجمانة، خلوقةٍ وذكيّةٍ وصحفيّةٍ ذات اسمٍ لامعٍ؟! أعتقدُ أنَّ طبيبتنا قد تمتلكُ إجابةً، ماويّة ما رأيكِ؟

سَلَّطَت عينيها، وكأنْ على داخلي مباشرةً؛ فأجفَلَت أفكاري السَّاهيات، جمَّعْت نظراتي المبعثرة في الفراغِ، احتبست شهقةً حرَّى، والتفت إليها، ركّبت السُّؤالَ، ممّا علقَ بأُذنيَّ، من مفرداتها، وأجبت في جدّيّةٍ:

- نعم أعتقد أنّها القوّة، ما جمعنا نحنُ الأربعة، نحنُ نساءٌ؛ مستقلّاتٌ، ذوات أهدافٍ ورؤىً، والشّراكةُ في مجتمعنا أزمةٌ حقيقيّةٌ، إذا استثنينا قطّاعَ الأعمال؛ فالرّجل الذي نشأ على اعتبارهِ القائد، يبحثُ في قرارتهِ دوماً، عن شريكٍ ضعيفٍ، تجنُّباً لأيِّ خسارةٍ محتملةٍ، ونتيجة تنشئتهِ تلك، نجده معرّضاً، على الدّوام، لضغطٍ مزدوجٍ، ناجمٍ عن تصوّرهِ عن نفسهِ، وتصوّر المحيطين عنه، أعتقد أنّه الأضعف في سلسلةِ القوى، على الرّغمِ من هالةِ الجبروت المحيطةِ بهِ؛ فالرَّجل الحريصُ، عموماً، على احتكار القوّة، في حالةِ تبعيّةٍ، وخضوعٍ، دائمَيْن، لرئيسِ عملٍ، لمؤسَّسةٍ، لصورةٍ مسبقةٍ، لإنجازاتٍ مفروضةٍ، لأنظمةٍ وقيودٍ، غير نهائيّةٍ.

- لا أحسبُ أنّنا قويّات حقّاً؛ فالعقليّةُ التبعيّة، لا تفتأ تصَنِّفنا، بحسبِ موقعِ الرَّجل من حياتنا، فأنا الأرملة وأنت المتزوّجة، هنادة المطلّقة وجمانة العانس، مهلاً!، يا للهول!، هل انتبهتنَّ لهذهِ التوليفة من قبل؟!، ربّاه... ما هذا الاكتشاف!!.

لَوَت هنادة شفتيها، تجرَّعَت ما بقي من قهوةٍ، في فنجانها، وغمغمت:

- أنا انتبهت إلى الحقيقةِ الصَّادمةِ، انتبهت أيضاً، كيفَ تحملينَ اسطوانة الغازِ إلى الطّابقِ الخامسِ، عاملةُ كهرباءٍ، وصيانةٍ، وطلاءٍ، وتمديداتٍ صحيّةٍ، «عتّالةٌ»، ومربّيةُ أطفالٍ، وربّةُ منزلٍ، ومهندسة، ومدرّبة باليه أيضاً، انتبهت إلى كون ماويّة؛ أفضل طبيبة نفسيّة في البلد، وجمانة؛ رغمَ كلِّ الضُّغوطات،

مازالت تحصدُ الجوائز، وتدهشنا بمقالاتها المتفرّدة، انتبهت إلى كوني على وشكِ إنهاءِ الدّكتوراه في الفيزياء، وأنا المطلّقة التي لم يتوانَ زوجها، عن ركلها، وكسرِ ذراعها، أمامَ أطفالها، قبلَ أنْ يهربَ بهم إلى أوروبّا، أفهم يا عزيزتي؛ أنّنا قويّاتٌ، بالحدِّ الكافي لنكونَ هنا الآن، نبكي، ونضحك، فيما القذائفُ؛ ترجُّ عظامنا من الدَّاخل... رجّاً.

أخذَت أحاديثهنَّ منحىً مأساويّاً، خيَّمَ عليها كَمَدٌ مُطبقٌ، خفتت الضَّوضاء، رحنَ يفضينَ بعضهنَّ إلى بعضٍ، بشراهةِ المتعطِّشات إلى الإفصاحِ، يحكينَ ما حدثَ في مناماتهنَّ، يقرأنَ الغيبَ، في فناجيهنَّ المقلوبة، وكأنّهن جارات عمّتي، فنحنُ النساء - المتذبذبات، المتقلِّبات، المرهقات بالتفاصيل - أميل إلى الاعتقاد؛ بأنَّ المآسي الشَّخصيّة، تصبحُ مآسي عامّةٍ، بالحديثِ عنها، وبأنَّ المشاكلَ تزدادُ خفَّةً، كلَّما كثرَت الرؤوس التي تحملها، أبحرنَ في القلاقلِ، من دوني، أمّا أنا - المحتقنة الصَّامدة السَّاكتة على وجعي - فقد كنت أُراقبهنَّ؛ وهنَّ يشربنَ صمتي، ويأكلنَ من دقائق السّاعة.

دمدمَ؛ وهو يسبرني بنظرةٍ من شررٍ:

«أحسنت!، أصغي لهنَّ، وتجاهليني»

اضطربت، طاشَت حواسّي، لكنَّ طيفه السَّموق، لم يُسعفني على تحاشيهِ، كانَ جالساً بيننا بزهوٍ، يلفُّ ساقاً على الأُخرى، ويطوّحُ بأنفاسهِ، تماسكي المُضحك، سارعت أهشُّ طيفه، بإغماضةٍ، لكيلا أتشتت، لكنَّ حضوره ظلَّ طاغياً، خاطبته، بشفتينِ مضمومتينِ؛ فلمْ يستجب، هدّدْته ولم ينسحب، غمغمَ؛ وهو يتلاشى كقوسِ قزحٍ:

«أُغادرُ، ولكن... بمشيئتي!»

تنفَّست الصّعداء بمشقَّةٍ، التفت نحوهنَّ، لألتحقَ بركبِ الثرثرةِ الخافتةِ، فإذا بهنَّ صامتاتٍ، واجماتٍ، يُحدِّقنَ إليَّ، سألَت جمانة مذهولةً:

- لمنْ قلت «قليل الحياء»!؟

- أنا؟!

- نعم

- لم أقل!

تبادلنَ النَّظرات من حولي، ذُبت أمامهنَّ، بكلّيّتي، كجبلٍ جليديٍّ، كتمنَ سخريةً، مشوبةً بالفزع؛ فأدركت أنّي حقّاً فعلت، انقطعَ الخيطُ؛ الذي يربطني باليقين، وخرجَ صوتي من مكمنهِ، خائباً ومتقطِّعاً:

- يبدو أنَّني وثقت بخفّتي، أكثر من اللّازم

- ماذا تقصدين؟

- لا شيء، كأنّي أهذي صح!

- أنت على ما يرام؟!

- يعني لا يحقُّ لي مداعبتكنَّ قليلاً؟!، أمزحُ فعلاً

- ....

- فعلاً!!

تداعيت كالسُّفنِ الغارقة، وتعالى الدّخانُ من نظرتي، فاضحاً هولَ الحريق، وددت لو أطردهنَّ كيما أصفو إلى نفسي، وددت لو أعضُّ كفِّي، لو أصرخ، لو أفتح الباب وأهرب، لكنّني استعضت عن أمنياتي، بسكبِ الشّاي، ولسانُ حالي يزنُّ:

«اشربنَ واسكتنَ، ليمضي وقتنا على خيرٍ»

وأظنُّ أنَّ التوتّرَ؛ قد سرى في وجهي، كالطَّفحِ، أدركت ذلكَ، من عيونهنَّ؛ التي لاحقتني، وسحقت، بلا رحمةٍ، كلَّ التّسويغات، التي حاكها عقلي، وبلا مقدِّماتٍ، هدر صوته من جمجمتي:

«لا عليكِ!، عيونُ الآخرين مرايا محدّبة، لا تريكِ إلّا تشوّهَ نفسك، إنّهم يطمئنّونَ، حينما يعثرون، على من هم أتعس منهم، ولو أنكروا ذلك ظاهريّاً»

لم يكن الوقت مناسباً، للإصغاءِ إلى فلسفاتهِ، ولا قوّتي كافيةً لتجاهلها؛ لذلكَ فقدْ شرعت أتمزَّق على مرأىً منهنَّ، ثمَّ أتماسك، ثمَّ أتمزَّق من جديدٍ.

كنت التقيت جمانة، في خضمِّ بحثها عن خبرٍ، يهزُّ الدّنيا، وعن عريسٍ «جنتل»، قبلَ أعوامٍ، في مهرجانٍ لذوي الاحتياجات الخاصّةِ، لا أذكرُ نشأة صداقتنا بالضَّبط، وأحسبُ أنَّني نمت وصحوت؛ فوجدتها ظلِّي، عالجتها مرّةً؛ فوهبتني صداقتها، ومن وقتها لم تتغيّر، بشعرِها المتناثرِ على كتفيها، نهرينِ من الخواتمِ الذّهبيّةِ، بالماسكرا الباهظة، التي تحوّل أهدابها إلى سيوفٍ، فاحمةٍ ولامعة، برشاقتها، بأناقتها، بأظفارها المبرودة بعنايةٍ، وطولها البالغ ١٧٦ سم، وحدها؛ كانت تحاصرني، بابتسامةٍ غامضةٍ، في كلِّ حينٍ، ثمَّ تخوضُ، كدأبها، في نهرٍ من الأسئلة:

«لست معنا يا ماويّة، هي يا بنت أينَ أنت؟»

«لا تبدينَ على ما يرام، هل صدقَ حدسي؟»

«لماذا وجهكِ أصفر؟»

«هل هنالكَ ما يشغلك؟»

لم تتوانَ، حتّى في ذروةِ ابتهاجي، عن سبري، بأسئلتها، لتخرجَ منّي، ولو حبّة كآبةٍ واحدةً، بدا لي ذلكَ؛ نوعاً من الحزنِ المبطّن، من الحسرةِ السّرّيّة، وتملّك الشّعور الإنساني، المستتر، بالاسترخاء إزاءَ مآسي الآخرين، لم أكن لأهتمّ في حينها، تفهَّمت كيفَ يصيرُ الكلامُ؛ تعبيراً قاسياً عن القهر، كان يكفيني منها، طريقتها في روايةِ الأخبارِ المسلّية، والقصصِ الطّريفة، وقدرتها الفظيعة، على التحولِ إلى مذياع، يبثُّ آخرَ ما توصَّلت إليه، صرعات الموضة، وفنونُ المكياجِ، وقصَّات الشَّعرِ، إلَّا أنّني شرعت مؤخَّراً في تحاشيها، صرت أخاف أنْ تكشفني، حينَ تسأل، بعينينِ تقدحانِ فضولاً: **«ما بك؟»** فأنفرطَ أمامها بكلّيّتي حبَّةً حبَّةً.

هذهِ المرّة لم أصمد، استجوبتني من دون أن ترمش:

«ما القصّة يا ماويّة؟!، يبدو أنّكِ تخْفينَ الكثير؟!»

شلَّتني نظرتها الثَّاقبة، غرسَت دبابيسها في أجنحةِ مُداراتي؛ فاستكنت إزاءها، فراشةً محنَّطةً، وبعد أن قاومت، مطوّلاً، الالتجاءَ إلى أعينهنَّ، وأشداقهنَّ الفاغرة، تملَّكتني رغبةٌ جارفةٌ في الانهيار، أفضيت لهنَّ، بكلّ شيءٍ، فردت هواجسي، أمامهنَّ على الطَّاولة، حكيت لهنَّ عنْ محنتي، وصفت لهنَّ تفتتي، أفشيت غلّي، كمنْ يزيحَ حملاً عن ظهرهِ، وفي رقَّةِ عينٍ تحوّلت، من الرَّفيقةِ السَّندِ؛ التي لا تكل، إلى مشعوذةٍ تستجدي تصديقها، ولم أكد أنتهي، حتّى انتفضنَ كالملدوغات، تألّبنَ على مواساتي، رمقنني بأسىً، تصفَّحنَ وجهي، نخَرَتني دهشتهنَّ، استنكرنَ، أحطنني، لاطفنني، أمطرنني تصبيراتٍ ودودةً، زفَرَت راوية، ما تيسَّرَ لها، من كلماتٍ:

«يا إلهي!، وكيفَ لم تموتي اختناقاً؟!، أنت أكثر من يعلمُ، أنَّ الكتمان يعذّبُ النَّفس»

ربّتت على ظهري، تحسَّسَت جبيني، ثمَّ شَهَقَت بشيءٍ من الارتياب:

«لكن شبح!، ماويّة الطّبيبة تقول هذا!، لا أُصدّق، ألم تفكّري يا صديقتي، باستشارةِ طبيبٍ مثلكِ، طوال هذا الوقت؟»

لم تمهلني هنادة حتّى أُجيب، أو إنَّ إجابتي بدت «إكسسواراً» زائداً لا قيمة له، همهمت:

«لا تلقي له بالاً، أنت حسَّاسةٌ كروحِ وردةٍ، وبعضُ المنامات، لفرطِ جمالها، نتمسَّكُ بها، ونأخذُ بيدها لتنقلبَ إلى حقيقة، إنَّها مرحلةٌ وتمرُّ»

خيّمَ صمتٌ قصيرٌ، اعتدلَت جمانة بعده، وهي تطهو تساؤلاتها، في مكانٍ ما من رأسها، همهمت، لكأنَّ اعترافاتي لم تنطبق على أوهامها:

«لا أعتقدُ أنَّ طيفكِ، صنيع الخيالِ، وحده»

وضعت ساقاً على ساقٍ بتفكُّرٍ، وارتدَت وجهاً آخرَ، فإذا بها غير المقهورة؛ التي كانتها، منذُ برهةٍ، لفَّت خصلة شعرٍ، على إصبعها، وأردَفَت بشفتينِ مكتنزتينِ:

«اتركيه»

توجَّهت أنظارنا إليها، فتابَعَت:

«بلى زوجكِ، فظٌّ بما يكفي لسحقكِ، لا تزعلي منّي، أنت امرأةٌ متناقضةٌ، بشخصيَّتين، إحداهنَّ مثاليةٌ قويّةٌ، نقرأ عنها في الصّحف، ونتعلّم منها في الكتب، والثّانية هشّةٌ، واهيةٌ، سريعةُ البكاء، نلمحها في الشّارع، في السّوق، وفي بيتها كلّما زرناها، زوجكِ تحديداً؛ يعمِّقُ الانشقاق بينَ الشَّخصيَّتينِ، ويبذره بالخيالات الفضفاضة، في الحقيقة فِعْله مِن سِيمائِهِ»

واريت الجرحَ؛ الذي تركته كلماتها، ببعضِ ابتسامةٍ، وفركت يديَّ إحداهما بالأُخرى، خطرَ لي أنَّ الإنسان، ليسَ المخلوقَ الوحيد؛ الذي يرفض أن يكون على حقيقته، كما يحسب ألبير كامو، وإنّما الوحيدُ أيضاً؛ المهتمّ بنفضِ الآخرين، والحفرِ في حقائقهم، بحثاً عن جوهرٍ مشبوهٍ، الوحيدُ المتلذِّذ، بإثبات تفوّقهِ، حتّى على أحبّائهِ، انتبهت هنادة، إلى تبدُّلِ لوني؛ فعضَّت على شفتها، بإيماءةٍ فتّاكةٍ، لإسكاتها، نهضَت من مكانها، وشعرُها الأسود القصير، يبرقُ تحت الضَّوءِ العلويّ، انحشرت بمرونةٍ، معي في الكرسيِّ اللَّدنِ، احتضنتني، وهمسَت:

«هذه المجنونة تنتحلكُ، فظّةٌ، ثقيلةٌ، ولا تفكّرُ مطلقاً في كلماتها، كما تعلمين، تقصدُ جمانة أنَّ الرّجلَ، عموماً، مسؤولٌ عن مشاعر زوجتهِ، ومن لنا غير الرّجال، يا أختاه، لنلقي عليهم التهم!»

أكملت راوية رتق الهفوةِ؛ وهي تفتحُ النَّافذة، وكأن لتطردَ الجوَّ المشحون:

«وعن هيئتها، وأفكارها، وصحّتها أيضاً، لكن ما الذي ترجونه، من امرأةٍ وحيدةٍ، في مجتمع ذكريّ، قوامه التشابكات الاجتماعيّة والمظاهر، حيثُ يمسي الزّواج وبناء أسرةٍ محوراً أساسيّاً، وكل ما ينأى عن ذلكَ، محضُ شذوذٍ ونقصٍ،

شيءٌ من دوافعِ القبيلةِ، ما زال يحكمُ طبيعة العلاقات، مهما بدت أكثَرَ تحضُّراً؛ فالمثل الذي يفضِّل ظلَّ الرَّجلِ، على ظلِّ الحائطِ، لم ينبع من فراغٍ»

فكَّت حجابها التّرابيُّ اللّون، فانداحَ شعرُها الجُفَال، وجعلت تضحكُ بحرقةٍ، تواثَبَت إلى ذهني صورتها، في ذلكَ الصَّيف البعيد، كانت الحافلةُ؛ عائدةً بي من الجبل، ولم تكنْ لديَّ أدنى رغبةٍ، في الحديثِ، لولا أنّي اضطررت إلى أن أُجيبَ عن سؤالِ السّيدةِ، حينَ جلست إلى جواري:

- التّاسعة وثماني دقائق أم أنّ ساعة جوّالي خاطئةٌ؟

- نعم التّاسعة... وثماني دقائق

كانت نظرتها أشبه برصاصةِ «Exacto»؛ التي لا تخطئ هدفها مطلقاً، خلعت صندلها، وحرَّكَت أصابعَ قدمها، بدا الأمرُ غريباً، لصدورهِ عن امرأةٍ أنيقةٍ، ومحجَّبةٍ، لاحظَت تركيزي، في الخطوط الحمراء، المتقاطعةِ، على بشرةِ رجلها، البيضاء، الفارَّة من الرّداءِ الطَّويل، غَمْغَمَت:

«أنا مهندسةٌ معماريّة»

حدجتها بنظرةٍ بلهاء؛ فمهنتها لا تسوّل لها خلعَ الصّندل، ثمَّ أشحت بنظري لئلّا أُحرجها؛ فاستدركَت؛ وهي تدخل قدمها، ببطءٍ متعمّدٍ:

«وهذا ضيّقٌ بعض الشّيء»

أرجحت قدمها قليلاً لتوضّحَ لي، ثمَّ تابعت:

«أنا مدرّبةُ رقصٍ أيضاً»

تجهَّمت ولم أُعقِّب، أخرجت كتاباً متوسّطاً، من الجيبِ الخارجيّ للحقيبة، وتظاهرت بالقراءة، لكنّها لم تعر الأمرَ اهتماماً، تابعت بجدّيةٍ:

«قد يبدو لكِ غريباً أنَّ ٦٠% من المحتجزين بتهمةِ الإرهاب في العالم، هم من المهندسين، وفقَ دراسةٍ حديثةٍ»

حرّكت رأسي بالموافقة:

«أممممم»

واريت خشيتي، وحدّقت إلى ساعةِ الجوّالِ، مبديةً لا مبالاتي، غيرَ أنَّ حواسّي أحاطتها بريبةٍ؛ فالخوف من أمرٍ يدفعه إلى المركز حتماً، وهذا ما تقصَّدَته راوية لنيلِ اهتمامي، شعرت لحظتها بأنَّ المتاجرة بالخوف، ولو معنويّاً، قد باتت من أُسُسِ الصَّفقات الرّابحةِ، ولم يخطرْ لي حينها أنَّ حديثاً غرائبيّاً، وغيرَ مترابطٍ، سيفضي بنا إلى صداقةٍ حميميّةٍ.

لم يُمهلنني، كيما ألتقطُ أنفاسي، وأظنُّهنَّ قد لاحظنَ، النَّدمَ السَّريع، يتكلَّسُ في عروقي، تصنَّمت كالمومياءِ، بينهنَّ، سبعَ دقائقَ، من بعدها ابتعدت عن منجنيقات أفواههنَّ، تركت نقاشاتهنَّ، وتحليلاتهنَّ، وعظاتهنَّ، تسلَّلت إلى النّافذة، عابَثَت أصابعي شرائطَ الستارة، البلاستيكيّة؛ وكأنّها تعبثُ بالسّماء الزرقاء، في الخارج؛ فيما تردّدَ داخلي صوتٌ مدوٍّ:

«أيَّةُ ورطةٍ أوقعت نفسكِ فيها!»

ماكيت الحياة

في المنزلِ؛ ارتديت مئزرَ المطبخ، دعكت عجينة البيتزا، ففرقعَ البؤسُ، تحت قبضتيَّ، برشت الجبنة وخيبتي، وصارَ قلبي؛ خلفَ السِّكّينِ، حلقات البصل، تناهى إليَّ رنين جرسِ الباب، حدست في أنّه زياد، كانَ يجبُ أنْ يأتي، بعدَ بكائي على الهاتف، كانَ يجبُ للّحظةِ الذَّهبيّةِ، أن تشعَّ من يديهِ، كيما تعيد لي توازني، فتحت الباب؛ فإذا بهنادة، قد تبعتني، هَدَلَت، بنبرةٍ رقيقةٍ:

- تذكرين، وقت دعوتك للنقاش في مخطوطات ألف ليلة وليلة؟!

- آه صحيح، أعتذر لأنّي وقتـ....

- ليس مهمّاً، كنت أحسبُ أنَّ ألف ليلة وليلة، هي «ماكيت» للحياة

- حكاية تفضي إلى حكاية

- بالضّبط!، وحينذاك، قصدتك بصفتك قارئةً، لنتباحث فيما شهده شاه زمان، من خيانة مئة امرأةٍ مع مئة عبدٍ، وفي العذراء التي خانت الجنيّ؛ وهي محبوسةٌ داخل سبعة صناديق، في ذكاء ورقّة شهرزاد، وأمومتها العظيمة الفطرية، في انتقام شهريار، في خوفه، وضعفه، وانهزامه أمام تلك القوّة المخيفة «المرأة»، أمّا الآن فكلّ ما أريده؛ هو تذكيرك، بأنّ المقروء - أيّ مقروءٍ - ليس محضَ خيالاتٍ، جامحةٍ، مجّانيّةٍ، تلك القصص لم تكن للمؤانسة وحسب، إنها ترميزاتٌ خرافيّةٌ، لتشريح الحقيقة، الواقع لا يكتمل، من دون ذلك الجانب، هنالك أنوارٌ عظيمةٌ، يسلّطها الخفيّ على الظّاهر، المحسوس يخصّب الملموس، كيما يحدث ذلك التناغم في الحياة، وهذه الطّرق الرّوحيّة، التي وقع عليها، مؤلّفو ألف ليلة وليلة؛

فقادتهم نحو فتنة الشّرق، وحوّلت حكاياتهم الشّعبيّة، غير المنتهية، إلى مجدٍ إنسانيٍّ، قد يجدها بعضنا في داخله؛ فتقوده إلى ذاته، إنها أشبه بمتوالية من الانكشافات.

- تتكلّمين بطريقة غريبة!! لكن جميلة، الأشياء عموماً، لا تخلو من الدّلالات.

- ولا من الدّروب والطّرق!

- ما الذي تريدين إيصاله من هذه المقدّمة؟!

- أتعلمين!!، الشخصيّات الحكائيّة؛ أرواحٌ أيضاً، يخلقها الرّاوي للاستنارة، المشتغلون بالخيال، يخرجون الكنوز، المنطمرة في العاديّ واليوميّ، أنتم بصفتكم أطبّاء، تسمّون جموح الخيال مرضاً، لكن هل هو كذلك فعلاً؟!، أحسب أنّه لابدّ من وجود دليلٍ خاصٍّ، قُدس، لكلٍّ واحدٍ فينا، نراه أو لا نراه، نعترف أو لا نعترف... تلك مسألةٌ أخرى

- تهوّنين عليّ مرئيّاتي الشّبحيّة؟!

- لا، من قال إنَّ البشر من فولاذٍ، لا يضعف ولا يلين؟!، وما الذي يمكن أن يُقال، أصلاً، لطبيبةٍ نفسيّةٍ؟!

- لا بأس، الأمر تافه، ومجيئك غالٍ جدّاً!

- لا أريد أن أنظّر أكثر، تفلسفت بما فيه الكفاية، لكن ما من شيءٍ حولنا مؤكّدٌ، ما يحسمُ وجود الأشياء والمخلوقات والقوى؛ هو وقعها فينا، ألست من تحدّثت طويلاً عن **«الوهج الدّافئ»!!**، الحقيقيُّ الوحيدُ هو الدّفء، الذي بثَّه فيكِ، أفترض أنَّكِ سعيدةٌ به، ما يقلقكِ فحسب، كنهه، ومردُّ ظهورهِ، يبدو لي أنّه النّتيجة، أمّا السَّبَب فستجدينه في المحيطِ الواسعِ، حوله... وحولكِ، الأسبابُ لا توجدُ غالباً، حيثما يُسلَّطُ الضَّوء.

توقّفَت فجأةً، والتقطت أنفاسها، كمثل العدّائين، عند خطّ النهاية، نشّفت جبهتها بذرا أناملها، كنت لا أزال أتملّاها، بانشداهٍ، لم أقو، لحظتئذٍ، على التّفوه بحرفٍ، ولم أقدر في المقابل... **على احتضانها.**

اختفاء الرّقيم

كآبةٌ جمعيّةٌ؛ كانت تلفُّ البلاد، الشّعب الطّيبُ البسّام؛ لم يعد يعرف كيف يضحك، كنت أميّزُ هذا في كلِّ مكانٍ، وفي كلِّ وقتٍ، بكاميرا الجوّال، الفائقة الدّقة، طفقت أوثّقُ كلَّ شيءٍ؛ لكأنّني بتصوير الأمكنة والشّخوص، أعيدُ خلقهم، وأمنح نفسي فرصة فردهم، تحت عدسةٍ، مجهريّةٍ، سريّةٍ، وسرعان ما استحالت عدسة الكاميرا إلى مطبٍّ صناعيٍّ، يمكّنني من الحذر والتّفكّر، قبل كلِّ سقطةٍ أو التفافٍ أو تغيير مسارٍ، وهكذا جعلت أترجمُ العواصف الهوجاء، في دخيلتي، إلى صورٍ وأفلامٍ، شيءٌ واحدٌ؛ ظلَّ حرّاً، وعصيّاً على زنزانة التّصنيف والتّحوير؛ لقد كان ذلك الصّوت في رأسي، الأشبه باصطفاقِ بابٍ، متروكٍ للرّيح العاتية، والأقرب لموسيقا جوّانيّة، ناظمةٍ لفوضاي، أو لسيفٍ طاقيٍّ، يجابه لحظات السّقوط، والعجز، والسّهو، والانطفاء، هذا الذي أسميته طيفاً، كان عبارةً عن ذاكرةٍ ثانيةٍ، وقلبٍ ثانٍ، وروحٍ وهّاجةٍ ثانيّةٍ، كنت أرجع إلى صور النّاس كلّما ضاقت بي، أضغط «**Zoom**»، وأتفرّج**!**، أُكبّرُ وجوههم، وأعينهم، أبحث عن تلك البطانة، التّحتيّة، الثّانية، من الأرواح الحيّة، تلك المستترة، في حالةِ كمونٍ، خلفَ حالات الموات التي تجلّلهم، وما أكثر ما اكتشفت أنَّ هنالك، حياة داخل حياة، داخل حياة، داخل حياة.

آنذاك؛ اعتادت ريتّا أن ترسل لي أفلاماً قصيرةً، لمطاعمَ، وأسواق سوريّةٍ، تكتسح العالم، زراعات بلديّة، واختراعات تكنولوجيّة، ومأكولات شعبيّة، وصناعات تقليديّة، كانت تحاول أن تخبرني، بأنّ المهاجرين يركّبون «**سورية صغيرة**» في كلِّ مكانٍ، كتبت، مرّةً، على سبيل الفكاهة:

«يقطّرونها كالعطر، إنّهم يحتلّون العالم، يعيدون تدويره، ويحولونه إلى سورية»

كتبت لي، عن إنجازاتهم؛ التي لا يصدّقها عقل، لكنّها لم تتطرّق، مرّةً، إلى سعاداتهم؛ فهي لا تعلم أنّنا تعساء بالفطرة، ولربّما أبصرت، خلف ذلك كلّه موتاً داخل موت، داخل موت، داخل موت، ذلك التّعقيدُ الباطنيُّ، يستعصي على الشّرح، أو الإحاطة، لم تكفّ تلك الأفلام الجميلة، عن التدفّق في كياني، ومجابهة أفلامي، كلّما مررت بحديقةٍ يابسةٍ، أو معملٍ مغلقٍ، أو مطعمٍ خالٍ إلّا من المشرّدين على بابه، لم تنس ريتا متابعة حالتي، حرصت على أن تواكب أيّ طارئ على الأعراض، وواظبت على تقديم، المزيد من الإرشادات، أرسلت لي جهاز كيرليان photography «Kirlian» لرصد الهالات الضّوئيّة؛ الذي يلتقط المجال الكهرومغناطيسيّ، استلمته بتلهّفٍ، مع يقيني بزيف نتائجه، لم أطق صبراً لتجريبه، ولم أكد أوجّهه نحو الشّبح، لحظة ظهوره، حتّى تبدّى حقلٌ طاقيٌّ أحمر، مولّداً انطباعاً عن أثرٍ حيٍّ، كنت على قناعةٍ بأنَّ هذا الجسم الأثيريّ الأحمر؛ إنّما هو حصيلة تداخلات؛ من الضّغط والرّطوبة والحرارة، بيد أنّي لم أسأم من تأمّل تلك الحمرة الدّافئة، ولم يطل الوقت؛ حتّى طلبت ريتا منّي، وصفاً دقيقاً، لملامح شبحي، حتّى إذا ما فعلت، أصابها ذهولٌ، لم أتبيّن سببه، وفي خضمّ كلّ ذلك، لم تنس طلب المزيد من الصّور، لم يكبحها مصابي، ولا اختلالات مشاعري، كنت أستغرب تحفّزها، وأعتذر في سآمةٍ، بيد أنّها لم تكلّ أو تملّ، وأمام اندفاعها، واهتمامها المفرط بي، تعاظم خجلي، وامتناني؛ فاستأنفت كفاحي معها.

وفي يومٍ؛ نسي زياد ذكرى زواجنا، كعادته مع الأرقام والتواريخ، وعلى نحوٍ باهتٍ، وصلتني منه رسالةٌ خاليةٌ إلّا من رابطٍ، تريّثت، لم أفتحها، خلتها معايدةً جاهزةً، تلك الأشبه باللحوم المجمّدة، التي تخرجُ عند الطّلب، نيّئةً ومليئةً بالدّم، لكن لم يمض وقتٌ طويلٌ، حتّى امتدّت سبّابتي، وفتحتها، قادني الرّابطُ إلى خبرٍ موجعٍ، أخذ الدّوار برأسي، لقد كانت صوراً للسّطو، على منزلٍ أثريٍّ، في حارة اليهود، وفي الخبرِ؛ أنباءٌ عن هدم عمودٍ، وسط الدّار، وانتزاع حجرٍ منه، ويبدو أنَّ اللّصوص لم يوفّروا كلّ الآثار المخفيّة، تلك التي سبق، والتقطت لها صوراً، تماماً كما لو كنت قد رسمت لهم خريطةً

دلاليّةً ترشدهم، سمعت فرقعةً في داخلي، تشبه اصطكاكَ طرفي الفخِّ، أحدهما بالآخر، عندما هاتفت ريتا، كانت الزلازل تتماوج تحت جلدي، لم تقنعني أجوبتها، ولا شكرها لي؛ لأنّي قد أساهم في استعادةِ المسروقات، بوساطة تلك الصّور، ولكوني أنقذت ذاكرة الحيّ، ولا ضحكتها بعد أن علّقت:

«عادي، يحدث كثيراً في الحرب، وهذا ما دفعنا لالتقاط الصّور»

رميت الهاتفَ الجوالَ، بغلٍّ، على الحائطِ؛ فتشظّى، لم تعلم ضحكتها، كيفَ أجَّجَت الخذلان والهزيمة في دمي، كم كانت رهيبةً في تلكَ اللّحظةِ... خيبتي!.

شدَّ الغضبُ وترَ قلبي، ومن حيث لم أحتسب، انطلق صوته كالسّهم في أذني:

«لكنّك تصدّقينها، امنحيها فرصةً، علّها تكون محض تخمينات»

لم أتمكّن من النّطق، هززت رأسي بمعنى «لم يعد مهمّاً»، تهاويت مكاني، تكوَّمت على نفسي، فخرجَ صوتي مطحوناً، من بينِ أصابعي، تلكَ التي احتجزت وجهي، خلفها، كما القضبان:

«لماذا يحدثُ هذا معي؟!، لماذا تخيبُ آمالي بالآخرين تباعاً؟!، جعلَتنِي يوماً أشعر بأنَّ الإنسان أكبر من الأنماط، والقوالب، والتيَّارات القطيعيّة، اقتنعت تماماً بأنَّ الفرد؛ هو الحيُّ الوحيد، وأنَّ الجماعة هي الآلة، أعطيتها ما تريد، عن طيب خاطر؛ فإذا بها نقطةٌ من الشَّرِّ الكبير»

شدَّ على كتفي، بقوَّةٍ، ليهدِّىء من روعي، استطردَ برقّةٍ:

«الثّقة مسألةٌ جدّيّةٌ، أن تثقي يعني أنْ تمنحَي بعضكَ، على كلٍّ لا وقت لأيّةِ بلبلةٍ، لا توجدُ خيبةٌ غيرُ محتملةٍ، هي الحياة...اثبتي»

رفعت رأسي، تطلَّعت إليهِ؛ فاختفى، فَتحَت رها الباب، إثرَ ما سَمِعَت من ضجَّةٍ، دخَلَت قَبْلَها ورقةُ الرَّسمِ، ذات الخروفِ الملوَّن، اتسَعَت عيناها إذْ سألَت:

«شو هالصُّوت يا ماما... انفجار يعني؟»

لملمت نفسي بعجالةٍ، وفتحت لها ذراعيَّ، همهمت:

«لا يا عمري، سقطَ الجوال فحسب»

جذبتها نحوي، ضغطت على كتفيها، وهي توشوشني:

«ما زال يوسف يأخذُ أقلامَ أصدقائهِ، كل الأقلام في حقيبتهِ ليست لنا»

حضنتها، وخضت في شعرها بأناملي، همست في أُذنها:

«سأتصرَّفُ معه، لا تقلقي، أمَّا الآن فقدْ حانَ وقت اختبار الحساب»

تساءلت مدهوشةً:

- ولكن منذُ قليلٍ تدرّبنا على الحساب

- هذه المرَّة أسئلةٌ سهلةٌ، مثلاً، أممم...، كم نافذة في الغرفة؟

- واحدة

- أحسنت يا روحي، طيّب، كم فرداً في الغرفة؟!

- اثنان

- اثنان فحسب؟!، اثنان؟!

- نعم

- متأكّدة؟!

- نعم يا ماما، أنا وأنت، واحد... اثنان

- عُدّي ثانيةً يا... رها

- واحد... اثنان

- عدّي أيضاً

- ...

- عدّي، عدّي!!

فلفل كاذب... وحلو

شهدَت الأيَّامُ اللّاحقة؛ قراراتٍ خاطفةً، ومصيريّةً، وافقت زياداً على الاستقرار في بيروت، ألغيت كلّ حساباتي، على مواقع التواصل، حتّى رقمُ الجوَّالِ، استبدلت به آخرَ، وقمت بزرّعِ الهوّات، والمطبّات، في علاقاتي بالآخرين، إن كنت سأجنّ، فلأجنّ بشرف، قليلٌ من البعدِ، بما يضمنُ حقّي في المراقبة، والتّصحيح، والانسحاب، فقد توصّلت إلى حقيقةٍ مفادها؛ أنَّ السَّعادة الحقَّة؛ هي في الطَّمأنينة والهدوء، وأنَّ الكنزَ الوحيدَ؛ الذي يستحقُّ التضحية؛ هو أُسرتي.

في ذلك المساء؛ طفقت أشجارُ الأكاسيا، والجاكاراندا، واللّغستروم، والصفّورة اليابانية، ترفرفُ على جوانبِ الطَّريق السَّريعِ، فيما كانت ظلالها الأصيلة أشبه بالحور، والزيزفون، والصفصاف، وكانت الرّيحُ اللّاهية؛ تفرُّ بضفائرِ البنات، وقبّعات المعاطفِ، اكتشَفت، حينئذٍ، كم من اليسيرِ إرضاءُ النّساء!!، ببسمةٍ يَطرْنَ، بكلمةٍ واحدةٍ، تزقزقُ قلوبهنَّ، مثلي، لحظة همسَ زياد في أُذني:

«جهزي الأولاد يا عزيزتي لنخرج، دعونا نودّع الشام»

لمْ يُعبِّر بالكلمات، عن سعادتهِ الغامرة، بدت له موافقتي على مغادرةِ البلادِ، دليلاً دامغاً على انتمائي إليهِ، هواجس غير مفهومة، وحلول مضحكة وغريبة، كم يحتاج الإنسان من معاجمَ لشرحه!، كانَ بديعاً، آنذاك، تشابكنا، تناغمنا، مشينا كثيراً، أوّل مرّةٍ، ذراعي ملتفَّةٌ على ذراعهِ، والطِّفلانِ محلِّقانِ، تحت غيمتينِ، ورديّتيْنِ، من غزلِ البنات.

كانت السَّماءُ؛ فوقَ قصرِ العظمِ، زرقاء صافية، الغيومُ المنفوشةُ تتمدَّدُ، تحكُّ ظلالها بزوايا المبنى العريق، ومن البيوت اللّصيقة في الشّام القديمة، فاحت تمائم

النارنج والجوريّ، من المسجد الأمويّ، انداحَ مهرجانُ الحمام، سجّاده الأحمرُ؛ دروبٌ من رمّانِ السّكينة، الدِّفءُ الطّائفُ، بينَ أعمدته، المهيبةِ؛ مُزهرٌ، كربيعٍ معلَّقٍ، في القيمريّة؛ حيث الطّريق الضّيق المخضَرّ، ترقرقت مسيلات الضَّوءِ، من قناديلِ الإنارة، تابَعَت السّيارةُ الفضّيةُ جولانها العبثيّ، كما لم تفْعَل قبل ذلك، على الإطلاق، كان غريباً تناسل الجمال الأزليّ، على الرّغم من كلّ علائم الموت النّافرة، رحت ألاحق النّعوات، الملصقة على الجدران، والإعلانات التي يوحّدها **«برسم البيع»**، قلوب حبّ محفورة، شتائم مكتوبة، وجه يوسفَ؛ كان قد أصبحَ رغيفاً، على بلّورِ السّيّارة، وشفتا رُها؛ استحالتا نصفَ درَّاقةٍ، سألت؛ وهي تشيرُ بإصبعها:

- ما اسم تلك الشجرة يا ماما؟

- فلفل كاذب

- وحلو

- لماذا «وحلو»؟**!**

- لأنَّ كراتها الحمراء جميلة

- تقال: «فلفل كاذب حلو» من دون واو

- نعم... فلفل كاذب وحلو

- مالَ زياد برأسهِ نحوي، استخرجَ من ضحكاتهِ المتقطّعة همساً خافتاً:

«كل الأشياء الكاذبة حلوة»

انطفأت بسمتي، في حين اختفت الشّمس تماماً، اندلعَ الظّلامُ في رؤوسِ الشّجر، طَوّقَ لمعانُ الأضواءِ، خصرَ قاسيون، ووزّعَ نجمةً على كلِّ نافذةٍ، بعيدةٍ، ووحيدةٍ.

في صبيحة اليومِ التالي؛ كانَ كل شيءٍ معدًّا، الحقائبُ السَّمينةُ، وحزمُ الأمتعة، قربَ العتبة، القماشُ البنفسجيُّ؛ يُغطّي الأثاثَ، في كلِّ موضعٍ، الثّلّاجَةُ مُفرَّغة، وكيسانِ كبيرانِ من النّفايات خارجَ الباب، قالَ زياد إنّه سيُنهي عملاً،

ويعود لأخذنا؛ فأبلغته بنيّتنا الذّهابَ إلى الرّوضة، لوداعِ الأولاد، تطلَّعَ إلى ساعتهِ، كانت تشيرُ إلى ١٢:٤٥، سألَ مستغرباً:

«الآن؟»

أَجَبْته بغايةِ الحماسةِ:

«عشرُ دقائقَ ونعود»

غمغمَ وهو يخرجُ متمهِّلاً:

«عجّلوا إذنْ، قبلَ أنْ ينطلقَ الأولادُ إلى منازلهم»

ثمَّة لحظاتٌ معقَّدةٌ، مزيجٌ، غيرُ مفهومٍ، من التّشابكات، والالتباسات، والانطباعات الزَّائفة، دوَّت في السَّيّارة صيحاتها، أغانيها، ظرافتها، شجاراتها، وهتاف رها:

«احزر ماذا اكتشفت!؟، الكرة الأرضيّة تفّاحة كبيرة!»

كل رجَّةٍ؛ كانت فرحاً عارماً، كل هدأةٍ؛ كانت حزناً مُغِمّاً، وكل تفكُّرٍ في الآتي؛ كانَ شوقاً كبيراً، ورعباً ينتظر، خوفٌ غريبٌ، جعَلَ يسبحُ تحت راحتي البادية، كانَ لابدَّ لي من قبولِ الرَّحيلِ، ليسَ لأنّي وزياداً قد وصلنا إلى مفترق طرقٍ، يُظْهرُ انتصاراً لمصلحةِ الأسرة، ويبطنُ صداماً بينَ رغباتنا؛ وإنّما لثقتي بأنَّ مغادرة البلد الكليم، الكظيم، وتغيير مجرى حياتي، قد ينتشلني ممَّا ألمَّ بي، ويُنجيني من نهايةٍ موشكةٍ، هتفَ يوسف؛ وهو يُلَوِّحُ لأصحابهِ:

«يا ماما انظري، يصعدون إلى الباص»

رَفَعَت رها طاقيَّة الصُّوفِ عن عينيها، وشهَقَت:

«يا ربّي!، نسينا الحلويات!!»

طمأنتها، بقبلةٍ طيّارةٍ:

«لا بأس يا روحي، سأشتريها حالاً»

صَعَدَ طفلايَ إلى الحافلة؛ فتحوَّلت، دفعةً واحدةً، إلى ملْعَبٍ طويلٍ، استأذنت المعلّمة، وسارعت إلى شراءِ حلوى الوداع.

في متجرٍ قريبٍ؛ دوَّى صوت الانفجار، ودوَّت فيَّ الرَّعدةُ، كل قطرة دمٍ، في عروقي، أضحت انفجاراً صغيراً، هرولت كالمجنونة، ودقَّت أسئلتهما القديمة، في قلبي:

«ماما وين منتخبى، ماما سمعت؟، ماما يعني بنّا نموت؟»

لحظتئذٍ، توقَّفَ الوقت، وجمَّدني في هيئةٍ واحدةٍ؛ عينان تشهقان، تسبرانِ الأشلاءَ، ولا تستقرَّان، رعبٌ يَصَّاعدُ، عالياً مع الدُّخان، ساقان منهارتان، يدان تضرَّعانِ للرَّب، وفمٌ مفتوحٌ يشهقُ، يجأرُ، لكنْ... لا تخرجُ منه الصّرخة.

عامٌ أسودُ

أضحى البيت صومعة ناسكٍ؛ بصمات يوسف، على البابِ المُزَجَّجِ، وانبجاسةٌ فوقَ الوسادة، بحجمِ رأسِ رها، وبرجُ المكعّبات، والقطنُ الطَّالعُ، من بطنِ الأرنب، وصاروخ الورقِ المنسيّ، وجوقات ألوان الشَّمعِ، وأوسمةُ التفوّق المهذَّبة، واللَّثغات المدلّاةُ، في الهواءِ، كالثُّريّات، وعبوات الحليبِ؛ التي احدودبت، كل ما في البيت، كانَ يجهش باكياً، وحدي لم أستطع البكاء، وحدي كنت أختنقُ، بـأيّ نبرٍ طفليٍّ، يتناهى إليّ، تطحلَبَت الفجيعةُ، فوقَ بشَرَتي الباهتة، لا أعرفُ كم مرَّةً مت وبُعثت، ربّما لمْ أتوقّفْ عن ذلكَ البتّة، الحياةُ اللَّعينةُ، باتت حفلة تعذيبٍ، لمجرَّدِ استمرارها، والبيت الرّحبُ قد أمسى، في رفَّةِ عينٍ، كهفاً موحشاً، يُنتجُ المزيدَ من الخفافيشِ الشَّفّافة، تشرنقت في الغرفةِ السّاكنةِ، الممتدَّةِ من الأزرق إلى الوردي، بينَ سيّارة السّباقِ، ودمية الباربي الممشوقة، زياد أيضاً، أصبحَ غيره، ولربَّما كابد مثلي، تنمَّرَ عشرات الشَّخصيّات، الثَّانويّةِ، الخاملة، المتربّصة، منذُ الأزلِ، تحت جلدهِ، فتارةً يبدو الخانق العاتب، وتارةً المنتقم الماكر، كانَ يتتبَّعُ، آثارَ انفعالاتي، بينَ الغُرفِ، يُطفئُ الأنوارَ، إنْ أشعلتها، وينيرها إنْ أطفأتها، يغافلني؛ فيفرغُ الخزائنَ، يمسَحُ آثارَ الأصابعِ الصَّغيرة، ينفضُ الأغطية والوسائد، يُشمِّسها إلى أنْ تطهِّرَ الحرارةُ، ذاكرة القماش، يحرقُ الدَّفاترَ المزَيَّنة، ويُخفي عن قلبي الألعابَ، والقصصَ الحبيبة، كانَ يعتقدُ أنَّه ينقذني، في حينٍ لم يشعر مثلي، بنصلِ البَردِ يندفعُ في روحي، كلَّما شيَّعت تفصيلاً حميميَّاً، لمْ يلحظْ أنَّنا نتعامل مع الأشياءِ «الماديّة» و«الحسّية»، بنغمتين شديدتي الاختلاف، ولم يتورَّع بانتهاكِهِ ذكرياتي، عن تعميقِ كلِّ هوَّةٍ بيننا، وإزاءَ شللي الرُّوحيّ؛ فقد استشاطَ حيرةً، أمامَ نفوري، بالَغَ كثيراً في مراقبتي، ومحاسبتي، وفي فصفصةِ سكوتي، وفي تأويلِ كلامي إنْ نَطَقْت،

حتّى إنّي بت سريعة الانتقالِ، بينَ الحالات العاطفيّةِ؛ لكأنّني في عينيهِ، فصولٌ متلاحقةٌ، تومضُ، كانَ يحوّمُ حولي، وكأنّه يُجرِّبُ الانزلاقَ، برفقٍ، في دماغي، صارَ أشدَّ حساسيَّةً، وأمسيت أكثر خَرَسَاً، وانكماشاً على ذاتي، بتنا معاً أشبهَ بشُعلتيْنِ هائجتيْنِ، تهفو إحداهما، كلَّما تأجَّجَت، إلى ابتلاعِ الأُخرى، بلا هوادةٍ، ما عادَ يطيقُ النَّومَ بينَ الجدرانِ؛ وهي تقصُرُ من حولهِ، يوماً فآخر، وبدلاً من تمسيدِ شَعري، أو احتضانِ كفّي، راحَ يُهيل عليَّ التهم الكثيرة، إهمالٌ، وكآبةٌ، وبرودٌ، ووجعٌ غير منتهٍ، هزَّني، مرَّة، من كتفيَّ، بعينينِ تقدحانِ بؤساً، اتخذَ هيئة الوحشِ، الخارجِ التّوة من القمقم، وزجرني، بزئيرٍ خافتٍ:

- ماذا تفعلينَ بي!، قولي بربّكِ، بت نهباً لشعورٍ مقيتٍ بالذَّنب، تحايلت على القانون لأجلكِ، تحمَّلت السِّرَّ الثقيلَ لأجلكِ، جلبت كرمى لعينيكِ، لقيطينِ من الشَّارع، من الشَّارع؛ لكيلا تأكلكَ أمومتكِ؛ ولكيلا تأكلني معكِ.

- لم أقل مرَّةً إنّي أتمنى الإنجاب، لا تتردَّدُ بتحميلي كلَّ ذنبٍ، وأيَّ ذنبٍ!!

- لم تقولي، بلى لم تقولي، دموعك قالت، نظراتك، سلوكك

- وهم، والله وهم!!

- شيءٌ فيكِ، كانَ لا يتورّع عن الحطّ من رجولتي، في كلِّ التفاتةٍ، أو هدأةٍ، شيءٌ أخرس، يستسيغُ عجزي، ولا يتوانى عن إذلالي بهِ، حتّى من دون كلماتٍ.

انعقدَ لساني، أشحت بوجهي بعيداً، ابتلعت الغصَّة، في حلقي النَّاشف، ثمَّ غرفت من صوتي بما تيسَّرَ لي من قوَّةٍ:

- بالله عليك، ماذا تقول؟!، كنت تشعرُ بذلكَ وتسكت؟!، تتّهمني في سرّكَ، ثم تتجاوز الأمر، وكأنّه الحقيقة؟!

- اسمعي، لا تنكري أكثر، فعلت لأجلكِ كلّ ما أستطيعه، وماذا تفعلين الآنَ من أجلي؟!، تحوّلينَ حياتي إلى جحيم حقيقيّة، كرمى للقيطين، أخذهما الربُّ؛ الذي وضعهما في طريقنا، عامٌ مرَّ، والسَّوادُ ما زال يلفُّنا، ألا تلاحظينَ كيفَ صارَ البيت قبراً؟!

- لقيطان!!، لقيطان يا زياد!!!، كل نفسٍ من أنفاسهما كانَ ابني، كل خليّةٍ في جسديهما كانت تتغذّى على روحي لتكبر

- نعم!، كالعادة، تأويلٌ عاطفيٌّ، هستيريا دراميّة، وحزن، وحزن، وحزن!، أنت تقتلينَ الفرحَ فيَّ، تقتلينَ رغبتي في الحياة.

- وماذا تظنُّني!؟ حجرٌ!، صنمٌ!، آلةٌ تسعدُ الآخرينَ، ولا تتعب؟!، ألا تلاحظُ كيفَ تلفِّقُ لي الأخطاء؟!، لم أطلب الاحتواء، ولا المساندة، ولا الاهتمام، ولا العاطفة يوماً، كانَ يكفيني أنْ تتركني وشأني، أمّا الآنَ فلمْ أعدْ قادرةً على الاحتمال، لقد نفدت روحي.

- وتدخلين الدَّائرة، كشأنكِ دوماً، فأغدو أنا الرَّجل البارد، والبعيد، والعدوّ، روايةٌ بصوتٍ واحدٍ، أنت البطلةُ الوحيدةُ فيها، الحقيقة دائماً مرَّة يا دكتورة، ولا سُكَّر أفضل من الكذب لتحليتها.

- أسدِ لي معروفاً وارحل... ارحل

- تملَّاني؛ وأنا أتمزَّق، وأتهاوى على نفسي، مثلَ قصاصات الورق، ومؤكَّدٌ أنّه لم يسمعني، حينما حمحمت دامعةً:

«إلى أين تذهب؟!، تعال عانقني!»

وزَّعَ نظراتهِ الخاطفة، في كلِّ اتّجاهٍ، تمتمَ بشتائمَ خفيضةٍ، نهضَ بغلٍّ، ثمَّ خرجَ، بعدَ أنْ صفقَ البابَ على نظرتي؛ التي لم يستطع خنقها، ومن يومها، بتنا لا نلتقي إلّا لماماً، نتحاشى أيَّ مناهدةٍ؛ لكيلا يستلَّ أحدنا، أغلاطَ الآخرِ، في وجههِ، يحدّثني

متعجّلاً، ويعودُ واجماً، ومشوَّشَ الذّهنِ، يدسُّ في يدي، اعتذاراً من مالٍ، يُكَرِّرُ جملةً من دون سواها:

«اخرجي، تسوّقي، زوري أختك أو صديقاتك، تبدينَ وكأنّكِ جثّةٌ، ألمْ تنظري في المرآة؟»

تتزاحمُ الرُّدودُ على فمي؛ فأُجيبُ بأيِّ كلامٍ، لكنْ سرعانَ ما أكتشفُ أنَّ صوتي غيرُ مسموعٍ، وأنَّ الكلمات لم تخرج أصلاً، يطعنه تجاهلي، يتركُ لي رسائل معلّقةً على الثلاجةِ، بمغناطيسٍ على هيئةِ حبَّة فريز، آخرُ رسائلهِ النّصيّة كانت:

«لا تنتظريني على الغداء»

«لا تنتظريني على العشاء»

«أنا متأخر... نامي ولا تنتظريني»

زادَت علاقتنا تعقيداً، أضحت مزيجاً من التعاطفِ، والشَّفقةِ، والامتنانِ، والوفاء، تملَّكتنا إرادةٌ حازمةٌ، في دفعها قُدماً، ولو على جُثَّتينا، واظبت أُذكِّرني؛ بأنّه أهرقَ صبرَه عليَّ كثيراً، صَنَعَ لي اسماً لامعاً، انتشلني من التشرُّدِ الرُّوحيّ، ورعاني كأبٍ محبٍّ، وواصلَ استذكار أنّي تحمَّلت نزقه، وعقمه، ومنحته عمري، جعلنا من أعصابنا وقيداً، لتلكَ الشَّراكة، حتى أمسى كل شيءٍ حولنا، رتيباً، بارداً، كانَ أحدنا يتآكل في الخفاءِ، معتقداً أنَّه يحدُّ من تآكلِ الآخر، كانَ أحدنا يخال أنَّ الفراقَ طعنةٌ لشريكه، لكنَّنا لم نرفضه، كنّا نؤجّله فحسب، ولأنَّ التجاذبَ الآدميَّ؛ هو التشابه، فقدْ كنّا نموت، باحتمالِ تناقضاتنا، وتنافراتنا، وفظاعةِ الخيطِ الغليظِ، الفاصلِ ما بيننا.

موشور

عامٌ مرَّ؛ دزّينةٌ قارسةٌ، من المساءات الكليمة، استأنفت حياتي، كمتفرِّجةٍ، لا أكثر، كانت تدوِّخني؛ تلكَ الطَّبقات، غير المرئيَّة؛ التي ترسَّبَت، فوقَ جسَدي، فأكسَبَته وزناً ثقيلاً، وشيخوخةً مبكِّرةً، طبقاتٌ من الأمومةِ، والألم، طبقاتٌ ميّتةٌ، تراكمت كما تتراكمُ الدُّهونُ؛ التي تخزَّنُ، ولا تحْرَقُ، دخلت معترَكَ، الحربِ ضدَّ نفسي، أُغالبُ اليأسَ، أُقاومُ ألبومات الصُّور، أُمارسُ اليوغا والتأمُّل، وكلَّ صنوفِ التنفُّسِ العميقِ، أبلعُ حبَّة مغنزيوم، كلَّ ليلةٍ، قبلَ النَّوم، أرتادُ الكتب، أشغل فراغات قلبي، بالخيالات الوفيرة، أُمرِّنُ جسدي بالرِّياضة، على التجلّدِ والقفزِ فوقَ المواجع، وأدفعُ الحاضر الكسيحَ دفعاً، على أقدامِ الماضي.

باغتني فجأةً؛ فلم أكذّب حواسّي، كنت بحاجةٍ إلى التّصديق، سألني، بصوته المطر، من دون مقدِّماتٍ:

«ما لونُ عينيكِ؟»

التفت صوبه مسحورةً، سمعت صوتاً قادماً من صدري:

«تك... تك... تك تك... تك تك»

فَطنت إلى أنَّ قلبي، لمْ ينبضْ منذُ زمنٍ، لمْ يظهرْ وجهه على زجاجِ الشُّبَّاكِ، ولكنَّ خَفَرَاً ثقيلاً، كان قدْ لطَّخَ وجنتيَّ، بلونٍ جديدٍ، جعلني أنا غير المرئيّة، كانَ بوسعي أنْ أتجاهَلَه، إلّا أنَّ رغبةً، عصيَّةً على التفسيرِ، قدْ ألهبَت شهيَّتي في محادثتهِ، تجاسرت على **«عقدة الوهمِ»**، همست، من دون أنْ يرفَّ لي جفنٌ:

- أجدني اللَّحظة؛ أكثرَ هشاشةً من أيِّ وقتٍ مضى، وأكثر استعداداً لأخاطبك إنساناً لإنسانٍ، بغضِّ النَّظر عن معاييرِ الصِّحّة العقليّة، والاضطرابات المفترضة، والهامش المديد بينَ الواقع والوهم

- قولي إنّكِ بحاجةٍ إلى ذلك!

- نعم بحاجة

- وأنا هنا لهذا الغرض

- ألا تكونُ أنت «أفكاري»، وقدْ تقنَّعَت بسحنةٍ مادّيّةٍ!، أو شكلاً عبقرياً، من التهدئةِ، والاستنارةِ، والانعتاقِ، للحفاظِ على توازني النَّفسي!، ألا تكونُ تعويذة النَّجاةِ، المدسوسة بينَ طيَّات مشاعري الخام!

- ما زلت تبحثينَ في أصلِ وجودي، وكأنّني مرضٌ!

- لأنَّكَ مرضٌ فعلاً

- ماذا تريدينَ بالضَّبط؟

- أنْ أملكَ زمامَ نفسي

- بشفائكِ منّي؟!، باختفائي؟!، باجتثاثي؟!

- نعم... وربّما لا، لست أدري أنا مشتتةٌ جدَّاً

- أتعرفين!، كان أقصى أمانيَّ؛ أنْ نتبادلَ حديثاً واحداً، واحداً فحسب

- من أنت؟

- ألا تتعبين!

- أحدس في أنّك أكبر، وأكثر، من كلّ ما هو ممكن!

- دعينا نعد إلى السُّؤالِ الرئيس، ما لونُ عينيكِ؟

التمعَت صورتي في حدقتيْه، لم تكنْ جثَّةً، كما قالَ زياد، وإنَّما عناقيد ضوءٍ، تمدُّ على بلّورهما، دنا أكثر، كحزمةِ ضوءٍ، استكنت، عدَّلَ الشَّالَ، حولَ عنقي، تحسَّسَ قماشه، المخرَّم، من دون أنْ تلمسني أصابعه، لم يكن هنالك ثقلٌ، أو كتلةٌ، وإنّما بصماتٌ نورانيّةٌ، اعتاد عقلي تمييزها، انسابَ نبضي الفوَّارُ، من الثقوبِ الدَّقيقةِ،

نافورةً إثرَ نافورةٍ، تراجعت مسافةً، غيرَ ملحوظةٍ؛ فرشقني بنظرةٍ سابرةٍ، تغلغلَت فيَّ بعمقٍ، سَرَت في ابتسامتي المهيضة، اقتلعَتها، تخلَّلَت عظمي، واستقرَّت هناك، خُيِّلَ إليَّ أنَّه لا يريد منّي أنْ أُجيب؛ لكيلا أخدشَ، نقاءَ اللَّحظة، خفت أنْ يجرفني، كل ذلكَ البهاء، خفت من انجذابي إليهِ، نقَّلت نظري بينَ الشُّبَّاكِ وبينه، افتعلت سعالاً خافتاً، ثمَّ قطعت وريدَ الصَّمت بكلمةٍ:

- بنيّ

- مهلاً!، لحظةً واحدةً، البنّي إجابةٌ فضفاضةٌ جدَّاً، فالجوزيّ والكاكيّ والترابيّ والعسليّ والكستنائيّ والخشبيّ والبندقيّ، وعيدانُ القرفة والفول السّودانيّ والزّبيب والكاكاو والكراميل وجذوعُ الشَّجرِ وقرونُ الغزلانِ وشالكِ هذا، كلّها درجاتٌ تنتمي إلى أسرة اللّونِ ذاتِه، غيرَ أنَّ أحدها لا يُشبه الآخر بتاتاً، فروقاتٌ ناعمةٌ، قدْ تفضي إلى عوالمَ مختلفةٍ، الجوهرُ يكمنُ في التفاصيل، في الدّرجات الدّقيقة، القاطعة كما الشّفرات، وإنّي لأحسبُ أنَّ العيونَ مثلاً، لا تنتمي إلى الجسد؛ بقدرِ انتمائها إلى الرُّوح، كوىً لفضحِ النِّيَّات الصَّريحة، وحسَّاساتٌ لرصدِ حرارةِ الباطن، إيَّاكِ أنْ تستهيني بدرجةٍ منسيّةٍ، من لونٍ شهيرٍ،... إيّاك!!

- وإلى أيّ التدرّجات تراك تنتمي أيّها الأحمر؟!

- جميلٌ... اسم أحمر

تطلَّعت إليهِ بانبهارٍ، كما لو كان موشوراً، يحلّلني، تساءلت كيفَ لفكرةٍ كتلك، أنْ تنسربَ إلى عقلي الباطن، كيما يحاجّني بها، كانت ملامحه زلقةً، بما يكفي لتنفرطَ، من بينِ أصابعي، كلَّما حاولت القبضَ على أجزائها، أطبقَ الصَّمت مجدَّداً، هممت بأن أستأصله، بأيِّ كلامٍ، ثمَّ أحجمت، لكأنَّما وعيي النَّائمُ؛ قد استيقظ، تأبَّطَ ذراعي، وقادني إلى صوابي، انحنيت قليلاً، أسدلت جفنيَّ، ودفنت وجهي، بينَ كفَّيَّ المعرورقتينِ، لم أشعر، بالعارِ كعادتي، بعدَ محادثةِ الخواء؛

فالنَّشوةُ الخفيفةُ، كانت لا تزال تنقّطُ من شالي كرزة... كرزة، حينما رفعت رأسي، مجدَّداً، كانَ قد ذابَ؛ وكأنّه لم يكنْ، درت على نفسي ٣٦٠ درجة كاملة، تفقَّدت أيَّ نَفَسٍ، يدل عليهِ، تلمَّست الشَّالَ، حيثُ تمعَّجَت من قبل يده، هرعت إلى الشبَّاكِ، مسحت غباشته بكمي، أخفيت كالمذنبينَ، دليلاً قد يشهد، برقَ البلّورُ بضوءِ الشَّمسِ، وتوهَّجَ وجهٌ يشبهني، دقّقت مليّاً، في العينينِ الخائرتينِ، تركتهما تأويانِ على الزُّجاجِ إلى لونهما، ثمَّ استدرت، مبتعدةً، بخُطىً بطيئة.

قوّة سحريّة

كانت تمطرُ بغزارةٍ، ترعدُ بغلٍّ، ترجمنا ببرَدٍ عجيبٍ؛ لتوقظنا، السُّحبُ تتلاطم، تتدافعُ، تتزاحمُ للفرجةِ علينا، وحمَّى المعارك، تتسلَّقُ بالتدريجِ، جهازها العصبيّ، انتهى نيسان، غيرَ أنَّ الرَّبيعَ ظلَّ مُعلَّقاً، كحيوات النَّاسِ أجمعهم، اعتكَرَت سماءُ دمشق، وفاضَت شوارعُها بالماءِ، بعدما غَصَّت بالنّاجينَ، من الميتات السَّريعةِ، جرفَت السيول رجالاً، وآلياتٍ، وحاويات قمامةٍ، اقتلعت أعمدة كهرباء، ولم توفّر كذلكَ القطَطَ النَّحيلة، أو معلَّبات المعونات الغذائيّةِ، المعروضة للبيعِ، على ناصيةِ كلِّ شارعٍ، صفيرُ سيَّارات الإسعافِ، كانَ يئنُّ بينَ المباني السَّمراء، يتعالى كأنَّه أبواقُ القيامة؛ فالجلطات والسَّكتات الدِّماغية ما عادت تستثني الأطفالَ، ولا المغلوبينَ، السَّائرينَ دوماً بلصقِ الحيطان، ولا الجالسينَ بمأمنٍ في منازلهم، أمّا الجرائدُ القديمةُ؛ فقد شكَّلَت مع الرّيحِ عشرات الزَّوابع المتنقِّلة؛ فانهالَ الحبرُ رهاماً، سالَت السياسةُ في المصارفِ، وكوَّنَت الأبراجُ الفلكيّةُ، مستنقعاتٍ بأمزجةٍ غريبةٍ، صارت البلادُ خريطةً، من الكلمات المتقاطعة، كل تقاطعٍ مربَّعٌ ساخنٌ، وكل سخونةٍ بركةُ دمٍ.

«يبدو أنَّ الله زعلان»

هذا ما قالته طفلةٌ لأمّها، في عيادتي، الوالدةُ المتصبِّبةُ قهراً؛ ربطت لها شعرها، مرّةً رابعةً؛ فارتفعَت، فوقَ الرأسِ المنمنمِ، نخلةٌ ذاويةٌ، من بينِ سعفاتها، خرجَ صوت الأمِّ خائباً:

- إنّه غاضبٌ يا حبيبتي
- الله ليسَ أُمّاً ليغضب، إنَّه يزعل فحسب

لم ينبغِ للمرأةِ أنْ تقصدني للعلاج، كانَ في وسعها الاستماعُ لطفلتها فحسب؛ تلكَ التي نطَّت، فجأةً، كأرنبةٍ، خشخشت الأساورُ في معصمها، جعلَت تلتقطُ فيلاً، مرصَّعاً بالأحجارِ، عن مكتبي، قلَّبته بينَ أناملها، بينما الوالدةُ تفكِّرُ في مفرداتٍ، تلفظُ الشَّوكة من حلقها، همست بأخفضِ صوتٍ لديها:

«وكنَّا أولادَ عزٍّ، كانَ لدينا بيتٌ، ومزرعةٌ كبيرةٌ، وخمسُ بقراتٍ، هربنا ليلاً، وفي الطَّريقِ الوَعْرِ، انفجَرَ اللغمُ الأوَّل، ثمَّ الثَّاني، أُسرتان كاملتانِ، أُبيدَتا تماماً أمَّا أسرتنا...»

سدَّت الخيالات حنجرتها، لجّت عليها الدُّموعُ؛ فسكتت، غابت عن رشدها، تحت ركامٍ، من ندفِ الاستذكارات الخاطفةِ، شهقت البنت، وكأنَّ دبُّوساً وخزها:

«ستقولينَ لها عن بابا؟!»

رفعت المرأةُ سبَّابتها، فوقَ شفتيها مُهدِّدَةً:

«اششش!»

واصطدمَ الحاجبانِ، أحدهما بالآخر، لملمت الطِّفلةُ نظراتها المتداعية، سكبتها فوقَ الفيل الخائفِ؛ فيما الأمُّ تلفُّ حبلَ الكلامِ، كمنْ ينصبُ مشنقته:

- مات لي بنتٌ وصبيٌّ، وأبقى الله لي مثلهما، طارت رجل زوجي، جررت أنا وابني الكبير الجثث، سحبنا جسدَ والده، وخضنا بهِ الأرضَ، المزروعة بالموت والظَّلامِ.
- ابنكِ أحمد، المتعاطي!؟
- نعم أحمد
- أخبرتني أنَّ زوجكِ؛ منعه من العمل، لتفوِّقهِ في المدرسة
- أجل، يطوفُ برجلٍ واحدةٍ، شوارعَ الشَّام، يبيعُ الدُّخان والعلكة والخضر، لا يكادُ الواحدُ من ولدينا، يفتحُ فمه بطلبٍ؛ حتى يُلبَّى، وعلى

الرّغمِ من سكننا في بناءٍ «على العظم»، نغلقُ بابه بشرشفٍ قماشيٍّ، ونوافذه بأغطيَّةٍ مُشمَّعَةٍ، ونفرشُ أرضه بالكرتون، بدلاً من السّجّادِ، وعلى الرّغم من الرُّوماتيزم الحقير؛ الذي نالَ من مفاصلِ حلا، ومن أرواحنا، فإنَّنا عشنا بخيرٍ، إلى حينٍ.

«الآن ستقولين عن بابا؟!»

سقطَ الفيل مغشيَّاً، نخرت كلمات حلا آذاننا، وسرت كالقشعريرةِ، في حيطانِ العيادة، انخسَفَ قلبي، لمنظرِ الطّفلةِ؛ وهي ترتجفُ، وتحمي خدَّيها بأصابعها، فيما جَثَت أُمّها على ركبتيها، تجمعُ الأحجارَ المنفرطة، فوقَ الموكيت الأخضر، لم تصغِ إليَّ وأنا أُؤكّدُ:

«لا عليكِ، فداها»

لم تتنصَّل الصَّغيرةُ من فعلتها، التقَطَت الخرطومَ المحنيَّ، والتجأت إليَّ معتذرةً، وبينما الوالدةُ؛ تكَوِّمُ القطعَ قبالتي، بارتباكٍ، تمتمت في أُذني:

- عندما أصبحُ دكتورة، لن أزعل إنْ كُسرت لي تحفةً!
- إن أصبحت دكتورة، فسأجلبُ لكِ التحفة بيديّ
- ولماذا لا أصبح!، الرُّوماتيزم ليس إعاقة
- صحيح
- ولو كان كذلك؛ فلنْ يفوقَ إعاقة ستيفن هوكينغ

«تعالي إلى هنا من فورك»

أمرتها المرأةُ بحدَّةِ قائدٍ عسكريٍّ، فركضت كروبوتٍ، اعتلَت كرسيَّاً مجاوراً، ومن ذهولي، سهوت عن تتمَّةِ الحديثِ، انشغلت، ثوانيَ، بالقدمينِ المتأرجحتيْنِ، في الهواءِ، وبالفمِ الورديِّ، المنمنمِ، الذي نطقَ اسمَ العالمِ، وكأنَّه تمرَّنَ على ذلكَ طويلاً، استطَرَدَت السَّيِّدةُ، بنبرةٍ عميقةٍ، لتجذبَ انتباهي:

«إلى أنْ جاءَ ذلكَ اليوم، أخذت المالَ من زوجي، لشراءِ دواءٍ لحلا، فأعطتني الصَّيدلانيّةُ الباقي، عشرَ حبَّات سيتامول وبضع قطعٍ معدنيَّةٍ، خطفها أحمد من يدي على الباب؛ ليعطيها لضريرٍ، مقطوع السَّاقينِ، ينبطحُ على الرَّصيفِ، ويمدُّ راحته، سائلاً أرجلَ العابرين، سبقَ أن أخبرتكِ يا دكتورة، كنَّا أولادَ نعمةٍ، وزوجي كانَ موصوفاً بالحسنات، وفعلِ الخير»

انكمشَت من جديدٍ، امتقَعَت، وطفقت أصابعُ يمناها تهرشُ جلدَ الكرسيّ، تابعَت بأسىً، لا يخبو:

«وضعَ المالَ في الكفِّ الممدودة، وكدنا نمضي لولا دعاءُ الضَّريرِ، الهامسِ: (الله يحميك ويعطيك)، استوقفنا الصَّوت المألوفُ، التفت، ارتعدت، وعادَ أحمد إليهِ، جمدَ هناك، وانتزعَ بغلٍّ عن عينيه النظّارة القاتمة، ليرى والده أمامه وجهاً لوجهٍ، سأتركُ لخيالكِ تركيب اللَّحظة، انعقَدَ لسانُ زوجي المصدوم، مادَت الأرضُ بي، وركضَ أحمد نحوَ الطَّريقِ السَّريعِ، وهناكَ صدمته سيَّارةٌ بزجاجٍ قاتمٍ وفرَّت، لم آتكِ يا دكتورة لعلاجِ ولدي الذي تركَ الدّراسة من إدمانهِ، ولا لعلاجِ زوجي الذي فقدَ صوته من يومها، أنا هنا لتعالجيني، أنا الجثَّة المتحرّكة، الثَّكلى المهدودة، وأرملة الزَّوجِ الحيِّ».

مذ بات الموت؛ حفرةً في منازلنا، صارَ الجميعُ أرامل، نساءٌ ورجالٌ، نتجنّبه، نقفزُ فوقه، ولكنّه موجودٌ كأيِّ كائنٍ حيٍّ، إنّه حيٌّ أكثر منّا، إنّه خالدٌ، كنت أُقنعُ مرضايَ؛ بتجنّبِ الضَّغطِ العصبيِّ، أشرحُ في اليوم، ألفَ مرَّةٍ، كيفَ يرفعُ الزَّعل، هرمون الكورتيزول، وكيفَ يتسبَّبُ بزيادةِ الأنسولين، وكيفَ يؤسّسُ لألفِ علَّةٍ، وكيفَ، بصمتٍ، يقضي علينا، لكنَّ أحداً لم يتعظ!، إذ كيفَ يعي، المقتنعُ بموتهِ، أنَّه حيٌّ؟!، كيفَ يخرجُ من حفرةٍ اتسعَت، حتّى ابتلَعَت الأرضَ برمّتها؟!.

بعدَ يومٍ مضنٍ من العمل، هاتفني زياد بنزقٍ، قالَ بلهجةٍ، ناريّةٍ، حازمةٍ:

«سأقيمُ في بيروت، هل تودّينَ مرافقتي؟»

تمنّيت كثيراً لو سألني:

«أتذهبين معي؟!»

لو قال:

«رغماً عنكِ، رافقيني!»

كم أشعرتني**«هل تودّين؟!»** بالمهانة، اهتزَّت شاشةُ الجوّالِ، في يدي، مبعثرة شيئاً من كلمات أنصاف الجمل، التي تمكَّنت من نطقها، وفي النِّهاية خرجَت **«لا»** منّي، في منتهى التهدُّجِ والخذلان، أرسلت له عقبَ الكلمة رسالةً نصّيّةٍ:

«عزيزي؛ أنا على يقينٍ بأنّي سأجنُّ، ولا أظنُّ بأنّني سأتعافى هذهِ المرَّة، لقد بدأت أسمعُ أصواتاً وفقدت قدرتي على التركيز لذا سأفعل ما أراه مناسباً، لست قادرةً على المقاومةِ بعدَ الآن، وأعلمُ أنّني أُفسدُ حياتك، ومن دوني ستحظى بحياةٍ أفضل، أنا متأكّدةٌ من ذلك، أترى؟ لا أستطيع حتى أن أكتب هذه الرّسالة، بشكلٍ جيّدٍ... لا أستطيع أن أقرأ»

«لم أفهم... كل هذا لأنّكِ أضعت مفتاحك؟!»

«هذا ما كتبته فيرجينيا وولف لزوجها، قبلَ أنْ تملأَ معطفها بالحجارة، وترمي بنفسها في النّهر»

«سُحقاً لي، وسحقاً لفرجينيا وولف، أنا في اجتماعٍ ماويّة، وسأُقفل الجوَّال، تفهمين؟!... وقتي ليسَ مناسباً للمزاحِ والثَّرثرة»

«أتذهبين معي؟!» سجّلت هذه الجملة برسالةٍ على ورقةٍ، وبقلم الكحل على يدي، ينبغي للمرء أن يحضن نفسه، كانت هذه هي الخلاصة من كلّ ما تعلّمت، لكن يومئذٍ، خلصت إلى نتيجةٍ أخرى، ذراعا النّفس قصيرتان، يا اللهّ ما أقصرهما**!**، لم أجد ذراعين، طويلتين كفايةً؛ لتعكما قلبي، كان الجميعُ في أشغالهم، راوية مع أولادها في زيارةٍ طويلةٍ لأهلها بحلب، هنادة مشغولةٌ جدّاً، تلاحقُ إجراءات الهجرة إلى كندا، وجمانة مع بعثةٍ صحفيّة في الهند، حتّى هدى كانت لا تزال مع زوجها،

الذي دخل المشفى مؤخّراً، إثرَ أزمةٍ قلبيّةٍ، انتابته بعد وفاةِ العمَّةِ بأيّامٍ، في الواقع، بدا لي أنَّ كلَّ شيءٍ يتآمرُ ضدّي.

قريتي كانت الملاذ، قصدتها من دون تردُّدٍ، وفكَّرت، طوال الطَّريق، بالسَّيّدة التي لم أعرفها «أمّي»، وهي تكابدُ، مذلَّة الإذعان، بشعورها، وهي تحبل بقسوةِ الآخرينَ، وتجبُّرِهم، بمخطَّطاتها وهي تلدُ رغباتهم، وطفلةً لا تريدها، كانَ نوعاً راعباً، من تبادُلِ الأدوار، خَطرَت لي، إثرَ زوغانٍ في البصرِ، الغجريّةُ أيضاً، بتوقّعاتها التي لم أُصَدِّقها يوماً، لم أكنْ أعلم أنَّ للنُّبوءات لعنتها، وإنْ كذبت، انتظَرْت أنْ يتدخَّلَ أحمر، لحظتها، ليفضَّ اشتباكَ الخيالات، غيرَ أنَّه لم يفعل، لم يخطر لي، أنَّه سيؤجّل ذلكَ، إلى اللّحظَةِ الأخيرة، وبمشيةٍ مترنِّحةٍ، دخلت بيت أبي، كنت أغلي كمرجلٍ، بحثت عن بارودة الصَّيدِ، المعلَّقة على حائطٍ مشقّقٍ، في المضافة، ثمَّ هرعت بها إلى حجرةِ ناصر، ولم تكد تشرق ملامحه حينَ رآني، حتّى دفعتها نحوه، هتفت:

«يا ناصر اقتلني»

رجوته عدداً من المرّات، ثمَّ رميت البارودة بغلٍّ، وركَضت، شعرت بأنّني محتاجةٌ إلى أمّي، يقولونَ إنّي قصدت البئرَ، لأنتحر؛ فأنقذني الفتى ناصر، ويزعمُ ناصر أنّني تراجعت من تلقاءِ نفسي، ورميت بجسدي، بعيداً عن فوّهتها، كما لو أنَّ قوّةً سحريّةً، قد دفعتني عنها دفعاً؛ فتدحرجت، واصطدمت بالصُّخور، أمّا أنا فلا أذكرُ إلّا صوتاً خافتاً، قطع عليَّ التأمّل والاستغراق، هزّني، ارتجَّ في جليل الصّمت، كانَ يعلو من القاعِ السَّحيق، صوتاً حميميّاً، مضطرماً، كما لو كان الشّرارة.

الدّرجة السّابعة

العالم الآخر

«في معظم الأحداث التاريخية كان المجهول... امرأة»

فرجينيا وولف

الفارسة التنوخيّة

جنوب سوريّة - ربيع عام ٣٧٨م

هبطنا بينَ الجند، في السَّهلِ النَّديِّ المزهرِ، والممتدِّ بلا انتهاءٍ، تحت سربٍ، من السُّحبِ العائمةِ، لم تتقاذفنا حوافرُ الخيلِ المستعرةِ، كما توقَّعت؛ تلكَ التي طفقت تخبُّ، وتحمحمُ، وتصهل، وتجري، من دون أنْ تنالَ منّا ملمساً، كنت لا أزال أصرخُ، وكانَ ما زال يُطَمْئنُني، ويشدُّ برفقٍ على يدي، مَرَقنا، كالظِّلالِ، من خلالهم، عبرنا غبارهم، وروائحَ عرقهم، وزعقاتهم، قادني، بعيداً عنهم، إلى ربوةٍ مُخضرَّةٍ، لم نطفُ نحوها، كجسمينِ أثيريَّينِ؛ وإنّما كنا نمشّي بثباتٍ، فوقَ الأرضِ الصّلبة، كما يمكن لأيِّ كائنينِ حيَّينِ أنْ يفعلا، ولم نكد نصل، حتّى همسَ، بنظرةِ المحبِّ التي لا تخفى:

- لا تغادري هذا المكان؛ فالملكةُ غالباً ما تنصبُ خيمتها هنا

- حقّاً!! يعني أن كلَّ هذا واقعي؟!، خلت، أنَّها تصوُّراتٌ، تحفّزها رغبتي في رؤيةِ النَّاس

- كل ما ترينه، الآن، حقيقيٌّ تماماً، هذه الجيوش العربيّة، تتّجه نحو فلسطين، وفينيقيا، وأرضِ النّيل، كيما تدكُّ حصونَ الرُّومان

- يا إلهي هذا ما كانَ ينقصني!، قصصُ التاريخِ، وتجاربُ السَّفر عبر الزَّمن، أتعرف يبدو لي أنّني ميتة، ألا تكونُ ميتاً بدورك؟!

- ألم تسمعي الطَّبيب عندهم، حينَ أكَّدَ أنَّ قلبكِ لا يزال ينبض!

- أيعقل أنَّني... عالقةٌ في مكانٍ ما، بينَ الموت والحياةِ؟!، يا إلهي تبدو الفكرة مجنونة

- كونها مجنونةً، لا يعني أنَّها مستحيلةٌ؛ فالكثير من الحقائق؛ كانت مستحيلات قبل اكتشافها

- إذن؟!

- ليس أمامكِ سوى الانتظار

- وأنت ألا تسعى لفهمِ طبيعة وجودك؟

- لا

- فعلاً!، أحسدك، ألا يشغلكَ أن تعرفَ حقيقتك؟!، يعنى مدى احتمال أنْ تكونَ مجرَّدَ روحٍ هائمةٍ أو لعبةٍ دماغيَّةٍ، أو حالة وعيٍ ملتبسٍ مثلاً؟!

- ألمْ يخطر لكِ العكس بتاتاً؟!، أعني أنْ أكونَ أنا الواقعيَّ، وأنت فورة الخيال!، ألم تفكِّري في العلَّةِ الواحدة، التي جمعتنا في حيِّزٍ مشتركٍ!، ألم تتساءلي كيفَ لأحدنا أنْ يُشفي الآخر من ألمِ وجودهِ، أيَّاً كانت الحقيقة التي ينضوي عليها ذاكَ الوجود؟!، ولماذا لم تتعجَّبي، قبلاً، من هيئةِ الكونِ، الذي جئت منه، حيثُ ضمنت تعقيداته حياة الكائنات، بأقسى الظُّروف، من ينابيعَ ساخنةٍ، إلى حمضٍ معديٍّ حارقٍ؟، دعينا نرجئِ الحديثَ عن ذلكَ إلى وقتٍ لاحقٍ، ابقي هنا، وانتظري الملكة ماويّة، ريثما أعود.

- ماويّة أيضاً!؟، من تكون!؟، ولماذا تتركني!؟، أرجوك ألاّ تفعل، أُريدُ... الرُّجوعَ معك

- ماويّة التنوخيّة؛ هي أجمل ملكات الأرضِ، وفارسةُ الفرسانِ السُّوريّة، ستعتني بكِ وترعاكِ، أنا واثقٌ بهذا، لكنْ اسمعي ما سأقوله جيّداً؛ الوقت هنا، لا يسري وفقَ قوانين الزَّمن؛ فالسَّنوات قد تمضي وكأنّها الدّقائق، أريدُ منكِ شيئاً واحداً فحسب يا ماويّة، مهما حدث... إيّاكِ وشرب الماء، اتّفقنا!!

- تمازحني! كيفَ لي أنْ أشرب، وأنا أقربُ إلى الهلامِ، أو إلى طيف الضَّوءِ، أو إلى العدمِ، ثمَّ إنّني كما ترى محبوسةٌ، منذُ أشهرٍ، في داخلي، من دون طعامٍ، أو شرابٍ، إنّهم يزوّدون جسدي بالمحاليل المغذّية ولا شك.

- الموضوعُ الآنَ مختلفٌ، حينما يتمكّنُ أحدهم من رؤيتك، تمسينَ أقرب إلى محاكاةٍ حقيقيّةٍ عن نفسكِ، بوعيها، وجسدها، واحتياجاتها، يعني معادلكِ الموضوعيّ في زمنٍ آخر

- أيّاً يكنْ فإنّني لا أُريدُ البقاء، هل تفهم!، أعدني حيثُ كنت

- لن أتأخَّرَ عليكِ... وداعاً

- انتظر، أتوسَّل إليكَ انتظر، يا....، لا تتخلَّ عنّي... ارجع

ارتقى سريعاً؛ عابراً طبقات الغيمِ، ومتوارياً خلفها، اضطربت، ثرت، ناديت كثيراً، إلّا أنَّ أحداً - سوى رجعِ الصَّدى - لم يُجِب، حينئذٍ؛ كانَ الجيشُ –بأكملهِ- قدْ أضحى أبعدَ من مرمى النَّظر، تهاويت بصعقةِ اليأسِ مكاني، تهدَّلت بحرقةِ الأطفالِ، مسحت ببصري، الطَّبيعة الممتدَّة، من حولي، كانَ هنالكَ عمودٌ، مبنيٌّ بالحجارة، وكأنَّه إشارةٌ إلى شيءٍ ما، وبقايا مواقد، وجمرٌ حارٌّ، وشُجيراتٌ متأقلمةٌ مع الجفافِ، وأعشابٌ قصيرةٌ، وجنادبُ، وسحالٍ، والكثيرُ من مخلَّفات الإبلِ والماعز، وفي غمرةِ الصَّمت المفاجئ؛ تحوَّلت مخاوفي، وهواجسي، وما غلَّ فيَّ من رعبٍ، إلى انبهارٍ وانعتاقٍ لذيذينِ، بدوت قادرةً على لمسِ الترابِ وشمِّهِ، على الإمساكِ بالحجارةِ السَّاخنةِ، وقطف ما شئت من أزهارٍ برّيّةٍ، جلت في المكانِ مراراً، تملَّيت الطُّيورَ الخافقة، واكتشفت تجويفاً صخريّاً، مملوءاً بالماءِ، شعرت إزاءه بالعطشِ، أوّل مرّةٍ، منذُ وقتٍ طويلٍ، غير أنّي سرعانَ ما تذكّرت التحذيرات؛ فابتعدت، وانزويت في ركنٍ مرتفعٍ، يتيحُ لي مراقبة أيِّ طارئٍ، وبعد انتظارٍ ممضٍّ، اندفعَ الجيشُ من الغيبِ، عائداً براياتٍ خفَّاقةٍ، على نحوٍ صاخبٍ وزوبعيٍّ، وسرعانَ ما حطَّ رحاله، بالهتافات، والضَّحكات، والأناشيدِ، أسفلَ الرَّبوة، فيما صعدَتها مقاتلةٌ، طاغيةُ الجمالِ، مع ثلَّةٍ من

الرِّجالِ، بدا من ملابسهم أنَّهم أعلى رتبةً من غيرهم، انطلقَت صوبي، بثيابٍ قاتمةٍ، بسيطةٍ، متسخةٍ، ملوَّثةٍ بآثارِ دماءٍ، فيما العرقُ ينزُّ من جبهتها العريضةِ كاللّآلئ، ترجَّلت عن صهوةِ جوادها، فالتمَعَ سيفها الفضّيّ الممشوقُ، وطغى حسنها على الرّائحةِ الخانقةِ، التي انتشَرَت بخفَّةٍ في الهواء، حافظت على تماسكي، نظرت إليَّ بطرفِ عينها؛ نظرةً مطوَّلةً أربكتني، ثمَّ استدارت، وخاطبت أحدهم:

- أيُّها المستشار!، سنحطُّ رحالنا هنا، ريثما تعودُ الفرقُ بأكملها، خيّموا، واجلبوا حاجيّاتنا من المغارة، ولترسل في طلبِ الرّاعي، المتواري مع القطعان، أسفلَ الوادي، لتكن اللّيلة... ليلة احتفالٍ بالنَّصر
- أمركُ يا مولاتي، إنَّه لأسعدُ أيَّام حياتنا؛ فالرُّومانُ ملتاثونَ بلوثةِ العظمة، ونحنُ؛ قبائلَ الصَّحراءِ المتّحدة، قد نلنا من هيبةِ أكبر جيوشِ الأرض
- القادمُ أعظم يا أبا مالك، القادمُ أعظم... أعدك
- ليسَ لديَّ شكٌّ يا مولاتي؛ فقد بدأنا بقطافِ نتائجِ ثورتنا، وهذا بفضلِ حنكتكِ، وتخطيطكِ، وشجاعتكِ
- إطلاقاً أيُّها المستشار!، كل الفضلِ للقبائلِ؛ التي ارتضت أنْ تتّحدَ، وأنْ تنضوي تحت لواءِ امرأةٍ، في حربنا الكبيرة، الفضل للشَّعبِ؛ الذي ساندني وآمن بي، ولجيشِ المستشارين؛ الذينَ أثبتوا أنَّهم ملوكُ رجاحةِ العقلِ، وبعدِ النَّظر، كل الفضل لأولئكِ المحاربين، انظر إليهم، رغمَ التعب والجوعِ، ما زالوا قادرينَ على الغناء الشّجيّ، لكأنّما الدُّنيا، بأسرها، ملكُ أيمانهم.

في مرجٍ من نباتات الهندباء، ذات الكرات الهفيفة، الوبريّة، قطفت إحداها، وتملّيتها طويلاً، تفتّحت النّجيمات، في مقلتيّ، لم يحدث أن كنت حقيقيّةً أكثر، من قبل، بدا وجودي مُركّزاً، مقطّراً، تماماً كالعبير المجهول، الذي انساب إليَّ، مع النّسائم، لمست معنى الوجود كما لم يحدث لإنسان، تفتّحت، على جلدي، عواطفي، حبست شهيقاً طويلاً، في صدري، ونفخت:

«هووووف»

فتطايرت النّجيمات، من عينيّ، ومنّي، وانتشر الزّغبُ، الحريريّ، الصّافي، البهّار، في كلِّ مكانٍ، طاف البياض في الهواء، بلطفٍ، وهدوءٍ، تلك اللحظة كانت الحياة، تماماً كما يمكن لكائنٍ أن يتمنّاها.

مرَّ الوقت، كاللَّمحِ مجدَّداً، هطل مطرٌ سبطٌ، زهّرت الأرض بعده؛ ثمَّ هبطَ اللَّيل في ثوانٍ، تخثّرت الظلمةُ على الأشياء، وتغلغلت بينَ مئات الخيام، المنتشرة في أرجاءِ المكانِ، وسرعان ما ضجَّ المخيَّمُ، بحلقات الأنسِ، حولَ المواقدِ المشتعلة، تعالى قَرعُ الدُّفوفِ، وفوقَ إيقاعاتٍ مبهجَةٍ، ترافقها قصائدُ الغزلِ المغنَّاةُ، وفاحت رائحةُ الشِّواءِ، من زوايا خفيّةٍ، كنت لا أزال أتابعهم باهتمامٍ، وأتفرَّجُ وكأنْ على فلمٍ تاريخيٍّ، حينما دهمني الصَّوت، مُتمعِّجاً، من الخلف:

«يااااه، ما زلت هنا!، تفضَّلي إلى خيمتي»

التفت؛ فإذا بالملكةِ تبسمُ لي، وقدْ تألَّقت، في زيٍّ جديدٍ، كانت ترتدي رداءً زاهياً، لامعاً، مطرَّزاً بخيطانٍ مُقصَّبةٍ، منفوشاً، قليلاً، عندَ الكتفينِ، مُلحقاً بحزام عريضٍ، مفضَّضٍ، عندَ الخصرِ، وبياقةٍ عاليةٍ، يتدلَّى من فوقها، عقدٌ ذهبيٌّ، مزدانٌ بحجارةٍ خضراء، يلمعُ تحت ضوءِ المشاعلِ، وكأنَّه الشَّمس، وعلى رأسها ما يشبه التاجَ، المرصَّعَ بالزُّمرُّد، تطلَّعت في كلِّ اتّجاهٍ، وحينما استوثقت من أنْ لا أحدَ غيري، في الجوارِ، لتكلِّمه، نهضت بتثاقلٍ، وسألت، بشبهِ اختناقٍ:

- أنا؟!

- طبعاً أنت يا عزيزتي

- ولكن كيف؟!، كيف تستطيعينَ رؤيتي؟!

- يبدو أنّي مضطرَّةٌ إلى الشّرحِ، في كلِّ مرّةٍ، حسنٌ، لا أذكرُ متى امتلكت هذهِ المَلكة، أو المقدرة على رؤيةِ المستقبليّين؛ الهابطينَ من الغيب، أعلمُ

أنّهم غيرُ مرئيّينَ لغيري، لكنّي أُتقنُ التعاملَ معهم، بشكلهم الجسمانيّ، أوَّلَ الأمر، كنت أخافُ كثيراً، وأُهرعُ إلى الحكماء بحثاً عن علاجٍ، لظنّي أنَّ مسَّاً أصابني، لكنْ سرعانَ ما تأقلمت، وشرعت أُعاملهم كضيوفٍ متحضّرين، ربّما من بابِ الفضولِ، أو من بابِ الواجب، ولاسيّما أنَّ معظمهم بحاجةٍ إلى العون.

- في الحقيقة أنا ضائعةٌ، لا أعرفُ أكنت حقّاً هائمةً بينَ الأزمانِ، أم غارقةً في طبقاتٍ عميقةٍ من لا وعيي

- دعكِ من القلقِ الآنَ، تعاملي مع الأمر ببساطةٍ؛ فأنت ستصعدينَ في النّهاية

- إلى أين؟

- وكيفَ لي أنْ أعرف، لم يسبق أنْ عادَ أحد، لم تخبريني باسمكِ!

- ماويّة

- سميّتي إذن!؟، هذا مُفرحٌ، هيّا تعالي معي؛ فلا شكَّ في أنّكِ قد تعبت من الجلوس

- لم أتعب، مرَّ كل شيءٍ؛ وكأنَّه لحظاتٌ

- أجل صحيح، نسيت تفاوت مقاييسِ الزَّمنِ بيننا

في ذلك الظَّلام الدَّامس، توهَّجَت السَّماءُ فجأةً، واهتزَّت الأرضُ، كأنْ بارتطامِ نيزكٍ، أحطْت رأسي بذراعيَّ، وانبطحت كما كنت أعلِّمُ طفليَّ أنْ يفعلا، في مواجهةِ القذائفِ، لكنَّ ماويَّة التي ضحكت فجأةً، سرعانَ ما شدَّتني لأنهض:

- لا تخافي

- ولكن ما هذا؟

- مستقبليٌّ آخر قد سقطَ في الجوار، تعالي لندخل، لا طاقة لي اليوم على لقاءِ غيركِ.

لم تكنِ الخيمةُ من الدَّاخلِ خيمةً، وإنَّما مخدعٌ ملكيٌّ مصغَّرٌ، وسائدُ حريريَّةٌ، وصندوقُ ثيابٍ، بنقوشٍ محفورةٍ، ومرايا، وركنٌ مع ستارةٍ للاغتسال، وطاولةٌ مليئةٌ بصنوفِ الطَّعامِ، لا شكَّ في أنّها قرأت دهشتي، حينما أجلستني على كرسيٍّ وطيءٍ، وهمهمت:

- تستغربينَ إقامتي الفارهة، بعدَ أسابيعَ من القتالِ؟!، في الحقيقة لا تكونُ الحال هكذا دائماً، إلّا أنَّ هذا الموقع يشبه القاعدة السِّرِّيَّة، كثيراً ما نستخدمه للانقضاضِ على حصونِ الرُّومانِ، لذلكَ نخبِّئُ الكثيرَ من العتادِ والمستلزمات، في كهوفٍ مجاورةٍ؛ حيث تخدمنا وعورةُ المنطقةِ كثيراً.

- لم أفهم لماذا لا تبقونَ إذن على خيامكم، ريثما تنهونَ معارككم، بدلاً من تفكيكها، وإشادتها كلَّ حينٍ؟

- دخلنا، على ما يبدو، في الخطط العسكريّة!، باختصار نحنُ نتبعُ مع خصمنا القويّ، أسلوبَ حربِ العصابات، يعني شنّ غاراتٍ خاطفةٍ، من كلِّ مكانٍ، وفي حال قرَّرَ مهاجمتنا، فسيكونُ ذلكَ شبهَ مستحيلٍ، لأنَّنا مرتحلونَ، وموزَّعونَ، لا مدنٌ، أو قلاعٌ محدَّدةٌ، يجتاحها فينتصر

- يعني أنّه...، لا بيوت لكم، في مواقع ثابتةٍ؟

- يا بنت أنت تستفيضينَ كثيراً!، وتنسينَ أنَّ لديَّ في الخارجِ جنوداً، في انتظاري

- آسفة... أعتذر

- لا بأس، بالمناسبة لديَّ مدينةٌ جميلةٌ، جنوبَ حلب، وابنتي تنتظرني هناك، وشعبي أيضاً، لكن مذ انضمَّت قبائل الصَّحراءِ إلى تحالفنا الثَّوريّ، وبتنا قوَّةً حقيقيَّةً، بات تقدُّمنا مرهوناً، بمواصلةِ الهجمات، وكما تعلمينَ؛ فإنَّ استقلالنا عن الإمبراطوريّةِ الرُّومانيّةِ، ليسَ بالأمرِ الهيّنِ.

تقدَّمت خطوتينِ إلى الأمامِ، تناولَت كوباً نحاسيّاً، بزخرفةٍ نباتيّةٍ متقنةٍ، وسألت:

«ماء؟»

حملقت مطوّلاً في الكوبِ، ابتلعت ريقاً؛ رطَّبَ حلقي النَّاشفَ، وأجبت:

«لا... شكراً لكِ»

جرعته دفعةً واحدةً؛ فسالَت قطراتٌ على ذقنها، ثمَّ انحدرت، نحوَ عنقها الطَّويل، وضَعَته جانباً، وأمسكت طبقاً من اللَّحم المشويِّ، دنت منّي، مالَت بجذعها صوبي، وشوشتني:

«أنت الآنَ ضيفتي، ما منْ داعٍ للحرج، كُلي، واستريحي، وافعلي ما يحلو لكِ، بشرطِ ألّا تلفتي الأنظارَ، بأيّةِ جلبةٍ، وألّا تحادثيني أمام الآخرين، لأنّني سأتجاهلك حينها»

أومأت برأسي موافقةً؛ فدسَّت الصّحنَ الخشبيَّ في يدي، ومضَت إلى شؤونها، وما إن غابت، حتى بدأت بالتهامِ محتواه، بنهمٍ، لم أشعر بهِ، طوال عمري، لم أفكّر في جهازي الهضميّ، أو في حقيقةِ وجودي، لكن وبطريقةٍ ما، كنت قادرةً على مضغِ الطَّعامِ، وابتلاعهِ، كأيِّ بشريٍّ حيٍّ... حيٍّ للغاية.

ضوء القمر

أمضينا اللَّيلة في الحديثِ؛ وقدْ فاضَ ضوءُ القمرِ، فوقَ قِممِ الخيامِ النَّائمةِ، وهبَّت من البقاعِ المجاورةِ، نسائمُ معطَّرةٌ، بعبيرٍ برِّيٍّ خفيفٍ، عابَثت، بلطفٍ، بابَ الخيمةِ الوسيعةِ، حدَّثتني كيفَ تعلَّمت الفروسيّة، وفنونَ القتالِ، وكيفَ التقت زوجها، وكيفَ أهدى لها ذلكَ العقدَ؛ الذي لا يفارقها، في آخرِ أيّامهِ، وأسرَّت لي، بأمورٍ لا يأمنُ المرءُ وضعَها، إلّا في أُذنِ غريبٍ، وفي المقابلِ حكيت لها عنّي، وعن زمني، بينما كنت أرمقُ كوبَ الماءِ، بطرفِ عيني، بنظراتٍ خاطفةٍ، ومركَّزةٍ، أفضيت إليها، بكلّ ما أسعفتني بهِ الذَّاكرة، بيدَ أنَّ شيئاً في كلامي قدْ أمضَّها، فجعلَت تقَوّسُ كتفيها، وتزمُّ أجفانها، في محاولاتٍ عبثيّةٍ للتفهم، قالت بعدَ أنْ ضاقت بي، وانتفَخَت حنجرتها تصبُّراً:

- هذا حالكم إذن!، يا للعار، تسيرون على خطانا، بأعينٍ معصوبةٍ!، نحنُ الماضي، نحن الخلف، ألا تشمّين رائحة الدّم!!، كيفَ تتقدَّمونَ خطوةً إلى الأمامِ، ووجوهكم إلينا!، بالمناسبة، لست أوَّلَ عربيّةٍ؛ تأتينا من المستقبل، من المفترض أنَّ الإنسانيّة تسيرُ من التوحش والجهل والخرافات إلى العلم والرِّفق والتعايش، أم هل تظنِّينَ أنَّني سعيدةٌ بنصلِ سيفي، وهو يبقرُ بطنَ عدوّي، فتندفعُ أحشاءه أمامَ ناظريَّ، ويوشِّحُ دمه صدري!، هل هنالكَ صورةٌ أقذر من ذلك؟!، هل رأيت ضبعاً تتفنَّنُ في تعذيبِ ضبعٍ أُخرى، كيما تبتهجُ فحسب!؟، الإنسانُ أحطُّ الكائنات، بلى، لا تتعجَّبي، كنت آمل أنَّ الوقت كفيلٌ بقصقصةِ وحشيَّتهِ، بتشذيبِ قواه، لكن للأسف تجيئينُ اليوم، من بعدِ ثمانية عشرَ قرناً من الآن، لتخبريني بأنَّ النَّاسَ؛ الذين تمكَّنوا من غزو الفضاء، ونقلِ الحياةِ القاسيةِ إلى رفاهيةٍ ذكيّةٍ، ما زالوا في أوَّلِ فرصةٍ

يقتتلون، يسْبُونَ، يغتصبونَ، يقطعونَ الرؤوسَ، ويأكلونَ قلوبَ بعضهم البعض.

- الوحشيّةُ كما الشَّر؛ الذي لا يمكنُ اجتثاثه، يُبقي بذرةً دوماً، في كلِّ نفسٍ، لكن ذلكَ لا يعني، يا سيّدتي، أنَّ البشر لم يرتقوا أو يتحضَّروا، كامرأةِ علمٍ، أستطيعُ أنْ أُوكِّدَ لكِ، أنَّ أشياءً كثيرةً قد تحسَّنَت فيهم، كآليات التفكيرِ، وأساليبِ المعيشةِ، وطُرق التعاملات، لكن لا تنتظري أنْ تطرأَ على النُّفوسِ، كمجاميعَ غير مادِّيّةٍ، أيَّةُ تغييراتٍ هائلةٍ، في ظلِّ إرادةٍ شلّاء؛ فنحنُ في المحصّلة امتزاجٌ لمتناقضاتٍ عديدةٍ، تنمو إحداها بقوىً ما، وتندثرُ بقوىً عكسيّةٍ.

- يا سميّتي عن أيِّ علمٍ تتحدَّثين!، وجودكُ هنا أكبرُ إثباتٍ أنّكِ حالةٌ مكثَّفةٌ؛ يلهمها الماضي، إذا كانَ العلمُ محضُ نظريّاتٍ وتجاربَ؛ فهوَ وهمٌ مساوٍ لذلك الماضي، أنا واثقةٌ بكونكِ كرَّرت هذا الحديثَ، كثيراً لمرضاكِ، لكنْ ماذا حصلَ بعدَ ذلك!، أنهيت حياتكِ؛ لمجرّدِ أنّكِ فكَّرت بمحاكاةِ «شجاعةِ» أُمٍّ لا تعرفينها، في الوقت الذي كانَ فيه استمراركِ في الحياةِ، في حدِّ ذاته، عزّةً وشجاعةً.

- أعترف أنِّي ضعفت، انهرت بعدَ أنْ حافظت على تماسكي طويلاً، كنت كالإسفنجةِ التي تمتصُّ همومَ الآخرين، وأمراضهم، ومآسيهم، أمّا همومي الشَّخصيَّة فقد كانت تتكدَّسُ في قلبي، ببطءٍ، إلى أنْ انفجرَ أخيراً.

فركَت صدغها، برؤوسِ أصابعها، عاينتني في حزنٍ، بعينيها الواسعتينِ، اعتدلَت في جلستها؛ لكأنَّما أبحرَت في أفكارها بعيداً، وهمهمت بصوتٍ أكثرَ عمقاً:

- أتعرفين؟!، قدْ نكونُ متشابهتين من حيثُ لا نعلم.

- كيف؟ مع أنّي لا أظنُّ ذلك.

- لم تكنْ طفولتي سعيدةً البتّة، ولم يصلْ بي الخيال، مرَّةً، إلى حدِّ توقُّعِ ما سيؤول إليهِ حالي، غيرَ أنَّ البؤسَ، عادةً، حينما لا يتمكَّنُ من تحطيمنا، قد يُعزِّزُ إرادتنا في تخطّيهِ، صرت صبيَّةً جميلةً، يطلبُ ودَّها الفرسانُ، ثمَّ زوجةً للملك الهواري، وهنا بدأ الإغراءُ العظيمُ، لصورةِ الملكةِ، المغناطيس الذي يشدُّنا نحو الصُّورة الباهرة لأنفسنا، مرَّت السّنوات تباعاً، وأنا أُساندُ زوجي، أُساهمُ في شؤونِ الحكمِ، أُشرفُ على أُمورٍ كثيرةٍ، أتعلَّمُ فنونَ القتالِ، وأحل العديدَ من القضايا، بذلت ما في وسعي، لأكونَ أهلاً لصورتي، في عيونِ الآخرين، وبعدَ وفاةِ زوجي، ونظراً لعدمِ وجودِ وريثٍ؛ فقد تولَّيت مهمَّة الحكمِ، حينها كبرت صورتي، في أحداقِ الجماهيرِ؛ التي أحبَّتني، وكانَ لزاماً عليَّ أنْ أفعلَ شيئاً لأكبرَ، بالتوازي معها؛ فتحوَّلت من امرأةٍ مرهفةِ العاطفةِ، إلى محاربةٍ وقائدةٍ، أشرفت على تدريبِ الجنودِ بنفسي، ووضعت الخططَ العسكريّة، انتقلت فجأةً، من طقوسِ العطورِ والحريرِ، إلى طقوسِ الدَّمِ والذَّبحِ والتنكيل، قدت الجيوشَ في معاركَ ضاريةٍ، شرقاً وغرباً، لردِّ الضَّيمِ، ورفعِ الظُّلم، إذ كنّا نعامل كمواطنين، من الدَّرجة الثّانية، في الإمبراطورية؛ تلكَ التي اتّبعت سياسة التجنيدِ الإجباريِّ، مع شبابنا لمحاربةِ أعدائها، وقدْ بلغَت النَّذالةُ بإمبراطورها، أنْ قرّرَ تعيينَ أسقفٍ من أقاربهِ، للسُّوريّين الذينَ أرادوا أسقفاً عربياً مشرقيّاً، لم يكنْ لدينا خيارٌ يا عزيزتي، تحالفت مع الإمارات الصَّغيرةِ، وعربِ الباديةِ السُّوريّةِ، لم أكنْ أوَّلَ عربيَّةٍ تحاربُ الرُّومان؛ فقد سبقتني إلى ذلك زنوبيا ملكة تدمورتا.

- تقصدين تدمر؟!

- أرأيت!، حتى الأسماء تختلفُ، من عصرٍ لآخر، الوجوه كذلك، وخرائطُ البلاد، فيما عدا ذلكَ؛ فالبشرُ إلى تكرارٍ، المهم، من قالَ لكِ إنَّني في وهجِ

هذهِ العظمةِ، والنَّجاحات، والصُّورة المطلقةِ الهيبةِ، لم أفتقدْ نفسي أو عاطفتي؟**!**، من قالَ لكِ إنَّني لا أشعرُ بأنَّ داخلي الحقيقيَّ النقيّ، ينمو في مكانٍ ما لكن**...**خارجي**!**؟

- لا أستغربُ، البتّة، ما تسَبِّبه المهامُّ الضَّخمةُ، من ازدواجيّةٍ وتيهانٍ، لكنْ لم أُدرك بعد وجهَ الشَّبهِ بيننا**!**

- أنت أيضاً، بذلت ما في وسعكِ من أجلِ صورةٍ أمثل، ربّما انتقاماً من بؤسكِ، أو من توقّعات الآخرين المُحْبِطَةِ عنكِ، كنت تكرهينَ المدرسة، لكنَّكِ تفوَّقت كما أسلفت، تحايلت على كرهكِ للدّم، بتخصّصكِ في الطِّبِّ النَّفسيّ، لا تقولي إنَّ زواجكِ برجلٍ مشهورٍ وميسورٍ؛ لا يخدمُ تلكَ الصُّورة أيضاً، لا تقولي إنَّ استمراركما في حياةٍ كالمسنَّنات - تدورُ فتتآكلان - لم يكنْ تضحيةً ثمينةً، تضمنُ سلامة مظهريكما أمامَ الآخرين، كنتما تخدمانِ كآلتينِ اسميكما، صورتيكما، حتى بدأت، عندَ كلِّ تعبٍ، تستنجدينَ بالخيال، تنجرّينَ بسلاسةٍ إلى أرضهِ السَّاحرة؛ فيبتلعكِ كأنّه الوحل، لم يخطر لكِ أنْ تبحثي عن السِّحرِ في واقعكِ، بدلاً من نحتهِ في الوهم؛ فهو موجودٌ بكثرةٍ في الحقيقة، وإنْ لم يتناسب مع صورنا العظيمة والبهيّة.

- أنت تظلمينني ولاشكّ، لست بهذا السُّوء، أو العجرفة، أو النَّزعة المرضيّة نحو المثاليّة، ربَّما لم تسعفني الذّاكرة إلّا بهذهِ المرويّات، أجدكِ اختصرتني فيها، وجعلت تضغطينها، على نحوٍ بانت معه بمنتهى القبح

- قد لا أكونُ صائبةً، ولربّما أخطات في التعبيرِ عن أفكاري، لكن هذا ما جالَ في رأسي

- لا أعرفّ، قد نكونُ في حاجةٍ حقيقيّةٍ إلى أن نكونَ أنفسنا، لا صورنا المشتهاة

- جفَّ ريقي، هل أجلب لكِ معي ماءً؟

- في الحقيقة؛ أكادُ أموت عطشاً، لكنّني ممنوعةٌ من الشُّرب

- ومن منعكِ؟!، الوسيط؟!

- أيُّ وسيطٍ؟!

- لا أعرف تسميته الصَّحيحة؛ أحد أولئكِ الذينَ يساعدون المستقبليّنَ، عادةً، في الوصول

- أجل

- دعكِ منهِ، سأجلبُ لكِ كوباً

- لا أرجوكِ، أفضِّل العطشَ على الإخلالِ بوعدي إيّاه، الأمرُ يتعلَّقُ بحياتي

- كما تشائين، آمل ألّا تطولَ عودته إذن!

لا أعلمُ كيفَ غفوت، كانَ نوماً لذيذاً، عميقاً، هانئاً، لم أذق مثله في حياتي، ولم تكد العتمةُ تبدأ تنقشعُ، بالتدريج، حتّى استيقظت على ضربات حوافرِ فرسٍ، تجري بسرعةٍ مهولةٍ، وتدنو منّا، فتحت عينيّ؛ فإذا بالملكةِ تحادثُ أحدهم، على باب الخيمةِ:

- يا مولاتي، جاءنا خبرٌ، من كبيرِ العسَسِ؛ أنَّ قادة الرُّومانِ في فينيقيا وفلسطين قد طلبوا مساعدةً من قائدِ جيشِ المشرقِ يوليوس

- أواثقٌ أيُّها الفارس؟!، وهل أغاثهم بالتعزيزات؟!، أجبني من فورك

- لا يا مولاتي؛ لقد أرسلَ إليهم ساخراً: «قاتلوا لوحدكم، **فعدوّتكم امرأة**»

كل شيءٍ؛ كانَ يمرُّ بسرعةٍ عجيبةٍ، لا أعرفُ كيفَ ارتحلت معهم، فتارةً رأيتني معها في هودجٍ، وتارةً تحت شجرةٍ، في استراحةٍ قصيرةٍ، إلى أنْ همسَ أحدُ المستشارينَ في أذنها:

«الماءُ ينفدُ يا مولاتي»

- ذكَّرني الرَّجل بعطشي؛ ذاكَ الذي جعل يزدادُ، بطريقةٍ فظيعةٍ، أشعرتني أنّي أتجعَّدُ بالكامل، قالت له بصوتٍ واثقٍ:

«هنالكَ بلدةٌ صغيرةٌ، على بعدِ أميالٍ، سنشربُ من بئرها»

خرجَ السُّكانُ العربُ، مهلّلينَ للملكةِ، التي طردت روما من بلدتهم، عَلَت هتافاتهم مع اقترابنا، لم تنتظر ماويّة خدمتها، وجلبَ الماء، وإنّما ترجَّلت لتحيّةِ النّاسِ، وإلقاءِ نظرةٍ على البئرِ، كنت خلفها، حينما همست في أُذني:

«قد يتوجَّبُ علينا شُكرُ الرُّومانِ على هذا»

ثبَّتت راحتيها على حافتها، حنت ظهرها قليلاً، ولم تكد تلقي نظرةً خاطفةً؛ حتى هوى عقدها في القاعِ، لم تشهق، أو تبدِ أيَّ تلميحٍ بالأسف، كانت حكيمةً، كفايةً، كي تتمالكَ نفسها، ولا تثير أيّة بلبلةٍ، شربَ الجميعُ عداي، فعَّمَ الجندُ قِرَبَهمْ، وأكملنا الطّريق، في الهودج، راحت تبكي بصمتٍ، وشرعت أفكِّرُ في إخبارها، بأنَّ تلك البئر؛ هي ذاتها التي انتحرت فيها أُمّي، هي ذاتها التي ستأكل المقهورينَ، بعد آلافِ السِّنين.

كالومضِ؛ صرنا في مدينتها أناسارتا، استقبلتنا في القصرِ رائحةُ البخورِ، وسرعانَ ما شاهدت ابنتها، الفتيّة، ببشرتها القمحيّةِ، وجسدِها الضّاجِّ أنوثةً، ومن عطشي، صارت الكلمات تخرجُ منّي، بشقِّ النفسِ، جلست شاحبةً، على يمينِ عرشها، أراقبُ الأحداثَ؛ وهي تتسارع، والشُّهورُ؛ وهي تتوالى، في عرضٍ سريعٍ، إلى أنْ قرَّرَ الإمبراطورُ، بعدَ غضبٍ شديدٍ، توجيهَ جيشِ المشرقِ، بأكملِهِ، لملاقاتها، بقيادةِ القائدِ يوليوس، لم تفاجئني ماويّة، بشجاعتها في تخليّها عن حربِ العصابات، والاستعدادِ لمواجهتهم، غربَ حلب بجيشٍ نظاميٍّ كاملٍ، لكنّها أذهلتني حينما أصرَّت على قيادةِ هذا الجيش بنفسها، زوّدتني بالطَّعامِ هامسةً:

«لن تطولَ غيبتي، لكنْ سأعلِّمُ ذلكَ الأبله؛ ما الذي يعنيه... أنْ تكونَ عدوَّته امرأة»

استطاعت أنْ تخمِّنَ فزعي؛ فأردفت:

- لا تقلقي، لو قُتلت؛ فإنَّ وسيطكِ سيعودُ قريباً لأخذك، وإنَّ حكايتكِ معي ستندمل عاجلاً أمْ آجلاً؛ فلا تحزني بأيّةِ حالٍ

- اسمحي لي بسؤالٍ أخيرٍ، قبلَ ذهابكِ، هل زوّارك من المستقبل... هم موتى بالضَّرورة؟!

- صدّقيني لا أعرف، أراهم يهبطونَ من أعلى؛ حيثُ يتساوى الأسفل مع الماضي، أغبطهم على الزَّمن؛ الذي لن أعيش، لأصل إليه، وأُصلّي كيما تنتهي حروبي، عليّ أتفرّغُ لعلاقتي الملتبسة بهم.

- أحببتكُ جدَّاً؛ فأنت امرأةٌ عظيمةٌ، تستحقُّ الحياة، أتمنّى لكِ النَّصرَ، ونهايةً قريبةً لحروبكِ كلّها

- أشكركِ يا عزيزتي، وإنّي لأنصحكِ بأنْ تشربي؛ فأنت تنهارينَ، واللَّونُ يذوبُ عن وجهك.

انطلقت بثيابها الحربيّة، وقوامها المشدود، وخلَّفتني وراءها، أُصارعُ الاحتمالات الكثيرة، طالَ الوقت؛ وأنا على جلستي، لم يسرِ بسرعتهِ المعتادة، نخرتني المخاوفُ، تصبَّبت عرقاً، ونالت منّي، بإفراطٍ، حمَّى الأسئلة:

«هل قرأت يوماً، شيئاً عمّا يدورُ في هذه الحقبة، ونسيت؟»

«هل يقومُ دماغي بإعادةِ إنتاجِ مهملاتهِ، لملءِ فجوات الذَّاكرة؟»

«هل أنا في حالةٍ ذهنيّةٍ، ناجمةٍ عن تأثيرِ خلايا عصبيّةٍ في خلايا أُخرى، تشبه التنويمَ المغناطيسيَّ، أو الخدع السّحريّة؟»

«هل أنا مجرَّدُ طاقةٍ كونيّةٍ، أو محضُ روحٍ، في مرحلةِ ما بعدَ الموت، تستُرُ عريها باستحضارِ هيئةِ جسدها؟»

دنوت من إبريقِ الماءِ، عشرينَ مرَّةً، وتراجعت، كل شيءٍ حولي؛ كانَ يؤكِّدُ لي أنَّ الملكة لن تعود، وأنّني سأصيرُ شبحاً، وحيداً، يحوم في أنحاءِ القصرِ الموحش، دخلت الابنةُ الحسناء، مراراً، لتستوثقَ من أنْ لا حركة مريبةً، في حجرةِ الوالدة؛ فانتبهت إلى الطَّعامِ، الآيلِ للتعفنِ، نادت الخدمَ، تستوضحُ سببَ تقصيرهم، زعموا أنَّ الملكة قدْ أمرت بذلك، الابنةُ التي استشاطت غضباً، عنَّفتهم، وأمرت بتنظيفِ المكانِ، إلّا أنَّ شيئاً حدثَ في الخارجِ، قد دفعَ الجميعَ إلى الرّكضِ مسرعين، خطَرَ لي أنَّ حريقاً مثلاً، قد شبَّ في مكانٍ ما، ارتعدت، كما لو أنَّ انهداماً قد حدثَ داخلي، وحملني تساؤلٌ أخيرٌ بعيداً:

«أتكونُ مادَّتي الحاليّة، قابلةً للاشتعال؟!»

أيقظتني الجلبةُ من صدمتي، واستبدَلت بالسُّؤال، سريعاً، غيره:

«هل سقطت المدينةُ في يدِ الرُّومان؟»

تشويشٌ هائلٌ، طغى على تركيزي، لكأنَّ تقلبات الوقت، قدْ جدَّدَت تسارعها، استفقت على كفٍّ تربّت عليّ، كانت الملكةُ، بكاملِ بهائها، رفعت عينيَّ نحوها، في رخاوةٍ وإنهاكٍ شديدينِ، لم أنبس، عانقتني بحرارةٍ؛ فترنَّحت بينَ ذراعيها، كما الجيفة، همهمت في أُذني:

«انتصرنا يا ماويَّة انتصرنا، هزمنا عرشَ روما، أذعن الإمبراطور لشروطنا، طلبَ عقدَ هدنةٍ، وعادَ السَّلامُ ليعمَّ سوريّة بأكملها»

لم أقو على الرّد؛ ففهمت، سريعاً، أنَّني أواصل صيامي عن الماءِ، هبَّت تحضرُ كوباً، دفعته بينَ شفتيَّ، غير أنّي تمنَّعت بشدَّةٍ، حضنتني مجدَّداً، وخاطبتني بنبرتها الرَّقيقة:

- ستموتين يا ماويّة من دون ماءٍ، اشربي أرجوكِ، كيفَ ستحضرينَ زفافَ ابنتي إذن؟!، سأزوجها بقائدٍ عسكريٍّ رومانيٍّ، أُريدُ لهذا السّلامِ أنْ

يستمر، أُريدُ للقتلِ أن ينتهي، اشربي يا سميّتي، ولا تخشي شيئاً؛ إذ لم يحدثْ أنْ التزمَ أحدهمْ، بترُّهات الوسطاء، إنَّه مجرَّدُ وسيطٍ، عابرٍ للأزمانِ، لا أساسَ حقيقياً لوجوده

- لكنّي أثقُ به، ليسَ لديَّ خيارٌ أصلاً، سأنتظره

- ستموتينَ قبلَ أنْ يجيء

- بلى صحيح، إنّي... أتبدَّد

- هل أسقيكِ؟

- لا

- ماويّة... ماويّة... ماويّة

قيامة الرّوح

ودائماً يحدثُ ما يُغَيِّرُ كلَّ شيءٍ...

في غرفةِ العنايةِ المركَّزة، شعشعَ صباحُ الثلاثاءِ، على غيرِ العادة، التهبَت شَمْسُه داخلَ وهني؛ فإذا بحصوني النُّورانيّة، تبهت، أمامَ سطوعِها، وتغورُ، في طين اللّحم، تغلّبت على التصاق أجفاني، كل الهالات حولي، شرعت تنتظمُ في صورٍ، أكثر وضوحاً، لم يكن في الغرفةِ سوى هدى؛ تلكَ التي تراءت لي، بومضةٍ سحريّةٍ، كملاكٍ، مكتمل التجلّي، تراجعت عن أخذِ رشفةٍ، من شرابِ اللَّبن، رنت، ذاهلةً، إلى الشَّقِّ الضَّيّقِ، في عينيَّ المضيئتينِ، إلى انبجاسات الوعي المعطوب، سَعَلت، بعدَ أنْ اختنقَت بالكلمات، لم تصَدِّق أنّني أُبعثُ من جديدٍ؛ لكنّها شهَقَت، على طريقةِ المنتصرين:

«ما... وية، ماويّة، ماويّة!»

ثمَّ صرخت، بما أُوتيت من بهجةٍ:

«يا دكتور... أفاقت، يا...، يا....»

كانَ حلقي جافّاً، وجسمي ثقيلاً، كأنَّما استيقظت من نومٍ عميقٍ، حرَّكت ذراعي؛ فتحرَّكَت، تفقَّدت بعينَيّ المكان، لم أُصّدِّق، تحسَّبت من أنْ تكونَ حيلةً ذهنيّةً، جديدةً، غيرّ أنَّ كلَّ شيءٍ كانَ يوحي بالحياة، بهدوءٍ، بدأت أقاوم الخمودَ، والوهنَ، كفرخٍ يكسرُ قشرة بيضتهِ، بدوت أشبهَ بميّتةٍ، تبعثُ التّوّة، أفقت ببطءٍ، وفي تذبذبٍ بين الـ«هنا» والـ«هناك»، شرعت أفتحُ عيناً، وأُغمضُ أُخرى، أقول له في داخلي:

«شكراً»

علَّه يسمع، وأجهدُ كيما أقول لهم:

«ماء»

كانت قبلات أُختي، الطَّيبة، ثقيلةً على جلدي، كما اللَّسعات، تجمَّعت الممرّضات، هرع الطَّبيب، وسرعانَ ما انهمرَ فرحٌ هائلٌ، في كلِّ ركنٍ من المشفى، أطلَّت رؤوسٌ كثيرةٌ، من البابِ لتتفرَّجَ على المعجزة، شرعت الملامحُ تتغيَّر كلَّ لحظتينِ، لكأنَّ النَّاس وهم يستدعونَ بعضهم البعض؛ يهلِّلونَ، في تواطُؤٍ، لقوَّةِ الحياة، الجمل الكثيرةُ؛ التي وددت قولها، طفرت على هيئة همهماتٍ، وأصواتٍ مبهمةٍ، ربّما تمكَّنت، أخيراً، من نطقِ بعضِ السُّؤال:

«ماذا حدث؟»

هذا ما وشت بهِ الوجوه المستهجنة؛ التي لم تمنحني أيّة إجاباتٍ، الطَّبيبُ المأخوذُ، بقدرتي على الكلام، والتركيز، والتذكّر، طلبَ، من فوره، إجراء فحوصاتٍ عديدةٍ، والتمهيد التدريجي، لعلاج الالتهابات، والضَّغط، ونقص الأوكسجين، استعان بفريقٍ تمريضيٍّ كبيرٍ، وسرعان ما أبدى اندهاشه؛ لحظة شرعت النتائجُ بالتّدفق، تأتأ وسأسأ غير مصدّقٍ، وأكّد أنّ الضّرر الجسمانيّ - ما خلا الضّمور العضلي - يكاد يكون معدوماً، نظر إليَّ بعينين جاحظتين، وجعل يضغطُ على جلدي، ويطلب مجدّداً أن أفتح عينيّ، وأن أتكلّم، ومجدّداً راح يصفّقُ، ويدور حولي، خاضَ في حديثٍ هامسٍ، طويلٍ، مع هدى، لم أسمعْ منه إلّا:

«عادت الدّكتورة!، هذه المعجزة نعمة إلهية»

«لكأنّي أمام سحرٍ، قوّةٌ خارقةٌ للطّبيعة قد تدخّلت، لكأنّ غيابها لم يكن غيبويةً»

«الإصابة الدّماغيّة في حالة تشافٍ، الأنسجة ملتئمة»

«لنسرع ببرامج تأهيلٍ، وجلسات علاجٍ فيزيائيٍّ»

«الأطباء يتّصلون، من كلّ مكانٍ، للمساعدة، عرض أحدهم نقلها إلى مركزه؛ للعلاج بالضّغط العالي للأوكسجين، وأحدهم كلّف فريقاً التّواصل معكم، يبدو أنَّ الحبّ منجى!»

حينما قاموا بنقلي إلى حمَّالةٍ، طقطقت مفاصلي، وفقرات ظهري، وانتابني ألمٌ حارقٌ، بموازاةِ الكليتين، وآخرُ واخزٌ، في كلِّ حنايا جسدي، غيرَ أنَّ شيئاً لم يمنع الفرحَ العارم، من التدفّقِ في عروقي، غدوت، حينئذٍ، كمنْ يختبرُ الحياة، للمرّةِ الأُولى، أذكرُ أنَّني سألت، بعدَ ساعاتٍ، بطريقةٍ ما، عن زياد؛ فأخبرتني هدى بأنَّه في لبنان، قدْ أكونُ تعجَّبت برفعِ الحاجبين؛ فأشاحت وجهها، ثمَّ ابتسمت بتكلفٍ، وتمتمت:

«إنَّه في مهمَّةِ عملٍ، لم يخطر لأحدٍ أنَّكِ قد...، سأهاتفه، بعدَ حين»

«بعدَ حين!» خلت أنَّني تساءلت، بصوتٍ مسموعٍ، غيرَ أنَّها لم تسمع، تمَّ نقلي بعدَ الفحوصات إلى غرفةٍ أُخرى؛ فيما غلالة المحيطينَ بي تعلوني، وتنتقل كسحابةٍ ملوَّنةٍ معي، كنت أُحسُّ بتعبٍ غريبٍ، ضاعفه الاكتظاظُ، والتجمُّعُ الخانقُ، جرَّبت بإغماضةِ عينٍ، أنْ أطلَّ على «الأسفل الماضي»؛ فأودِّعَ سميَّتي، غيرَ أنَّ شيئاً سوى السَّوادِ، لم يخرج من اعتصارِ أجفاني، تلك الرّعدةُ التي اخترقتني؛ كانت أشبه بعَرَضٍ انسحابيٍّ، لعلاجٍ ما، تلك الرّجفةُ الشديدةُ؛ كانت دليلاً على أنّي... أتحوّل.

بعدّ يومين من المتابعةِ الطِّبّيِّةِ، وجدت نفسي في البيت، في الحقيقة لم يكن بيتي، لم أكن أصلاً في الشّام، وإنّما في الجبل، حمحمت هدى، بصوتٍ مخنوقٍ:

«اشترى لكِ زياد شقّتينِ متقابلتينِ، جهّزَ إحداهما لتكونَ عيادةً، ونقلَ أثاثَ منزلكمْ إلى الثّانية»

بعدّ كلِّ كلمةٍ، كنت أتفوّه بها، كانت تنهمكُ في التسويغِ، والتزويقِ، منتقيةً نبراتها، من تلكَ السُّكَّريّة، التي تداوى بها مشاعرُ الأَطفال:

«ليست شفقةً، وإنّما حبٌّ، حبّ، ربّما فكّرَ في تخليصك من الذكريات السّيّئة!، ألمْ تكنْ هذهِ رغبتكِ، طوال سنواتٍ!»

«لا تفكّري يا غاليتي، إلّا في كونكِ ولدت من جديدٍ»

«سيتصل قريباً بالتأكيد، لكن لن أستطيعَ طلبه الآنَ، لأنَّ رقمه الجديد غيرُ محفوظٍ لديَّ»

استقبلتنا هناك معالجة فيزيائيّة، متقاعدة تدعى«أمّ زين»، وحيثُ أنَّ زوجها ووحيدها زيناً قد قُتلا في الحرب، كما أدركت لاحقاً؛ فقدْ وجَدَت في عرضِ زوجي، إغراءً ما بعده إغراء، إذْ تمَّ منحها غرفةً في المنزل، وأجراً مجزياً، مقابل أنْ تصيرَ معالجتي الشَّخصيّة، والممرّضة المساعدة في عيادتي لاحقاً.

مرّ الوقت، من مركزٍ إلى آخر، من سريرٍ إلى آخر، وقت مشيت، أوّل مرّةٍ، تبدّت الأرضُ رجراجةً، تهتزُّ بعنفٍ، تحت قدميَّ، خطوت برهبةٍ، في المنزلِ، كما الغريبة، كانَ نسخةً طبق الأصل، عن بيتي في الشّام، عُلِّقَت اللَّوحات، من جديدٍ، في المواضعِ ذاتها، الصُّورُ الشَّخصيَّةُ وحدها، كانت مفقودةً، وغرفةُ الأولادِ مقفلة، لم أخضْ مع هدى في أيّةِ أسئلةٍ، شعرت فجأةً، بأنَّ لزيادٍ جانباً سريَّاً من العواطفِ؛ لم أكنْ قد لمسته، طوال السَّنوات الفائتة، تملّكني شوقٌ جارفٌ، حتى إذا ما هاتفني في المساء، اختنقت بدموعي، وبالكادِ تمكَّنت من الكلامِ، هممت بما يشبه انتحاب الأطفال:

«عدت إلى الحياة يا زياد، لقد عدت، أين أنت؟!»

خاطبني بحنوٍّ، مبالغ فيه، وبلهجةٍ جديدةٍ، لمْ أستطع تفسيرها، أكَّدَ لي أنّه لولا ظروفه القاهرة، لعادَ حالاً إلى سوريّة، واعتذر عن كونه لنْ يتمكّنَ من التّواصلِ معي، خلالَ الأشهرِ القادمةِ، إلّا على فتراتٍ متباعدةٍ، هتفت بحنقٍ:

«أوف، إلى هذا الحدّ؟!»

طلبَ منّي أنْ أعتنيَ بنفسي، وأنْ أُخبرَ صديقنا المحامي فراساً، في كلّ ما أحتاج إليه، ريثما يرجع.

تناهت من الشَّارعِ، أصوات أولادٍ يلعبون؛ فأدركت أنَّني قد عدت، حقَّاً، لأُكملَ تتمَّة حكايتي، لم تتوانَ أمُّ زين عن تدليكِ كتفيَّ، وظهري، وأطرافي، في كلِّ

وضْعيّةٍ؛ فيما أعدَّت لي هدى حساءً ساخناً، وأطعمتني بيديها، جلبت لي بعد ذلك صحناً، مملوءاً بشرائح التفّاحِ الأحمر، وإبريقاً مع عُدَّةِ «المتة»، ثمَّ جلست لتشكرَ الله، للمرّة الألف، راحت تروي لي أخبارَ البلاد، والنَّاسِ الذينَ أعرفهم، والذين لا أعرفهم، وكأنّها بملءِ رأسي بالأحداثِ الكثيرةِ، تعينه على محوِ ما تمكَّنَ منه، من همٍّ وأسىً، استوت تمشِّطُ شعري، كانت تبحثُ عن خيبةٍ ما، في وجهي، كلَّما رَوَت خبَراً، غيرَ أنَّها لم تحفل إلّا بنظراتٍ؛ تتلهَّفُ إلى المزيد، كل الأشياءِ بدت، فجأةً، ضئيلةً، وهيِّنةً، لم يمنعني انتحابُها، بينَ الفينةِ والأُخرى، من الابتهاجِ، خمَّنت أنَّها اعتقدَت أنّي، ورغمَ طمأنات الأطبّاءِ، قد فقدت جزءاً من ذاكرتي؛ فغفلت مثلاً عن كلِّ الأحزانِ؛ التي أنهكتني من قبل، ولربّما خشيت عليَّ من الصَّدمةِ، إنْ أنا تذكَّرت، في حين كنت تحت تأثيرِ طاقةٍ هائلةٍ، من المسرَّةِ والامتنانِ، طاقةٍ كانت تغلي فيَّ، خفيةً، وتحفِّزني لمعاودةِ الحياةِ «الهديّة»، لاحظت أنّها أمست أكثر تشدّداً، وتعصّباً لمعتقداتها، كانت تحاول إقناعي؛ بأنَّ ما حدث كان نوعاً من التطهّر أو العقاب الإلهيّ، وأنّ كّل ما عليّ فعله هو العودة إلى الله، عن طريق لفلفة جسدي العورة، وتضميد روحي، بكتب الدّين.

في الخامسة مساءً، من ذلكَ اليوم، وصلت قوافل الطُّيور المهاجرة، إلى المدينة، راقبتها بشغفٍ، من الشُّباكِ، ومن بابِ الشُّرفة، وكأنّها وصلت مثلي، ومعي، من عالمٍ آخرَ، رفّت روحي معها، وكأنّها الحياة منظراً منظراً، استراحت على الأسوارِ، والأسلاكِ، وحبالِ الغسيل، وفوق الأسطح، والقرميدِ وخزَّانات المياهِ، رحّبَ شيخٌ مسنٌّ، في بيتٍ مجاورٍ بضيوفِهِ، صعدَ سطحِ المبنى، ونثرَ قبضتينِ من الحنطة، في كلِّ اتّجاهٍ، أسرابٌ عديدةٌ؛ راحت تغزو الأحياء السَّكنيّة، وتحطُّ في حناياها الرِّحال، قبّرات، وسنونوات، والكثيرُ من عصافير الزرعيّ، وأنواعٌ شتّى، من طيورٍ لطيفةٍ، كالسُّمُّن، والفرّي، والحجل، والحساسين، وأُخرى جارحة، كالباشق، والعوسق، والصقّر الحوّام، بالإضافةِ إلى العقاب القصيرِ الإصبعِ؛ والذي حالفه الحظُّ، بأن اتّخذته البلادُ شعاراً وطنيّاً.

النَّاسُ؛ يهاجرون من الجبل، والعصافيرُ؛ تهاجرُ إليهِ، تحتمي فيه، تأتمنه على بيضها، تصله هادئةً، بلا ضجّةٍ، بلا خوفٍ من الحربِ، أو بنادقِ الصَّيّادين، ولاتكاد تهادنُ الصَّمت المريب، حتّى يخذلها الرّصاص، المتسابق إلى أفئدتها، آلافُ الرَّصاصات تشعل هناكَ، في السَّماء، حرباً أُخرى، وبمرورِ الوقت، ستواصل النَّاجيات رحلتها، نحو الجنوب الأكثر دفئاً، وفي العام القادم ستعود، سيموت الصيَّادون جميعاً، أمّا هي؛ فستظل تجيءُ، كرمى لشيخٍ باسمٍ، ينثرُ الحنطة.

البيت... أمشي ولا أصل إليه

ثلاثةُ أيَّامٍ من دون نوم؛ أمضيت لياليها، أتشهّى الهرب، بدوت وكأنّي استنفدت طاقتي، في مطارداتٍ لا أذكرها، لم أملك قوّةً، ولا عزيمةً كافيةً، لعقد هدنةٍ جديدةٍ، مع سقفٍ جديدٍ، انقبض قلبي، وكدت أسقطُ في غربةٍ جديدةٍ، لولا أنّي تذكّرت ما قالته، ساقيةُ الحانة الإلهيّة، على شاطئ البحر، «سيدوري» لجلجامش:

«ومتى بنينا بيتاً يدوم إلى الأبد؟!»

في جوّالي؛ وجدت مئات الصّور، والأفلام التّوثيقيّة، العبثيّة، حدست في أنّي كنت أبحثُ، من خلالها، عن شيءٍ ما، لكنّي لم أدرك كنهه، وجه ما انفكّ يسطع، كلّما حاولت التّذكّر، غير أنّي لم أعرف لمن!، لم أملك اسماً أسأل عنه، صوته كان الملمح؛ الأشدّ اصطخاباً، الصّوت بصرٌ ثانٍ، ثوبٌ شفيفٌ، لصيقٌ بالعواطف، خشيت، أن يكون صنيع السّقطةِ والوهن، غير أنَّ كل الحوارات؛ التي حدثت بيننا، كانت محفوظةً في داخلي، بالموسيقا إيّاها، بالنّبر ذاته، كما لو كانت منقوشةً في دماغي، في الأيّام اللّاحقة، لم أبرح المرآة، كنت بحاجةٍ، إلى وقتٍ كثيرٍ، لمعاينةِ التغييرات في وجهي، ولإتمامِ مصالحةٍ، سريعةٍ، بينَ ذاتي المعطَّلة وشكلي الجديد، كنت عرضةً لآلامٍ جسديّةٍ، ولتقلباتٍ عاطفيّةٍ، مبهمةٍ، ومخيفةٍ، انتقالٌ حادٌ بينَ البؤسِ والبهجةِ، بينَ البكاءِ والضَّحك، ورغمَ المتابعةِ الطِّبّيةِ، وجلسات التدليكِ، بالزّيوت الطَّبيعيّة، كنت أشعرُ بتأخّري الزّمنيِّ، عن كلّ شيءٍ حولي، كنت بحاجةٍ ماسَّةٍ، إلى إعادةِ الارتباطِ بالمحيطِ الجديد، وبالحياةِ؛ التي لم تتوقَّفْ من دوني، ربّما كانَ ذهني مشتّتاً، لكنَّه بدا مصرّاً على تجميعِ الخيوط، شفاءٌ سريعٌ، تبدّلٌ خاطفٌ، استجابةٌ مذهلةٌ للعلاج الفيزيائيّ، كل ما فيَّ كانَ ينتفضُ موضِّحاً لي، ما الذي يمكنُ أنْ تعنيه... فرصةٌ ثانيةٌ للحياة.

نساء في المرايا

الجسدُ؛ مسكنٌ لروحين؛ هو حكمة الأزواج والثّنائيّات، لا يمكن أن يستقيم بروحٍ مفردةٍ، ولو كانت الأخرى من اختراع الوهم؛ ولهذا كان إحساسي بالخواء، حينها، مخيفاً، وغير مفهومٍ؛ فالجنيُّ الذي طفق يحفرُ فيّ، قبل الحادثة، قد هجرني، رحت أتهادى كمثلِ كتلةٍ مفرّغةٍ، مخلّاةٍ إلّا من توصيلاتها الماديّة، تحاملت على جسمي الموعك، وقمت أفتّشُ عنّي، في كلّ التّفاصيل حولي، سألت هدى وأمَّ زين مراراً، هل مرَّ بهم في المدرسةِ اسمُ سميّتي **«ماويّة التنوخيّة»!**، غيرَ أنَّ كلًّا منهما قدْ نَفَت، على نحوٍ قطعيٍّ.

زياد لم يعد موجوداً، في قلبي على الأقلّ، لا يسأل، ولا أسأل، هجرانٌ مؤقّتٌ، ربّما، ريثما أتعافى، وأتمكّن من احتمال الخبر، أيّ خبر، لا يهمّ، مؤكّدٌ أنّه جارحٌ وخطيرٌ، أفكّر في هذا وأضحك، تحسبني أختي غافلةً؛ فتدسُّ لي اسم جمانة في عسل الكلام، تلمح إلى غيابها، وتزرع كلمة **«غدر»** في خاتمة الأحاديث، وأنا التي أفهم حاجة جمانة إلى طفلٍ، وحاجة زيادٍ إلى مأوى، وحاجتي إلى الهرب مجدّداً، ومن دون توقّف، أغيّر المواضيع دائماً، وأتظاهرُ بالسّذاجة، وباللّامبالاة، وبالقوّة.

وفي يومٍ؛ دلفت هنادة من الباب، كالهديّة، حاوطتني بذراعيها، واستجوبتني، وسألتني، ثمَّ شرحت لي الأسباب التي أحبطت هجرتها، زادها ذلك الحزن المبهمُ جمالاً، إذ لا يوجد ما هو أكثر تعقيداً من الإنسان سوى حزنه، حتّى أنّه مكّنها من الضّحك الكثير، والمرح الكثير، من دون أن تسقط تلك اللّمعة المرتعشة في مقلتها، فور ذهابها إلى الحمّام، أمالت هدى رأسها نحوي، وهمست:

«لديها معركةٌ جديدةٌ هنا، السّرطان يلتهم جسدها»

أطبق الصّمت، بعدها، على كلّ شيءٍ، تعرّقت راحتاي، وشعرت بضغطٍ في صدري، شهقت أم زين، الجامدة قبالة الشّباك، ارتدّت إلى الخلف، وتلاشت انحناءةُ جذعها، تخشّبت أناملها فوق صدرها، غمغمت:

«لعنةُ الله على هذه الحاوية، البارحة وجدوا رضيعاً، واليوم جثّة!»

قامت هدى؛ لتلقي نظرةً، لم أنتبه لتلبّد عينيّ، إلّا أنّ ماء الدّمعة؛ راح يرتعشُ على ساعدي، وينحفر فيه على هيئة سبخاتٍ دقيقةٍ، عادت هنادة، بعد أن اختفت اللّمع الطّافحة، الطافية حول بؤبؤيها، فردت حديثاً جديداً، بدا وكأنّها رتّبته في رأسها، خشية تكشّفِ صمتٍ ما، كلّمتني على راوية، أخبرتني بأنّها قدْ عادت مع الأولادِ إلى حلب، بعد أن فقدت أهلها، في مجزرةٍ جماعيّةٍ، وألمحت إلى أنّها قد وجدت نفسها أمام ثروةٍ، لم تحلم بها يوماً، لم أسمع شيئاً ممّا قالته، كنت غارقةً في شحوبها، ونحولها، وبروز عظم الترقوة؛ الذي تخلّل كنزتها القطنيّة البيضاء، على نحوٍ نافرٍ، حلّقت بناظريّ، بين شعرها المستعار وأهدابها المفقودة، حاولت أن تشحذ اهتمامي بأحاديث أخرى، بيد أنّها أخفقت، وجرّبت أن أقول كلمةً واحدةً، غير أنّي ما استطعت، تصنّعت ضحكةً ودوداً، بلا صوتٍ، ثمَّ تناهضت وودّعتني، وعلى الباب تلاشت كما الضّوء، وذابت في الغيب.

في المرّات القليلة؛ التي هاتفني زياد فيها، كانت أحاديثه مقتضبةً، وخاطفةً، وبدلاً من أنْ أنفجرَ بهِ مثلاً:

«سحقاً للعمل، سحقاً للمال، أنا خارجةٌ من الموت، وحضرتك لا تكلِّفُ نفسكَ عناءَ كتابةِ رسالةٍ نصيّةٍ واحدةٍ!!»

كنت أردُّ، بمنتهى التفهمِ والمحبةِ، فقدْ حدَثَ أنْ حقَّقت لي هبةُ **«الحياةِ الجديدةِ»** اكتفاءً عظيماً، وامتناناً لكلِّ قليلٍ منها، ومع ذلكَ فقد تخطّفتني المواجد، مرَّةً، لحظة أقفلَ الخطَّ، ببرودٍ جليٍّ، خطرَ في بالي الطَّيف، ذاك الأحمر؛ الذي استعادته ذاكرتي، وحدَه القادر على سحبِ الوزن المادّيِّ، من الثِّقَلِ؛ الذي انتابني، واستبدالِ قيمةٍ شعوريّةٍ عميقةٍ

به، حَبَسْت نفَساً عميقاً، ثمَّ أغمضْت عينيَّ؛ لكأنَّني أُحاول استحضاره، أردت الاستعانَة بهِ، وتجميعَ صورتهِ في كلٍّ واحدٍ، إلّا أنّه لم يتراء لي، أكثرَ من وجهٍ باهتٍ، ضبابيٍّ، حوَّمَ قليلاً فوقي، ثم خَفت، وانعدم، كحمامةٍ نوارانيّةٍ، ابتلعتها رقّةُ الجناحين، حتّى خُيّلَ إليَّ، أنُّه دُفنَ مع كلّ التهيّؤات، في العالمِ الآخرِ، الذي خرجت منه...

«يا إلهي تحرّرت من هيمنتهِ»

هتفت أبعدُ نقطةٍ في روحي، بفرحٍ ربّما، وربّما بأسىً، لكأنّما ما ألمّ بي؛ كانَ ضروريّاً لأتعافى، والتمعت كلمات الشيخ عادل، في خاطري، وقت أكّدَ، أنّي ولابدَّ سأكتشفُ **«أنَّ ما حدث كان يجبُ أنْ يحدث»**، ومن جديدٍ عدت امرأةً متوازنةً، وطبيعيّةً، ولكن... مسلوبة السَّند، يومها فهمت أنَّ أحمر، لم يكنْ سوى قوَّة إضافيّة، خفيّة، وتكيُّف مبدع، ولازم، مع الألم.

كانت تلك النّقاهة، في بيتٍ غريبٍ، صغيرٍ، أشبه بالمشفى؛ مختبراً للتأمّل والاستغراق، وقعت خلالها على اكتشافاتٍ عجائبيّةٍ؛ ففي ليلةٍ استيقظت بغتةً، بغية جلب شربة ماءٍ؛ لأجد باب حجرة أختي، وقد انشقَّ عن ضوءٍ خفيتٍ، حوّل مقبض بابها إلى فضّةٍ سائلةٍ، دنوت، بخفّةٍ، كما المذنبين؛ فإذ بها تستعرضُ فساتيني، بالتّناوب، أمام المرآة، ولا سيّما تلك القصيرة، البارقة، خفت من إحراجها؛ فعدت، ونمت ظمآنةً، ومن يومها لم أغادر غرفتي ليلاً، وفي المقابل؛ فقد كان للممرّضة أمّ زين يدٌ غريبةٌ، تخطف الأشياء، تسرقها، تدسّها خفيةً في حقيبتها، أشياء ثمينة، وأخرى تافهة ورخيصة، ضبطتها، مراراً، بأمّ عيني، تلك اليد لم تكن تنتمي البتّة إلى الوجه المُحبّ، حيث المبسم الطيّب، والعينان الطّافحتان بالحنان؛ تلك اليد تمسي غيرها؛ كلّما عانقتني، أو مسّدت عضلاتي، أو ربّتّت على كتفي، امتلاء جسدُ أمّ زين بالقوى المتناقضة؛ التي تتنازعه، وتتوازعه، كان يشبه أرواحنا جميعاً، نحن البشر، خليطٌ هيستيريٌّ، من أمواجٍ متلاطمةٍ، تحلمُ كلٌّ منها بابتلاع البحر، لم أفكّر يوماً في عتابها؛ فقد أحببتها بصدقٍ، تماماً كما أحببت صدق هدى أمام المرايا.

بعدَ أشهرٍ من العلاجات الصَّارمةِ؛ كنت قادرةً على معاودةِ الحياة؛ ففي أحدِ الصَّباحات، ارتديت ثياباً زاهيةً، وأحطت رقبتي، بعقدِ الفراشةِ، من دون أنْ أُخفي الوحمة، بأيّةِ مستحضراتٍ، شرعت أمشي في الشَّارعِ المزدحمِ، أتنشَّقُ أنسامَ الجبل، وكأنّني أكتشفُ الدّنيا، للمرّةِ الأُولى، فكَّرت مليَّاً، في النَّاسِ؛ الذينَ يدفعون الموت، ويخلقون الحياة؛ الحياة التي ستنمو، يوماً، وتظلِّل البلادَ من جديدٍ، تملَّيت بسطات الكتب، المقاهي الجديدة، ملصقاتٍ لفلمٍ سينمائيٍّ جديدٍ، الشّباب خلفَ الواجهات الأنيقة، الخضر على العربات، شاهدت رجلين أنيقين، يتشاجران، يتراشقان بمصطلحاتٍ سياسيّةٍ، وبتهمةٍ كالبصقة «خائن»، تملّيت صبيّاً؛ يبيعُ بالوناتٍ مضيئةً، وعجوزاً أعمى، يبيع سعلاته واليانصيب، وكأنْ منذُ بدايةِ التّاريخ، توقَّفت فجأةً، بلا وعيٍ، ورجعت، سريعاً، إلى البالونات المضيئة، دفعت ثمنَ اثنين، حضنتهما، والتفت إلى الخلف، لأقولَ شيئاً، غير أنّي، سرعان ما تذكّرت، أنَّ رها و يوسف قد...

مصابيحُ الرُّوح

فقدت المقدرة على الشّعور بالزّمن، لا أذكر التّواريخ، ولا أكترث لها، لا يهمّ متى اشتريت لافتةً للعيادة، وأحواض وردٍ ملوّنةً، وأكياس تورب، لا يهمّ متى أقلعت حياتي الجديدة، المشوّهة، ما يهمُّ هو أنّني صرت عاديّة، ككلّ النّاس، يكفي أن يمسّني أحدهم بإصبعه؛ حتّى أجهش في البكاء، أبحث عن بلادي في نشرات الأخبار، أبحث عن نفسي في ألبومات الصّور، أبحث عن أحمر؛ هذا اليد العلويّة، المبثوثة في صدري، في كلّ مكانٍ، هنادة التي تعافت من السّرطان، ماتت بسكتةٍ قلبيّةٍ، أمّ زين حملت ما يمكن حمله واختفت، أختي وجدت عملاً، وبالتّدريج استطالت غياباتها، وأمست آلةً لاستخلاص المال، كففت عن الرّد على اتّصالات زياد، إلى أن انقطعت، ثمَّ نسيته، هكذا ببساطة، كنت أشعرُ بأنَّ الجميع يتحالفون على كتم طعنته، لهذا قتلته، في قلبي، هو وسرّه، بت محض خواءٍ، زاحفٍ، يتهاوى كمثل دمعةٍ، ولا يبلغ أرضاً.

ذات غروبٍ؛ فتحت الباب؛ فظهروا أمامي، هدى بوجهٍ لا يفسّر، خالةُ زياد تبكي، بضع رجالٍ أنزلوا الكرسيّ المتحرّك، وانصرفوا، كتلة آدميّة حشو الكرسيّ، مشوّهة الوجه، مبتورة الأطراف السّفليّة، قالوا لي إنّها... زياد.

«هذا ابتلاءٌ، واختبارٌ لاصطبارك، والمسامح كريم»

هذا كل ما قالته خالته، طوال ساعة، هدى الضّائعة بين اللّعثمة والتّأثّر، كانت تحاول أن تخبرني أنَّ والدته ماتت، مثل جمانة؛ جرّاء انهيار مبنى، كانت تهذر بتفاهاتٍ، من قبيل أنّه كان واثقاً بموتي، وكان بإمكانه اختيار الطّلاق، غير أنّه وجد وسيلةً، لزواجٍ قانونيٍّ ثانٍ، لكيلا يسيء إليّ، لكيلا يسيء إلى نفسه، كانت تحاول أن تفهمني؛ كيف أنّ الجميع على صوابٍ، ولم أفهم!، في تلك الأثناء فاحت رائحة خانقة، مجهولة المصدر، من عطر «Dior»، انشغلت أذناي برصد أنفاسه، وجمدت

عيناي على فمه، أعني فمها!، تلك الكتلة؛ فاقدة المقدرة على النّطق؛ التي رفعت رأسها بعناءٍ، وواجهتني بنظرةٍ فارغةٍ، طويلةٍ، ثمّ غمغمت:

«آآآآ يييي مااااا أووووو»

بكيت، ولربّما شتمت، وانفعلت، وكذّبت، واتّهمت، وطردتهم، ثمَّ خرجت، ثمَّ عدت، ثمَّ عانقته...

تحسّست حروق وجهه، ساقيه الوهميّتين، فكّرت بأحذيته، كلّ أحذيته، فكّرت بصوته، فكّرت بمشيته، فكّرت بالبيوت التي لا تدوم إلى الأبد...

لم يكن زوجي، كان وليداً هبط ببابي، وليداً بلا أهلٍ أو نسب، لم أكن زوجته، وجدتني أهله ونسبه، كانت تلك المحاكاة الأصدق لشعوري، لم أصدّق، بيسرٍ، ما حدث، ولست أذكر كيف ومتى تجاوزت الصّدمة، كلّ ما أذكره، تلك اللّحظة؛ التي أصبحنا فيها بمفردنا، كيف خفت من النّظر إليه، من لمسه، من محادثته، وكيف تجرّأت، ودفعته بالكرسيّ للاغتسال، جرّدته من ثيابه، دعكت شعره بغلٍّ؛ ففاحت رائحة الشّامبو، صوّبت رشّاش الماء الدّافئ نحو قلبه أوّلاً، ثمَّ رأسه تالياً، ورحت أفركُ ظهره، وأبكي، أفرك وأبكي، وكأنّي أسلخ هذا المشهد من عينيّ، أغمضتهما، كمن يفتحُ باباً بين عالمين، وهربت، كنت أحاول ألّا تلتقي أعيننا، وكان يئنُّ وينتحب، ويشدُّ بامتنانٍ، على معصمي؛ المرتجف تحت في رغوة الصّابون، الحلبيّة، الخفيفة...

ومضى الوقت؛ ذاك الذي كان عمري، والذي بات الفصل الجديد، ومضيت؛ أقلّبُ جسده، أدلّكه، أمسّده، أهدهده كما الأطفال، ألقّمه الطّعام، أحضنه، أحكي له، أفركُ وجهي... وأبكي.

الدّرجة الثّامنة

عودةُ الرَّجلِ الحجر

«ولدنا من الحب،

وخلقنا بالحبّ،

ونميل إلى الحبّ،

فنحنُ محمولون في أحضانه»

ابن عربي

زعفران الخريف

سألتقطها أخيراً؛ «الصّورة الحُلم»، وها أنا أدنو من بلادي**!.**

البقاعُ المضيئةُ، تحتي؛ مستعمراتٌ مضحكةٌ من الأوهام، لكأنّني أعود بالزّمن، من شطرٍ انتقل من الحداثةِ، إلى ما بعدها، إلى آخر لا يزال عالقاً في عصوره الوسطى، أشعرُ بما يشعرُ به روّادُ الفضاء، من انعدامِ وزنٍ، واختلالِ نبضٍ، واحتقان أنفٍ، وانتفاخُ بطنٍ، واختناقٍ، أقترب منها، بلا لهفةٍ، وبلا اشتياقٍ، أو أملٍ، البلاد التي وضَعت أقدم نوتةٍ موسيقيّةٍ في التّاريخ، تقتربُ منّي؛ فلا أسمعُ لها نغماً، لكأنّما الشّرخَ الوسيعَ، بيننا؛ والذي لطالما ترقرق الحنين فيه، قد ردم بالأحزان، والآلام، سأحطُّ في بلدٍ وسيطٍ؛ فهي الآن حرامٌ على المحلّقين، أنسى وجهي على النّافذة، أبحثُ في مقبرةِ السّماء عن أرواح أعرفها، وأكتشفُ أنّني ما زلت الغريب، الذي كنته، منذ ساعاتٍ، هناك في الشّمال، تشقُّ الطَّائرةُ دربها، في الغيمِ الكثيفِ، بثباتٍ، واستقامةٍ، تميل، تهتزُّ؛ فأميل، واهتزّ، وأنشّف جفنيّ؛ أنا الذي لم أحسبِ، البتّة، أنّي سأرجعُ في يومٍ من الأيَّام**...**

في خمسينيّات القرن العشرين؛ كانَ أبي «جرجس الخوري» مُعلّماً أنيقاً، كما توحي صور الأبيض والأسود، بذقنٍ حليقةٍ، معطّرةٍ على الدّوام، وشاربٍ مُشذّبٍ، بعنايةٍ، وصوتٍ جهوريٍّ، أجشّ، يُحضرُ الأطفالَ من بيوتهم، كلَّ صباحٍ، يجمعهم تحت السّنديانة، حيث تنمو شموس **«زعفران الخريف»**، الصّفراء، المتوهّجة، ينزعُ أوراقاً من دفاتر الميسورين، ويخيطُ منها دفاترَ للأولادِ**.** في تلكَ الآونة؛ شرعت ملامحُ **«سوريّة مستقلّة»** بالتّجلي كبلدٍ حرٍّ، متحضّرٍ، مجلسُ نوّاب، أحزاب، انتخابات، غليان سياسيّ، أوّل مدرسةٍ عربيةٍ، لرقص الباليه، صحفٌ كثيرةٌ، متعدّدةُ التبعيّات، ووزراءُ يتنافسونَ في الإنجاز، وسجونٌ نادرة، ومتهتّكة، وموروثة بمعظمها من عهدَيِ الاحتلالين الفرنسي والعثمانيّ، ازدهرَ البلدُ اقتصادياً، وصناعياً،

ونافس الجوخُ السُّوريُّ، نظيره الإنكليزيّ، جودةً؛ حتّى باتت الفساتين السّوريّةُ حلماً، لأميرات القصص، أمّا دمشق التي اكتسَبَت رتبة **«يابان الشّرق الأوسط»**؛ فقد حدث ولقّبَت أيضاً بعاصمةِ الأناقة.

إلى الجنوبِ من العاصمة؛ حيثُ يعلو **«جبل العرب»**؛ الكتلةُ البركانيّةُ الكبرى في البلاد، وعلى مقربةٍ من شجرةِ العنبرِ الوحيدة، بأزهارها، العنقوديّة، البيضاء، اعتادَت عجوزٌ سبعينيّة أن تقْلِبَ الصناديقَ الكرتونيّة، على قفاها، مشكّلةً طاولاتٍ صغيرةً، بقطر ٧٠ سنتيمتر، توزّعُ فوقها حلوى الزّلابية، والمرشّم، والسّميد، التي أعدّتها، تنتظرُ، بصبرٍ، انتهاءَ الدّرس، وتهافت الأولادِ على بضاعتها، لتقدّمها لهم بقرشٍ، أو بقرشين، أو بثلاثة، بحسبِ حجمِ القطعة، وفي حالِ عدم توافرِ المالِ؛ فقد كانت تأخذُ بدلاً من القروش، بيضةً، أو حفنة حِمّص، أو بعضَ العَدَس، أو أيَّ شيءٍ، بأيِّ شيءٍ كانَ بإمكانِ، أيِّ طفلٍ، أن يشتري ما يشتهي.

في الستينيّات؛ انتقلَ والدي إلى المدينة، قرّرَ الادّخارَ، لشراءِ سيّارةِ فولكسفاكن «سلحفاة»، وكانَ يلزَمُه الانتظار سبعة أشهرٍ، لتجميعِ رواتبِه، لكنّه التقى أمّي الحمصيّة اليافعة، في نهايةِ الشهر الخامسِ؛ فاستبدَلَ بالسُّلحفاةِ، سريعاً، العروس.

تفاجأت والدتي، بمنطقةٍ قاسيةٍ، تباسقت على البراكين الصَّغيرة الخامدة؛ ذات الأثرِ الممتدِّ، حتّى ضواحي دمشق، هالها أنَّ رقَّة أبي، ودماثَته، ووسامته، وأخلاقه العالية، فيها من الاخضرارِ، أكثر بكثيرٍ، ممّا حوته السُّهول الصَّخريّةُ الجرداء، وشيئاً فشيئاً عرفَت أُمّي النَّاس، واكتشفت أنّها في أكثرِ المناطقِ خضرةً، على الإطلاق.

كل الدَّلال الذي عشناه، في كنفِ الوالدينِ العاشقينِ، فقدناه، بغتةً، بوفاةِ أبي، كنت صغيراً على العملِ، والذَّكرَ الوحيد في الأسرة، وبعدَ سنواتٍ، تزوّجت أختايَ الكبيرتان، وانتقَلَت كلٌّ منهما إلى بلدٍ.

في عام ١٩٨٣، انحدرَ وضعُنا الماديّ كثيراً، وكنت مضطرّاً إلى العمل، إلى جانب الدّراسة، غيرَ أنّي، وبمساعدةٍ من الكنيسة، ومن أقرباءِ أُمّي في المهجر، تمكّنت من السَّفرِ، إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، وهنالكَ درست الجيوفيزياء الاستكشافيّة، بعد

أن دفعتني والدتي إلى الرَّحيلِ دفعاً، خافت عليَّ من حزني، ومن مصيري بعدما هربت، من قريتنا، إلى العاصمة، إثرَ حادثةِ قتلٍ مروِّعةٍ عام ١٩٧٨، ولكنّها وعلى الرغم من كلِّ شيءٍ، لم تفكِّرْ في العودةِ إلى أهلها في حمص، إذ إنّه باستثناء الصَّليب؛ الذي كانَ يتدلَّى كالرّمح من عنقها، كانَ من الصَّعب تمييزها عن نساءِ المنطقة، حيث اللكنة الجبليّة؛ التي غالباً ما تلحقُ الياء والشّين بـ «ما» النَّافية؛ فيصير للكلمات لحنٌ جديدٌ: **«ما بديش... ما قليش...»**، أتذكَّرها في غرفةِ التّنور، تجلسُ خلفَ الصَّاج، وترفعُ **«الكارة»**؛ لتفرد فوقها العجينة الرّقيقة، كنت أُحضرُ لها حزمةً من حطبٍ؛ فتناولني خبزاً ساخناً، وقبلتين طازجتيْنِ، تطلبُ منّي إيصاله إلى الجيران مغمغمةً:

«جارك القريب ولا خيّك البعيد»

أتذكَّرها؛ بالزيِّ العربيّ الزَّاهي، وبالمنديلِ الأبيضِ المهفهفِ؛ يتدلّى من فوقِ الطَّربوشِ؛ ذي الليرات الذّهبيّات، كانت تبدو لي دوماً كالعروس.

في أمريكا؛ لم يكن الأمرُ سهلاً، حفظت وصايا أمّي، ولم أتنكّر لخيط حبيبتي الأحمر، لكن قلبي كان قد أصبح من حجر، عملت، من فورِ وصولي، بتنظيفِ المراحيضِ، وبتلميعِ الزُّجاجِ الخارجيِّ، لنوافذِ الأبراجِ الشّاهقة، وأمضيت أشهراً، أتناول البقايا من الحاويات، في مطاعمِ الوجبات السَّريعة، إلى أنْ خطَرَ لي أنْ أستثمرَ موهبتي في الرَّسمِ؛ فقصصت بعضاً من شعرِ فرشاةِ الحلاقةِ، ربطته إلى عودٍ طويلٍ، بخيطٍ نسلته من كنزتي، وبعد أن صنعت ريشتي، رحت أُهدي، إلى روَّادِ المقاهي، لوحاتٍ من بقايا قهوتهم، وسرعانَ ما ذاعَ صيتي، وصارَ عملي هذا، مصدراً رئيسيَّاً لدخلي، اشتريت ألواناً، وفراشي رسمٍ، وطوّرت نفسي كثيراً، إذ وجدتني في سوقٍ، شديدِ المنافسةِ، مع عددٍ هائلٍ من الفنانين المهاجرينَ، كل واحدٍ فيهم يعلمُ أنَّ عليه أنْ يكونَ مبدعاً، وفريداً، ليستمرَّ في تلكَ البلادِ؛ بلاد الفُرَصِ، بعدَ الجامعة أنجزت الدّراسات العليا، في علوم الأرض بالفضاء، ثمَّ عملت في مؤسَّساتٍ كثيرةٍ، نجحت، تدرّجت، إلى أن وظِّفت أخيراً، في الإدارة الوطنيّة، للملاحة الجوّية والفضاء «ناسا».

آخرُ مرَّةٍ رأيت أُمّي فيها؛ كانت عام ٢٠١٢، في بيت خالي في الشّام، عندما وصلت إلى سوريّة كانَ الهواء بارداً، والسَّماءُ ملبَّدةً بالغيوم، حيث حلَّ الشتاءُ متأخّراً؛ لتشرعَ النهارات القصيرةُ، تهرول نحو الظلام والانتحارِ، سقسقات بردى، لم تكن تسْمَعُ من النّهرِ؛ الذي مات في مجراه، وإنّما من كتبِ الشّعرِ والتّاريخِ والجغرافية، جفَّ بردى، فيما النسَّائم الرّطبة، النّاصلة، كانت لا تزال تنبعثُ من الأحرفِ المترقرقات في اسمِ «دمشق»، رشقتني أمّي، يومها، بنظرةٍ ساخطةٍ، وهَدَلَت بصوتٍ من خريرٍ:

«ذبحتني غربتكَ، يا رزقة قلبي، ذبحتني يا حبيبي»

ومن يومها صارَ في رقبتي... قتيلتين.

أكاي إيتو

في المعارك ضدّ الحبّ، ينتصر الخصم دائماً، كلّهم يربحون أمام الأنقى والأصفى والأشفّ...

لا أعلم كيف وصلت أسطورة «أكاي إيتو»، إلى أذن فتاةٍ، صغيرةٍ، في أقصى الرّيف، مثل نسمة؛ أقنعتني يومذاك، بأنَّ الآلهة في الأسطورة اليابانيّة؛ تربطُ حبلاً، أحمر، غير مرئيٍّ، بين المرء ورفيق روحه، وأنّه لا توجد قوّةٌ، على الأرض، في مكنتها قطع هذا الخيط، ضحكت حينذاك، ضحكت طويلاً، بيد أنّني صدّقتها، حبّي لها كان الحقيقة المطلقة، غير القابلة للطّعن أو المساومة، وما سواها كان وهماً في وهمٍ، لحظة كانت تربطُ، طرفيّ خيطها الصّوفيّ، في خنصرينا، كنت أشعرُ بتلك القوّة، العظيمة، التي حدّثتني عنها، وبعد كلّ هذه السّنوات، التي استحالت إلى ممحاةٍ، والتي أنستني، أو تكاد، ملامح نسمة الصّغيرة، أوشك أجزم أنَّ خيطها الأحمر؛ هو الإيمان، الصّافي، الباقي، الوحيد في وجودي الخاطف؛ والذي لا يزال يفعل فعلته.

خلت أنّي في رحلةِ عملٍ، لم يدر في خلدي أنّي عائدٌ من أجلها، مع تلاويح الصّباح، كنت أطرقُ بابهم، بإصبعي المرتجفة، غير أنّ منزلهم المهجور، لم يرأف بشوق يدي، تحدّب كتفاي، وسقط رأسي بينهما، كهلٌ يتداعى، فوق حبٍّ صبيانيّ عتيقٍ، فاحت في صدري، رائحةُ الممحاة الورديّة، ويدها المتعرّقة، والجوريّة المقصوصةُ من كتاب العلوم، وشريط الكاسيت السّريّ، وأسورة الخرز، ورائحة الرّاتنج، المنبعث من السّروة؛ التي حفرنا اسمينا عليها، ربّتّ على حزن البيت، صوّرت حجارته، ونوافذه، وبوّابته الصّدئة، المخلّعة؛ تلك التي تعفّن الزّمن، على قضبانها، صوّرت كرزتهم المنخورة بالسّوس، والشّوك، والحدندوق، وطفح البابونج، وأنساقَ نباتات الختميّة والعطرة والخبيزة، واللّبلاب الزّاحف على جروح

الحيطان، كما الأفاعي، والطرّاحة المنسيّة بين العشب، وسطول النّيدو التي كانت أصص الحبق، والدوريّ الميّت في تنكة الياسمين، والملقط الوحيد، المرتعش على الحبل، وكأنّه روح الدوريّ، صوّرت الهواء المتدفّق، والظّلال، والأشباح، وصوّرني رجلٌ على جرّاره، بعينين معصورتين، هتف بصوتٍ أجشّ:

«عوافي... لا تتعب نفسك، لقد انفرطت أسرة حمد، كلّ فردٍ من أفراد هذا البيت، في بلدٍ من بلاد الله الواسعة»

لم يعلم الرّجل؛ المبتعد إلى كدّه، أنّي قادمٌ من البلاد الضّيقة، وأنَّ أيّ مطرحٍ سوى ذلك المكان، هو خرمُ إبرة، رفعت ذراعي شاكراً؛ فترنّحت «الكاميرا» على صدري، كما البندول، امتلأ حفيفها بمشاعر حارقة، أغمضت عينيّ، وأمضيت اشتعالاً كاملاً، بلا حراكٍ، أضاءتني الشّمسُ الغاربةُ في آخر لقاءٍ بيننا، كان المشمشُ المترنّحُ على الأغصان؛ قد حوّلَ المساء إلى قبّةٍ من قمر الدّين، وكانت أهلّةُ الفليفلة الحمراء؛ تنتأ من خضرة حاكورتهم، حاكورتهم التي ثملت، إذ شربت من دمها، ومن مِسك راحتها، ومن كحلها الخفيف، ومن حمرةِ شفتيها، الشّفيفة، المُسكرة.

في سيّارةٍ نحو المدينة؛ كان كل شيءٍ يرجّني، كل شيءٍ كان يريد منّي أن أستيقظ، الشارع الموبوء بالدّمامل والحدبات، الأعيرة النّارية، نباح الكلاب الشّاردة، غير أنّي لم أكن سوى سكران، يقضمُ حلماً، ويمشي في نومه، طلبت من السّائق أن يوقف هذر المذياع؛ فارتعشت السّيجارةُ النّاتئةُ من زاوية فمه، باهتزازات الشتائم؛ التي لم يقلها، ابتسم لي، بعد جهدٍ جهيدٍ، وهمس:

«حاضر، تكرم معلّم»

كمثل النّاس، جميعاً، في البلاد، كان السّائق لا يزال يكابدُ، كيما يظهر على غير حقيقته، الصّدقُ، في البلاد، كان ما يزال متعِباً... ومخيفاً.

فوقَ جسرٍ في المدينةِ، مشيت كالمخبول، موهَنَ القوّةِ، تبدّت البيوتات العتيقةُ؛ التي قاومت صرعة الأبراج، كنزلٍ أو خرائب، شعرت بتكدّر المزاج العام،

شجارات كثيرة، حساسيّة مفرطة، النّاس أقرب إلى التّماثيل المتحرّكة، أو إلى العرائس القماشيّة المفرّغة، عاينت البيوت المنهكة، المنتشرة في بطنِ الوادي؛ تلك التي أعياها الصّعود، سمعت بعضها؛ مازال على حالهِ يهمس، بعضها كان يئنّ، وأكثرها فقد المقدرة على الكلام، كان خَرَساً جمعيّاً مخيفاً، مشيت، خضت في الأسواق الشّعبيّة؛ التي ابتلعت الأرصفة، والشّوارع، راح العابرون، يخوضون، بلا هوادةٍ، في مزادات البيع والشّراء، طيور الدّوريّ، الرّماديّة، جعلت تتقافزُ، فوق ظلٍّ شجريٍّ، لصخرةٍ، كامدةٍ، وفوق المسرح الرّومانيّ، الصّغير، المهمل، تخيّلت جمهوراً، ومصارعةً حرّةً،... فطارت، من فورها، العصافير.

هبطَ الغيمُ من أعلى الجبل، وطفق يطوف معي، في الشّوارعِ، مزيجاً رهيباً، من الأبخرةِ، والأخيلةِ البيضاء؛ التي تخلّلتها أشباح النَّاس، وأضواء السّيارات، تكسّرت ورقات شجرٍ باهتة، تحت قدميّ، غير أنّي خلت، غافلاً، أنَّ الصّوت خارجٌ منّي، وفي طريقٍ يُنذِرُ بدُنُوِّ الغَيبِ، توغّلت أسترشد بذاكرتي الكليلة، وأقتفي أثر، الصور العتيقة، سقتني المناظرُ الجديدة خيبتها، سرت، راجلاً، للقاءِ حسن؛ صديقي القديم، القريب، وابن قريتنا؛ الذي لم تنقطع صلتي به، طوال تلك المدّة، التزمت بتحذيراته، وحرصه الشديد عليّ، لم أخبر أحداً بمجيئي، لم أعرّف عن نفسي، أحكمت لهجتي الجبليّة، حدّ اختنق لساني الأمريكيّ، التزمت بوسائل النّقل العامة، أشحت بوجهي عن عجوزٍ تبكي على الرّصيف، لم أجرؤ على الدّنوّ منها، ولا على النّظر أيضاً، كان هنالك شيءٌ عجيبٌ يحدثُ، في مدينةٍ؛ كانت تهتزُّ لو ظهر فيها شحّاذٌ يسأل، فكّرت بحسن الجيولوجيّ، الطّموح؛ الذي تحوّلَ، على حينِ غرّةٍ، إلى بائع أحذيةٍ، ثمَّ إلى أرملٍ، رفاقه هرّبوا أحلامهم، وهربوا، لم يعدم واحدهم الوسيلة، يخوت، طائرات، بغال المهرّبين، وحده لم يرحل، في هذا الهجيج، كانت، في رقبته، قبيلةٌ من نساءٍ بلا رجالٍ، والدة وأخوات وخالات وعمّات، كان طبيب أمراضهم، وجلّاب أغراضهم، وحائط المبكى؛ الذي لا يميل، وجد نفسه منذوراً للبذل، ووجدناه الأمين المؤتمن، على أموالنا المرسلة إلى المحتاجين والجمعيات الخيريّة والأهليّة، فكّرت في التشوّهات؛ التي خلّفتها الحربُ، والحاضرةِ، بقوّةٍ، أنّى التفت، حيثُ النّاجونَ بأجسادهم، من الأسلحةِ، يناضلونَ،

يوميّاً، لتجميعِ سلامتهم، فكّرت إلى حدّ الغليان، ومن غلّي ضحكت، ضحكت وحيداً، مستوحشاً، بلا سببٍ، كما المخبول.

في متجره، الضيّق، المعتم، القليل الزُّبن، ارتجف وجهها في كوب الشّاي؛ فتراجعت عن الرّشفةِ الموشكة، تحدَّثنا كثيراً، عن الخرائط التّفصيليّة، التي أعددتها، بارتفاعاتها، وإحداثيّاتها، وعن قواعد البيانات؛ التي وظّفتها لخدمتي، وعن الصّور الفضائيّة السّريّة، غير المتاحة للعموم، وذلك ضمن مشروعي الشّخصيّ، في تحليل البصمة الطيّفيّة، وفي الكشف عن المواقع الأثريّة، المتوارية في عمق البادية؛ تلك العالقة وسط بحرٍ، مظلمٍ، صخريٍّ، كان يصغي باهتمامٍ، وكأنّه يحاول الاقتناع، أو التّصديق، وكانت طفلته، الشّقراء، العابسة؛ التي تلازمه أينما حلّ، ترسمُ دائرةً صغيرةً على ورقةٍ، ولربّما أضافت إليها مستطيلاً رفيعاً، ثمَّ نقاطاً مطموسةً، تلفّت حسن حوله؛ فانتبهت إلى رفّ الأحذية المموّهة، العسكريّة، خلفه، قبض على ذراعي، قاطعني هامساً، بجهامةٍ، كمن يراجعُ الأسرار الخطيرة التي سمعها:

- يعني اختفاء بعض البقع؛ التي تميل إلى الاعتقاد بأنّها بقايا حضارات بائدة، قد يكون سرقة منظّمة لهذه المواقع!

- وقد لا يكون

- وقد لا تحمل أيّة دلالةٍ تاريخيّةٍ، هذا واردٌ؛ فوعورة المنطقة، والتدرّج اللّونيّ الخدّاع، والحرب، والرّعي، والفلتان، كلّها عوامل مضلّلة، تعلمُ ولاشكّ!

- صحيح، وأنا هنا من أجل المعاينة، والمطابقة، والتوثيق

- أوف!!، بصراحة، لو لم أكن أعرفك جيّداً لـ...

- لشككت بنيّاتي، ولخلتني قد قبضت الثّمن؟!

- تقريباً، ثمَّ يا أخي أيُّ ضميرٍ إنسانيٍّ، هذا الذي لا يستيقظ إلّا بالمساس بالكنوز الأثريّة!، كان في وسع هذا الضّمير الوسخ، المنحطّ، أن يرأف بنا نحن، تاريخنا ليس أهمّ منّا، لسنا محض حجارةٍ لمتاحفهم، ما أرخص الإنسان!!

- متلازمة الاضطهاد المعتادة!!، فالآخر بعبع؛ لأنّه يختلف، هل هبطت متاحفهم وعلومهم من السّماء؟!، في القرون الوسطى، يا صديقي، كانت الأذن الأوروبيّة، البدائيّة، تصغي، بانسحارٍ، إلى مغنٍّ عربيٍّ ترافقه الموسيقا، لأنّهم لم يعلموا، آنذاك، شيئاً عن تعدّد الإيقاع وتنوّعه، لكنّهم كانوا أذكياء، كفايةً، للبدء من نقطة تفوّقنا في كلّ شيءٍ، ما زالوا يفتّشون في تاريخنا أكثر منّا، والكثير من أفكار أجدادنا الملهمة؛ يتمّ نسبها إليهم، ينتحلون إبداعاتهم، ويجرّدونهم من الأسبقيّة والأحقيّة، ويتّهمونهم بأنّهم سعاة بريد الإغريق، أتعرف ما الذي يقوله غوستاف لوبون؟!:

«كلّما أمعنّا في دراسة حضارة العرب، وكتبهم العلمية، واختراعاتهم، وفنونهم، ظهرت لنا حقائق وآفاق جديدة؛ فجامعات الغرب لم تعرف طوال خمسة قرونٍ، مورداً علميّاً، سوى مؤلّفاتهم»

- كتبهم العلمية وماذا؟!، واختراااااعاتهم!! على رسلك يا دكتور، يا حبيبي!، أنا لست حمل الضّحك... صدّقني!

- علام تضحك!!

- على خيبتنا

- آخ، اضحك!!

- عزيزي يامن، لست فقير المعرفة؛ لكيلا ألحظ اجترار هذه الشهادات البئيسة، بوركهارت يقول ما هو أجمل:

«أدرك العربيّ نفسه كفردٍ، في وقتٍ كان الآسيويّون الآخرون لا يدركون سوى أنّهم أعضاءٌ لجنسٍ بشريٍّ»

لكن أتعلم ماذا؟!، إلى الجحيم جميعهم، إلى الجحيم، ما دمت لا أشعر بذاتي، بروحي، بفردانيّتي؛ تلك المذبوحة؛ التي أقرأ عنها، فأكاد أصدّقها!!، لا تهمّني أقوالهم، ما يهمّني هو ما أشعر به حقاً...، أتفهمني!!

- أقدّر افتراضك لسوء النيّة، لكن تأكّد، هنالك من يهتمّ، ويتألّم، ويتخبّطُ لفعل شيءٍ ما، كلٌّ بحسب إمكانيّاته، وتخصّصه، وبالطّبع هنالك، في المقابل، من يستمرّ بسرقة وشراء الاكتشافات والاختراعات، القديمة منها والحديثة، ونسبها لنفسه، كما فعل بيل غيتس رئيس ميكروسوفت؛ الذي كنّا نحسب أنّه المخترع العبقري، للبريد الساخن «Hot mail»، إلى أن كشف الإعلام عن شابٍّ هنديٍّ، تبيّنَ لاحقاً أنّه المخترع الحقيقي... تنظر إلى الجوّال كثيراً!!، خير؟!، مشغول؟!

- لا... لا، أسمعك

- أتعلم!، ما دفعني لإجراء أبحاثي الفرديّة، بسريّةٍ تامّةٍ، وبعيداً عن رقابة مؤسستي، كان خبراً سمعته عن آثار مهرّبة، برموزٍ جديدةٍ، أقرب إلى لغةٍ غير مكتشفةٍ.

- يا سيدي دعهم يسرقوها، ويحفظونها في متاحفهم، أليس أفضل من أن نحطّمها بأيدينا!، تدمر ما زالت تنزف، لم تنسَ ها؟!

- أفهم يأسك، لكن يأسي أنا غير مسوّغ، هل تعلم أنَّ تحليلاتي للأشعّة الرّاديومتريّة، وللقطات الأقمار الفضائيّة، لمنطقتنا، قد عزّزت فكرة وجود حضارةٍ بائدةٍ ما، توصّلت إلى بصمةٍ لونيّةٍ غريبةٍ، مدهشةٍ، لطخة حمراء لم يسبق أن صادفتها، القضيّةُ لغزٌ كبيرٌ بالنّسبة إليّ.

- يااا... رجل!!، لا بأس الخيال مطلوب، أفلاطون ذاته؛ كان قد تصوّر قارّةً مفقودةً؛ فألهمت «أطلنطس» خيال الكتّاب طويلاً، ولربّما ألهمتك أيضاً!!

- العقل الغربي، المتطرّف تحديداً، لا يتقبّل وجود فضل حضاري للآخر، وهنالك فئة عنصريّة، تشتغل بالمحو، والانتحال، والتّهميش، والتّزوير، في الوقت الذي لا يستحضر العقل العربي المتعتع ماضيه إلّا للتّباكي أو التّفاخر، لا يخطر له نبشه والبحث في ميكانيك الانتقال الجبّار، من العماء

الفكريّ إلى تسيّد الحضارة، ولهذا لا يزال بعضنا ينجح بصفتنا أفراداً؛ غير أنّنا سرعان ما نسقط بوصفنا جماعاتٍ

- متأكّد من أنّك موظّف في ناسا؟!

- تسخر؟!

- الفرد في مواجهة الجماعة، وتدوم أسئلة الهوية!

- تأمّل، ترَ القوّة؛ تسوط التّاريخ والحقائق

- ويستمرّ الحيوان المفترس، الأرقى، بتطوير أنيابه ومخالبه، يتسيّدُ الأبيض اليوم، ولربّما الأصفر أو الأسود أو الأسمر غداً!!

- لو صدقت ظنوني يا حسن؛ فسيضافُ فصلٌ جديدٌ إلى التاريخ الحقيقيّ

- آآآآخ!!، يكفي، أتعبتني!!، ألم تتعب!!، لم تكد تصل!

- يا حسن، خائفٌ من اكتشاف الأمر، من افتضاح دراساتي، ومن سريّتها، بآنٍ معاً، لو مسّني مكروه، أنت لا تعلم شيئاً عن السّباقات المحمومة، للسّيطرة على أيِّ كشفٍ جديدٍ

- يا بنيّ، استيقظ!!، مؤكّد أنّك لست بعقلك،... جئت لتموت؟!

- الأمر ليس بهذه الكارثيّة التي تتصوّرها، جئت لأفعل شيئاً، جئت لأنّي اكتشفت، هناك، ما لم يكن بإمكاني اكتشافه هنا، لم آت من أجلكم؛ وإنّما من أجلي، على المرء أن يفعل شيئاً عزيزاً، قبل أن يأكله الدّود، ما بك؟!، ها؟!.... لم أقنعك؟!

- وإذا افترضنا أنّي اقتنعت!، أفتحسب أنَّ الأمر لعبة، البادية رغم الهدوء، الذي يكتنفها حاليّاً، كانت حلبة معركةٍ، شهدت تحرّكاتٍ مريبةً، وزرع ألغام، وصراعاتٍ، ومذابح، وقطع رؤوس، وعن نفسي؛ فيستحيل أن أغامر بحياتي.

- أعرف

- المطلوب؟!

- كلّ ما أرجوه منك، المساعدة في إرشادي، وفق طرقٍ آمنةٍ، لا أريد أكثر من التقاط بضع صورٍ وإحداثيّاتٍ!

- سهل جداً، جداً، يجلبهم «الديليفري»، أو نبتاعهم من عند جارتنا فوزيّة

- ألا يمكن أن نتحدّث بجديّةٍ!!

- «روح عمّي روح!»، ألا تقرأ الأخبار؟!، جد لك تسليةً أخرى.

- ليس سهلاً، أتّفق، لكن ليس مستحيلاً

- أنت جادّ؟!

- ومجنون كفايةً

- لا أعرف!!، لحظة، الرّسالة أخيراً!

- ما الأمر؟!

- صديقٌ أسعفني ببعض المواد المهرّبة المفقودة، زيت وحليب وبعض الأدوية

انكمشت، تضاءلت في الكرسيّ، شعرت بحرجٍ شديدٍ، أين أنا وأين هو؟!، كانت شمس لا تزال منهمكةً في لوحتها، حاولت إضحاكها، وأخفقت، سألتها عن اسمها؛ فغمغمت، بلا أدنى التفاتةٍ:

«ما دخلك»

امتقع صديقي، وتضرّج وجهه حمرةً، قال إنّها بذاك الطّبع، الحادّ، القليل الكلام، مذ قُتلت أمّها أمامها، وإنّها لا تزال تخضع لجلسات علاجٍ منتظمة، شجّعتها بنظرةِ إعجابٍ؛ فانزاحت الأنجم من حدقتيها، هتفت:

«رسّامة عظيمة!»

ولم يكد الزّهوّ يلمع في عينيها، حتّى سألتها ماسحاً شعرها:

- ماذا ستصبحين عندما ستكبرين؟!

- لا أعرف إن كنت سأكبر

- طبعاً ستكبرين

- اسكت!!، أخي لم يولد ولم يكبر

تنهّد حسن، كمن يتقيّأ روحه، همهم بأشياء كثيرة خارج الموضوع، ولم أكد أنشغل حتّى أردف هامساً:

«كنّا ننتظرُ مولوداً، طرنا إلى المشفى ليلتها، لم تقبل شمس أن تفلت أمّها، ظلّت ملتصقةً ببطنها، طوّقت، بذراعيها، أخيها الخبيء، في مقعد السيّارة الخلفيّ؛ كانت والدتي تبتهل، وكذلك والدة زوجتي، تعلم يا يامن كم أحببتها، كان زواجنا أسعد نهايةٍ حدثت!»

تهدّج صوته فجأةً، بمشقّةٍ، ابتلع صمتاً مرّاً، ثمَّ استتلى بنبرةٍ هامسةٍ، كأنّها الوشوشة:

- تذكر البقيّة ولا شك!، كيف قطعت عصابةٌ مسلّحةٌ طريقنا، وكيف وُجّهت فوّهات البنادق نحونا، وكيف أطلقوا، وكيف صرخوا، وكيف صرخنا، وكيف تساقطت حبيباتي حولي بدمائهنّ، وكيف أقلعت نحوهم كالمجنون، وكيف هربت، وكيف...!!

- اهدأ، اهدأ أرجوك

- وكيف...، انتزعوها من جثّة والدتها انتزاعاً!

- يا إلهي!!

- بعد شهرٍ؛ اشتاقت إلى أمّها، طلبت منّي أن أقتلها

- لا بأس عليك

- أنا آسف، مع أنّني تمسحت كما النّاس، لكن...، لا أعلم ما...، ما...

- ابكِ يا صاحبي، ابكِ... البكاء نعمة

التفتت شمس نحونا، باغتت حزننا، طعنتنا بنظرتها الخائفة، ومثلَ أمَّ صغيرةٍ؛ رَفَعَت رسمتها، لتنقذنا ربّما، هتف حسن، بعدما سيطر على اختناقه، كمثل نمرٍ؛ وهو يموّه وجهه بذراعه، ويصفر إعجاباً:

«لقد رسمَتك شمسي، يا يامن»

نظرت إليَّ نسختي الملوّنةُ، بعينيها الجاحظتين، المدوّرتين، ونظرت إلى عيني الصّقر في وجه الطّفلة، كانت رسمتها أجملَ منّي، وكانت أجمل من رسمتها.

جلسنا زهاء ثلاث ساعاتٍ، تخلّلها العديدُ من النقاشات، والمناهدات، اكتست سحنته فيها، وهناً وكلالةً، توصّلنا إلى صيغةٍ، مرضيةٍ، بما يكفي ليطمئن؛ فيما وعدني بأنّه سيطلبُ من صيّادين يعرفهم، اصطحابي، مقابل أجرٍ مرتفع؛ وذلك بحجّةِ شراء الأغنام لمزرعةٍ، أنوي تأسيسها، من بدويّ مرتحلٍ في البادية، أردف بعد تفكيرٍ:

«طبعاً أنت لن تجد البدويّ؛ لأنّك ستنسى الطّريق؛ الذي وصفه لك، ستقودهم وفق المسار الذي وضعته مسبقاً، وبما أنّك من هواة التّصوير؛ فسيغريك التقاط الصّور عند كلّ موقعٍ، بمصادفةٍ محضةٍ جدّاً»

عانقته بحرارةٍ، وعانقت شمس؛ التي أحاطت عنقي بذراعيها، على نحوٍ مفاجئٍ، حسن الشّهم؛ لم يسمح لي بإيجاد فندقٍ، أقسمَ أنّي لن أجد ربّة منزلٍ، أفضل منه، وأنّه يجيد إعداد «الملاحيّة» أيّما إجادة، في سيّارته العتيقة، لم أسمع شيئاً من مرويّاته، كنت مرهقاً، ومهدوداً إلى أبعد حدٍّ، غير أنَّ ذلك لم يمنعني من فتحِ الجوّالِ، خلسةً، وإرسالِ الرسالةِ الخاطفةِ:

«ريتا العزيزة... لقد نجحنا»

خيطُ القدر الأحمر

تزوّجت مرّةً، وأخفقت، كرّرت التّجربة، وأخفقت، خضت في الكثير من العلاقات العاطفيّة؛ فاتّفقت كلّ الجميلات؛ اللواتي أحببنني، على أنّني محض شبح، كياني، على الدّوام، في مكانٍ بعيدٍ، تبرّمت إحداهنّ، اتّهمتني بأنّي لا آخذ الأشياء على محمل الجدّ؛ فأحدّق إليها من خلال عدسة، بتأثيراتٍ عجيبةٍ، تفلتر الجمال السّائد، وتخنقه، واتّهمتني أخرى بأنّي مدمنُ صور، فضائيّة، جويّة، فوتوغرافيّة، لوحات فنيّة، وأنّي أحاول التّأكيد على واقعيّة العالم، من خلالها، لم أخبرها، يومئذٍ، أنّ العالم منفى كبير؛ يتكسّى بقشرةٍ برّاقةٍ من الحضارة، والعبقريّة، بيد أنّه، في العمق، محض طبقات خفيّة، بصليّة، هرمية، صراعات، علاقات عامّة، وحشة، فراغ، خوف، خوف، خوف.

إن أنسَ؛ فلن أنسى نظرتها الجارفة، الأشبه بالاقتلاع، لم يخطر لي أنَّ البنت نسمة، كانت الخيط، القدريّ، العجائبيّ، الذي سيوصلني إليها، الحياة توليفة طفليّة بامتياز!!

في آخر مرّةٍ، زرت فيها البلاد، اختبرت شعوراً ساحراً، لا وصف له، وأجزمُ أنّ الفنون والآداب، إنّما نشأت في ظلّه، من وحيه، وبغية لمسه، أو تعريفه؛ حدث ذلك منذ سنواتٍ طوال، أحسست أنَّ شبحيّتي تتكسّى، أمامها، لحماً ودماً، كانَت امرأة، عاديّةً، تتهادى أمامي كالقدر، بحقيبةٍ جلديّةٍ لامعةٍ، وبمعطفٍ من الكتّان الزّيتونيّ، بزغت، دفعةً واحدةً، وكأنْ من الغيب، كانت تنَشّفُ جفنيها البليلين، بكمِّ معطفها الطّويل، لم تكن بجمال الحسناوات اللّواتي عرفتهنّ، غير أنَّ شيئاً فيها كان طاغياً، ومشعّاً، وحقيقيّاً جدّاً، لحظة تعثَّرت، وسقطت، تعجَّبت ممّن وضع حجراً، وسط الطّريق، تساءلت، منفعلاً، كالغافلين، لم يخطر لي أنَّ القدر من فعل؛ السَّاحرُ الذي يَدهمنا، عادةً، حينما ننساه، تابعَ النّاسُ مسيرهم، وخلفهم، تخامدَ التعاطف:

«أنت بخير؟»

«بسيطة»

«الله»

حين مددت لها يدي، لمحت الوجهَ؛ الذي لن يغيب عن خاطري بعدها، لملَمت المرأةُ نفسها، من دون مساعدتي، نهضت، استدارَت، ربّما لتشكرَ ذراعي الممدودة، لكن ذهولي لم يُمهلها، عرفتها؛ فشهقت، وبتخوُّفٍ تراجعت إلى الخلف، ثمَّ تصنّمت، مثلَ منحوتةٍ، مكّتتني من تأمّل زهرة جيدها، والفراشة التي حطّت عليه، ومن اكتشافِ عينيها جيّداً، بحيرتانِ رحبتانِ، من الكبريت الملتهِبِ، تبرقان، وتخبوان، عينان فظيعتان، تطلاّنِ على عالمٍ آخر، صافٍ، رؤوف، كانَ من الصّعبِ إقناعها بأنّي لا أتملّاها، وإنّما أتملّى ذلك الصّفاء، أشاحت وجهها؛ فانتبَهت إلى أنّني الأحمقُ، الذي ينبغي له أنْ يُغادِر، بيد أنّ أصابعي غافلتني، اندفعت نحوها، لمستها، وكأنّها تتحرّى تمثالاً خزفيّاً، ارتعدَت، ارتعدت، اعتذرت، من دونها كلماتٍ؛ لكنها هرولَت مذعورةً، تتبعُها دِفلى الطَّريق، انعطفت يساراً؛ فيما حقيبتها تنزلقُ حتى المرفق، وشعرُها يغرقُ، مثلها، في قلبي، وقت اختفت، انتبهت إلى ظلال العابرين؛ وهي تتراكضُ، بخفّةٍ، أمامي، لم أقوَ على النّطق، لم أصحُ لأتبَعَها، كان انسحاراً مخيفاً، لا تفسير له، أيقنت بعده؛ أنَّ الدَّهشَة المخبَّأة في مكانٍ ما، هي تحديداً الهدفُ؛ الذي وجدنا لأجلهِ.

بحثت عنها، ولربّما عنّي، بحثاً مجنوناً، يألفه الغرباء، والضّعفاء، والمنفيّون، والهاربون، واليائسون، والموتى، لم أتركها، طوال إجازتي، راقبتها؛ وكأن من خلف بابٍ مزجّجٍ، كنت شبحها اللّصيق، عرفتها أكثر؛ فكانت، تماماً، كما شرحت نفسها في سطوعها الأوّل، وفي يوم، لحقت بها إلى زقاقٍ معتمٍ، كانت شمساً شديدة التوهج، وكنت الظّلامَ المتخفّي، الذي يتبعها، اختلطَ الماءُ بحزمِ الضّوء المنكسرة، تحت أعمدةِ الإنارة، كل شيءٍ فيَّ؛ كانَ يطلبُ منّي أن أركضَ خلفها، وأختطفَ يدها المضمومة الأصابع، أن أشحذَ طاقتي، وأصرخَ بالسّؤال، من دونما وجلٍ:

«ما الذي فعلته بي؟!»

لكنّني لم أفعل، لقد اكتفيت بالإصغاءِ إلى وقعِ خطواتها المبتعدة، حينما غابت، ارتخت ذراعي المتشنّجة، وهبطَ وجهي، حتى قلبي خذلني، هلّلَ لجبني، وآثرَ ألّا ينتكسَ مجدّداً، اكتشفت آنذاك، أنّني لا أختلفُ كثيراً عن سمكِ الرّوبيان، قلبي المغفَّل يقعُ في عقلي، تماماً، وهذا عارٌ لا يليقُ بالعاطفة...

تلك الأيّام القليلةُ؛ التي تحوّلت فيها إلى معتوهٍ، مضحكٍ، كانت أجمل أيّام حياتي، وإنّي لأحسبُ أنَّ ما أحسست به حينها، لم يكن شعوراً بشريّاً، على الإطلاق، وإنّما كان نشوةً إلهيّةً، تتدفّقُ في لحظةِ تحقّقٍ وإدراكٍ، خيطاً أحمر، يعلّق هذا العالم، بآخر أسمى، حاولت، أن أمنطق ما حدث، وأن أغزل من تلك الخيطان نسيجاً مفيداً، لكن، عبثاً، عبثاً، ظلّت قصّتي سرّاً، إلى أن نبشها محمود، يوم سألني عن ذلك الوجه الذي لا أرسم سواه، لم يكن محمود صديقاً عاديّاً، كان يخفي خلف بزّته الرّسميّة، وشَعره المصفّف، ودماثته الفائضة، فلسطينيّاً ثائراً، وابن قضيّة، كان رجلاً حقيقيّاً مثل حسن، حتّى حينما وقع في غرام يهوديّةٍ من أصلٍ فلسطينيٍّ سوريٍّ، بلغ من التّمزّق مبلغاً رهيباً، لم يشأ أن ينقله إليها، وإنّما آثر الابتعاد، حفرنا بيننا مجرىً للحزن، وطويلاً رحنا نرقبُ ذلك التّدفّق النهريّ، ونهبه زوارق أسرارنا، لكيلا نغرق فرادى...

غمس حسن قطعة الزلابية، المقليّة، بالدّبس، ودفعها نحوي معتزّاً:

- تذوّق وأعطني رأيك

- يعطيك ألف عافية، تبدو شهيّة

- صحّة وهناء

- هلّا أعطيتني أنت رأيك، بسؤالٍ خطر لي!

- وهو؟!

- أتعتقد يا صديقي أنّه داخل كلّ إنسانٍ منّا، إنسانٌ بحجمهِ حقّاً؟!، بطوله؟!، بوزنه؟!

- ما هذا السّؤال!!، لو كانَ الأمرُ كذلك، لما بدا العالمُ مزيّفاً، على هذه الشّاكلة!

- هنالكَ الكثيرُ من الخواءات، عقول وقلوب وأرواح فارغة، إنّها مصدرُ القعقعةِ، والجعجعةِ، كلَّما عصفت ريح الشّر، تخشخشُ في أيدي الجميع، إنّها أخفُّ بكثيرٍ من المحافظةِ على ثباتها؛ لهذا تمسي أدواتٍ سهلةً، ووقيداً رخيصاً، للحروبِ، والأذيّات، والجرائمِ، أصحابها، في الواقعِ، ليسوا المذنبين، المذنبُ الحقيقيُّ؛ هو الجوع؛ الذي عزَّزَ ذاكَ الفراغ، وهنالكَ في السُّلالةِ البشريّةِ مجرمونَ كبار، يعلمونَ أنَّ إشباعَ القلوب، والعقول، والأرواح، يعني سلبهم جيشهم الأثير، وبالتّالي هزيمتهم.

- نظرية تستحق التفكير

- وكما تعلم، الجوع لا يتعلَّق بالمعدة وحدها، قد ينهشُ الرُّوحَ أيضاً، بدليل ذلك الضّمور القيميّ والعاطفيّ؛ لهذا لا تتعلَّقُ السَّعادةُ البشريّةُ بالرّخاء المادّي والتكنولوجيّ، وإلّا لانتفت حالات الانتحارِ، مثلاً، من الدُّولِ المتقدّمة، مهما كنت عظيماً، بشهادةِ الآخرين، فقد تتآكل من الدَّاخلِ ببطءٍ؛ لتمسي هيكلاً فحسب، فزّاعةً آدميَّةً تهشّ عيونَ المتربّصين.

- قد يكونُ هذا النَّوع، من التجويع، في عالم السّلطة والمال، ولكن لن تستطيعَ أن تنكر بأنَّ الشرَّ أيضاً، متأصِّلٌ كالخيرِ تماماً، في ذواتنا، وليسّ كل شرٍّ، بالضَّرورةِ، أداةً في يدِ شرٍّ أكبر

- ربّما لا يكونُ الشَّرُّ الأكبر بشراً آخرين، قد يكونُ لذَّةً أو رغبةً أو منفعةً أو مرضاً فعليّاً في النّفسِ، المهم أنَّ هنالكَ دافعاً ما؛ فالتّاريخُ مليءٌ بنماذج ذبحت ونكّلَت، من دون أن تشكَّ في أنّها تخدمُ «مبدأ» أو «إيماناً»، الشَّرُّ؛ أن أُصبحَ وحشاً لأيِّ سببٍ.

استسلم لسعالٍ جافٍّ حادٍّ، رشف رشفةً من كوب الشّاي، ثم اضطجع على الأريكة، واجماً، أطلق تنهيدةً غادرةً، وأغمض عينيه، رفعت السيجارة بإصبعيّ،

كمن يوشك يلقي خطاباً، غير أنّي سكتّ فجأةً، ما أتفهني!!، كيف اجترأت على تكلّف مثل ذاك الترف الفكريّ، المرّيخيّ، العديم الإحساس!!، شعرت بأنّه يتقطّع، بشفرات الهموم، العميقة، المستخفية، خرجت بالكاميرا إلى الشّرفة، كان الجمال وعراً، معقّداً، ولا يمكن شرحه؛ فالزّهر الأبيضُ يجلّل شجرة، البيلسان، والزّرقةُ السّماويّةُ؛ تكاد تسيل على الأبنية الكالحة، ومعلّقات «الشّكريّة» و«الونكه» الملونة؛ تتدلّى من إحدى الشّقق، لتلمس الياسمين العراتلي، العراقي، المتعمشق على الجدران، لم يكن هنالك من أغانٍ، في تلك الظّهيرة، الصّاهدة، الصّامتة، غير أنّي سمعت أسمهان تتدفّقُ من روحي، مع صوت عودٍ، خياليٍّ، خفيتٍ:

«يا بدع الورد... يا جمال الورد».

وبغتةً توقّف العالم، ومات كلّ شيءٍ، لقد رأيتها، رأيتها حقّاً؛ تسمّرت، مبهوراً، مبهوتاً، شعّت الجمرةُ في صدري، لقد ظهرت على العدسة، بهدوءٍ، بكامل حقيقتها؛ المرأة التسونامي، ذاتها؛ التي لم أفتّش عنها بعد، ولم أدر في الأزقّةِ والشّوراع، بحثاً عن اسمها، لم أقو على التقاطِ نَفَسٍ أوصورةٍ، رشّت الماء على أزهارها، ثمَّ دخلت، وخلّفتني وراءها، كومةً من ذهولٍ، رحمااك أيّها الخيط الأحمر!، انعقد لساني، شلّتني، وما عدت قادراً على حمل يدي؛ فهبطت، ولم أكد أستعيد وعيي، حتّى دخلت مصعوقاً، باذلاً جهداً مهولاً؛ لكيلا أبدو كذلك، نزَّ صوتي مخنوقاً:

- حسن!

- ....

- يااا حسن

- أممم!!

- قم يا أخي، باللهّ عليك؟!، نمت؟!، انهض!

- ماذا حدث؟

- من يسكن قبالتكم؟!

- أين؟!، ما الذي تعنيه؟!

- هنااااك، هناك، في البناء المقابل

- في أيِّ بناءٍ؟! في أيِّ طابقٍ، في...

- ماويّة الواثق؟!، يوجدُ أحدٌ بهذا الاسم؟!

- ها؟!، تعرفها؟!

- أجب رجاءً!!!

- يسعد عينها، إنّها طبيبةُ شمس، نعم أمامنا تماماً، من أين...

- بربّك؟!، يسعد عينك أنت يا حسون، يسعد روحك!

- ما بك؟!، ماذا دهاك؟!، قبلة أيضاً!، والضّمور القيميّ والعاطفيّ؟!، إلى أين تذهب!، انتظر، يااامن!!، يا...

أبيض وأسود وناريّ

حبست أنفاسي، التصقت قبضتي ببابهم، صرت كلّي قلباً، انقباض، انبساط، لكم تشهّت جبهتي، لو تستند إلى حرارته، بضع ثوانٍ!!، لتستريح من هذا العالم، وأستريح، خدّي لم يفكّر، تحسّس، وهلةً، جلد الباب، كان ينبض، هو الآخر، كرقّاص ساعةٍ، تسلّقت النّارُ خشبتَي ساقيَّ، انتزعت وجهي مذعوراً، لا أذكرُ ماهيّة الماء، الذي جعل يقطر من ذقني، ولا كم من الوقت أمضيت هناك، وما الذي كنت سأفعله لو انفتح الباب بغتةً!!، اقتلعتني من خشبه، كما المسمار، عدت أدراجي خبباً، ونشّفت خيبتي بالمناديل؛ خيبتي التي استمرّت بالهطول، وبالجريان، وبالسّقسقة.

ما هو أسوأ شيءٍ في الوجود؟!؛ أنْ يشعرَ المرء بأنَّه جيفةٌ سخيفةٌ، تتقاذفها المصادفات، والاحتمالات، والأنظمة، والتقاليد، وكلّ الأصفاد التي صنعها الآدميّونَ، لكبحِ فطرتهم العميقة، وأنَّ عليهِ ألّا يستنزفَ نفسه؛ وهو يجهدُ كيما يكون حجراً صغيراً، في وجهِ سيلٍ جموحٍ، تكرارُ الهزيمةِ، بالطَّريقةِ ذاتها، أكَّدَ لي أنَّ البشر أرخص، وأضعف، وأغبى، ممّا يعتقدون.

ومشيت، ساعاتٍ، في وحشة المدينة، خثرةً تسبح، في ذلك الموت، المقنّع، الهادئ؛ الذي يتمدّد، كنت أتحرّر منّي، مع كلِّ خطوةٍ، وكأنّني مقودٌ إلى الاضمحلال، وكأنّني أندمجُ بتلك الجنازة الخفيّة، المتّفق عليها، أمام متجرٍ للملابس الفخمة، التقطت امرأةٌ خبزةً، قبّلتها، وضعتها على رأسها، ثمَّ على حافّة السّور، جاء عصفورٌ، نقرها نقرتين، وطار، جاء طفلٌ، مسحها ببنطاله الأسحم، وأكلها بنقرةٍ واحدةٍ، وفي آخر طريقٍ من قططٍ، كانت حاوية القمامة تهتزّ، وتترنّح، انتظرت أن تنطَّ في وجهي، قطّتان أو ثلاث؛ فتعالى رأسُ رجلٍ، ثمَّ كتفاه، ثمَّ خصرٌ ذابلةٌ، أخفضت ناظريّ، وأخفض ناظريه، أسبلت جفنيّ، وأسبل جفنيه، حتّى كدنا نختفي، أحدنا

داخل الآخر، في اللّحظة ذاتها؛ مضيت بخجلي، واختبأ بخجله، شعرت، فجأةً، بأقدامٍ تتبعني، أنعطف؛ فتنعطف، أتمهّل؛ فتتمهّل، خفت، لكنَّ حزني كان أقوى، استرغمت خطاي على المضيّ، فكّرت في الفتى المهذّب؛ الذي كنته، كيف انهار، مغشيّاً عليهِ، بعد مقتلِ حبيبته، على يد أخوتها، إثر دسائس الجيران؛ التي طعنت شرفها، وكيف توعّدهم بالانتقام، واستحالَ وحشاً، محروق القلب، فكّرت في أمّه؛ التي انهدّت، وأرسلته إلى أخوالهِ في العاصمة، علّه ينهي الثانويّة العامة؛ كيما يُسجِّل في اختصاصٍ ما، في الجامعة، غير أنَّه كانَ ضحيَّة الشُّعورِ بالظُّلمِ، وبالذّنبِ في آنٍ؛ إذ لو كان قد استجابَ للفتاة، وهربا معاً، لما ماتت، ظلَّ يلهجُ باسمها، ويهصرُ بين كفّيّه عقد الفراشة، الذي اشتراه لها، ويقسمُ كلَّما ارتجفت شفتاه، بالثَّأرِ لمبسمها، سقطَ عامينِ متتالين في المدرسة؛ وهو الذكيُّ النجيبُ، وفي الثالثِ نجحَ، وعزمَ على الرّحيل، وقبل أن يهاجر بأيّامٍ، قالوا له إنّ نسمة؛ قد تقمّصت جسد طفلةٍ في قريةٍ بعيدةٍ، ضحك غير مصدّقٍ، غير أنّه قد ذهب، بالتّأكيد، وكيف لا يذهب**!!**، ذهب ليجد نفسه أمام طفلةٍ يتيمةٍ، في غايةِ النباهةِ، واللطف، مشت نحوه؛ وهي تقضمُ رغيفَ خبزٍ، تعطَّلَت أمامها حواسّه، حملق فيها، وكأنّه ينظر إلى حلمٍ، ثمَّ عانقها، وبلا صوتٍ اعتذر منها، اعتذر كثيراً، وبكى، فكّرت برجل الحاوية، فكّرت في حسن، فكّرت في الزّيت والدواء، فكّرت في محمود؛ الذي لا يردُّ على رسائلي، على غير عادته، في هاتفه المقفل، بريتا التي لا تردّ مثله، وبعد كلّ ذلك التّوهان، فكّرت في يدها، تساءلت طويلاً إن كانت قد لمست الورد الذي رشّته**!!.**

عند الغروب؛ رأيت صبيّتين؛ تعزفان على آلتي كمانٍ، وحولهما جوقةٌ من طيور الستيتيّة، بدا أمراً مبهجاً، وغير مألوفٍ، لكأنَّ القدر ينسجُ سجّادة البلاد بخيطين، متلازمين، أسود وأبيض، موت وحياة، خلف المنعرج، وعلى كومةِ رملٍ، أمام مبنى، غير مكتمل، صوّبَ طفلٌ، حافي القدمين، غصنه اليابس إلى أعلى؛ حيث العامل المحنيّ، على «السّقالة»، وصاح:

«طاخ... طاخ... طاااخ»

احمرّت السّماء بغتةً، توقّفت، تمليّت، خطفاً، قدميه العاريتين، تلمّست محفظتي، لكنّي خجلت، وتراجعت، ومجدّداً لم أقو على النّظر، كدت أتابع المسير، على وقع طلقاته، المجلجلات، الممتزجات بالنّغم البعيد، لولا أنّ الرّجل في الأعلى، قد فقد توازنه، فجأةً، وسقط، سقط في بركةٍ من الدّم، سقط في موته الخاصّ، سقط أمام قدميّ، لتسدّ جثّته طريقي، حينها صاحت القدمان، العاريتان، الرّاكضتان:

«باباااااا»

وتوقّف مباغتاً... صوت الكمان.

غرانيت أحمر

بكمّامةٍ مستديمةٍ، وبوشاحٍ صيفيٍّ؛ يغطّي أسفل الوجه، شرعت أتنقّل كالمخبرين والعسس، عدت بلون البادية، وبرائحة الشّيح والرّغل الملحيّ، وبحروقٍ أخدوديّةٍ، تتمعّجُ على وجهي، وعنقي، وذراعيّ، كان الرّمل ينثّ من ثيابي، لم يكن يومنا الأوّل موفّقاً، ولا الثّاني، ولا الثّالث، في الرّابع انطلقنا مع انبلاج الفجر، تهنا كالعادة، وسط نباتاتٍ عملاقةٍ، طافيةٍ فوق الأرض المحجرةِ، كما زنابق الماء، أو كما دعسات أشباحٍ خضرٍ، بدا الخواء؛ مسكوناً بأرواحٍ تنقّلها الرّيح، كمثل فرسٍ صهّالةٍ، كلّما زفرت، شهدنا تحرّكاتٍ مسلّحةً، وأخرى رعويّة، أرتال بعيدة، دوريّات، قوافل دواب، عقارب، وبعد جهدٍ جهيدٍ، عثرت على الموقع الأوّل، أحسست، لحظتئذٍ، بأنّي أحلّق، تستّرت على فرحتي، بشقّ الأنفس، غافلت الرّجال، تركتهم في كنزٍ من الكمأة المتأخّرة، والطّيور الوافرة، وتسلّلت نحو هدفي، حملني إليه المسار الإحداثيّ؛ الذي جهّزته مسبّقاً، في سياق خريطةٍ مفصّلةٍ للمكان، ثمَّ ابتعدت نحو عمقٍ، شديد الوعورة، لأوثّق امتداداً كريستاليّاً، غير قابلٍ للتّصديق، لفلزّاتٍ عجيبةٍ، منعجنةٍ بالصّخر، محفوفةٍ بلطخاتٍ غرانيتيّة حمراء، محتجبة طيّ تجويفٍ صخريٍّ، أقرب إلى الوهدة، وكأنّها قممُ أعمدةٍ أو أقواسٍ، غامرت، دنوت، فتّشت، حفرت بيديّ، وشيئاً فشيئاً؛ تبدّت التّفاصيل المستخفية، صوّرت الكتابات، والتّصاوير النّافرة، والرّموز اللّولبيّة الغريبة، ودوّنت بيانات المكان، بدقّةٍ، لكنّي لم أجرؤ على الأكثر؛ لكيلا ألفت أنظارهم، وبدأت المهمّة تأخذُ منحىً تصاعديّاً، كلّ ساعةٍ، مع كلّ نظرةٍ، مع كلّ سعلةٍ، مع كلّ سؤالٍ، مع كلّ صمتٍ.

بدأت شمس تألفني؛ لا حبّاً بي، وإنّما بالصّور التي ألتقطها لها، بالوضعيات الكثيرة، بالفساتين النّاعمة، برفقة دميتها المحشوّة، أو مع حبيبها حسن، وقبل أن

يحملها إلى سريرها العالي؛ علوّ سرير «بنت الملك»، كانت رسالتي قد طارت، بضغطةِ إصبعٍ:

«ما بك يا محمود؟!، لماذا لا تردّ يا رجل، كن بخير يا صديقي، أرجوك!»

لم أبرح الصّالة، كنت كلّي عندها، في ضوء شقّتها، على حيطانها، في لافتة النيون؛ التي تشعُّ باسمها، بلا كهرباء، توحّدت مع ستائرها، وظلالها، ومرورها الخاطف، الجانبيّ، كما لو كنت أرقبها، من خلف زجاج مخيالٍ، لم تكن حلوةً، كما أسرّت لي ريتّا، لقد كانت الجمال الخام، كلّه؛ الذي أسرني أوّل مرّةٍ، فتحت النّافذة، أسندت ذقني إلى حافتها؛ فتدفّق هواءٌ، منعشٌ، ابترد صدري، دفعت يدي نحو الأصيص الوحيد، قطفت ورقتي حبقٍ، فركتهما بين راحتيّ، واستنشقت لأصحو، غير أنّ العبير دوّخني أكثر، أغمضت عينيّ، لأستعيد تلك اللّحظة السريّة؛ التي لمست فيها بابهم، استعرت، وكأنّي أتذكّرُ عناقاً، تمرّنت، في خيالي، على لقائها، عدّلت سيناريوهاتي الجاهزة، ثمَّ نسفتها، ثمَّ عدّلتها، اشتعل الرّصاص فجأةً، من سيّارةٍ عابرةٍ، تلاها صوت انفجارٍ كبيرٍ، انتفضت مذعوراً، نظرت من النّافذة، غير أنّ كلّ شيءٍ قد عاد طبيعيّاً، بلمح البصر، ارتطم كوعي بكوب الماء؛ فسقط وانكسر، هرع حسن، ضاحكاً، يطمئنني:

«صوتيّة، لا تخف، القنبلة... صوتيّة»

لم أعلّق، حاولت جمع الشّظايا بيدي؛ فجرحتها، بت أكثر توتّراً، غير أنَّ صديقي سرعان ما عالج الأمر، رغبت في أن أسأله؛ كيف يحافظُ على توازنه وبشاشته، ولكنّه سبقني بالسّؤال:

- ستذهب غداً أيضاً؟!

- بكلِّ تأكيدٍ

- يفترض تغيير الأشخاص؛ لئلّا تثير الرّيبة

- يا حسن!!، ما من داعٍ لتغييرهم؛ فالمال يعمي البصيرة!

- صحيح، معك حق، لكن قلّي، ما قصّة الدّكتورة ماويّة؟!

- البتّة،....، بيننا صديقة مشتركة، صدّعت رأسي، تريد عنوانها، ورقم جوّالها، و...، أخذته من البقّال، إنّ خلاصي من إلحاحها؛ لأمرٌ عظيمٌ.

- بعت بيتي، واشتريت شقةً قبالتها، لتعلّق شمس بها

- أوف!، فعلاً؟!

- أدين لها بالكثير، تصوّر!!، عاشت شمس، طويلاً، من دون صوت، من دون تعابير، من دون مشاعر، بنوبات بكاءٍ هيستيريّةٍ، جلت معها البلاد، طولاً وعرضاً، ولم تنفع معها الأدوية، هذه المرأة نجت من الموت بأعجوبةٍ؛ لتنقذنا من الموت بأعجوبةٍ، إنّها ساحرة يا رجل، وليست طبيبة!!

- أعرف!

- تعرف؟!

- الأطبّاء الخبراء، كلّهم هكذا

- صحيح، تضمّها وتهمس في أذنها: «أنا معك لا تخافي»، بلمسة يدٍ تتغيّر البنت، وأتغيّر أنا، وتتغيّر الدّنيا، تعلّمها كيف تضحك، وتعلّمها كيف تبكي، لكن للأسف!، عبقريّتها العلاجيّة لم تحمها من الخيبة.

- كيف؟!

- قصّة طويلة!

- شوّقتني يا رجل

- دعنا منها الآن

- يا عمّي احك!!

- كأنَّ شمس تنادي!

- متى موعد الزيارة التّالية؟**!**

- غداً، لكن موعد غسل كليتي أختي، في التوقيت ذاته، سأطلب تأجيلاً جديداً

- أصطحبها أنا، إن لم تمانع**!!**

- يا رجل؟**!** نسيت رحلتك؟**!**

- أشعر بوهنٍ مفاجئ، يبدو أنّني موعكٌ قليلاً، أفكّر في تأجيل الأمر

- عموماً؛ موضوع شمس ليس ملحّاً

- لربّما أحرجتك، أعتذر**!**

- لا، البتّة، لكن تعلم**...**، وضعها الخاص

- نعم، أفهم ذلك

- تخيّل**!!** نسيتها، لا تريدُ أن تنام قبل أن تريك فستانها الجديد، تطمعُ بصورةٍ، بالإذن منك**!**

قام، ولحق بها، وبعد دقائق، كانت شمس تتمايل، بفستان أبيض مكشكش، قبالتي، كأنّها أملٌ مصفّى، حملها، وطوّحها بين يديه، مداعباً، ثمَّ هتف**:**

«وافقت الأميرة شمس على الذهاب معك!»

الدّرجة التّاسعة

طقوسُ التّجلّي

«أن يكون المرء؛ هو أن يُرى»

خورخي لويس بورخيس

صحوة

جافاني النّوم ليلتلها؛ أرّقتني صورة الرّقيم، التي شاهدتها، في أحد المواقع الالكترونيّة، العالم بحاجةٍ ماسّةٍ إلى الاحتضان، كجرعةٍ أدنى من العلاج، ربع مليون كتاب عن السّعادة، ارتفاع نسبة التّساؤلات، عن طرائق الابتهاج، في محرّكات البحث، شعوبٌ، بأكملها، فقدت المقدرة على الابتسام، يبدو أنّنا؛ نحن البشر، تعساء بالفطرة، وحينما لا نجدُ ما نُفسِده؛ فإنّنا نُفسِدُ بهجتنا، نتعاركُ على ألف التّفضيل، «أفضل» و«أغنى» و«أقوى» و«أجمل»، ننقضُّ، بما أوتينا من حيلٍ، على براءتنا، نحاربُ بؤسنا بالصُّور؛ نجفِّفُ البسمات والفرحات والشّباب، نجمّدُ كذباتنا كيما ننتشي، إنّنا نحنُّ إلى من لم نكنه، إلى أنفسنا التي تخيّلناها، نتعاركُ ولو على خيالاتنا؛ فاليابسةُ التي قطّعناها، فراغيّاً، بالحدود، لمّا تزل، تقطّع لحمنا، بالأسلاك الشّائكة، ارتجفت الجدران، من حولي، فردت بصري فوق زياد؛ المكوّم في سريره الطّبيّ، أصغيت إلى شخراته، الطّويلات، نظرت إلى السّقف البارد، تماماً مثلما كان ينظرُ إليّ، حاولت تخليق أحمر، حاولت، حاولت؛ فقد كنت بحاجةٍ إلى عكّازةٍ لروحي، تكبكبت تحت الدّثارِ، كما القنفذ، وارتجفت.

لم تمضِ ساعةٌ حتّى أزحت السّتائر، وإذا بالفجر يجلو العتمة، كان هنالك سحابةٌ واحدةٌ، وكأنَّ السّماءَ تستجمعُ روحها من جديدٍ، لتلهمني، أو لتركّز جمالها، كالطّاقة، في وهني، طفقَ اسم ريتا يكبسُ على صدري، شعرت بحاجةٍ ماسّةٍ إلى محادثتها، إلى البوح، إلى الشّكوى، كيف أنكر ما بيننا من انطباقات وتقاربات وكتب**!!**، اتّصلت بها، ولم تردّ، عدت إلى صورة الرّقيم مرّةً أخرى؛ تبدّت لي نسخةً، طبق الأصل، عن الحجر الذي سبق وصوّرته، في عمود دارهم، الكتابة ذاتها، لكن من أين جاءت الكتابة العبرية، في أسفله**!!**، الصّورة مرفقة بمقالةٍ، في مدوّنةٍ

إسرائيليّةٍ، كذّبت مزاعمهم، حول أسبقيّةٍ وجوديّةٍ، أقنعتني أنَّ التّزييف صوريٌّ وحسب، وأنَّ الأمر محض تشابهٍ، صبّرتني إلى وقتٍ، غير أنّي سرعان ما نهضت مذعورةً، لململتني، تفقّدت أنفاس زياد، غطّيت قدمه، شغّلت الحاسوب، بحثت عن صورةٍ مطابقةٍ، وبدأت معادلات المقارنة، لم أرغب في التّصديق، أحدهم ولاشكّ قد حوّر الكتابة، ببرنامجٍ لتعديل الصّور، تذكّرت صدقها، طيبتها، كياستها، عونها لي، ابتسامتها؛ التي تبدأ من الفم ولا تنتهي عند العينين، تذكرت إيماني بها، إيمانها بي، بكيت، بمرارةٍ، ويدي فوق فمي، كشمعةٍ قصيرة العمر، انطفأت، وذبت.

مع اشتداد الصّبح؛ كانت خصلات الشّمس؛ تطفرُ من شفرات الستارة المعدنيّة، حينما توهّج الطّيف، على الضّفةِ الأخرى للطّريق، فوق، في الشّرفة المقابلة، الطّيف الذي يُصلح كلّ شيءٍ، ويصالحني مع لغة العالم الغريبة، تكوكب كمثل سحابةٍ تتخلّقُ؛ لتروّي كفاف الرّوح، شهقت، فركت عينيّ، التصقت بالشّباك، وتراً يرتدّ إلى قوسه، عالجت اضطرامي، وتهدّل أجفان السّتارة، عاينت وقفته؛ وهو يرابض بالمكان، هفهفة قميصه، الخمريّ، نصف الكمّ، تمليت إضمامة يديه، وكأنّي أرسمه، انتشيت، شبَّ قلبي كالنّار، لم يبدُ أنّه أضغاثُ تشهّياتٍ، بدا وكأنّه يتجرّد من حلميّته، ويتكسّى واقعيّةً موازيةً، لم أشبع من تأمّله، كان في أصفى تجلٍّ له وأنقاه، نظر نحوي، شعشعت نظرته نصلَ ضوءٍ؛ فخفق حولي جناحان شفيفان، خيّل إليّ أنّني أرتفع، سالت الرّيح بيننا، وكأنّها تتعمّد فضح سرّانيّته، وبغتةً خرجت شمس، لم ينطفئ، في حضرتها، لمعةً خدّاعةً، لم يختفِ، كلّمَته، يا إلهي!!، كلّمَها، مستحيل!!، الوهمُ يتضخّم، يبتلعُ تركيزي، تراجعت إلى الخلف لأسكت طبلَ صدري، لأحبطَ صدق تلك المشهديّة، تهاويت على الأريكة، علّني أفيقُ من الخدعة، لم أنظر مجدّداً، خفت، تخشّبت مكاني، وكيما أُخمد تلهّب كياني، هربت إلى صنبور الماء البارد، رشقت وجهي بالصّحوة، ثمَّ أخذت حمَّاماً صاعقاً، لأسلخَ تأثيره عن جلدي، لم أُذعنْ للورد، الذي زهّر على بشرتي القاحلة، مثل الأغلاط، قشّرت بتلاته، تمسَّكت بتصحُّري، لكنَّ العواطفَ الولود، كنَّ قد رشحن منّي، كما بخار الماءِ على الزُّجاجِ المغشَّى، بدا لي أنَّ بذورَ الانسحار،

بالمجهول والغوامض؛ التي أورثتنا إيّاها الطَّبيعة، بطريقةٍ ما، إنّما تتحيَّنُ الفرصة للنُّمو، للاستطالة والتشابك، إلى حدِّ مواراتنا خلفها.

قبلاً؛ وعلى الرّغم من كلّ ما احتملته من التباسٍ، كنت على يقينٍ؛ بأنَّ حكايتي محضُ خيالٍ زائفٍ، وأنَّني مهما عَظُمَ، ماضيةٌ إلى تطويعه، لكنَّني سرعانَ ما وجدتني، دفعةً واحدةً، أمام ألغازٍ أعمق، قدْ لا أتمكَّنَ مطلقاً من حلّها، اكتشفت أنّني لم أشفَ، كما ظننت، وإنّما صُدِّرَت مشكلتي، من حالةٍ ذهنيّةٍ إلى مأزقٍ واقعيٍّ.

خرجت جديدةً، بدوت أكثر حنوّاً على زياد، أيقظته، قلّبت جسده، دلّكت أطرافه، احتضنته، وكأنّي أتستّرُ على ذنبٍ ما، أطعمته، نظّفته، عطّرته، تمسّك بالمنشفةِ الزّيتونيّة؛ التي تعكم رأسي، كمثل طفلٍ، تشمّم ذلك الشّعور المندمل، غير أنّ الحكي لم يسعف لسانه، أنا أيضاً لم أقدر على أن أتفوّه بحرفٍ، طلبَ أن يعود للنّوم؛ يتظاهر بذلك كلّما رغب في البكاء، اضطجع مكانه، وراح يحدّق في السّقف، لم أمانع ساعتئذٍ، كنت بحاجةٍ إلى الانفراد بنفسي، كان يجبُ أن أفتكّ من مناقلة الأحاسيس، وترحيلها إلى الخيال، كان يجبُ ألّا أجنَّ، لكيلا يموت؛ فقد بات أحدنا حياة الآخر، بكلّ ما يحمله المجاز من معنىً، اللّعنةُ على أحمر!، خلته دوائي، لكن كيف أتصدّى للحياة؛ وهو ينخرُ عقلي!، كيف أعيش!، وكيف يعيش زوجي زياد!، ابني زياد!.

قرّبت منه كوب الماء، ذكّرته بأن يضغط الزّر؛ الذي يرنُّ في عيادتي، لو احتاجني، قبّلته، خشيت أن يشعر بحرارةِ وجنتيّ، مسّدت شعره، دثّرته، وذهبت، في العيادة رتّبت أفكاري، كانت صورة الرقيم قد جرفت الطّيف، وحلّت محلّه، لكن سرعان ما خانني بصري؛ فاندلقَ مجدّداً، بكليّته من النّافذة، تزحّف في الشّارع الهادئ، السّاكت؛ ذاك الذي امتلأ، بغتةً، بوجوده الأحمر، خرج من مكانٍ ما، من رئتيّ ربّما!، ووقف على الرّصيف، كمن ينتظرُ أحداً، كان جليّاً، ويقينيّاً، وساطعاً؛ كمثل الصّبح المتصبّبِ، وهجاً، وحرارةً، ونوراً، أحسست براحةٍ لا مثيل لها، كما لو كنت محروسةً، من قوّةٍ ما، أغمضت عينيّ، ألقيت بظهري إلى مسند الكرسيّ الدّوار؛

ذاك الذي دار بي دورةً كاملةً، ومجدّداً دنوت من الشّباك، ثمَّ...، رأيت شمس تخرجُ من فم البناء، ترفرفُ نحوه كالفراشة، نحوه فعلاً، تتعلّق بذراعه، بذراعه فعلاً، عميت، شاهدتهما يتحادثان، لا مجال للإنكارِ أو الشّك، حزامها الذّهبيّ، حذاؤها الأبيض، شريطة شعرها الحمراء، كانت كلها شمس، تشاكلت الحلميّة بالحقيقة، ذبلت روحي، تطاير قلبي ورقة ورقة، وابتلعني اللّون الأصفر.

حرّكت كفّيَّ فوق وجهي، كما لو كنت أحاول محو نفسي، استنزفني المشهد، أكثر ممّا احتمل؛ ففتحت الباب، وخرجت، سلت نهراً جارفاً، درجتين، درجتين، نزلت إلى حلمي، وكأنّني أريدُ الظّفرَ بشيءٍ، بأيّ شيءٍ، لم أقو على الصّراخ، لكن مخاوفي المبحوحة، كلّها، جعلت تصرخ في أغواري، بصوتٍ، مكتظٍّ بالاختناقات، وقفت بباب المبنى، بأنفاسٍ لاهثاتٍ، كالحشرجات، على ضفّة الإسفلت الأخرى، كانَ هنالكَ رجلٌ، نحيلٌ، يشبه الجنّيّ؛ الذي لازمني طوال تلك السّنين، كان يحدّثُ شمس في ظلِّ شجرةٍ، غارقاً في بركةٍ من ضوءٍ، متراقصٍ، على هيئةِ أقراصٍ، يدخّنُ، ويحضنُ «الكاميرا»؛ المدلّاة من عنقه، استغرقت وقتاً حتّى ثبت إلى رشدي؛ فالشَّبَه الشَّديدُ، بدا لي، رهيباً، هرولت كالمجانين، تمنَّعَت رجلايَ بدايةً، لكنّي مضيت، قطعت الشّارع بسكّين قدميّ، تباطأت خطواتي، قليلاً، مقارنةً بأنفاسي، ثمَّ ما لبثت أن تسَارعت، لتواكب دقّات قلبي، اندفعت نحوه، إلّا إنَّني أمامَ رعدتهِ، وعينيهِ المذهولتينِ، تجمّدت، شهقت بكاملِ اليقينِ:

«يا الله!!»

وقبالته تماماً، كمّمت فمي بيدي؛ فيما سالت دموعي من تلقاءِ نفسها، تصنّما أمامي، تطلَّعَ إليَّ؛ كمن وجد شيئاً بحثَ عنه طويلاً، لم ينفرط جسده إلى مكعّباتٍ من اللّمع، صمد متلألئاً، بعينين، مفتوحتين على وسعهما، وبفم يداري الشّهقة، وجدتني أمام جسدٍ آدميٍّ، غير قابلٍ للتأويل، وقفَ مبهوراً، عصَفَ وجهي بوجهه، فقَدَ ابتسامته، وببطءٍ استعادها، نحّت الطّفلةُ غرّتها جانباً، كأنّما لتراني بوضوحٍ، ثمَّ أسرعت نحوي، هممت:

«كنّا ذاهبين إليك!»

طوّقت خصري بذراعيها، بيد أنّي كنت قد أمسيت حجراً، أشرقَ وجه أحمر، شعَّ كأنَّه المعجزة، لم أُميِّز، البتّة، أكان الخيال قدْ نفخَ الحياة فيهِ، أم أنّها خُدَعُ البصر، تملَّيت ملامحه بجزعٍ، طابقتها مع خيالي، لم أُكذّب قلبي، تفصَّدْت وجهه، تطايرَ كالضَّوءِ، تجمَّعَ، انساحَ العرقُ على صدغيهِ البليلَيْن، كانَ يتتبّعُ حركاتي، وتعبيرات وجهي، بنظراتٍ عميقاتٍ، وقعت عيناي على الشّامةِ القطعيّة، أسفل ذقنهِ؛ تلك التي سرعان ما شطَرَتني، وزعزعت ثبات اليقين، واريت ارتباكي، علّي أُحرزُ تسويةً سريعةً مع دماغي؛ فيما تملّى فراشة الفضّة، وهي تهل بأحدِ الجناحينِ من فوقِ الياقة، لم أفركْ عينيَّ؛ لكيلا أُقاومَ وجوده، ارتجلَ بسمةً ضئيلةً، قبل أن يشقّ روحي، بصوتٍ منهرسٍ، لم يكد يخرج:

«دكتورة ماويّة!!»

قبعت بلا حراكٍ، لست أذكر ما الذي فكّرت فيه لحظتها، أهرب!، أخرُّ أرضاً!، أصفعه!، أتبيّن هويّته!، أوليه ظهري!، مدّ يده مصافحاً، عاينت، في منتهى الجيشان، ماديّته، تقاسيمه، طوله، ابيضاض شعره، هزال وجهه، حدبةُ جبهته اللّامعة، كانت الفروقات الطّفيفةُ، قد أضفت عليه واقعيّةً مفرطةً، ومضَت رجاءاتي في عينيَّ، كما لو أنّ القشرة الرقيقة، بين الواقع والخيال، قد تلاشت تماماً، لكأنّما نهايةُ العالمِ قد أزفت، خاضت يده في الهواء الثّقيل، وحطّت على يدي، تلك الرّاجفة التي امتدّت، بتردّدٍ، رغماً عنّي، أطبقت على جمرته، شعرت بها، الحرارةُ حقيقيّةٌ، الأنفاسُ أيضاً، النّبض، الرَّائحة، أفلَتت أصابعي، بمشقّةٍ، من طوق قبضتهِ، ربّما شعرَ بدقّات قلبي؛ فنظر إليّ، جفلاً، ابتلعَ ريقاً متهدّجاً، وهمهم، مصطنعاً صموداً واهياً:

«اهدئي... لن أخطف البنت، يعني إن كنت تفكّرين في ذلك!»

ابتلعت ما يشبه غصّته، وخرجَ سؤالي كالصَّهيل:

- من أنت؟

- لا تخافي، أنا أعرفك

- تعرفني؟**!** من**...** حضرتك؟**!**

- أنا**...**

عمَّ سكونٌ خاطفٌ، خرّبه فجأةً هديرٌ، غامضٌ، التفتنا، شهقنا، جذبني من ذراعي بعيداً، عن السّيّارة؛ التي اندفعت نحونا من اليمين، طارت شمس مذعورةً، كفرخ عصفورةٍ، وتوارت في مدخل أحد الأبنية، إذ كان لها خفّة أطفال الحروب؛ المتمرّسين في مطاردات الموت، وبعد لحظاتٍ؛ حاصرتنا أخرى من اليسار، ترجّل منها مسلّحون عمالقة، علا اصطخابٌ، وصراخٌ، وعراكٌ، حاولت الهرب؛ لكنّي سمعت صوت تمزّق ياقتي، جذبتني يدٌ شبحيّةٌ، ودُفعنا في السّيّارة، برفّة عينٍ، قبل أن يرتفع الفيميه الأسود، ويبتلع العالم، من حولنا؛ فتطبق علينا ظلمة الأسرار، ويكمّمني أحدهم، بمادّةٍ مخدّرةٍ، لأسقط في نفقي الرّوحيّ؛ الذي سبق وأن اختبرته، غليانٌ، وإعتامٌ طاغٍ، وشعورٌ غريبٌ، بنهايةٍ مريرةٍ، أقربَ إلى إسدالِ ستائرِ المسرحِ، في آخرِ العرض، خاتمة ما سمعت؛ كان صوت شمس البعيد:

«ماماااا»

العلوّ المجيد

فتحت عينيّ على سوادٍ، وبصعوبةٍ ميّزت أحمر، كان فاقداً للوعي، والدّم يرشح من زاوية فمه، شممت رائحة رطوبةٍ، تمتزجُ بأخرى؛ حامضيّة، نفّاذةٍ، ترنّحت إلى حدّ الغشيان، واظبت أرفع جفنيّ بأصابعي، كلّما تهدّلا، هيّئ إلي أنّنا محتجزان في قطعةٍ من ظلام، كهفٍ منغلقٍ بصخرة؛ كهفٍ معتم، تخترقه حزمةُ ضوءٍ خفيتٍ، تتدفّقُ من شقٍّ طولانيٍّ، بدا وكأنّه ناجمٌ عن انهدامٍ حديثٍ، حاولت أن أتذكّر ما حدث، أو أن أميّز أكنت في حلمٍ أم لا، غير أنّ منظر الدّم، الذي تبدّى في مجرى النّور، كان كفيلاً بلجمي، نقّلت سبّابتي أمام أنفه، ولم أكد أشعر بدفء الزّفير، حتّى استرحت، تمالكت نفسي، حبوت نحو الكوّة الخفيّة، بذهنٍ كليلٍ مبلبلٍ، رأيتهما؛ أحدهما متلفّعٌ ببطّانيّة، يستنشقُ شيئاً ويضحك، والآخر؛ يلقي عباءةً فوق كتفيه، ويشوي شيئاً، على موقد النّار؛ فتتوهّج أذناه العريضتان، لمع زياد في رأسي، كصعقةٍ كهربائيّةٍ؛ فارتجفت، واستسلمت لسلسةِ تفجّراتٍ من العجز والأنين، وما الذي تحسّه الأمّ حين تترك رضيعاً لمصيره!!، ما الذي يمنعها من التّحوّل إلى غولةٍ!!، توقّفت عن الارتجاف، صرت الغولة، طمأنت نفسي، ورحت أتحسّس مخرجاً، وأنبش التّراب بأظفاري، ولم تكد بعضُ الصّخور تبدأ بالتّخلخل حتّى كمّمت كفٌّ فمي، واجتذبتني ذراعٌ إلى الخلف، تدفّق همسه البحيح في أذني:

«توقّفي، ما الذي تفعلينه!!»

اصطكّت أسناني، كان حقيقيّاً، وبخلاف ما توقّعت؛ فإنّه لم يختف، التفت منهارةً، سلّطت عليه حواسّي، وتلمّست صوتي النّواسيّ:

- أنت حقيقيٌّ؟!، إنسان؟!

- لا بأس عليكِ

- لم أجنّ بعد، صح؟!

- والله أعرفك، لا تخافي

- من تكون؟!

- يامن

- يامن؟! من؟! من يامن؟!

- اششششش!!، لنر إن كان في وسعنا الإفلات!

قالها بلكنةٍ أجنبيّةٍ، بين همهمةٍ وزفيرٍ، ومن دون أن ألحظ كنت أحاول أن أتذوّقَ صوته الغريب، وأن ألصقه بالكيان المألوف؛ الذي سبق أن اختبرته بصيرتي، تسلّل نحو الشّقّ، مجيلاً ناظريه في اليباب؛ الذي ابتلعنا، جمَّعت بأسي مراراً، غيرَ أنَّه سرعانَ ما كانَ يتطايرُ، إذ ما الذي يسعنا فعله!، تفصَّدَ شعوري بالضّياع عرقاً، من رؤوسِ أصابعي، ومن باطنِ راحتيَّ، ومن المنحدرِ الطَّفيفِ في منتصَفِ ظهري، آب راجعاً بجأشٍ رابطٍ، هجع برهةً، وطفق يعالجُ ساعته، تلك التي ومضت على معصمه، وألقت بنورها على وجهه، حفنةً من نجيماتٍ، وجهه النّورانيّ، الذي أحفظه؛ والذي تألّقَ فجأةً كالهالة، ولا أعلم كيف امتلأ الخوف بالسّكينة لحظتها!!، لا أعلم كيف تفتّحت زرقةٌ عصيّةٌ على التّفسير!!؛ فتدلّت الأعناب منها، وتقطّرت خموراً مسكرةً، إذ لكم حسبت أنّنا محضُ أنوارٍ تستوطنُ طينَ الأبدان، وتنتظرُ احتكاكاً ما، لتتحرّر كالشّرّر، لمعت فكرةُ **«الوهج الدّافئ»** في ذهني؛ تلك التي وصلتها بالعلم؛ العلم الذي يصل متأخّراً عن الفطرة، حلّقت الثّمالة بي إلى أعلى؛ ذلك العلوّ المجيدُ، البعيد، مجدّداً، أغمضت عينيّ علّني أفيق، غير أنّي لم أبلغ صحوةً، هتفت همساً، وكأنّي أوقظُ نفسي:

- نحن مختطفان؟!

- أخذوا «الكاميرا»، يبدو أنّها ما يريدون بالضّبط؟!

- كاميرا؟!، تعرفهم؟!، لماذا؟!

- لا أعرف شيئاً!!، لكن لا حراسة مشدّدة!!، دعيني أركّز

- يا الله!!، يا الله!!

- اهدئي

- ركبتاي؛ عاجزتان عن حملي

- اششش!!

- إلى أين تذهب، ماذا تفعل؟!

- توقّفي عن الكلام رجاءً، الشّقّ أضأل من أن يسرّب هذا الضّوء!!

- ماذا تعني؟!، إن تحرّكت أكثر فقد تتهدّم الحجارة فوقنا

- هذه تجاويف متداخلة، متّصلة، اكتشفت مثلها في مكانٍ ما

- وسيمهلونك لتجد مخرجاً!!، لطفك يا ربّ

- اششش

- أنا امرأة، ليس الموت أقصى ما أخشاه!!

- اهدئي

- سيموت وحده في المنزل، سيمووت

- لاااا تصرخي

وفي حمأةِ غيظه؛ استنفدني التّبتّل، إلى أن غار صوتي، بين أضلعي، جعلت الهواجس تتوالدُ من نفسها، وتطمرني، وبمنتهى الفجاءة والفجاجة، علا صوت ضجيجٍ في الخارج، انتفض أحمر؛ أعني يامناً، واندفع نحو الشّقِّ مراقباً، أدام النّظر؛ وهو يخلع ساعته، ويطوّحُ بها نحوي، هامساً:

«لا يعلمون أنّها هاتف نقّال، اطلبي نجدةً برسالةٍ، ثمَّ دسّي السّاعة في ثيابك، ما من تغطيةٍ هنا، لكنها قد تصل، إن هربنا!»

أمسكتها بلهفٍ، وكأنّها نذُر بشارةٍ، ضغطت زرّاً جانبيّاً؛ فأضاءت مفاتيح الأحرف المنمنة، كما المصابيحُ الواقدة، ولكم لطّفَت من سطوة الكرب، لحظة كتبت إلى هدى:

«أرجوك اعتن بزياد، وحده في المنزل، سيموت من دوني، خطفنا ونحن في...»

لم أكد أصطدم بمأزق الموقع، حتّى نسّ صوته، المغموم، كما الحسيس:

- شمال غرب تلول الصّفا بـ ٣ كم، جنوب سبخة مائيّة كبرى

- كيف عرفت؟!

- أنا مختصّ

- مختصٌّ بماذا؟!

- اكتبي وحسب

- هذه طلاسم، أنت تمزح

- أرسلت الإحداثيات إلى صديق، لا تقلقي

- ومن سيعرف يا بنَ آدم؟!، ومن سيفهم؟!

- إنّهما يتشاجران...هيّا

- نحن في سردابٍ؛ تتيه فيه الفئران!

- عجّلي بالإرسال... يا ماويّة

وفجأةً أصبح اسمي داراً، هجعت مخاوفي، أمانٌ معقّدٌ، طاغٍ، شملني بظلّه، وتخطَّفَ روحي؛ لكأنّما الظّلمة قد أثمرت غلالاً، وأنجماً، أحمر؛ أقصد يامناً؛ الذي لم ير ما أصابني، بعد نطقه اسمي، لم يلحظ تلك اللّذة المركّبة؛ التي حرّكت دمي

الرّاكد، راح يزحزح صخرةً في عمق عتمتنا، ولشدّ ما وثقت به؛ فقد استكنت، في قبوعٍ نهائيٍّ، إذ لم يعد للهلاك، في مداره، من معنى.

ساعات من التّخبّط، ومن المناوشات النّفسيّة، تيبّس عنقي، هدّني الجوع والعطش فيها تماماً، لكنَّ الإغماء كان خياراً مروّعاً؛ فصورة زياد؛ وهو يتخشّبُ في سريره، كانت تلتفُّ حول عنقي، أكثر فأكثر، قاومت بما أوتيت من قوّةٍ، الطّبيعة كلّها، كانت عروقي تنتفضُ، ذاك الـ «يامن» أيضاً لم تشحّ طاقته، لكأنّا مشتقّان من النّور ذاته، لكأنّه مبعوثٌ لإنقاذي، لإنقاذ زياد!!، كما فعل من قبل مئات المرّات، لحظة تحرّكت الصّخرة، واندلق الضّوء النّائس من مكانٍ ما، أشرقت المشاعر المتناقضة فيّ، جمع لي بعض الطّحالب الرّطبة؛ فتندّى جفاف حلقي، وبدلاً من تتبّعه إبراقات النّفق البعيد، جعل يحفرُ بيديه في مكانٍ آخر، لم يخب توقّده، كان يكفي أن يلقي عليّ نظرةً، كلّما استسلم، حتّى يتحفّز من جديدٍ، بالكاد انتهى؛ حتّى شدّني من يدي، مغمغماً:

«تتكوّرين هنا بلا حراكٍ، بلا نفسٍ، إيّاك والتخاذل، موتٌ أو حياةٌ!»

خرجت الكلمات من فمه كالهباب، لتندّ عن قوى باعثة، مستخفية، اختلطت بنبحاتٍ بعيداتٍ، تمنّيت لو كان بوسعي رؤيةُ عينيه، المؤتلقتين، بوضوحٍ، لم أشبع من تأمّله، لم أسأله لماذا؟!، نفّذت، دونما احتسابٍ، على وقع الخطوات المقتربات، أسرع يدفعني في التّجويف، وقبل أن يثبّت الصّخرة الملساء فوقي، أخرج منديلاً من جيبه، ودسّه في كمّي، ثمَّ قرّب وجهه من وجهي، وختم جليل الصّمت، بجملةٍ من أعماق حنجرته:

«ليحفظك الرّب»

تنفّست أنفاسه، وكمثل جثّةٍ تندمل في حفرتها؛ غبت في التّجويف، أغلقت فمي بيدي، وأجهشت في البكاء، بكاءٍ أخرس، من دون حسٍّ أو حسيسٍ، تلك اللّحظة؛ كانت أغرب لحظةٍ عشتها؛ فقد فارقتني الوحشة؛ التي طالما عشّشت في

دقائق عمري، لم أكن وحدي حشو الثّغرة، كان وجهه معي، كانت أنفاسه معي، لازمتني، وتوحّدت معي، نباح الكلاب؛ اقترب أكثر، همهمات الرّجلين، وهما يدفعان باباً، حجريّاً، بمدخل الكهف، أصبحت أكثر هيستيريّةً، دخلت فوّهة الرّشاش قبلهما، ثمّ قعقعةُ الأسلحة، ثمَّ الكلاب الهائجة، ثمّ الشّتائمُ؛ التي دوّت، إثر اكتشافهما اختفائي، أرغى واحدهما وأزبد، وجعلت الرّكلات، واللّكمات، تنخرُ جسد يامن؛ ذاك الذي وجد نفسه في معركةٍ مع حيواناتٍ مسعورةٍ، سأل أحدهما كالوحش:

- كيف هربَت أيّها الحقير؟!

- حفرنا نفقاً، و...، خرجت قبلي

- قسماً، لولا حرصُ التّعليمات على حياتك، لخردقتك بمشط رصاص

- وماذا تريدون منّي؟!

- اخرس يا حيواااان

- بوسعي منحكم المال؛ الذي تشاؤون

- لا تقلق، سنأخذ المال؛ الذي نشاء، لكن بعد أن نستعيد اللّعينة

هتف الرّجل الثّاني، بعد توغّله في العمق المظلم:

- هاهي الكوّة، خرجت منها، هيّا بنا!

ولم يكادا يستديران؛ حتّى كشّر أحد الكلاب عن أنيابه، وجعل يتشمّمني، هبّ على قائمتيه الخلفيّتين، نبح من دون أن يبرح مكانه، ثمَّ ما لبثت بقيّة الكلاب أن آزرته، حين دفع أحد الرّجلين الصّخرة برجله، انهالت الحجارةُ من حولي، انهالت روحي، وانساب الموت، كما السّم، في أعصابي، شدّني نحوه، وصاح بصوتٍ؛ يجرشُ جرشاً:

«تختبئين إذن!، يا حلوة!!»

هشَّ الكلاب بعيداً، وكأنّه يريدني كاملةً، دوّختني الرّعدة، صحت، قاومت، استنجدت باسم يامن، يامن الذي سرعان ما أصبح غولاً هو الآخر، استشرس،

التقطَ حجراً؛ له شكل الهراوة، وانقضَّ عليهما، تولّاه أحدهما، بأخمص البندقيّة، ضرباً على الرّأس، حتّى تلوّى، وخرّ صريعاً، بينما سحبني الأخر، خارجاً، بسمرته الشّديدة، وحاجبيه المتّصلين، ضربته، ركلته، أدماني، شدّ ثيابي، فتمزّقت، أخذ الدّوارُ برأسي، غير أنّي سمعت أحدهما؛ وهو يجري اتّصالاً:

«نعم سيدي، حاضر، حاااا، حاااضر، لن نسمح لهم بالاقتراب، سنخلي المكان، ليلاً سيدي كما تشاء، حاااا، حاضر، «أبو كاميرا»؟!، سنحافظ على حياته، نعم ليلاً سيدي، حااا»

بعد أن جرّاني، مجدّداً، نحو الدّاخل، كمثل جيفةٍ، وأعادا تمويه المكان، بالباب الحجريّ، حبوت بدمي نحو يامن، جلست قربه، وأمسكت يده، وألصقت أذني بقلبه، بأذني الثّانية سمعت السّيارات الوافدة، وهي تحاصر الموقع، وتثير الجلبة، سمعت رجالاً يتحدّثون لغاتٍ غريبةً، وهم يمشّطون المكان، ويمرقون كالأشباح، أمام الكهف، من دون أن يلحظوا مدخله، أصخت السّمع، لم أستطع تمييز كلّ الكلام، لكن شيئاً منه تناهى خفيتاً إليّ:

- يا عبد الرحمن إيّاك!، إيّاك أن تلمس سلاحك

- نعم. يا... سيّدي، أرجوك لا...

- اخرس!، صرت سيّدك الآن، يا قذر!!

- أنت تأمر، صدّقني، نحن في خدمتك

- أين «أبو كاميرا»، يا سافل؟!

- ليس معنا، أقسم لك

- وأنت يا سعيد، جماعتك سبقتك إلى جهنّم

- أبوس رجلك يا سيدي

- الحيوان «أبو كاميرا» حصّتنا، ليس معكم يا سعيد؟!

- ليس معنا يا سيّدي

- سأدقُّ جمجمتك بنعلي

- وحياة أولادي يا...

- يلعنك، ويلعن سلالتك، إلى جهنّم يا سعيد المصيبح، إلى جهنّم يا عبد الرحمن المرابعي!!، إعدام يا رجاال، إعداام.

مقدّمة في الحبّ

عند شقشقة الفجر، كانت الطّيور؛ تتقافزُ في الأنحاء، كمواليد المآسي، والتّضاريس المحنّطة؛ تبزغُ وكأنّها قطعانٌ، مغطّاةٌ بشرشفٍ مشمّع، أسود، أمّا السّحب الخفاف، فقد تمزّقت، كالمخاض، وتجمّعت، كالأرانب، غير أنّها لم تسبقني، خرجت من النّفق، المحفور، بيديّ يامن، تسلّلت بحذرٍ، تفقّدت خلوّ المكان، تجاسرت؛ وكأنّي صرت غيري، دست على هلعي، واقتربت، دنوت من الجثّتين، تملّيت الوجهين، لمحت على أحدهما دودةً، الدّودة الرّابحة في آخر الجولات، في كلِّ الجولات، كان الوجه الأصفرُ، تحتها، نسخةٌ عن وجه ابني يوسف، الأنف، الشّعر، الملامح، فكّرت بالاسم، وبكيت، فكّرت، وبكيت، تمالكتني، تناولت إحدى حقائبهما، بالماء الذي فيها، بحثت عن سلاحٍ ما؛ فلم أجد، عدت، عَدواً، نحو يامن، سقيته، ثمَّ شربت، فتح عينيه، نظر إليَّ، وابتسم، سألته إن كان قادراً على النّهوض؛ فأومأ بالموافقة، سندته على كتفي، ومشيت به، بنزفي، وكدماتي، وجروحي، والتهاب ظهري، هي طاقةُ الغولة، الأمُّ الغولة، تلك التي تملّكتني؛ فجررته، وشددت عضده، طوال ذلك الوقت، لم ينظر أحدنا إلى الآخر، كنا خائفان من أشياء لم ندركها تماماً، لم أكرّر سؤالي عن هويّته، كل حقيقةٍ جديدةٍ، بدت خوفاً جديداً، مشينا فوق الجوع، والعطش، والتّعب، والهلع، لم توقفني سوى انتحابات متقطّعة، بكيت فيها زياداً، وفي طريقٍ من لهاثٍ، طويلٍ بما يكفي؛ لنثمل بنجمة الصّبح، تملّكني شعورٌ بأنّنا نخرجُ من العالم، وندخل في عالمٍ آخر...

خلسةً؛ استرقت النّظر إليهِ، وكأنّني أُدركُ وجوده للمرّةِ الأولى، كانَ موحياً بالطّمأنينة، صوته الخفيضُ عميقٌ، وشعره الفضيّ الأشعث، متهدّلٌ، كما لو فرّ، التّوة، من معركةٍ مع الرّيح، كله كانَ يتحلَّل ببطءٍ، في كياني، الشّامة، الخطوطُ على

سُلاميّات أصابعهِ، عظمةُ كتفه، عجينةُ تجاعيده الرّخوة، حدودُ الشَّعرِ أمامَ صدغيهِ، العِرقُ النَّافرُ في ساعده، الاحمرارُ على شحمةِ أُذنهِ، رائحته، صوته، حاولت إقناعي؛ بأنَّ كلَّ ذلك الانطباق ما هو إلّا محض تشابهٍ، خطّطه القدر، ونفّذه، استدرت في مشقّةٍ، علّني أُفلت من مغنطةِ عينيهِ، غير أنّي لم أنجح.

ذلك الاستناد، ذلك التلامس، كان لغةً مبهرةً، ولربّما بلغ ذروة المخاطبة، ولعلّني قلت وسمعت، ولعلّه قال وسمع، أصاب واحدنا مسّاً من الآخر، وشيئاً فشيئاً، رحت أرتفع بخفّةٍ، نحو المستويات العوالي؛ التي أجهلها فيَّ؛ تلك التي أدركها النّورس جوناثان، في رواية ريتشارد باخ، حدّثني كمن يهذر، أرشدني على جهلٍ، على عادة الرّجال الظليّة، باختراع دفّةٍ للقيادة، كان يومئ بذراعه، ليوجّهني، نحو التّقدّم مرّةً، ونحو الانحراف مرّةً أخرى، وكنت أرمق ذلك الخواء الفظيع وأطيعه، كان يجب ألّا أسقط، لأنَّ انهدامي، كأيّ امرأةٍ، يطيح بالكثيرين المستندين إليّ، تماماً كما قطع الدّومينو المنضبطة، رفعت بصري إليه، أصغيت إلى تجلّده، نبّهْتنِي إلى أنَّ صوته لا يخرجُ منّي، وإلى أنّي وإيّاه لسنا الكينونة الواحدة إيّاها، ولسببٍ أجهله، تقاطرت ومضاً، مريضاتي النّساء في ذهني، ضحايا العنف، والتّحرّش، والتّهميش، والإقصاء، النّساء المعتادات، من قبل شهرزاد، على روايةِ قصص الرّجال، القصص المضحكة، التي يحوّلن أنفسهنَّ فيها إلى ممرّضاتٍ، وحبيباتٍ، ومربّيات، وملهمات للأبطال، النّساء الذّكيّات؛ اللّواتي يخشين، وعلى مرّ التّاريخ، من افتضاح أمر البطل الحقيقيّ.

على مبعدةٍ من الجثّتين؛ استطال تطوافنا، بشحوبٍ بادٍ، وبخطى ثقيلةٍ، تعبى، تهادينا على غير هدىً، في بقعةٍ متاهيّةٍ، ليس يألفها طيرٌ، أستحثّه كلّما أبطأ، ويستحثّني كلّما استسلمت، كابدنا من الذّعر ما يعصى على الإحاطة، رافقنا عواءُ الذّئابِ، وتحرّكاتٌ شبحيّةٌ، خاطفةٌ، لحيواناتٍ صغيرة الحجم، نشجت خفيةً، جفَّ ريقي، بيد أنّي لم أشرب، احتساباً للأسوأ، ولسببٍ ما كانت همّتي تزداد، بازدياد ارتعاشه، وتغثغته، غير المفهومة، كل ما حولنا؛ كان مشحوناً بالتّربّص والقلق،

جررنا جسدينا، توغّلنا في الأبعد، ابتلعنا المجهول، قرأت وجعاً في نظرته الفضّاحة؛ فسألته:

- أتتألّم؟!

- لا

- حقّاً؟!

-لم أكن سعيداً هكذا من قبل!

-ما زلت تهذي!!

-أتذهبين معي؟!

- ماذا؟!، أتراني تركتك؟!

- أقصدُ...، أتذهبين؟!...، معي؟!

- إلى أين؟!

- لا أعرف

أنت واعٍ؟!

- لا أعرف

- اسكت، وامشِ على هينتك، إيّاك والجلبة!، سنموت لو وجدونا!

- أتذهبين معي؟!

- سننجو، لاا تخف، اصمد

- أرجوك، أجيبي؟!

- ربّاه!!، سحقاً للحمّى!

- هل -...

- لاااا

كان من الصّعب أن أتأمّل ذلك التّحوّل المدهش في عزيمتي، وأن أعترف بأنَّ ذلك الحوار المهذار قد منحني قوّةً، باعثةً، غامضةً، حوّلت انهياراتي إلى درعٍ نحاسيّةٍ، بدأت روحي تلتئم وكأنّها تبرأ، كان شيئاً شبيهاً بالتّطهّرِ بالألم، كان طريقاً متعرّجاً من الخوف، أكل أقدامنا، وقلبينا، خلع قميصه، وطلب مني أن أربطه على رأسي، اتّقاءً لضربة شمسٍ، وبلا كلامٍ فعلت، كان أجمل سقفٍ يؤوي رأسي، وقبيل الغروب، وبعد أن خلعته، وأعدته إليه، لاحظت وجود أحد قرطيّ الذّهبيّن في جيبه، غير أنّي لم أكترث، لم أملك طاقةً لتفسير الأمر، توارينا في إبط جرفٍ صخريٍّ، وفوق حصيرةٍ من النّبت الرّهيفِ جلسنا، يدي على قلبي، ونظرته على يدي، لم نكن بحاجةٍ إلى الحديث، كما لو كنَّا متورّطين في تاريخٍ مشتركٍ، طويلٍ، استوى بعد رقدةٍ كالموات، أطبقَ شفتيهِ على كلماتٍ ما؛ ثمَّ قدَّم لي قارورة الماء، وهمهمَ في امتنانٍ:

«شكراً لك، هل أنت بخيرٍ؟»

حرّكت رأسي بالموافقة، وشربت، حبست تأوّهاتي، تظاهر بالشّرب، من دون أن يفعل، طلب السّاعة، حنى رأسه فوق شاشتها، قلبها على قفاها، عاينها، وغاب في دقائقها، تفطّر قلبي على زيادٍ؛ فانهرت مجدّداً، شهقت بزفراتٍ غليظاتٍ؛ لم تمكّنّي من التقاطِ النّفس، وأوشكت أختنقُ، لولا أنّه ربّت على كتفي، وطمأنني بأنَّ الرّسائل قد وصلت، لم يكن لديَّ أملٌ في النّجاة، لكنَّ الأمل الجديد كلّه، كان جالساً إلى جواري، يتجمّع كندف الأحلام، يتكثّف، ويتأمّل السّاعة، وبدوري تملّيت الكتلة الحجريّة؛ التي حوّطتنا كما الأمواج، ومرقت ببصري على سيقاننا الخائرة، أصغيت إلى حفيف الأعشاب، وإلى موسيقا الجمادات؛ الأشبه بتردّدات أرواحٍ غريبةٍ، وإلى آلامي المبرّحة، واستغاثات معدتي ومفاصلي، كان يكفيني أن أُلقي بناظريّ على وجهه كيما أهدأ، وبمرور الوقت؛ تفجّرت فيَّ أفكارٌ حسّاسةٌ، غريبةٌ؛ فإذا بالمكان المعزول، والمحاصر، والرّاعب، ينضحُ ألفةً وصفاءً، سألت؛ كيما أقيس واقعيّة ما يحدث:

- نحن في مأمنٍ هنا؟!

- أعتقد هذا، المكان عالٍ وكاشفٌ، وفي مكنتنا مراقبة المقتربين، من دون أن نثير الانتباه

- ما قصّةُ «الكاميرا»؟!

- لا شيء

- لماذا تلاحق لأجلها؟!

- يطول شرح الأمر

- أنت حرٌّ، في كلِّ الأحوال

- هذا تكهّنٌ وحسب!

- طيّب إن وصلت الرّسائل، لماذا لا نجري اتّصالاً؟!

- التّغطية متذبذبة، سأظلّ أحاول

- قلبي منقبض

- لا تخافي

- لن يتركوننا وشأننا، هذا إن لم تفترسنا الوحوش!

- سأحرسك حتّى النّهاية

- ومهما مشينا لن نصل!!

- حسنٌ إذاً، نتباكى ونموت رعباً!

- أعتذر

- لا بأس، أفهمك

همد للحظاتٍ، وراح ينقّل نظراته، اللّائبة، في ذلك الامتداد الخائب من الوحشة، وبدلاً من أن يختنق مثلي، التفت إليَّ، بغتةً، بحبورٍ، وسأل هامساً:

- أتعلمينَ ما الفرق بين عين الإنسان و«الكاميرا»؟!

- عادت الحرارة!

- أسأل جادّاً؟!

- لا أعلم، ولا أريد أن أعلم

- «الكاميرا» تخرج بلقطةٍ فوتوغرافيّةٍ، واضحةٍ، لجسدك، بكاملِ تفاصيله، لثيابك، لتسريحة شعرك، يعني لخلفيّة الصُّورة، أمّا العين فتصوِّرُ، سريعاً، كلَّ الجمال الواقف في المقدّمة، كلّ اللألأة، الكفيلة بإطفاءِ أيِّ ضوءٍ سواها، والكفيلةِ في الوقت عينهِ بجعلِ أيِّ حجرٍ شديدِ الإعتام، نجماً حقيقيّاً.

- ماذا؟!، تحاول انتشالي من التّفكير في محنتنا؟!

- لنقل نعم!

- عموماً الحواس خادعة؛ فالجمال ليس دوماً دليل الخير، على رأي الفهيم تولستوي.

ابتسم؛ وكأنّه نجح في استدراجي، ألقى عليَّ عينين، مكتظّتين بالشّموس؛ تفكّان عرى الهواجس كلّها؛ فارتعدت، كمن يتأبّدُ في حلميّة اللّحظة، اكتنفني أسىً عميمٌ، موشّحٌ بنشوةٍ مبهمةٍ؛ فأشاح عنّي، كتم أنّةً عميقةً، واستتلى:

- علينا...، علينا أوّلاً أنْ...، أن نحّددَ عن أيِّ جمالٍ نتحدّث، فأنت ما...، ما زلت تتحدّثينَ بمنطقِ آلة التّصوير؛ التي لن تتمكّن، مهما بلغت من دقّةٍ، من التقاط المعنى العميق، وعلى ذكر تولستوي؛ يعجبني النرويجيّ كنوت هامسون، تعرفينه؟!، ذاك الذي اعتبرَ أنَّ البشر درجات، وأنّه ينتمي إلى أرستقراطيّة الحسّ والذّكاء، الحسُّ والذّكاءُ، يا سيّدتي، كفيلانِ بغربلةِ الجمالِ، النّاجم عن الخير.

- لكنتك أجنبيّة!!

- أنا مقيم في أميركا.

- نعم، ليس مستغرباً، أتعلم!! معكَ حق، لعلَّ الاستجابة للجمال، بمفهومِهِ الجوهريّ؛ هي التي تحدِّد درجة ارتقاءِ الجنسِ البشريّ، وفي مهنتنا، يمهّدُ الحرمانُ الحسّيُّ من تذوّقِ الجمالِ، لاضطراباتٍ فيزيولوجيّةٍ، ونفسيّةٍ أيضاً، ومن هنا نجمَ العلاجُ بالضّوءِ، والألوانِ، والموسيقا.

- صحيح، لم تسألي كيف عرفتك؟!

- ليس مهمّاً

- فعلاً؟!...، عموماً، الأديانُ البدائيّةُ دارت في فلك ذلك المفهوم؛ الذي تحدّثت عنه، كانت تتصوّرُ آلهتها بألوانٍ برّاقةٍ، حيث تسطع الشمس في مجهول السَّماءِ، وكذلك القمر، والنجوم، وقوسُ قزح، رع في مصر كانت الشّمس، إيزيس كانت القمر، في اليونان القديمة أيضاً، كانَ لإيريس لونُ قوسِ القزح، البريقُ عند الأوّليين؛ كانَ موحياً بالأمان، بالاكتمال، بالامتلاء، بالسُّموِّ، بالإشراق، بالثّقة، بالشّغف؛ إنّه الإحساسُ الفطريُّ بالجمال، والطّبيعةُ عموماً مليئةٌ بالبارقات؛ لأنَّ الجمال متأصّلٌ فيها، ارتعاشُ القمرِ مثلاً فوقَ ماءِ البحرِ، انعكاسُ الضَّوء فوقَ الثّلج، المطر، الغسق، قطرات النّدى، سطوع الحجارةِ المبتلَّة، الدُّموع، لمعات العيون، عاجُ الأسنان في بطانة البسمات، النّوافذ المضيئة في حلكة اللّيل، وخلاصةُ البريق الأخيرة، في اعتقادي، هي اللألأة؛ التي أشرت إليها، إنّها صفوةُ الشّعلة؛ التي تضيءُ مصابيحَ الرُّوح.

- أتعلم!!، ما أشبهَ لألأتكَ بالوهجِ الدَّافئ؛ الذي ناضلت يوماً لدراسته

- ما أحوج البشريّة لدراسةِ الأشرار والقتلة

- علّمنا فرويد أنَّ النّزعة العدوانيّة؛ من أصل طبيعتنا، وأنّها شكلٌ من حماية الأنا

- أتوافقين؟!

- أممم، ليس تماماً، الإنسان ميّالٌ، بفطرته، إلى الخير، والطّيبة، والصّلاح، المجتمعات؛ مختبرات إفساد كبيرة، تصنيع الأرباب، والعادات، والقناعات، والنّظريات القطعيّة، والأنظمة، والظّروف، شأن مجتمعي، أمّا الإبداع، والتّفكّر، والتّأمّل، والحنوّ، واللّطف، والرّقة؛ فتفاصيل فرديّة

- صحيح، صحيح، تكتّلات ومصالح، أقليّة فكريّة، واقتصاديّة، تتحكّم في الجسد الآدميّ العملاق، هذه علّة العالم!

- العالمُ الإنسانيّ؛ بحاجةٍ ماسّةٍ، إلى تفكيك وإعادة بناء، إن كنّا سنعمّر على هذا الكوكب...

- لا أظنُّ أنّنا سنعمّرُ كثيراً، إنّنا ننتحرُ؛ بتدمير كلِّ شيءٍ، هنالك ذعرٌ في أميركا حول احتمالات غرق أجزائها الجنوبيّة؛ بسبب السياسات المناخيّة الـ...، ما بك؟!، لماذا تضحكين؟!

- ربّما جننا!، هل تجد الظّرف ملائماً؛ لأحاديثنا السّخيفة هذه؟!

- إن كنت ستضحكين... أجل؟!

تحامل على إرهاقه، تناهضَ بمشقّةٍ، طاف في المكان، محنيّاً مرّةً، يعرجُ مرّةً، فيما تولّته عيناي بالاستغراقِ والتّمعن، هو أحمر، لعلّي في غيبوبةٍ أخرى؟!، ربّما، وإن لم يكن؟!، وإن لم أكن؟!؛ فكيف استنسخته أحلامي وعقلي، لم يكن الظّرف مواتياً، للاندهاش والتّفكر؛ فالخطرُ كان محيقاً، من كلِّ جانب، رحت أشغل نفسي، لكيلا أتذكّر زياداً، إذ كلّما خطر لي؛ انتابتني رغبةٌ فجائعيّةٌ بالصّراخ، ومصادفةً، امتدّت أصابعي نحو السّاعة، وطوتها، شغّلتها، لم تشتغل، لقد بدت تالفةً، وشبه محطّمةٍ، ارتبكت، لبدت مأخوذةً، حتّى أنَّ ثعباناً مرقّطاً ترقرق أمامي، من دون أن أجزع، ما لبث أن عاد نحوي؛ فأعدتها حيث كانت، متظاهرةً بأنّي لم أعرف؛ أنَّ أحبال العودة قد تقطّعت، اقتعد حجراً قبالتي، نفضَ الحقيبة ليتفقّد محتوياتها، عثر على قدّاحةٍ بضوءٍ

خفيتٍ؛ فكاد يرقص فرحاً، هرع يحصي غنائمنا، سجائر، نقود، معلّبات، أوراق، سكاكين؛ ثمَّ راح يشرحُ لي عن تجويفٍ مجاورٍ؛ قابلٍ للإغلاق، قد يخفينا ويحمينا، وكيف أنّ بمقدوري الاستراحة فيه، منفردةً، لتدبّر شأني، مسح نصل سكّينٍ بفخذه، ولوّح بعصا غليظة، وأكّد أنّه سيتولّى السّهر والحراسة، لم يعرف أنّي لم أصغِ، كنت أتملّاه، وأمضغ صرختي، سكت فجأةً، تغيّرت هيئته، همهم وقد اكتسى رقّةً شفيفةً:

- والآن...!!، في ماذا تفكّرين؟

- لا شيء

- مؤكّدٌ زوجك بخير، بعد الرّسالة، لا تقلقي

- أممم

سكتنا، وكأنّا نفكّرُ في الأشياء ذاتها، أصغينا معاً، إلى حوار الوحشة مع روحين مرتعشين، وشهدنا معاً، تمدّد الطّهر، والوداعة، على الأرض الصّخّابة، المحجرة، وفي طمأنينة اللّحظة؛ همست:

- قلت إنّك تعرفني!

- أجل

- ولم أخبرك بأنّي أعرفك

- حقّاً!، كيف؟!

- لا أدري، أمن المناسب قول ذلك!!، لقد رافقني في مناماتي، طويلاً، طيفٌ غريبٌ يشبهك، يشبهك تماماً

- لهذا كان لقاؤنا الأوّل كما اللّدغة!!

- أجل

- أتعتقدينَ أنّي قد أملكُ تفسيراً، يفضُّ حيرتكِ!؟

- لا أعرف، بت أميل، مؤخّراً، إلى الاعتراف بشواغل القدر

- القدر لغزٌ محيّرٌ، لو عشنا قد أحكي لك عن أسطورة «أكاي إيتو»

- تقصدُ أنَّ النّاس إنّما وجدوا لتطبيب جراح بعضهم بعضاً!!

- شيءٌ من هذا القبيل

- بصراحة، أقنعني لقاؤكَ؛ بأنَّك لم تكنْ تلفيقاً من صنعِ دماغي، وبقدرِ ما يبدو ذلكَ مطمئناً؛ فإنّه مريبٌ، بالوقت عينه، لماذا أنت، ولا أحد سواك!

- العقل لا ينسى، البتّة، التفاصيل، مهما كانت تافهةً، إنّه يحفظها، بأمانةٍ؛ ليستدعيها في الزّمان المناسب، الخيال، مهما حلّق؛ فهو مرتبطٌ بالذّاكرة، بالاستقبال، والحفظ، والتّذكّر، إنه يسعى دوماً نحو الهروب، من الألم والكرب، إلى مواضع أكثر راحة، أليسَ هذا ما تقولونه، أنتمْ معشرَ المشتغلينَ بالنَّفس؟!

- لا إله إلّا الله، عن أيِّ ذاكرةٍ تتحدَّث؟!، لم أكد ألتقيك البارحة؟!، أنا لا أعرف شيئاً عنك.

لم يعلّق، كان النّهار، لحظتئذٍ، قد بلغ نزعه الأخير، شرعت النّجوم تتموقع في لمعاتها المفترضة، بخفّةٍ، وكأنّها دعسات راقصات باليه، وتألّقت الصّخرات، من حولنا، بارتساماتٍ لوجه القمر، الطّافح بريقاً؛ ثمّ شقّت غزالات الرّيح، الهواءَ السّاكن، السّاخن، فأخذت في طريقها الشّوك، والحصيّات الخفيفات، والرّوائح الآسنة، وتلك العطريّة، وتحوّلت إلى بوقٍ لأصوات الحيوانات الخفيّة؛ التي تمرق كالخيالات، مال بتردّدٍ نحوي، علّق ناظريه على عنقي، خفت، تراجعت، لاحظ، تراجع، تكسّرت تحته الحشائش المتيبّسة، غصَّ، تهدّجت نظرته الرّائقة، تحوّلت إلى أخرى جارفة، أشبه بالاقتلاع، وتدفّق صوته:

«هذي الفراشة الحلوة، اشتراها فتىً اسمه يامن، في يومٍ من الأيّام لحبيبته نسمة»

تطلّب إدراكي لما سمعت، دقيقةً أو أكثر، حدّقت إليه مبهوتةً، تصنّمت، وكأنّي مقيّدةٌ بزردٍ حديديٍّ، إلى أن تدفّق صوتي الدّاخليّ، كنافورة ماءٍ:

- مستحيل!!

- ....

- هذا لا يصدّق، أنت!!

- ....

- تقصدُ البنت التي ذبحت؟!، أليس كذلك؟!، التي أشيع أنّها تقمّصت جسدي!

- سحبَ منّي عينيهِ الغائمتينِ؛ كمن يستردُّ من اللَّحمِ، خِنجراً ساخناً، بمنتهى الهدوء والألم، أشعلَ سيجارةً، وارتدَّ خطفاً إلى الخلف، هزَّ رأسه ببطءٍ، مراراً، ثمَّ أردفَ ساهماً:

- صحيح

- ولكن...، أنا...، أنا لم أكنها أصلاً، صدّقني، كانت كذبة طفلةٍ؛ لتصطاد اهتمام النّاس

- أعرف، أعرف، أعرف

- كيف!، الآن!!، طيّب... لماذا؟!، يعني...

- سننجو، وسنتحدّث طويلاً

- لن أنتظر، مطلقاً، احك!، أقلّه أفهم

- ماذا أقول؟!، لا شيء عندي سوى ما سمعت

- لحظة واحدة!!، دعني أستوعب، أهديتني التّعليقة، فعلقت في ذهني، لكنّي لم أتذكّرك بملامح فتىً صغير!!

- هنالك خشخشةٌ مريبةٌ، أرجوك دعينا نحتمي في المخبأ

سرنا في طريقٍ، رفيعٍ، من ضوء القدّاحة، كان الوهن؛ قد طوّح بي، واستحال كلامي خليطاً، غير متجانسٍ، من الأسئلةِ واليقين، لم يردّ عليّ بحرفٍ، دخلنا في

الجحر، كقنفذين، لم يغلق الصّفيحة الصّخرية؛ لكيلا يثير فيَّ ريبةً، لم يكن يعلم أيّ أمانٍ، منحني إيّاه، ذلك القرب، أشعل بعض العيدان اليابسات؛ فجهجهت وردة النّار، غمرت عظمي بالدّفء، والضّوء، وألقت على شبحيّته حمرتها، وراح وجوده؛ يتذبذبُ بين مادّيته المظلمة، وبين لبّه الأحمر، الأحمر العجيب، المتنافر، المعقّد، العتيق، الأحمر الإنسانيّ المخيف.

استلقيت سريعاً، انكببت على فجيعتي، أجلت كلامه في ذهني، تمنّيت لو أختفي؛ فلجأت إلى الطّريقة القديمة، ذاتها، أغمضت عينيّ.

وهناك؛ في طبقةٍ ما، من ظلامي الخاصّ، استعدت هويّتي الطّبيّة؛ فوجدتني أشحذُ نظريّات التّحليل النّفسي، توصّلت إلى أنَّ عثوره عليّ، لم يتعدَّ كونه حيلةً، لاشعوريّةً، للتغلبِ على عقدةِ الذّنب؛ فاللّاشعور يتفرَّدُ بخاصّيّةٍ عجيبةٍ، إذ يتغافل عن أوجهِ الاختلافِ، ويتمسَّكُ بأوجهِ الشَّبهِ، مهما كانت واهيةً؛ فينقل القيمة الوجدانيّة، من فكرةٍ إلى أُخرى، بخفَّةٍ وذكاءٍ، هذهِ الأُمور لا تحدثُ تحت رقابتنا، وإنّما في الخفاءِ؛ لذلكَ لا يمكننا التحكُّمُ فيها، تماماً كما حدثَ لي، حينَ بنيت من هيئته، شكلَ المؤنسِ والشَّغوف؛ فاستحال الخلفيَّة الدَّافئة، والسّاطعة، لصورِ الماضي القاسي، وكانَ الطَّيفُ، بالتالي، شكلاً من أشكالِ، تدافعِ الرَّغبات الكامنة، وإلحاحها على الظُّهورِ والتعبيرِ، ولربّما كان ذاك الدّفءُ الحميميّ؛ الذي أحاطني به، من جنس **«هفوات الوظائفِ العقليّة»**؛ تلك التي لا نستطيعُ، مهما فعلنا، فكاكاً منها.

وبعد وقتٍ عسيرٍ؛ من السّهاد، استيقظت فيّ، البنت الفلّاحةُ، التي تصدّقُ النّاس، أكثر ممّا تصدّق الحقيقة، وصاحت في صدري، كان صوتها؛ طبقةً ثانيةً، من النّار الحمراء:

«يا إلهي، هل هذه هي الحقيقة أو الكذبة؟!، مَنْ مِنَ البنتينِ أنا؟!، وهل ثمّة فرقٌ كبيرٌ بينهما؟!، هل المسافةُ بينَ الولادةِ والموت؛ هي أعمارنا حقّاً؟!، وإن كان الموت هو نهاية كلّ شيءٍ؛ فلماذا أتذكّر تلك البنت؟!، هل كنتها بالفعل؟!، وهل كانَ

من الممكنِ أن أكونَ أيَّ أحدٍ آخر؟!، إن لم أكنها؛ فلماذا أحمل ذاكرتها؟!، وجه حبيبها؟!، أليست ذكرياتنا نحن... أكثر منّا؟!»

أوّل الفجر؛ كانت يده توقظني برفقٍ، انتفضت على صوت رشقات رصاصٍ، خلعت العقد عن عنقي، وكأنّي بيّتُّ الأمر، طوال اللّيل، ألقيت، أمامه، بفراشة الفضّة؛ فخيَّمَ الصَّمت، وابتلعتنا الوحشة، غمغمت بلهجةٍ حاسمةٍ:

«وهكذا يعودُ كل شيءٍ إلى صاحبه»

هصرها في قبضته، قاومت عينيهِ الواغلتينِ فيَّ، سمعت نداءاتٍ بعيدةً، وإطلاق نارٍ، شدَّ على معصمي، وغمغم:

«وجدونا، سأتسلّل بعيداً، وأسلّمهم نفسي، أنت، أمانتي، لديك»

انتفضت هلعاً، واعتصرت صرخةً مكتومةً بين يديّ، إحساسٌ فظيعٌ، شرعَ يتلوَّى داخلي، بدوت أشبهَ بشجرةٍ مقطوعةٍ، تترنَّحُ في الهواءِ، تتحدَّى جاذبيّة الأرضِ بعظمةٍ، وبإفلاسٍ تقاومُها، علَّها تكسِبُ وقتاً، قبلَ السُّقوط، هبَّ دانياً، هتف بغضبٍ:

«اهدئي»

ثمَّ شيَّعني بكلمةٍ مفاجئةٍ، وقطعيّةٍ، عانقني خطفاً، قبل أن أتمكّن من فهم أيّ شيءٍ، أو الإحساس بأيّ شيءٍ، أغلق الفوّهة بالصّفيحة؛ فطوتني عتمة القبر، ناجيت أحمر، لكنّه لم يتبدّ؛ كما لو أنّه قد تحرّر، من شرطِ الوجود، وبصمتٍ فجائعيٍّ، سلّم الخوف مكانه للموت، على طريقة ما جاء في الإلياذة:

«إنَّ الظلام يحل الآن، ومنَ الأفضل أن نستسلم للّيل»

الدّرجة العاشرة

مرويّات باب

«أنت لا تملك اسماً... ربّما لاشيء يملكُ اسماً»

روبرتو خواروث

لغة الخشب

أن تكون باباً جميلاً؛ في بيتٍ لا يسكنه أحدٌ؛ هي نهايةٌ، لا تليق بالشّجر الحالم، لا أذكر كم من النّاس، تتابعوا على هذا المكان، قبل ريتا، لا أذكر متى حوّلتني إلى آلة تسجيلٍ، تحدّث نفسها؛ فأنصت، تشكو؛ فتتغلغل نيران زفراتها، المتألّمات، في خشبي، أتلصّصُ، أتسمّعُ، وأجمّعُ الحكايات من المحادثات الهاتفيّة، ومن ثرثرات الضّيوف، وشكاوى المرضى، ومن دموعها وضحكاتها، لا أعلم كم شلت من أحمالها، لا يهمّني أصلاً، ما يهمّني الآن؛ هو أن أحكي، أن أحكي يعني أن أوجد.

البشر؛ كياناتٌ من المفارقات والمتناقضات، مؤشّرٌ يغلي بالأفكار، والعواطف، والخيالات، لا يمكن أن يهدأ، أو يستقرّ، أمّا ريتّا؛ فضدّان متّحدان، في لحمها معركةٌ طاحنةٌ، ما بين شيطانٍ مطلقٍ، وملاكٍ مطلقٍ؛ فتراها تتقمّص الأوّل، ثمَّ تنتقل فجأةً؛ لتتقمّص الثّاني، إنّها أوضح النّماذج البشريّة، وأبسطها، وأصدقها، إنّها ضحيّة توتّراتٍ داخليّةٍ، كمثل النّاس أجمعهم؛ الذين لا تتجلّى هويّاتهم الحقّة، إلّا في مرايا بعضهم بعضاً، هذا الجنس البهلوان، الجميل، المدمّر، اللّطيف، العنيف؛ الذي، لولاه، لكنت اللّحظة، ساقاً لتاجٍ أخضر، في بريّةٍ ما، فوق تلّةٍ ما، تحت سماءٍ ما، ولأنّها لا تؤمن بالمعجزات؛ فقد مُنحت قوى عجيبة، وحدي شهدت مفاعيلها، هذا ما تفعله الطّبيعةُ، حين تمنح درساً، كانت شغوفاً، بحكاية الجدّة بدريّة، أصرّت على أن تعرف طريقتها بالشّفاء، من مرضٍ نادرٍ، ورثته منها، وقت عشقت محموداً، فهمت كالعارفين، حلّق بقلبها إلى درجة التّطهّر؛ تلك التي لا يعود المرءُ، بعدها، كما كان، لم يكن حبيباً، بقدر ما كان منقذاً، ومخلّصاً، وقبل أن يلحق بها، طائعاً، مسلّماً، استقبلت، من خلالي، امرأةً سوداء، استقبال الأميرات؛ ذاك الذي حدث أمام عينيّ، كان أبعد ما يكون عن تقليديّة العالم، في أن تكون الطّبقة العليا، هي الثّريّة،

والحاكمة، وولّادة الملوك، والأبطال، وأن تكون الفقيرة هي الواهيةُ المسحوقةُ، في البيت؛ الذي كنت بابه، كان هنالك ملكةٌ حكيمةٌ؛ اسمها إيشي، وكادحةٌ مسكينةٌ؛ اسمها ريّتا، وما بينهما من مالٍ، ونداءاتٍ، وأوامر؛ محضُ شكليّاتٍ.

إلّا أنّ الوقت لم يطل؛ حتّى شهدت أوّل حادثةِ قتلٍ، في حياتي؛ ذات عشيّةٍ، وبينما هما جالستان على الشّرفةِ، تتبادلان الأسرار، والأحاديث، ارتعدت ريتا، انتفضت، كما لو أنَّ مسّاً أصابها، حدّقت إلى جليستها، بعينين جاحظتين، ولقد فهمت من اصفرارها، وانخطافها الطّويل؛ أنّها قد رأت، من خلالِ حاسّتها العجيبة، حكايةً حمراء، قديمة، تناهضت بغلٍّ، شرعت تهاجمُ المرأة السّوداء، وتتّهمها بقتل كلبٍ ما، وتحذّرها من الإنكار، لكونها شاهدتها بأمّ عينها، ذُعرت إيشي، وانخرطت بالبكاء، لم تنكر، ولم تسوّغ فعلتها، نزعت القبّعة عن رأسها، هصرتها بين ذراعيها، ثمَّ نظرت في عيني محدّثتها، بأسىً، وغمغمت:

«هذه قبّعة فزّاعة، جلبتها معي لتذكّرني؛ بأنَّ هنالك، دائماً، عدوّاً جديداً، لكن يبدو أنّها، ولفرط ما ذكّرتني، قد حوّلتني إلى فزّاعةٍ، بلا أحاسيس، بلا كرامة، كنت أعلم أنّك عدوّي القادم، ولطالما رحّبت بذلك؛ لأنّني أحببتك، تماماً كما يمكنُ لوالدةٍ أن تحبَّ ابنتها، أتدركين ما الذي يفعله الحبّ؟!، أتدركين؟!»

جنَّ جنون ريتا، وتشنّجت أطرافها، وجعلت تصول، وتجول، وتشتم، صرخت في وجهها:

- كاذبة، كاااذبة
- صدّقيني أنّ...
- كاذبة، وقاتلة، و...
- كيف عرفت؟!، ولماذا بعد كلّ هذه السّنين؟!، لماذا الآن؟!
- اتّهمت أمّي، واقتنعت بأنّك الضّحية، ألم تعلمي، يا هذه، أيّ أمانٍ أمدّني به ذلك الحيوان، المسكين، كان ملاذي أيّتها السّاقطة، ومعطف قلبي.

- السّاقطة؟!

- أيّ وحشيّةٍ تخفين!!

- أصابع أمّك على وجهي، ركلتها على ساقي، سوطها على قلبي، طعنته؛ لكيلا أطعنها أو أطعن نفسي، لم أقصد، صدّقيني؛ لكنّه ثار في وجهي، لحظة خالفت أوامرها، ودخلت المطبخ ليلاً، كنت جائعةً، لأنّها عاقبتني، يومذاك، بحرماني الطّعام، لم أستطع إسكاته، تخيّلته يوقظها؛ فانتابني غلٌّ أعجزُ عن تفسيره، الوحوش أولاد الظّلم، أولاد الجوع، أنت تجيدين إخفاء وحوشك، أمّا أنا...

- يكفي، لا أريد سماع صوتك، لاااا...، سمااا

كانت نوبةُ الغضب؛ التي انتابت سيّدتي، أكبر بكثيرٍ من حجم الذكرى، المباغتة، وإنّي لأعجب كيف تجرّأت وفعلتها، دفعتها إلى الأسفل؛ فسقطت، وماتت، ببساطةٍ، وبسرعةٍ، فهمت ذلك حينما عادت من الحديقة بجثّتها، ركلتني برجلها، ثمَّ قفلتني بعنفٍ، وأجرت، بعدها، اتّصالاً سريعاً:

«ألو سيدة جيفن!!، أنا في حاجةٍ إليك، أرجوك، أرجوك»

في منتصف اللّيل؛ زارتنا امرأةٌ، برفقة أربعة رجالٍ، وضعوا الجثّة في صندوقٍ، وخرجوا؛ فيما نامت ريتا، وكأنّ شيئاً لم يكن، وطوال أشهرٍ؛ استولى الكلبُ المذبوح، على تفكيرها، جعلت تلهج به في صحوها ومنامها؛ فقد كانت مدفوعةً لاختلاق المضادّ للخير، المأمول فيها؛ هذا الذي يجعل الشّرّ حكراً على الآخر؛ هذا الذي يمنح السّوء، والكره، والأخطاء، مسحة من النّبالة، هذا الذي يبرّر كلّ شيءٍ، الشّر مُشغّل القصص، والتّشويق، والعدالة؛ لذلك كان لابدّ من إلصاقه بقاتلة الكلب، وصولاً إلى هذا الإحساس المريح؛ الذي يولّده الاقتصاص من سفلة العالم وأشراره.

لم أفهم؛ كيف يفرّط البشر بقلوبهم، بتلك البساطة!، ولن أفهم على الإطلاق كيف يفكّرون، صرت أرى جيفن عندنا كثيراً؛ وكأنّها تطالب بسداد الدّين، كنت

أراقب مجاراة سيّدتي لها، ثمّ أتملّى حالة الهيستيريا؛ التي تصيبها بعد مغادرة الضيفة، من صراخٍ، وتكسيرٍ للأطباق، وسرعان ما أدركت أنّها كانت تصارع شيئاً ما؛ فوظيفة العقول التي مُنحت للبشر، على ما يبدو، هي اختلاق الصّراعات، والمعارك، باستمرار، وبلا توقّف.

قبل ظهور محمود عندنا، أرسل صاحبه مستطلعاً، طرقَ يامن ظهري بلطفٍ، ودخل منتحلاً هيئة المريض، وأحسب أنّه خرج بانطباعٍ جميلٍ، عن سيّدتي الممثّلة البارعة، أمّا هي فقد جمدت أمامه؛ إذ تدفّقت المشاهد من حياته الماضية، وترقرقت في ناظريها، ورأت، فيما رأته، صديقتها ماويّة؛ تلك التي كانت تصارع، على الضّفة الأخرى للعالم، سحراً قد مسّها، هذا ما حدّثت نفسها به أمام المرآة، بعد ذهابه، وقبل أن تهاتفها، وتطلب منها وصفاً، دقيقاً، للشّبح الذي يطاردها.

اكتسبت ريتا وزناً زائداً، وشرع مظهرها بالتّبدّل، غير أنَّ البريق، في عيني، محمود لم يخفت، كلّما نظر إليها، حتّى أنّني سمعتها تتساءل؛ وهي تستعرضُ ترهّلاتها أمام المرايا، أكان محمود قد لاحظها؛ ذاك الذي لم يصرّح، مرّةً، بافتقادها رشاقتها، قبل زفافهما بأيّامٍ؛ أقنعت يامناً بالسّفر إلى سورية، بحجّةِ تهديدٍ لآثارٍ غير مكتشفةٍ، وأنا الباب الخشب؛ الذي عرفته من السّهرات؛ التي لفلفت أحاديثهم الطّويلة، برفقة أصدقائهم، أحسب أنّه قد فعل لسببٍ آخر، كالتقاط صورةٍ لامرأةٍ مثلاً، تماماً كما أحسبُ أنَّ قرارها بالاعتراف لمحمود، كان من منطلق اختباره؛ حيث غامرت، وفضحت جريمتها، وملكاتها السّريّة أيضاً؛ حدّثته عن السيّدة الغامضة؛ التي بدأت بابتزازها، وعن النّيّات في تهويد الأسماء، والأماكن، والذّكريات، حدّثته عن قلقها، وحزنها، وشعورها بالذّنب، وتحدّثت طويلاً جداً عن ذلك الـ «كفاح»، بعد ذلك، تهاوى محمود ذاهلاً، اقتعدَ كرسيّاً قريباً، أطرقَ بوجهٍ ممتقعٍ، ولربّما تمنّى تسريعَ الزّمن، أو اختصار المشهد، لم يتمكّن من النّطق، شعرت بخيبته، وشعرت بندمها، وبتشنّجِ أطرافها، بعدَ دقيقةٍ قطّبَ جبينه المحمرّ، وغمغم دامعاً، مرتجفاً:

«قتلت؟!، أنت؟!، أنت يا ريتا؟!»

لم تجبه، دسّت سيجارتين في فمها، وأشعلتهما معاً، نفثَت سحابةً كثيفةً من الدُّخانِ، كأنّما لتتخلَّصَ من كلِّ الزَّفرات الحبيسات، التفَتت إليه مجدَّداً؛ فتغلغلت نظرات أحدهما في الآخر، ارتعشت السّيجارتان، المتوهّجتان، بينَ أصابعهِا، ثمَّ تساقطتا، أجابت مع طيفِ ابتسامةٍ:

- لن نتزوّج صحيح؟!

- لا أستطيع التّصديق، أكاد أجنّ

- أحببتك، لكن العالم قذر، وراعب، وسافل، ولا يحتمل وجودنا معاً، أتحتمل أنت؟!

- قتلتها حقّاً يا ريتا؟!، نزفت؟!، وماتت؟!

- هل يوجد حريّة حقّاً يا محمود؟!

- قتلتها؟!

- لا أحد طليق، كلّنا مسجونون، الفردانيّة ممنوعة، كلّنا منقادون بطريقةٍ أو بأخرى

- قتلتها؟!

- بالخطأ، صدّقني، أثارت غضبي، دفعتها بلا وعي

- بلاوعي؟!، غضبك؟!، كأيّة حشرةٍ، كأيّ حيوانٍ

- كانت... وحشاً

- وأنقذتك السّيدة؟!، ما الثّمن؟!

- لا ثمن

- تكذبين

- ستتركني، توقّعت هذا، لست أكثر من نسخةٍ عن غيرك!

- هذا كل ما يهمّك؟!، أنا عاجزٌ عن التّصديق!

تناولت السّكين من صحن الفاكهة، بحركةٍ مسرحيّةٍ، رفعته لتطعن نفسها؛ وهي تدمدمُ، بثمالةٍ باديةٍ، قصيدةً لمحمود درويش:

«الوقت صفرٌ، لم أفكّر بالولادة

حين طار الموت بي نحو السّديم

فلم أكن حيّاً ولا ميتاً

ولا عدمٌ هناك ولا وجود»

هبَّ محمود نحوها، قبض على ذراعها، محاولاً تخليصها السّكين، هتفَ، إزاء إصرارها على طعن نفسها:

- ما الذي تفعلينه يا مجنونة؟!، ربّاه ما الذي يجري ها هنااا!!!

- أخلّصك منّي، ألم تلحق بي شفقةً؟!، أم لشبهي بزوجتك؟!

- زوجتي؟! من أخبرك بأمرها؟!

- أنت أيضاً أخفيت سرّك، الشّفقة أشدّ من الموت

- كنت أعرفُ؛ أنّه لا توجد إرادة حرّة، في هذا العالم يا ريتا!، مثلك كنت أعرف

- أنت لصٌّ، تشعرُ بهذا؟! سرقت قلبي، وسترحل!

- وأنت قا..

- أكملها

- ريتا...

- اسكت

- أحببتك بصدقٍ!!، أنت من قتلت، ومن أخفيت، ومن...

- نلت منّي، لترميني عند أوّل اختبارٍ، عبرنا معاً نفق الأديان، والانتماءات، والاختلافات، والعقائد، ونجاسة السياسة، والاصطفافات وها نحن نقف، بعد الاختزال، مجرّد رجلٍ وامرأةٍ

- أنا أتمزّق يا ريتّا، أنا من قُتلت

- رجلٌ صيّادٌ، وامرأةٌ طريدة، الصّورة الأصليّة العارية.

- وكيف نتزوّج!، وكيف أنظر إليك!، أحببتك، ووثقت بنيّاتك، لكن ما لا أثق به؛ هو قدرتك على الفكاك والمجابهة، أنت لا تشعرين بالقوى التي تتنازعك

- وهل أنت حرّ من تلك القوى؟!

- أنت لا تشعرين بالعار

- أفلت يدي

- هاتي السّكين يا مجنونة

- اتركني

- ريتاااا

ازدادت تشنّجاتها حدّةً، وحسمت أمرها في قتل نفسها، ولربّما تلذّذت بتطويق محمود، بذنبٍ لن يزول، وبتحويله إلى قاتلٍ هو الآخر، بدفن جثّتها بين ذراعيه، حاول منعها، ازدادت قوّةً، وإصراراً، وعناداً، لحظة استقرّ السّكين في قلبه هو، فقدت بصري، وقواي، وعواطفي، أنكرت ما رأيت، لم أشأ أن أصدّق، لم أفهم لماذا فعلت ذلك بنفسها!، تألّمت عليها أكثر ممّا تألّمت عليه، ولم يطل الأمر حتّى عدت خشباً مصمتاً خالصاً، وأدركت، وهلةً، ما الذي يمكن أن تعنيه مقولته الغريبة: «هنديّ أحمر»، ظلّت تلهجُ باسمه إلى أن ذاب الاسم أيضاً، وكأنّه لم يوجد من قبل:

«محمود، محموود، محموو، ووو،...»

كان آخر ما تناهى إلى مسمعي، بعد نوبة الهمهمات والهيستيريا:

«ألو جيفن، تعالي، أنا موافقة، موافقة على كلّ ما طلبت»

الدّرجة الحادية عشرة

الحياة الثّانية

«لقد أشكل الإنسان على الإنسان»

أبو حيان التوحيدي

ورَفرَفت الرّاية...

مذ طردوني؛ والزّبالةُ داري، أبعدوني، خشية استيقاظ شيطاني، لم يكن في وسع النّاس؛ الذين اعتادوا احتكار الخير، المصادقة على توبتي، أو مسامحتي، الغفران صعبٌ، وهم منهكون، أمّي هدى أقواهم، وأعلاهم رتبةً، لحقت بي سرّاً، اهتمّت بي، نصحتني، وجعلت توصل مصروفي إليّ، وصلت ليلها بنهارها؛ كيما تخلّصني من نفايات النّاس، ومن شرّ النّاس، ثمَّ اشترت لي، في السّرَ، درّاجةً ناريّة، ودفعتني إلى العمل في توصيل الطّلبات، قالت مرّةً:

«يجب أن تجد ما تعيش لأجله، أفهمتني يا ناصر!!، هدفاً، أو إنساناً، أو فكرةً، لهذا يحلم الناس، ويعشقون، ويعملون، بهذه الطّريقة يا ولدي، تتراصف حصوات الحياة، كما الطّريق»

ويبدو أنّني -ومن دون أن تعترف- قد أصبحت ذلك الشّيء؛ الذي تعيش من أجله، إدراكي هذه الحقيقة؛ نسفني من الدّاخل، غيّرني، وملأني بالرّقة، والرّحمة، والاندفاع إلى الخير؛ فأقبلت على العظائم، والمخاطرات، غير هيّابٍ، بقيت أصلّي، ليمنحني الله فرصةً، لردّ فضلها؛ لهذا لحظة هاتفتني مستنجدةً، نبت لي جناحان، شغّلت درّاجتي النّاريّة، وطرت، وكيف لي أن أتيه في البوادي وأنا ابن الظّلام!، ومن أبرع منّي في فكّ شيفرات القفار!، ليلتها؛ كانت العتمة تركض صوبي، مثل فهدٍ أسود؛ فتنتشرُ منها السّحالي والخفافيش، ضلّلتني قليلاً، غشّت بصيرتي، لكن هدى «أمّي» كانت تنبض في صدري، كما البوصلة، هاجمني ذئبٌ، فقتلته، وسلخت جلده، سلخته ببطءٍ، سلخته تشفّياً، لست أنا «الجديد»، وإنّما البرعم المسموم منّي؛ ذاك الذي كان بحاجةٍ إلى المزيدِ من أسيد الرّحمة والمودّة، خطر لي، عندئذٍ، أنّ الشّيطان الوحيد؛ الموجود على الأرض، ليس أكثر من إنسان؛ لم يجد من يحبّه، ويرحمه، ويعطفُ عليه،

خفت، بعد الفكرة، من النّظر إلى السّماء، فجراً؛ أرشدني إليها الرّصاص، كان أجمل رصاصٍ سمعته، عدت بالدّكتورة ماويّة؛ كمن يرجعُ براية النّصر، «الدّكتورة المجنونة» كما ينعتها بعض النّاس في السّرّ، و«المعجزة» في نظر بعضهم الآخر، ما كادت تعرفني، حتّى ركضت نحوي، بقدمين داميتين، كان لها مرأى الجنّيّات، وهيئة الغرقى، شهقت بأنصاف الكلمات، سألتني عن زوجها، ثارت، وشتمت، وبكت، وصرخت:

«الأوغاد، السّفلة، عليهم اللّعنة، عليهم... اللّعنة، عليهم...، أخذوووه»

اكتفت بسؤالٍ واحدٍ، قبل أن تتهالك مكانها:

«زياد بخير؟!»

طمأنتها، وأخذت بذراعيها، كانت عارية القدمين، ثيابها ممزّقةٌ، أمّا الكدمات، والسّخام، والجروح النّاشفة؛ فتتوازع ما بان من جسمها، شعرها الحرُّ؛ منتثرٌ فوق وجهها بفوضويّة، إحدى أذنيها عارية، والثّانية مزدانةٌ بقرطٍ ذهبيٍّ، وحيدٍ، ناجٍ، فكرت، وهلةً، بمصير الثّاني، شعرت بقرابةٍ ما تجاهه، لحظة أفلت منديلٌ من كمّها؛ جفلَت، التقطته مذهولةً، رفعته، فردته أمام وجهها، كان منديلاً عسليّاً، عتيقاً، منقّطاً بالأبيض، اختلجت أهدابها، ضيّق التّفكّرُ عينيها، حلّقت نظرتها الملتاعة بعيداً، وكما لو أنّها فهمت شيئاً ما؛ ابتلعت غصّتها.

وفي مشهديّةٍ؛ أقرب إلى السّراب، لاحت القرية، بانت البئر، وشجرة البطم الأطلسيّ، والتّهدّجات الصّخريّة، وهالة الشّمس البرتقاليّة، الآيلة للاحمرار، بان تجمُّعُ النّاس، بدا أنّهم بانتظارنا، بمحاذاة البئر؛ شعرت باضطراب ذراعيها، ثمّ بركبتيها تهتزّان؛ لحثّي على التوقف؛ فأذعنت، أفلتت منّي، لم تكن وجهتها جمهور المستقبلين، هرولت نحو البئر، وقفت على حافته؛ كأنّما لتستيقظ، تدلّى رأسها بين كتفيها، وصرخت في فوّهته، صرخت إلى أن تدفّقت الحياةُ في الصّخر العميق، سكنت الرّيح، لتنصت، وردّ الصّدى، في المرّة السّابقة دفعتها، أجل، أجل أنا!، بيديّ الغريبتين، الحاقدتين، ظننتني أنتقم من البشر أجمعهم، آنذاك؛ كان البرعم المسموم؛

قويّاً كمثل مخلبٍ، أمّا في هذه المرّة؛ فقد قبضت على ذراعها، وكأنّها روحي، تشبّثت بها إلى أن هدأت، وكأنّي أزوّر، في دخيلتي، إنساناً آخر، أطيب، وأرقّ، وكأنّني أرتفع، نحو مرتبة أمّي الجديدة، رمقتني بنظرةٍ مخيفةٍ، خرّت بلا حراكٍ، أو تفاعلٍ، نشّفت وجهها، بالمنديل المنقّط؛ فاكتسى لوناً، ولحماً، وتفاصيل، كانت لحظةً شبيهةً بالصّحوة، تلك التي شهقت فيها بعمقٍ، وكأنّها تفيقُ من خدرٍ ما، من حلمٍ ما، هرع الجميع إليها، أمّي هدى، برفقة الأقارب والجيران، تقدّمتهم طفلةٌ لاً أعرفها، حجلت بفستانٍ أبيض، ذي كشكشاتٍ، وقرطٍ فضيٍّ حلو، وحذاء لمّاع، كانت تبدو كالعروس، تلألأت، تحت الضّوء السّاطع، تعثّرت ثمّ قامت، تعثّرت ثمّ قامت، تهادت، نحوها، وقدّامها بالضّبط؛ استقامت كما الشّجرة، عصرت الشّمس بين عينيها، وبدلاً من الارتماء في حضنها، صفعتها بقوّةٍ، تمالكت نفسها، حبَست أنفاسها، ثمَّ نزّت روحها، من فمها الزّهريّ:

«لاااا تخافي... أنا معك»

قالتها بحزمٍ؛ لحظة رفرفت، مثل العَلم، شريطة شعرها... الحمراء.

الدّرجة الثانية عشرة

انسلاخ

«كم يخسر الجمال لو اكتمل!»

إنعام كجه جي

وَرَفرَفَت الفراشة...

حرّروني، وريتّا لم تردّ!

تدخّل العالم من أجلي، ومحمود لم يردّ!

العالم السّافل؛ الذي يأكل أبناءه!

لم يعد هنالك قيمةٌ لأيِّ شيءٍ، لا للموت، ولا للحياة، ولا للتّاريخ، ولا للانتصارات، ولا للهزائم، كان جسمي يحتفل، بنشوةٍ سحريّةٍ؛ لقد اكتفيت من الدّنيا باحتضانها، طيّ ذراعيّ، ما أتعس الإنسان!، يصارعُ اليقين دهراً، وكلّ ما يلزمه؛ ثانيتان من التّماهي، تؤكّدان وجوده، يفجؤه العذاب؛ فينشقُّ عن أعذب ماءٍ، من نبعةِ روحه، أفضيت لها بسرّي، مختصراً بكلمةٍ واحدةٍ، ليس مهمّاً إن سمعَتها، ما يهمُّ أنّي... قلتها.

تركوني، وأعادوا جوّالي، مفرّغاً من الصّور، من هم؟!، بماذا يتاجرون؟!، مع من؟!، ضدّ من؟!، وعلى ماذا يتسابق البشر؟!، وأيُّ شكلٍ من الحروب لم يُخض بعد؟!، الرّجل الذي فعسني في بطني، زمجر متوعّداً:

«إن لم تختف اليوم؛ فسأذبحك غداً»

ألقوا بي، جيفةً، قدّام بيتنا في القرية، لم أتساءل كيف عرفوه!، الأسئلةُ كلّها؛ بدت تافهةً وغبيّةً، هاتفت حسناً؛ فبشّرني بوصول ماويّة، لم أسمع ما قاله بعد اسمها، بيد أنّي فهمت أنّه كان ذاهباً لملاقاتها، برفقة ابنته، لحظة نهرني، بصوته المتهدّج، الملحاح:

«إلى المطار، برحمة أمّك»

قطعت الطّريق على تهوّري، وانسحبت، بدّلت ثيابي، اغتسلت، وبحقيبةِ يدٍ خفيفةٍ، انطوت على جواز السّفر، وبعض المال، والأوراق، خرجت من باب دارنا، هرولت بين الحواكير، حطّ زوجٌ من الحساسين على كتف التّينة؛ فخشخشت أوراقها بالمناغاة، والمغازلات، ولست أفهم كيف تخيّلتهما يبكيان، كورال الشّحارير، خلفهما، أساء الفهم مثلي؛ فتعالت النّغمات الحزينات، وغطّت سماء البساتين، الكامدة، ومراراً، استعدت اللّحظة؛ تلك التي لمحَتني فيها، كيف كتمت صرختها؛ فجحظت عيناها، وتقهقرت إلى الخلف، كيف مسّت يدي مسّاً خفياً؛ فعبرني تيّارٌ من البرق الخفيت، حين ضاءت عيناها، أدركت أنّه عبرها أيضاً، ومراراً، ذرعت الطّريق بخطوي، وتملّيت قريتي نصف المهجورة،

وكأنّي أراها أوّل مرّةٍ، واندهشت، كيف لذاك الشّقاء أن يزهّر، وروداً حمراً، وصفراً، وبيضاً!، وكيف للجدران أن تتحوّل من أحجارٍ متداعياتٍ، يستندُ بعضها إلى بعض، بعجزٍ وخيبةٍ، إلى أعمدةٍ، ترفع الفتنة!، خرجت منها لا كما دخلت، مختلفاً، نظيفاً، وكأنّها خلقتني مرّةً ثانيةً، وكأنّي أتقدّمُ في طريقٍ قدريٍّ، لا رجعة فيه، ما أنبلها تلك الوعورة، القاسية؛ التي تعزّز بطولة الإنسان!، ما أغربه الإنسان!، ما أعقده!، يزلزله تفتّح زهرةٍ، تغيّره نظرةٌ، من السّهل أن يبني بيتاً يسكنه، من الصّعب أن يسمّيه وطناً، ومشيت؛ وكأنّي أتوغّل في طبقات نفسي، وتأمّلت؛ كمن يتعرّفُ إلى عواطفه، ويسبر ذاته، ما أشبه ذلك العالم الخارجيّ الوسيع، بذاك الجوّانيّ العميق، تمشي لتعرف، تنبش لتلمس، وفي الحالين تتبع النّور، ربّما كان هذا السّبب الوقعيّ، الخفيّ، لقدومي، كنت أتقدّمُ علّني أرى وحسبُ، بحواسٍّ عجيبةٍ مشيت، تصدّت لي ريحٌ عاتيةٌ، ثارت بغتةً، راحت تنظّف ذهني، وتكنسُ تشوّشي؛ وسرعان ما بعثرت أمامي صوت ماويّة، ووجهها، وثغرها المرتجف، ومشيتها، ونظرتها، ولمستها، غسلتني، وزوبعت، كالإقلاعات، في قلبي الرّاكد، لحظتئذٍ؛ جرجرت ضعفي، بلذّةٍ، لم أفهمها، أنا الصّلبُ؛ الذي وجد نفسه يتحوّل، دفعةً واحدةً، إلى إنسانٍ.

القريةُ اليتيمةُ، البسيطة؛ التي حملت بالجمال، كموقفٍ وجوديٍّ، زعزعت شيئاً فيّ، ملأتني، على حين غرّةٍ، بالحبّ؛ ذاك الأقرب إلى الحنين؛ والاطمئنان، والهدوء، والانتماء، بدت لي الحياة؛ ليست امتحاناً للإرادة، بقدر ما هي امتحان شعورٍ، ولحظات انكشافٍ، الأقوى يبقى، الأرقّ يرتقي...

يوم أخبرني محمود؛ بنيّته في الانتقال إلى الولايات المتّحدة، أدركت أنَّ في الأمر معجزةً كبيرةً، وسرعان ما تكشّفت، خيوط عشقه، أمامي، كان خائفاً من اللّحاق بريتا، لكن لو لم يفعل، لفقد عقله، وعدته بتقصّي أمرها، زرتها بصفتي مريضاً، ولا أنكرُ كمّ البلبة والضّغوطات؛ التي عانيتها آنذاك، عندما رأيتها خلت زوجته قد غادرت قبرها، بدت لي لطيفةً، فهيمةً، جذّابةً، وبدلاً من أن أحلّلها حلّلتني، بتنويم مغناطيسيٍّ قصيرٍ، اكتشفت جذر حزني، أخبرتني أنَّ هنالك امرأةً، تقيمُ فيَّ، لست أذكرها، لكنّها تديرني، قهقهت، يومئذٍ، كثيراً، خلتها تمزح، إلى أن تلاشت بسمتها، وتبدّلت ملامحها، وبدأت تقصُّ عليّ تفاصيل ذلك اليوم؛ الذي جمعت فيه الورد الأحمر، وتركته على بابها، كيف كتبت جملةً على بطاقةٍ: «لك أنت»، وكيف ابتلّت بدموعي، وكيف أعدت كتابتها، شعرت أنّي أمام مشعوذةٍ؛ إذ

كنت غافلاً عن تأثير ماويّة تماماً، لم تذكر اسمها، لكنّها وصفتها لي بدقّةٍ، وأكّدت في ختام الجلسةِ؛ أنّني أقيم فيها، كما تقيمُ فيَّ، وأنّني سألتقيها ولاشكّ.

وما كاد محمودٌ يصل، بفعلِ العاطفةِ، حتى زاد دنوّي من الثّنائيّ الغريب، شرح لها كيف التقاني في ورشةٍ علميّةٍ، وشرحت له عن إمكانيّة الاستفادة من وظيفتي، في تعزيز أعمالهم النّضاليّة، ومنذ ذلك الوقت؛ استحالت سجّادةُ أحاديثنا الثّلاثيّة، كلّما اجتمعنا، إلى خريطةٍ منسابةٍ من الشّام... إلى القدس... إلى الحبّ.

عرّجت على بيت نسمة، نسمة الصّغيرة؛ التي أضحت خيطاً جميلاً، أوصلني إلى قدري الكبير، قبل وصولي، مررت بامرأةٍ عجوزٍ، جالسةٍ وسط مسكبة النّعنع؛ كانت تمسح دمعها، بطرف منديل رأسها، الهفيف، وترنّحُ رأسها، بنواحٍ مريرٍ، صبّحت عليها بتلويحةٍ؛ فنظرت إليّ، من خلال دمعها، ولم تردّها -كعادة الجيرانِ- بأحسن منها، خلت أنَّ الكدمات والجراح في جسمي قد أرهبتها، لم أتوقّف؛ فالجميع يبكون بلا سبب، والعجائزُ حرّاس الخرائب، يبذرونها بأسماء الأولاد، لعلّها تزهّر بأقدامهم، حاولت التّجديف بقدميّ، غير أنّهما بالغتا في العناد، شدّني حزن المرأة، لا تملك الأحزان الرّائحة ذاتها، استسلمت لخبرةِ حدسي، رجعت إليها، دنوت، سألت:

- ما بك يا خالتي؟!، خير؟!
- لا شيء يا حبيبي، هدّتني مذبحةُ... أولاد حمد
- من حمد؟!
- لست من القرية؟!، امض يا ولدي ولا تجزع
- بلى، بلى من هنا، أيّةُ مذبحةٍ؟!
- وصل الأبناءُ، من غربتهم، للقاء بعضهم، قسّمتهم السّياسة يا حسرتي، تعاركوا، استيقظنا على صوت الرّصاص!
- أصيب أحدهم؟!
- قتيلان، يا ميمتي، في بقعة دمٍ واحدةٍ، من يفصل الآن منها، اختلافات الأوّل عن اختلافات الثّاني؟!، البلد كلّها أضحت بركة دم، الدم يبلعنا

- سامحيني يا خالتي

- على ماذا؟!

- على كلِّ شيءٍ، إن استطعت، على كلِّ شيءٍ

- يهوّنها الرّب يا ولدي!!، احتملنا ما لا يُحتمل!

مضيت، تعثّرت، تخيّلت منظر الدّم، ولونه؛ فتذكّرت ريتا، من فور عودتي، سأرجو محموداً كيما يفكّر مجدّداً، شكوكي تتكاثر حولها، ليست بريئةً، حتماً، من كلّ ما حدث، ولربّما دبّرت ذلك كلّه، سأعتذرُ له عن حسن ظنّي بها، كنت أحسبها براءةً خالصةً، جهودها الإنسانيّة في نصرة المظلومين في العالم؛ لم تكن طفرةً ملائكيّةً؛ وإنّما كانت خبثاً مقطّراً، وإلّا فلماذا لا تردّ!، لماذا تتهرّب؟!، دفعتني إلى المجيء دفعاً، ناصرتني لفضح قبح العالم، ضمّتني إلى منظّمتهم؛ لأحفظ معهم إرث بلادي؛ فإذا بها تتلاعب بي، تتلاعب بنا، أنا، وصديقي العاشق الطّيّب.

بمشقّةٍ؛ وصلت إلى بيت نسمةٍ، وقفت تحت شبّاكها، الموصد، كمثل حكايةٍ مطويّةٍ، فكّرت فيها وضحكت، أغمضَت عينيَّ، قليلاً، كيما تبتلعانِ الغلالة الفائضة؛ ثمّ دفعت الفراشة في شقٍّ، هناك، وكمن يضع وردةً على قبرٍ، بكيت؛ فارتجف اسم ماويّة على شفتيّ، لم أكد أتماسك، حتى أجلت ناظريّ على حيطان الدّار، وبغتةً، اصطدم بصري ببقعة دمٍ، بقعة داكنة، وكبيرة، ووحيدة، انتفضَ قلبي مذعوراً، في تلك اللّحظة السّاطعة، تماماً، سمعت صوت خطواتٍ، دانياتٍ، من الخلف، دكَّ أحدهم فوّهةً باردةً، في قحف رأسي، وصاح:

«آن أوان غسل العار يا.... يااامن»

شعّت في صدري الصّورة الحلم؛ التي لم ألتقطها؛ التي لن ألتقطها، ومن دون تفكيرٍ، هصرت القرط الذّهبيّ بين أصابعي، حتّى توحّد، تماماً، بلحمي؛ ثمَّ بروحي، اكتنزت شهيقاً طويلاً، وبهدوءٍ شديدٍ التفت...

* * *

النّهاية

فهرس

الصفحة

توطئة ٥

الدّرجة الأولى: **ريتا فابينا**........................ ٧

- هنديٌّ أحمر ٩
- الحسناوات والغيلان دمشق ١٨٧٨ .... ١٥
- جناح الباز ٢٢
- المسحوق الأسود ٢٥
- «المزهريّة» ابتداعٌ ذهنيٌّ ٢٧
- ميكانيكا الحلم ٣٢
- مقامات الحزن ٣٩

الدّرجة الثّانية: **ماويّة نجيب الواثق** ٤٥

- زهرةُ الصّبّار ٤٧
- ضلالات أيلول ٥٢
- ملكةُ عرب الصحراء ٥٥

الدّرجة الثّالثة: **حكاية ماويّة** ٦١

- شبحٌ في الشّام ٦٣
- شراب الورد ٦٨
- زهايمر الجماهير ٧١
- عورة «الفرح» ٨٠

الصفحة

- السّعادة... كيف تعمل ؟!. ٨٦
- دارةُ القمر ٩٣
- رائحةُ البحر ٩٧
- المرأة الجَمَل ١٠٠
- قرنفل بلدي ١١٠
- جنديٌّ بسترةٍ ملوّنةٍ ١١٧

الدّرجة الرّابعة: حبال الخلاص «مذكرات» ١٩٧٨-١٩٨٧ .... ١٢١

- على سبيل الاختباء ١٢٣
- بيت عمّتي السّحريُّ ١٢٩
- ذبابٌ أزرقٌ ١٣٤
- فراشة الفضّة ١٤٠
- القُبلة ١٤٢
- توتٌ شاميٌّ ١٤٥
- ملاك ورجل ميّت ١٤٨

الدّرجة الخامسة: تحت سماء باردة ١٥١

- كائنات الحُمم ١٥٣
- زهرة الكاردينال ١٥٥
- مقاصل ١٥٨

الدّرجة السّادسة: أعشاش مهجورة ١٦١

- طريق البارود ١٦٣

- نواطير ١٦٦
- عروس ١٧٠
- تذكار للرِّيح ١٧٣
- سقف ١٧٦
- أطفال للبيع ١٧٨
- كائن غير مرئيّ ١٨٠
- ماكيت الحياة ١٩٢
- اختفاء الرّقيم ١٩٥
- فلفل كاذب... وحلو ١٩٩
- عامٌ أسودُ ٢٠٣
- موشور ٢٠٧
- قوّة سحريّة ٢١١

الدّرجة السّابعة: العالم الآخر **٢١٧**

- الفارسة التنوخية جنوب سوريّة- ربيع عام ٣٧٨م ٢١٩
- ضوء القمر ٢٢٧
- قيامة الرّوح ٢٣٦
- البيت... أمشي ولا أصل إليه ٢٤٢
- نساء في المرايا ٢٤٣
- مصابيحُ الرُّوح ٢٤٧

الدّرجة الثّامنة: عودةُ الرَّجلِ الحجر ٢٤٩
- زعفران الخريف ٢٥١
- أكاي إيتو ٢٥٥
- خيطُ القدر الأحمر ٢٦٥
- أبيض وأسود وناريّ ٢٧١
- غرانيت أحمر ٢٧٤

الدّرجة التّاسعة: طقوسُ التّجلّي ٢٧٩
- صحوة ٢٨١
- العلوّ المجيد ٢٨٧
- مقدّمة في الحبّ ٢٩٥

الدّرجة العاشرة: مرويّات باب ٣٠٩
- لغة الخشب ٣١١

الدّرجة الحادية عشرة: الحياة الثّانية ٣١٩
- ورَفرَفت الرّاية... .... ٣٢١

الدّرجة الثانية عشرة: انسلاخ ٣٢٥
- ورَفرَفت الفراشة ٣٢٧

فهرس ٣٣١

وجدان أبو محمود

- قاصة وروائية سورية.
- تولّد السّويداء / قرية الدور / ١٩٨٤م.
- حاصلة على إجازة في الهندسة الزراعية / جامعة دمشق.
- عضو اتحاد الكتاب العرب / جمعية القصة والرواية.
- رئيسة فرع اتحاد الكتاب العرب في محافظة السويداء منذ عام ٢٠٢١م.

الإصدارات الأدبية:

١- كسارة السكون / قصص، ٢٠٠٥م، دار نور للنشر والتوزيع.
٢- شغب بازلتي / قصص، ٢٠٠٩م، وزارة الثقافة.
٣- قل شيئاً / قصص، ٢٠١٠م، دار النايا للنشر والتوزيع.
٤- سحر الكؤوس الفارغة / قصص، ٢٠١٣م، اتحاد الكتاب العرب.
٥- كرنفال الموت رقصاً / قصص، ٢٠١٨م، وزارة الثقافة.
٦- كتاب مشترك في أدب الطفل / القصص الفائزة بجائزة وزارة الثقافة، ٢٠١٩م.
٧- الحالم الأخير / قصص، وزارة الثقافة ٢٠٢٣م.
٨- نحت / قصص، اتحاد الكتاب العرب.

- بالإضافة للعديد من المقالات العلميّة والأدبية وقصص الأطفال المنشورة في الصحف والمجلات المحلية والعربية.

الجوائز الحاصلة عليها:

- جائزة وزارة الثقافة السُّوريّة الخاصّة بأدب الأطفال «القصة القصيرة» لعام ٢٠١٨م.

- جائزة المركز المتوسّطي للدّراسات في المغرب عن قصّة «امتدادات» ٢٠١٩م.

- جائزة دار ماهي للنشر / مصر – لأفضل قصّة موجّهة للأطفال «تأليف ورسوم، ٢٠١٩م.

- جائزة صلاح هلال الأدبية / دورة الأديب محمد خليل –عن قصّة «دبوس شعر» ٢٠٢٣م.

- جائزة اتحاد الكتاب العرب في القصة الساخرة- عن قصة «بحر بالنعناع» ٢٠٢٣م.

- جائزة حنا مينه لأفضل رواية / وزارة الثقافة السورية عن رواية «فهرست الأحمر» ٢٠٢٣م.

٢٠٢٤م

«مع تلاويح الصّباح كنت أطرقُ بابهم بإصبعي المرتجفة، غير أنّ منزلهم المهجور لم يرأف بشوق يدي. تحدّب كتفاي، وسقط رأسي بينهما، كهلٌ يتداعى، فوق حبٍّ صبيانيّ عتيقٍ. فاحت في صدري رائحةُ الممحاة الورديّة، ويدها المتعرّقة، والجوريّة المقصوصة من كتاب العلوم، وشريط الكاسيت السّريّ، وأسورة الخرز، ورائحة الرّاتنج المنبعث من السّروة التي حفرنا اسمينا عليها. ربّتُّ على حزن البيت، صوّرت حجارته، ونوافذه، وبوّابته الصّدئة، المخلّعة؛ تلك التي تعفّن الزّمن على قضبانها.

أغمضت عينيّ، وأمضيت اشتعالاً كاملاً، بلا حراكٍ. أضاءتني الشّمسُ الغاربة في آخر لقاءٍ بيننا. كان المشمشُ المترنّحُ على الأغصان قد حوّلَ المساء إلى قبّةٍ من قمر الدّين. وكانت أهلّةُ الفليفلة الحمراء تنتأ من خضرة حاكورتهم، حاكورتهم التي ثملت، إذ شربت من دمها، ومن مِسك راحتها، ومن كحلها الخفيف، ومن حمرةِ شفتيها، الشّفيفة، المسكرة».

ISBN 978-9933-0-1694-4

9 789933 016944

www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٤م

سعر النسخة ٥٨٠٠٠ ل.س أو ما يعادلها